علاقات الموحدين

بالممالك النصرانية والدول الاسلامية في الأندلس

د. هشام أبو رميله
جامعة النجاح
نابلس

دار الفرقان

علاقات الموحدين

بالممالك النصرانية والدول الاسلامية في الاندلس

الطبعة الأولى
١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

دار الفرقان
للنشر والتوزيع
عمان / الأردن / جبل الحسين شارع خالد بن الوليد
ص. ب ٩٢١٥٢٦ هـ: ٦٦٠٩٣٧

الطابعـــون
جمعية عمال المطابع التعاونية
هاتف ٣٧٧٧١ - ص. ب ٨٥٧ - عمان - الأردن

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

قامت دولة الموحدين على أساس دعوة دينية إصلاحية، شعارها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهدفها تحقيق خلافة إسلامية شاملة، للعودة بالمسلمين إلى نقاوتهم الأولى، كما كان عليه الحال في عهد الخلفاء الراشدين.. كان محمد بن تومرت مؤسس الدعوة على رأي الأشعرية في تأويل الآيات القرآنية وعلى رأي ابن حزم في الفقه، وعلى رأي الشيعة في العصمة والإمامة، وقد اتخذ التدريس وسيلة لجمع الأنصار والمريدين، كما اتخذ الجدل والمناظرة وسيلة لإقناع الخصوم.. ثم اتخذ القتال وسيلة لتمكين الدعوة وإقامة الدولة، فأباح قتال جميع خصومه إلى أن يعتنقوا مذهبه، وينضووا تحت لوائه.

غاية البحث هو الوقوف على مدى نجاح الموحدين في تحقيق هدفهم، ومعرفة مدى التزامهم بالمبادىء والأفكار التي نادى بها إمامهم محمد بن تومرت، ومدى مطابقتها للواقع، ثم الوقوف على دور الموحدين في صد الزحف النصراني عن الأندلس، وأخيراً معرفة دور الموحدين في تطوير حضارة المغرب والأندلس، لذلك لم يغفل البحث شرح الأحوال والظروف، وتوضيح العوامل والأسباب التي واكبت الموحدين في نجاحهم وتعثرهم على السواء.

يتقدم البحث تمهيد يتناول سقوط دولة المرابطين وقيام دولة الموحدين بالمغرب والأندلس. فعُني بنسب محمد بن تومرت ورحلته العلمية، ودعوته إلى

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وخصومته لفقهاء المالكية ورجال الدولة المرابطية. ثم أولى اهتماماً بأعمال محمد بن تومرت في بلاد السوس، وبالحروب التي نشبت بين الموحدين والمرابطين.. وبجهود الموحدين في بسط سيادتهم على بلاد المغربين الأوسط والأدنى، ثم شرح ثورات الأندلسيين على المرابطين في أواخر دولتهم، وتتبع احتلال الموحدين معظم بلاد الأندلس.

ثم تناول الباب الأول علاقات الموحدين السياسية بابن مردنيش أمير شرقي الأندلس وبالحروب التي نشبت بينهما، فشرح حوادثها وأسبابها وذكر نتائجها، وبيّن العوامل التي دفعت بعض أنصار ابن مردنيش إلى الخروج عليه والخضوع للموحدين.. ثم عُني بعلاقة الموحدين السياسية ببني غانية أُمراء الجزائر الشرقية.. فتعرّض لأصل بني غانية واستبدادهم بالجزائر الشرقية ومهادنتهم للموحدين.. كما ذكر عوامل النزاع بين الموحدين وبني غانية، وشرح الحروب التي نشبت بينهما، وما ترتب عليها من نتائج، ثم عُني بعلاقات الموحدين السياسية بالدول الإسلامية التي قامت بالأندلس في أواخر دولتهم. فذكر أسباب قيام هذه الدول، وبيّن موقفها من الموحدين والعباسيين والحفصيين والنصارى.

وأما الباب الثاني فقد تناول علاقات الموحدين السياسية بالممالك النصرانية الإسبانية، فعني بالغزوات والمعارك التي جرت بين الموحدين وكل مملكة نصرانية على حدة، وبيّن ما ترتب عليها من نتائج.. هذا ولم يغفل البحث خلال ذلك توضيح الأحوال الداخلية للممالك النصرانية، وعلاقة كل منها بالأخرى.. كما عني بدور كل من البابوية والصليبيين الأوروبيين وفرسان الجمعيات الدينية في الحروب الناشبة بين الموحدين والنصارى كما أَولى اهتماماً بموقعتي الأرك والعقاب، فذكر أسبابهما وشرح حوادثهما والنتائج المترتبة عليهما، بعد أن بيّن استعدادات كل من الموحدين والنصارى.

وعالج الباب الثالث العلاقات الحضارية بين المغرب والأندلس والممالك

النصرانية زمن الموحدين. . فعني بالعلاقات الاجتماعية بين المغرب والأندلس ثم بينهما وبين الممالك النصرانية، فتعرض للاحتفالات الرسمية والشعبية وتأثر الموحدين بالأندلسيين ثم الترويح عن النفس، كما عني بألوان الطعام والشراب، وبتطور الأزياء والملابس. ثم عني بالجاليات الدينية وأثرها في نقل بعض العادات الإسلامية إلى الممالك النصرانية، وبيّن أثر المطوعة المسلمين على قيام الفرق الدينية المحاربة عند النصارى وتأثرها بمعنى الجهاد، كما عني باستخدام الموحدين للنصارى، وزواج الخلفاء الموحدين من نساء نصرانيات، واعتناق بعض النصارى الدين الإسلامي.

كما تناول الباب الثالث العلاقات الاقتصادية بين المغرب والأندلس ثم بينهما وبين الممالك النصرانية فعني بعوائق التبادل التجاري بين المغرب والأندلس وأثر الحروب والمجاعات على اقتصاد البلاد، وعني بالمحاصيل الزراعية والمنتجات الصناعية لبلاد المغرب والأندلس والنشاط التجاري بينهما، وبأعمال الموحدين للنهوض باقتصاد البلاد. ثم عني بالمقاطعة التجارية بين النصارى والموحدين، وبقرارات التحريم التي كان يصدرها الخلفاء الموحدون والملوك النصارى والبابوات، وبيّن أثر القرصنة البحرية على التبادل التجاري ودور الموحدين في مقاومتها. . وبالإضافة إلى ذلك فقد تناول هذا الباب العلاقات الفنية بين المغرب والأندلس ثم بينهما وبين الممالك النصرانية، فعني بالتأثيرات الفنية المتبادلة بين المغرب والأندلس زمن الموحدين، وبتطور العمارة الإسلامية والصناعات الفنية. . ثم عني بانتقال فنون الموحدين إلى الممالك النصرانية وأثر المدجنين المسلمين في نشر فنون الموحدين بالممالك النصرانية خاصة فيما يتعلق بالعمارة الإسلامية والصناعات الفنية.

نقد المصادر والمراجع

اعتمد البحث على كثير من المصادر والمراجع العربية والأجنبية، واعتمد على كثير من الأبحاث العلمية، كتبها باحثون متخصصون ونشرت في دوريات علمية مختلفة.

١ ـ فكتاب المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين، يعتبر من أهم وأثمن المصادر التي اعتمد عليها البحث. يعود ذلك إلى أن مؤلف الكتاب عبد الملك بن صاحب الصلاة، كان معاصراً للحوادث التي جرت خلال النصف الأول من عصر الموحدين. بالإضافة إلى أنه كان مقرّباً من الخلفاء الموحدين، ويشغل منصباً هاماً في جهاز الدولة الموحدية، فكان على علم برسومها ودقائق أُمورها.

ويتألف كتاب المن بالإمامة من ثلاثة أسفار، لكن لم يبق منه سوى السفر الثاني، فالسفران الأول والثالث في حكم المفقودين، يبدأ السفر الأول بحوادث سنة ٥٥٤ هـ، وينتهي بحوادث سنة ٥٦٨ هـ. وهذه الفترة رغم قصرها تعتبر هامة جداً، فمعظم حوادثها لا توجد وافية مفصلة في مصدر آخر. كما كان المؤلف ـ بالإضافة إلى هذا ـ يستطرد في الحديث وينتقل من موضوع إلى آخر بأسلوب أدبي منمق، مما جعله يتخطى السنة التي يؤرخ لها، فذكر أخباراً هامة جداً تعود مثلاً إلى سنة واحد وتسعين وخمسمائة.

وقد اعتمد البحث على هذا الكتاب في دراسة الفصل الخاص بعلاقة الموحدين السياسية بابن مردنيش أمير شرقي الأندلس. فقد استوفى الكتاب معظم حوادث هذا الفصل بإسهاب مفصّل. كما أفاد في دراسة بعض جوانب علاقات الموحدين السياسية بالممالك النصرانية، فقد احتوى على معلومات هامة لا توجد في غيره من المصادر. وأفاد كذلك في دراسة بعض جوانب العلاقات الحضارية بين المغرب والأندلس خاصة فيما يتعلق بالنواحي العلمية والاجتماعية والفنية.

٢ ـ وكتاب البيان المغرب في أخبار المغرب والأندلس من أنفس المصادر التي اعتمد عليها البحث. فمؤلف الكتاب أبو العباس أحمد بن محمد كان حياً في سنة ٧١٣ هـ/١٣١٣ م أي أنه عاصر أواخر الدولة الموحدية إلى حد ما. بالإضافة إلى هذا كان يعتمد في تدوين كتابه على مصادر معاصرة للموحدين، كمؤلفات ابن صاحب الصلاة مثلاً. كما أنه يتميز بإسناد الروايات أحياناً، ويعلق على بعض الحوادث ويبدي رأيه أحياناً أُخرى.

وقد أفاد الجزء الرابع من كتاب البيان المغرب في دراسة الفصل الخاص بسقوط دولة المرابطين وقيام دولة الموحدين بالمغرب. فقد فصل كثيراً من الحروب التي نشبت بين المرابطين والموحدين. هذا الجزء حققه إحسان عباس ونشر في بيروت سنة ١٩٦٧ م. وهناك قسم آخر من البيان المغرب اكتشف حديثاً يعرف بالقسم الثالث، حققه ونشره المستشرق الإسباني أمبروثو هويش ميرندا في تطوان سنة ١٩٦٠، بالاشتراك مع محمد بن تاويت ومحمد بن ابراهيم الكتاني. وقد أفاد هذا القسم في دراسة علاقات الموحدين السياسية بالممالك النصرانية وبالدول الإسلامية بالأندلس. فهو يحتوي على معلومات وفيرة مفصلة في هذا الموضوع. كما أفاد في دراسة العلاقات الحضارية بين المغرب والأندلس خاصة فيما يتعلق بالنواحي العلمية والاجتماعية.

٣ ـ وكتاب المعجب في تلخيص أخبار المغرب من أنفس المصادر التي

اعتمد عليها البحث. فصاحب الكتاب محيي الدين أبو محمد عبد الواحد التميمي المراكشي ولد في العاصمة الموحدية سنة ٥٨١ هـ، أي في بداية عهد الخليفة يعقوب المنصور، ثم تلقّى علومه في بلاد المغرب والأندلس، وعمل كاتباً لبعض الولاة من أبناء الخليفة عبد المؤمن، فكان على علم بدقائق أمور الدولة. بالإضافة إلى هذا فإن المراكشي كتب مؤلفه في الربع الأول من القرن السابع الهجري في مدينة بغداد بعيداً عن نفوذ الموحدين ومجاملتهم، فتميزت روايته بالموضوعية وإبداء الرأي والتعليق. وقد أفاد الكتاب في دراسة مواضيع متعددة، سواء فيما يتعلق بسقوط دولة المرابطين وقيام دولة الموحدين بالمغرب، أو بالعلاقات الحضارية بين المغرب والأندلس والممالك النصرانية. فالمؤلف يسهب في بعض المواضيع ويوجز في مواضيع أُخرى.

٤ ـ وكتاب الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، من أهم المصادر التي اعتمد عليها البحث. فمُصنف الكتاب هو أبو الحسن علي بن عبد الله أبي زرع، توفي في النصف الأول من القرن الثامن الهجري، أي أنه كان قريباً من عصر الموحدين، علاوة على أنه ألّف كتابه خلال الربع الأول من القرن الثامن الهجري في عصر الدولة المرينية القائمة على أنقاض الدولة الموحدية. وقد سار ابن أبي زرع في تأليف كتابه على طريقة الحوليات أحياناً، وعدم الالتزام بها أحياناً أُخرى، واعتمد البحث على النسخة التي حققها المستشرق كارل يومن نورنبرغ في أوبساله سنة ١٨٤٣ م. وقد أفاد الكتاب في دراسة بعض جوانب سقوط دولة المرابطين وقيام دولة الموحدين بالمغرب كما أفاد في دراسة ثورات الأندلسيين على المرابطين في أواخر دولتهم، واحتلال الموحدين معظم بلاد الأندلس، وفي دراسة علاقات الموحدين السياسية بالممالك النصرانية. فقد تضمن معلومات وفيرة عن الغزوات والمعارك، التي لا يوجد بعضها في غيره من المصادر. وهناك فائدة أخرى، فالمحقق اقتبس نصوصاً من مصادر عربية أصلية، يتعلق

بعضها بالموحدين فوضعها في آخر الكتاب.

٥ ـ ويعتبر كتاب أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين من المصادر الأساسية التي اعتمد عليها البحث. فمؤلف الكتاب هو أبو بكر الصنهاجي الملقب بالبيذق، أحد تلاميذ محمد بن تومرت الذي عاصر الأحداث وشارك في بعضها. كما يبدو من بعض الأخبار أنه كان حياً في عهد الخليفة أبي يعقوب يوسف. فحقق الكتاب ليفي بروفنسال ونشره سنة ١٩٢٨ م. ثم حققه عبد الوهاب بن منصور، ونشره في الرباط سنة ١٩٧١ م. وعنوان الكتاب يدل على مضمونه ولذلك أفاد في تتبع دعوة محمد بن تومرت، وفي تتبع الحروب التي نشبت بين المرابطين والموحدين بالمغرب، من بدايتها إلى نهايتها.

٦ ـ وكتاب نظم الجمان في أخبار الزمان من المصادر الهامة التي اعتمد عليها البحث فمؤلفه أبو الحسن علي بن محمد الكناني الفاسي الشهير بابن القطان. كان أحد كتّاب الخلافة الموحدية، ومعاصراً للخليفة المرتضي الموحدي. ويبدو من كتابه أنه من أنصار الموحدين وأشياع دعوتهم. هذا ولم يبق من الكتاب سوى السفر الثالث عشر الذي قام بتحقيقه محمود علي مكي. ويبدأ السفر بحوادث سنة ٥٠٨ هـ وينتهي بحوادث سنة ٥٣٣ هـ. وقد أفاد في دراسة بعض أحوال المرابطين في أواخر دولتهم، وفي دراسة بعض جوانب دعوة محمد بن تومرت، وبعض معارك الموحدين ضد المرابطين، هذا وحواشي الكتاب تحتوي على معلومات وفيرة هامة بقلم المحقق.

٧ ـ وكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، من أهم المصادر التي اعتمد عليها البحث. فمؤلفه ابن خلدون أبو زيد عبد الرحمن بن محمد، وهو غني عن البيان والتعريف. وقد اعتمد البحث على طبعة جديدة عن طبعة بولاق سنة ١٣٨٤ هـ، تقع في سبعة أجزاء شاملة المقدمة المشهورة بمقدمة ابن خلدون.

والإفادة من هذا الكتاب عديدة متنوعة شاملة. فقد أفاد في دراسة بعض أجزاء سقوط دولة المرابطين وقيام دولة الموحدين بالمغرب والأندلس خاصة فيما يتعلق بدعوة محمد بن تومرت واحتلال الموحدين معظم بلاد الأندلس. كما أفاد في دراسة علاقات الموحدين السياسية بالممالك النصرانية وبالدول الإسلامية بالأندلس وفي دراسة بعض جوانب العلاقات الحضارية بين المغرب والأندلس، وبخاصة فيما يتعلق بالعلاقات الاجتماعية والفنية.

٨ ـ وكتاب أعمال الإعلام فيمن بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام من أهم المصادر التي اعتمد عليها البحث، فمؤلف الكتاب ذو الوزارتين لسان الدين بن الخطيب محمد بن عبد الله السلماني، وهو غني عن البيان والتعريف كابن خلدون. وقد اعتمد البحث على القسمين الثاني والثالث من الكتاب. حقق القسم الأول المستشرق ليفي بروفنسال، طبعه ببيروت سنة ١٩٥٦ م، وحقق القسم الثالث أحمد مختار العباوي بالاشتراك مع محمد ابراهيم الكناني، ونشره بعنوان «تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط». طبعة الدار البيضاء سنة ١٩٦٤ م.

وقد أفاد الكتاب بقسميه في دراسة ثورات الأندلسيين على المرابطين في أواخر دولتهم واحتلال الموحدين معظم بلاد الأندلس، وفي دراسة علاقة الموحدين السياسية بابن مردنيش أمير شرقي الأندلس، وفي دراسة علاقة الموحدين السياسية بالدول الإسلامية التي قامت بالأندلس في أواخر دولتهم، كما تضمن الكتاب بعض الرسائل الرسمية. وهو هام جداً رغم الإيجاز في معظم المواضيع، فبعض معلوماته لا توجد في غيره من المصادر.

٩ ـ وكتاب الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى من أهم المصادر التي اعتمد عليها البحث. صنّفه الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، ثم قام جعفر الناصري ومحمد الناصري بتحقيقه ونشره في سبعة أجزاء بالدار البيضاء سنة ١٩٥٤ م. وتعود أهمية الكتاب إلى أن المؤلف اعتمد في تدوينه

على مصادر أصلية يعود بعضها إلى عصر الموحدين. والمؤلف بالإضافة إلى ذلك يذكر أكثر من رواية في بعض الأحيان، فيقتبس النص كما هو ويسنده إلى مصدره، ويقوم أحياناً بالتعليق وإبداء الرأي. وقد أفاد الجزء الثاني من الكتاب في دراسة معظم أبواب وفصول البحث فأفاد في دراسة سقوط دولة المرابطين وقيام دولة الموحدين بالمغرب والأندلس فقد تضمن معلومات وافية مفصلة عن دعوة محمد بن تومرت وقتال الموحدين للمرابطين وثورات الأندلسيين على المرابطين، واحتلال الموحدين معظم بلاد الأندلس، واحتلالهم المغربين الأدنى والأوسط. كما أفاد في دراسة علاقات الموحدين السياسية ببني غانية أمراء الجزائر الشرقية، وبالدول الإسلامية التي قامت بالأندلس في أواخر دولتهم. وفي دراسة علاقات الموحدين السياسية بالممالك النصرانية.

١٠ ـ كما عني البحث بكتب التراجم فأفاد منها الشيء الكثير. ويأتي كتاب الحلة السيراء في مقدمة كتب التراجم التي اعتمد عليها البحث. فمؤلف الكتاب أبو عبد الله محمد القضاعي المعروف بابن الآبار، توفي سنة ٦٥٨ هـ/ ١٣٦٠ م، أي أنه عاصر الدولة الموحدية، وعمل كاتباً للسيد أبي زيد والي بلنسية الموحدي وهو في الحقيقة غني عن البيان والتعريف وقد حقق الكتاب حسين مؤنس، ونشره في جزءين سنة ١٩٦٣ م. وأفاد الكتاب وأفادت حواشيه الوفيرة الهامة بقلم المحقق، في دراسة ثورات الأندلسيين على المرابطين في أواخر دولتهم. فقد تضمن معلومات مفصلة مسهبة في هذا الموضوع، لا يوجد بعضها في غيره من المصادر. ثم أفاد في دراسة بعض جوانب علاقات الموحدين السياسية بالممالك النصرانية وبالدول الإسلامية بالأندلس، وفي دراسة بعض جوانب العلاقات الحضارية وبخاصة فيما يتعلق بالناحيتين العلمية والاجتماعية.

١١ ـ وكتاب التكملة لكتاب الصلة من أهم كتب التراجم التي اعتمد عليها البحث، فمؤلفه هو ابن الآبار السالف الذكر صاحب كتاب الحلة

السيراء. وقد حقق المستشرق كوديرا كتاب التكملة ونشره في جزءين بمدريد سنة ١٨٨٧ م، ثم أُعيد طبعه بالقاهرة سنة ١٩٥٦ م ضمن مجموعة المكتبة الأندلسية. وأفاد الكتاب في دراسة العلاقات الحضارية بين المغرب والأندلس، وبخاصة فيما يتعلق بالعلوم الدينية والأدبية واللغوية، وتشجيع الخلفاء الموحدين للعلماء واستدعائهم.

١٢ ـ وكتاب عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المئة السابعة ببجاية من أهم كتب التراجم التي اعتمد عليها البحث. فمؤلفه الشيخ أبو العباس أحمد بن محمد الغبريني المتوفي في سنة ٧١٤ هـ/١٣١٥ م، أي أنه عاصر أواخر الدولة الموحدية. حقق الكتاب محمد بن أبي شنب وطبعه بالجزائر سنة ١٣٣٣ هـ. وقد أفاد في دراسة بعض جوانب العلاقات الحضارية بين المغرب والأندلس، وبخاصة فيما يتعلق بالعلوم الدينية والأدبية واللغوية والفلسفية. كما أفاد في دراسة بعض جوانب علاقة الموحدين السياسية ببني غانية أُمراء الجزائر الشرقية. فقد تضمن أخباراً لا توجد في غيره من المصادر.

١٣ ـ وكتاب الإحاطة في أَخبار غرناطة من أهم كتب التراجم التي اعتمد عليها البحث. أَلّفه الوزير الأديب لسان الدين بن الخطيب محمد بن عبد الله السلماني وقد حقق محمد بن عبد الله عنان بعض أقسام الكتاب، ونشره بالقاهرة سنة ١٩٥٦ م، ثم أعاد تحقيقه ونشره في أربعة أَجزاء سنة ١٩٧٣ م. وأفاد الكتاب في دراسة علاقة الموحدين السياسية بابن مردنيش أمير شرقي الأندلس، فقد تضمن أخباراً لا توجد في غيره من المصادر. ثم أفاد في دراسة بعض جوانب العلاقات الحضارية، وبخاصة فيما يتعلق بالنواحي العلمية والاجتماعية والفنية.

١٤ ـ وعني البحث بالكتب الجغرافية، فاعتمد عليها وأفاد منها الشيء الكثير وبخاصة كتاب وصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس الذي قام بنشره وطبعه دوزي ودي غوي في ليدن سنة ١٨٦٦ م. وهو مستخرج من

كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للشريف الإدريسي محمد بن عبد الله المتوفي نحو منتصف القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي. وقد أفاد في دراسة المحاصيل الزراعية والمنتوجات الصناعية ونشاط التبادل التجاري في كل من بلاد المغرب والأندلس.

١٥ ـ وكتاب الروض المعطار في خبر الأفاق من أهم الكتب الجغرافية التي اعتمد عليها البحث وأفاد منها. ألّف الكتاب أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم الحميري في سنة ٨٦٦ هـ، معتمداً على مصادر أصلية تعود إلى عصر الموحدين أو قريبة من عصرهم وقام ليفي بروفنسال بنشر الكتاب سنة ١٩٣٧ م بالقاهرة. وقد أفاد الكتاب في دراسة المحاصيل الزراعية والمنتوجات الصناعية والنشاط التجاري لبلاد الأندلس. كما أفاد في دراسة بعض جوانب علاقات الموحدين السياسية بالممالك النصرانية، وفي علاقتهم بالدول الإسلامية التي قامت بالأندلس في أواخر دولتهم. فقد تضمن أخباراً هامة لا توجد في غيره من المصادر.

١٦ ـ كما عني البحث بالمراجع العربية. فأفاد منها الشيء الكثير. فكتاب دولة الإسلام في الأندلس الذي ألّفه محمد عبد الله عنان يأتي في مقدمة هذه المراجع. فقد تناول تاريخ المغرب والأندلس من الفتح إلى سقوط غرناطة. ويتميز الكتاب بوفرة المعلومات وكثرة الروايات والتعليق عليها، فقد اعتمد على مخطوطات ومصادر عربية ومراجع أجنبية في أكثر من لغة. غير أن الكتاب يشبع فيه الأسلوب الخطابي الحماسي، كما يبرز المؤلف أحاسيسه ومشاعره بين السطور، ولا يزين المتون بالنصوص إلا في القليل النادر، وأحياناً لا يسند المعلومات إلى مصادرها بالحاشية.

والقسم الثالث من الكتاب يتناول تاريخ المرابطين والموحدين. وقد أفاد في دراسة سقوط دولة المرابطين وقيام دولة الموحدين بالمغرب والأندلس، وتضمن معلومات وفيرة مفصلة عن دعوة محمد بن تومرت، والحروب التي نشبت بين

المرابطين. والموحدين، وثورات الأندلسيين على المرابطين، واحتلال الموحدين معظم بلاد الأندلس. كما أفاد في دراسة علاقات الموحدين السياسية بالممالك النصرانية والدول الإسلامية بالأندلس. واهتم الكتاب أيضاً بالغزوات والمعارك التي جرت بين الموحدين وكل من ابن مردنيش أمير شرقي الأندلس، وبني غانية أمراء الجزائر الشرقية، والممالك النصرانية الإسبانية.

١٧ ـ وكتاب الإسلام في إسبانيا تأليف أحمد لطفي عبد البديع من أهم المراجع التي اعتمد عليها البحث وأفاد منها. ويتميز الكتاب بأسلوبه الواضح السهل، وبوفرة المعلومات، واعتماده على مصادر عربية ومراجع أوروبية، لكنه لا يذكرها في الحواشي في معظم الأحيان ويتناول الكتاب أثر الحضارة الإسلامية على إسبانيا من كافة النواحي، ولذلك أفاد في دراسة بعض جوانب العلاقات الحضارية بين المغرب والأندلس والممالك النصرانية، وبخاصة فيما يتعلق بالعلوم الأدبية واللغوية والفلسفية وما يتعلق بالعلاقات الاجتماعية من عادات وتقاليد.

١٨ ـ وكتاب قيام دولة الموحدين تأليف مراجع عقيلة الغناي، الطبعة الأولى بنغازي سنة ١٩٧١ م. يتصف بوفرة المعلومات وكثرة الروايات مع محاولة تمحيصها والتعليق عليها. لكنه يعتمد بصفة شبه أساسية على مؤلفات محمد عبد الله عنان، ثم يبالغ في الرد عليه ويجهد نفسه في تصيد العثرات. كما أنه في كثير من الأحيان لا يسند المعلومات إلى مصادرها، فتخلو صفحات عديدة مسلسلة من المصادر والمراجع، كذلك لم يعتمد على مراجع أجنبية بالمرة، فهو لم يذكر مرجعاً أجنبياً واحداً بالحاشية أو الفهرس. وبالإضافة إلى ذلك فالكتاب يتألف من سبعة عشر فصلاً لا يزيد عدد صفحات بعضها عن عدد أصابع اليد الواحدة.

وقد أفاد الكتاب في دراسة سقوط دولة المرابطين وقيام دولة الموحدين بالمغرب والأندلس، إذ تضمن معلومات وفيرة مفصلة عن دعوة محمد بن تومرت وأعمال محمد بن تومرت ببلاد السوس، والمعارك التي نشبت بين

الموحدين والمرابطين، وثورات الأندلسيين على المرابطين في أواخر دولتهم، واحتلال الموحدين معظم بلاد الأندلس.

١٩ ـ وكتاب سقوط دولة الموحدين، يشترك مع الكتاب السابق في كثير من صفاته، فهو لنفس المؤلف مراجع عقيلة الغناي وهو من منشورات جامعة بنغازي سنة ١٩٧٥ م، وقد أحسن المؤلف اختيار الموضوع، لكنه لم يوفق في عرضه، فقد قسم البحث إلى عهود، وكان الأولى به أن يقسمه إلى موضوعات، حتى يبدو مرتبط الأفكار مسلسل الحوادث مرتب العرض، فينتهي القارىء إلى نتائج معينة.

والكتاب أفاد في دراسة علاقة الموحدين السياسية بابن مردنيش أمير شرقي الأندلس، وفي دراسة علاقة الموحدين السياسية ببني غانية أُمراء الجزائر الشرقية، فقد تضمن معلومات وفيرة مفصلة أحياناً ووجزة أحياناً أُخرى.

٢٠ ـ وكتاب دولة الموحدين بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي، تأليف عبد الله علي علام، مطبوعات دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٧١ م، يتصف بأسلوبه السهل ومنهجه الواضح، لكن المؤلف يبرز أحياناً أحاسيسه بين السطور، ويعتمد كثيراً على مؤلفات محمد عبد الله عنان فيبدو ملخصاً أكثر منه دارساً في بعض الفصول، كما لا يسند المعلومات إلى مصادرها في بعض الأحيان، ويضع بالحواشي أحياناً أخرى معلومات لا لزوم لها عوضاً عن المصدر. ثم إنه تخطى في بعض الفصول العهد الذي يؤرخ له، حتى يستوفي الموضوع ويزيد في توضيحه.

وقد أفاد الكتاب في دراسة سقوط دولة المرابطين وقيام دولة الموحدين بالأندلس والمغرب، وقد تضمن معلومات وفيرة مفصلة في دعوة محمد بن تومرت، والحروب التي نشبت بين المرابطين والموحدين، وثورات الأندلسيين على المرابطين في أواخر دولتهم، واستغلال الموحدين معظم بلاد الأندلس،

وامتداد سيادة الموحدين إلى بلاد المغرب الأوسط والأدنى كما أفاد في دراسة بعض جوانب العلاقات الحضارية بين المغرب والأندلس.

٢١ ـ وكتاب التجارة في المغرب الإسلامي من القرن الرابع إلى القرن الثامن للهجرة تأليف نجاة باشا، ومنشورات الجامعة التونسية سنة ١٩٧٦ م، يتصف بالاعتماد على مصادر عربية ومراجع أجنبية، والإيجاز والتركيز وتنوع الموضوعات. وقد أفاد في دراسة الفصل الخاص بالتبادل التجاري، إذ تضمن معلومات وافية عن أنواع المحاصيل والمنتوجات الصناعية ببلاد المغرب الإسلامي والمشرق، وبعض الدول الأوروبية، كما تضمن معلومات هامة عن التبادل التجاري والأسعار والطرق التجارية والفنادق وأثر القرصنة البحرية على التبادل التجاري، ونظام المعاملات التجارية بين المغرب الإسلامي وبعض الدول الأوروبية.

٢٢ ـ كما عني البحث ببعض الكتب الأجنبية المترجمة إلى اللغة العربية، فاعتمد عليها وأفاد منها ويأتي في مقدمة هذه الكتب المترجمة كتاب تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين الذي ألفه المستشرق الألماني يوسف أشباخ، ونقله محمد عبد الله عنان إلى اللغة العربية في جزءَين طبعا في القاهرة في سنة ١٩٤١ م، ثم أعاد طبعهما في مجلد واحد بالقاهرة سنة ١٩٥٨ م. ويتصف الكتاب بالاعتماد على مصادر عربية وأخرى أجنبية، كما يتصف بالاعتدال والموضوعية إلى حد ما، وبالشمولية إلى حد كبير، لكنه يسهب في التاريخ السياسي على حساب الحضارة، ولا يسند المعلومات إلى مصادرها بالحواشي إلا في القليل النادر. وقد عثر محمد عبد الله عنان على مخطوطات عربية استخرج منها معلومات حديثة أضافت إضافات علمية هامة إلى الأصل الذي ألفه يوسف أشباخ.

وقد أفاد الكتاب في دراسة سقوط دولة المرابطين وقيام دولة الموحدين بالمغرب والأندلس فقد تضمن معلومات هامة عن دعوة محمد بن تومرت

وقتال الموحدين للمرابطين، وثورات الأندلسيين على المرابطين، واحتلال الموحدين معظم بلاد الأندلس. كما أفاد في دراسة العلاقات السياسية بين الموحدين والممالك النصرانية، وفي دراسة كثير من الغزوات والمعارك التي جرت بين الطرفين، وفي معرفة الأحوال الداخلية للممالك النصرانية، وعلاقاتها مع بعضها البعض وبالبابوية وبالصليبيين الأُوروبيين.

٢٣ ـ وكتاب تاريخ الفكر الأندلسي من أهم الكتب الأجنبية المترجمة التي اعتمد عليها البحث وأفاد منها، ألّفه المستشرق الإسباني انجل جنثالث بالنثيا، ثم ترجمه حسين مؤْنس إلى اللغة العربية، ونشره بالقاهرة سنة ١٩٥٥ م. ويتميز الكتاب بالاعتماد على مصادر عربية وأخرى أجنبية، ويتصف بالشمولية والإفاضة، ثم بالاعتدال والموضوعية إلى حد كبير، كما يتصف بالدقة وتزيين المتون بالنصوص، وبآراء بعض المؤرخين المحدثين والتعليق عليها وفي معظم الحالات لا يسند المعلومات إلى مصادرها بالحواشي.

وقد أفاد الكتاب في دراسة بعض جوانب العلاقات الحضارية بين المغرب والأندلس والممالك النصرانية الإسبانية. فتوجد به معلومات وفيرة هامة لا يوجد بعضها في غيره من الكتب خاصة فيما يتعلق بالعلوم الفلسفية والفلكية. كما تضمن الكتاب معلومات وفيرة عن حركة الترجمة في الممالك النصرانية، فبيّن دورها في ترجمة مؤلفات العلماء المسلمين، وأظهر مدى تأثر الفلاسفة النصارى بالفلاسفة المسلمين والصوفية.

٢٤ ـ وكتاب تراث الإسلام من أهم المراجع الأجنبية المترجمة التي اعتمد عليها البحث وأفاد منها، ألّفه ج. باترند وغيره من المستشرقين، وترجمته لجنة الجامعيين لنشر العلم بالقاهرة إلى اللغة العربية في جزءين سنة ١٩٣٦ م. أفاد كثيراً في دراسة الباب الخاص بالعلاقات الحضارية بين المغرب والأندلس والممالك النصرانية الإسبانية، وبخاصة فيما يتعلق بفضل الحضارة الإسلامية

على الحضارة النصرانية، سواء في مجال الأعمال الأدبية أو العلمية أو الفلسفية. كما أفاد في دراسة العلاقات الاجتماعية والفنية، وأثر المهندسين المسلمين في نشر أساليب العمارة الإسلامية.

٢٥ ـ وهناك كتاب آخر جديد بعنوان تراث الإسلام، ألّفه شاخت وبوزوسث في سنة ١٩٧٤ م. وتولّى المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت، ترجمته إلى اللغة العربية، ونشره ضمن سلسلة عالم المعرفة في ثلاثة أقسام سنة ١٣٩٨ ـ ١٣٩٩هـ/١٩٧٨ م. والإفادة من هذا الكتاب لا تقل أهمية عن الإفادة من الكتاب السابق الذي يحمل نفس العنوان. إذ كانت مواضيع كل منهما واحدة فهي تتعلق بالعلاقات الحضارية بين المغرب والأندلس والممالك النصرانية، لكن كلاهما أسهب في بعض المواضيع عن الآخر، وأوجز في مواضيع أخرى، مما جعل الإفادة منهما مزدوجة ومنوعة.

٢٦ ـ وكتاب تاريخ أفريقيا الشمالية من المراجع المترجمة التي اعتمد عليها البحث وأفاد منها، ألّفه شارل اندريه جوليان في ثلاثة أجزاء وطبع أكثر من مرة. وقد قام محمد المزالي والبشير بن سلامة بترجمته إلى اللغة العربية عن طبعة ١٩٥٧م المنقحة المزيدة، ونشرته الدار التونسية سنة ١٣٩٨ هـ/١٩٧٨ م. ويتصف الكتاب بالاعتماد على مصادر عربية وأخرى أجنبية كما يتصف بالشمولية وتنوع المواضيع التي يطرقها، فهو يتناول تاريخ بلاد المغرب من أقدم العصور سنة ١٨٣٠ م. كما يضمن أحياناً المتون بالنصوص وبآراء بعض المؤرخين المحدثين، لكنه لا يسند المعلومات إلى مصادرها، وينحرف أحياناً بمعنى النص العربي، ويبالغ في أحكامه أحياناً أخرى، كما يوجز في تناول بعض المواضيع.

وقد أفاد الجزء الثاني من الكتاب في دراسة سقوط دولة المرابطين وقيام دولة الموحدين بالمغرب والأندلس. فقد تضمن معلومات هامة سواء بدعوة محمد بن تومرت وبأعماله ببلاد السوس أو بقتال الموحدين للمرابطين. كما

أفاد إلى حد ما في دراسة علاقة الموحدين السياسية بابن مردنيش أمير شرقي الأندلس، وفي علاقتهم ببني غانية أُمراء الجزائر الشرقية، وفي دراسته التبادل التجاري والعلاقات الفنية بين المغرب والأندلس.

٢٧ ـ وكتاب الفن المرابطي والموحدي من أهم المراجع المترجمة التي اعتمد عليها البحث وأفاد منها. ألّفه المستشرق الإسباني ليمبولند توريس بالباس، وترجمه سيد غازي إلى اللغة العربية ونشره بالإسكندرية سنة ١٩٧٦ م. ويتصف الكتاب بالاعتماد على مصادر عربية وأخرى أجنبية، وبالإيجاز المركّز وبوضوح العبارة وحسن العرض، بالإضافة إلى تزينه باللوحات والتعليق عليها.

وقد أفاد الكتاب في دراسة العلاقات الفنية بين المغرب والأندلس والممالك النصرانية وبخاصة فيما يتعلق بانتقال الفن الأندلسي إلى بلاد المغرب، وبمميزات الفن الموحدي، وبتطور الفن في مجال العمارة الإسلامية والفنون الصناعية، وبانتقال الفن الموحدي إلى الممالك النصرانية ومدى تأثيره.

كما عني الباحث بالمراجع الأجنبية في لغتها الأصلية، فاعتمد على مجموعة منها واستفاد منها الشيء الكثير. ويأتي في مقدمة هذه الكتب كتاب:

٢٨ ـ J. F. O'callaghan: Ahistory of medieval Spain, 1975 Cornal University, Ithaca New York.

يتناول الكتاب تاريخ إسبانيا خلال العصور الوسطى من كافة النواحي فعني بالنواحي السياسية والنواحي العلمية والاجتماعية والفنية. ويتصف الكتاب بالاعتماد على مصادر عربية وأخرى أجنبية بأكثر من لغة، كما يتصف بالاعتدال والموضوعية إلى حد كبير، وتتزين المتون ببعض النصوص وبآراء المؤرخين المحدثين والتعليق عليها، لكن المعلومات لا تسند إلى مصادرها بالحواشي.

وأفاد الكتاب في معرفة الأحوال الداخلية للممالك النصرانية، وعلاقاتها مع بعضها البعض، ومع البابوية والصليبيين الأوروبيين، وأثر ذلك في غزو الأندلس واحتلال بعض البلاد، ثم أفاد في دراسة العلاقات الاجتماعية والتبادل التجاري بين الموحدين والممالك النصرانية.

كما أفاد البحث من كتابين ألّفهما المؤرخ نيفل باربر، هما:

٢٩ ـ Nevill Barbour: A Survey of north west Africa (the maghrib) Oxford University Press. London 1959.

٣٠ ـ Nevill Barbour : Morocco, Thames and Hudson Ltd. London 1965.

ويتصف الكتابان بالاعتماد على مصادر عربية وأخرى أجنبية، ويتصفان بالاعتدال والموضوعية إلى حد كبير. يتناول الكتاب الأول تاريخ بلاد المغرب بصفة عامة، فعني بالنواحي السياسية والثقافية والاجتماعية والفنية، لذلك اتصف بالشمولية والإيجاز الشديد، فكانت الإفادة منه مركّزة موجزة لا تتعدى الأسطر في كل جانب من مواضيع البحث.

وتناول الكتاب الثاني تاريخ المغرب الأقصى فقط، فعني بالنواحي السياسية والاجتماعية والثقافية والفنية، لذلك كانت الإفادة منه أعم وأكثر من الكتاب الأول. فأفاد في دراسة دعوة محمد بن تومرت، واحتلال الموحدين بلاد المغرب من المرابطين كما أفاد في دراسة بعض جوانب العلاقات السياسية والحضارية بين الموحدين والممالك النصرانية. فقد تضمن معلومات هامة تتعلق ببعض المعارك، والنواحي الاجتماعية والفنية.

٣١ ـ وكتاب تاريخ إسبانيا من أهم الكتب التي اعتمد عليها البحث وأفاد منها، ألّفه المستشرق الإسباني رافائيل التاميرا باللغة الإسبانية. ثم قامت مني لي بترجمته إلى اللغة الإنجليزية بعنوان Rafael Altemira: A History of Spain from the beginning to the present day; Translated by Mona Lee

Copyright 1949, by D. Van Nestrand company canada Itd.

يتصف الكتاب بالاعتماد على مصادر نصرانية أكثر من الاعتماد على مصادر عربية، ويعني بتاريخ الممالك النصرانيـة أكثر من عنـايته بتـاريخ الأندلس، ويظهر أحياناً أحاسيسه ومشاعره بين السطور وبخاصة عند تناوله الناحيتين السياسية والثقافية. كما أنه تميز بإسنـاد المعلومات إلى مصـادرها بالحواشي. وقد أفاد في دراسـة الأحوال الـداخلية للممـالك النصـرانية، وعلاقاتها مع بعضها البعض ومع البابوية والصليبيين الأوروبيين. كما تضمن معلومات هامة تتعلق ببعض الغزوات والمعارك التي جرت بين الموحـدين والممالك النصرانية، ومعلومات أخرى تتعلق بالنواحي العلمية والفنية والتبادل التجاري بين الموحدين والممالك النصرانية.

ويتصف الكتاب بالاعتماد على مصادر عربية وأخرى أجنبيـة، وهو كتاب شامل موجز مركّز، تناول كافة النواحي السياسية والثقافية والاجتماعية والفنية. فأفاد في دراسة سقوط دولة المرابطين وقيام دولة المـوحدين، وفي دراسة بعض جوانب العلاقات السياسية والحضارية بين الموحدين والممالك النصرانية وبخاصة فيما يتعلق بالمعارك الكبرى ونتائجها، وفيما يتعلق بالنواحي العلمية والاجتماعية والفنية والتبادل التجاري.

هناك كتاب آخر هام اعتمد البحث عليه كثيراً وهو:

٣٣ ـ S. P. Scott: A History of the Moorish empive in Europe, 3 Volumes Philadelphia, J. B. Lippincott Company 1904.

ويتصف بالاعتماد على مصادر عـربية وأخـرى أجنبية، كـما يتصف بالاعتدال والموضوعية إلى حد كبير، وهو يعني بتاريخ الأندلس والمغرب من كافة النواحي ولذلك أفاد في دراسة أحوال بلاد الأندلس في أواخر عهد المرابطين وبخاصة فيما يتعلق بزحف الممالك النصرانية على بلاد الأندلس. كما أفاد في معرفة دور البابوية والصليبيين الأوروبيين، وفي دراسة الفصل الخاص

بعلاقة الموحدين السياسية بالدول الإسلامية التي قامت بالأندلس في أواخر دولتهم، وما آلت إليه هذه الدول أخيراً.

٣٤ ـ وكتاب ألفرد بيل الخاص ببني غانية من الكتب الهامة التي اعتمد عليها البحث وأفاد منها هو:

A. Bell: Les Benou Ghanya Patis 1903.

يتصف الكتاب بالاعتماد على مصادر عربية أكثر من اعتماده على مصادر أجنبية، ويتصف بالتركيز والاهتمام بالأسباب والنتائج. وقد أفاد في دراسة الفصل الخاص بعلاقة الموحدين السياسية ببني غانية أُمراء الجزائر الشرقية، فقد تضمن معلومات هامة وفيرة عن أصل بني غانية ودورهم في أواخر الدولة المرابطية، ثم قيام دولتهم بالجزائر الشرقية، وأسباب غزوهم مدينة بجاية، ثم عني بالحروب التي نشبت بينهم وبين الموحدين في المغرب الأدنى والأوسط، والنتائج المترتبة عليها.

كما عني البحث بالدوريات العلمية المختلفة. فأفاد منها لما تحويه من أبحاث علمية كتبها أساتذة متخصصون في الدراسات الأندلسية. وأهم هذه الأبحاث.

٣٥ ـ بحث بعنوان: الثغر الأعلى الأندلسي في عصر المرابطين، كتبه حسين مؤنس، ونشره في مجلة كلية الآداب، المجلد الحادي عشر. الجزء الثاني ديسمبر سنة ١٩٤٩ م. فقد أفاد هذا البحث في دراسة زحف مملكة ارغونة على بلاد الأندلس، واستيلاء ملكها ألفونسو المحارب على معظم قواعد الثغر الأعلى الأندلسي. وقد تضمن البحث مجموعة من الوثائق الرسمية التي أفادت في التعرف على كراهية الأندلسيين للمرابطين.

٣٦ ـ وبحث آخر هام بعنوان: طوائف وشخصيات مسيحية بالمغرب. كتبه الصديق بن العربي في مجلة معهد المخطوطات العربية، العدد الأول سنة

١٩٥٦ م. فقد استندت منه في دراسة بعض جوانب العلاقات الاجتماعية بين الموحدين والممالك النصرانية وبخاصة في معرفة المراسم التي كانت تجري في العاصمة الموحدية بمناسبة اعتناق أحد النصارى الدين الإسلامي.

٣٧ ـ وبحث ثالث هام بعنوان: تاريخ المصحف الشريف بالمغرب. كتبه محمد المنوني في مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد الخامس عشر ربيع الأول سنة ١٣٨٩ هـ/مايو ١٩٦١ م. وقد أفاد في دراسة بعض جوانب العلاقات الفنية في المغرب والأندلس زمن الموحدين وبخاصة فيما يتعلق بالفنون الصناعية، من حيث تسفيرها وتزيينها وألوان مدادها.

٣٨ ـ وهناك بحثان هامان كتبهما عبد العزيز بن عبد الله.

٣٩ ـ البحث الأول بعنوان: البحرية المغربية والقرصنة، منشور في مجلة تطوان بالعددين الثالث والرابع سنة ١٩٥٧ م. فأفاد في دراسة أثر القرصنة البحرية على التبادل التجاري بين الموحدين وبعض الدول الأوروبية.

٤٠ ـ البحث الثاني بعنوان: تطور الفن في عهد الموحدين، منشور في مجلة البينة، السنة الأولى، العدد التاسع يناير ١٩٦٣ م/شعبان ١٣٨٣ هـ. فأفاد في دراسة تطور الفن الموحدي ومعرفة مميزاته ومدى تأثره بالفن الأندلسي.

وعني البحث أيضاً بالمقالات والأبحاث الأجنبية التي كتبها أساتذة متخصصون في الدراسات الأندلسية، ومنشورة في دوريات علمية متعددة منها.

٤١ ـ بحث بعنوان: الوثائق العربية المحفوظة في كاتدرائية وشقة. كتبه المستشرق الإسباني خنثو بوسك بيلا في مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد بالعدد الخامس سنة ١٩٥٧ م. وعمل المعهد ملخصاً له باللغة العربية في نفس العدد وقد أفاد في دراسة بعض جوانب العلاقات العلمية والاجتماعية بين الموحدين والممالك النصرانية، وبخاصة فيما يتعلق باستخدام اللغة العربية

في كتابة عقود المعاملات التي كانت تجري بين المسلمين المدجنين أو بينهم وبين النصارى.

كما كتب رامون مننديث بيدال بحثين هامين باللغة الإسبانية.

٤٢ ـ البحث الأول بعنوان: إسبانيا حلقة اتصال بين المسيحية والإسلام. ثم ترجمه أحمد لطفي عبد البديع إلى اللغة العربية، في مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، بالعدد الأول سنة ١٩٥٣ م.

٤٣ ـ البحث الثاني بعنوان: إسبانيا وإدخال العلوم العربية إلى الغرب، ثم لخصه معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، ونشره باللغة العربية في مجلة المعهد بالعدد الثالث سنة ١٩٥٥ م.

وقد أفاد البحثان في دراسة بعض جوانب العلاقات الحضارية بين المغرب والأندلس والممالك النصرانية.

٤٤ ـ وهناك بحث هام بعنوان: المكتبات وهواة الكتب في إسبانيا الإسلامية كتبه المستشرق الإسباني خوليان ريبيرا، ثم ترجمه جمال محرز إلى اللغة العربية. ونشر في مجلة معهد المخطوطات العربية، بالمجلدين الرابع والخامس سنة ١٩٥٨ ـ ١٩٥٩ م والبحث أفاد في دراسة العلاقات العلمية، وتنقل العلماء والنساخ والمكتبات بين المغرب والأندلس زمن الموحدين.

٤٥ ـ وهناك بحث آخر بعنوان: ابن سينا وآثاره الأولى في العالم اللاتيني. كتبه الأب مانويل الونسو الونسو، ثم ترجمه تاج الدين أبو زيد إلى اللغة العربية في مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، بالعدد الأول سنة ١٩٥٣ م. وقد أفاد في دراسة تأثر الفلاسفة المسلمين سواء في آرائهم أو في الاعتماد على المؤلفات الإسلامية.

٤٦ ـ كما كتب نيفل باربر Nevill Barbour بحثين هامين البحث الأول بعنوان: أخبار الأندلس في المدونات الإنجليزية في القرنين الثاني عشر والثالث

عشر الميلاديين. فلخصه معهد الدراسات الإسلامية بمدريد باللغة العربية ونشره في مجلة المعهد بالعدد الثالث عشر سنة ١٩٦٥ ـ ١٩٦٦ م.

٤٧ ـ والبحث الثاني بعنوان: سفارة جون ملك إنجلترا إلى محمد الخامس ملك المغرب. ترجمه محمد بن تاويت إلى اللغة العربية، ونشره في مجلة تطوان المغربية. وقد أفاد البحث الأول في معرفة دور الصليبيين الأوروبيين، وبخاصة الإنجليز منهم في مساعدة مملكة البرتغال على قتال الموحدين، والاستيلاء على بعض القواعد والثغور الأندلسية. أفاد البحث الثاني في دراسة علاقة الموحدين السياسية بمملكة نبرة وبخاصة تفصيل زيارة ملك نبرة للموحدين بمراكش، مع بيان أسبابها ونتائجها.

٤٨ ـ وأخيراً هناك بحث بعنوان: الأبنية الإسبانية الإسلامية، كتبه المستشرق الإسباني ليوبولد توريس بالباس باللغة الإسبانية ، وترجمته عليّه إبراهيم العناني إلى اللغة العربية، ونشر في مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد بالعدد الأول سنة ١٩٥٣ م. وقد أفاد في دراسة بعض جوانب العلاقات الاجتماعية والفنية بين الموحدين والممالك النصرانية.

التمهيد

سقوط دولة المرابطين وقيام دولة الموحدين في المغرب والأندلس

الفصل الأول

سقوط دولة المرابطين وقيام دولة الموحدين في المغرب

قامت دولة الموحدين على أساس دعوة دينية إصلاحية، طابعها التجديد والعظمة وهدفها تحقيق وحدة إسلامية شاملة. أسّس هذه الدعوة الفقيه أبو عبد الله محمد بن تومرت الهرغي المصمودي السوس. ويبدو من اسمه أنه من قبيلة هرغة إحدى بطون مصمودة الساكنة في بلاد السوس بجبال أطلس(١).

غادر ابن تومرت موطنه طلباً للعلم. فسار إلى مراكش ثم عبر البحر إلى الأندلس. فأخذ عن علماء قرطبة وغيرهم من علماء الأندلس. أبحر ابن تومرت مع بداية القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي من المرية إلى بلاد المشرق الإسلامي لنفس الهدف. فدرّس على علماء مصر والشام والعراق والحجاز علوم أُصول الدين وأُصول الفقه والحديث(٢).

ـ دعوة ابن تومرت:

لمس ابن تومرت خلال رحلته حالة الضعف التي كان يعاني منها المجتمع الإسلامي في ظل الخلافتين العباسية والفاطمية. كما شاهد نجاح

(١) أحمد مختار العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص ١٠٤.

(٢) المراكشي: المعجب ص ١٧٨ ـ حنا الفاخوري وخليل الجر: تاريخ الفلسفة العربية جزءان دار المعارف بيروت ج ٢ ص ٣٤١ ـ محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق١ ص ١٦٠ ـ ١٦١ (نقلاً عن مجهول: الحلل الموشية ص ٧٥، ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١١٠، ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٨، الزركشي: تاريخ الدولتين ص ١).

الصليبيين في تأسيس إمارات لهم في الرها وأنطاكية وطرابلس وبيت المقدس. عندئذ لم يطق صبراً على ذلك. فانبرى يهاجم الأوضاع السائدة بكل شدة وعنف(٣).

لم يتريث محمد بن تومرت حتى يعود إلى بلاده. بل وقف خطيباً في موسم الحج بمكة المكرمة وأعلن ثورته على تلك الأوضاع التي أوهنت المسلمين. ثم على تلك المناقشات بين السنّة والشيعة التي مزّقت أواصر الوحدة الإسلامية. أخذ ابن تومرت بعد ذلك يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، مما أثار عليه رجال السلطة فزجوا به في السجن. ثم أطلقوا سراحه لعدم وجود أنصار له يشكّلون خطراً بالإضافة إلى أنه رجل فقير متقشّف أعزل، ولكنهم أمروه بمغادرة البلاد(٤).

نزل ابن تومرت مدينة الإسكندرية من الديار المصرية، فرأى بها مناكير كثيرة مما جعله يعمل على تغييرها بالعنف والشدة لذلك قامت الغوغاء والعامة على ابن تومرت وصاروا يقطعون عليه الطريق إلى مجلس أبي بكر الطرطوش الفقيه. ثم جرت عليه «وقائع في معنى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أفضت إلى أن نفاه متولي الإسكندرية عن البلاد(٥)».

وسار ابن تومرت إلى بلاد المغرب نحو سنة ٥١٠ هـ/١١١٧ م فنزل طرابلس والمهدية وتونس وقسنطينة وبجاية وملالة وتلمسان وفاس ومكناسة وسلا. كان ابن تومرت خلال نزوله هذه المدن، يبني المساجد ويلقي الدروس والمواعظ ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. فالتف حوله الطلاب والمريدون. كانت سلطات بعض هذه المدن تأمر ابن تومرت بمغادرة البلاد خوفاً من إثارة

(٣) أحمد مختار العبادي: المرجع السابق ص ١٠٥.

(٤) عبدالله علي علام: الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي - دار المعارف بمصر ١٩٦٨ م ص ٥٣ - ٥٤ - B. Meakin: The moorish empire p. 66

(٥) المراكشي: المعجب ص ١٧٩ - ابن القطان: نظم الجمان ص ٣٨ - ٣٩ - أحمد مختار العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص ١٠٥.

الشغب والقلاقل. فقد استعمل ابن تومرت أحياناً الشدة في تقويم الناس، فمثلاً حين دخل بجاية وجد الصبيان في زي النساء بالضفائر والأخراس والزينة. «فلما كان يوم عيد الفطر اختلط الرجال بالنساء في الشريعة، فلما رآهم الإمام دخل فيهم بالعصا يميناً وشمالاً حتى بددهم(٦)».

دخل ابن تومرت مدينة فاس، فكسر أدوات اللهو والطرب. يقول البيذق(٧): «فلما كان يوم من الأيام دخل علينا المعصوم وقال لنا: أين الصبيان «فقلنا هنا نحن حاضرون» قال: ما منكم أحد غائب. قلنا: كلنا حاضرون. فقال المعصوم: اخرجوا واقطعوا مقارع من شجر التين الذي أسفل الوادي الذي لا ينتفع به وأقبلوا بسرعة وكنا في سبع نفر... تخرجنا السبعة وأقبلنا بسبعة مقارع من ذكار التين. فقال لنا: خفوا مقارعكم... وتفرقوا على الحوانيت. وكانت الحوانيت مملوءة دفوفاً وقراقر وقراصير وعيداناً وجميع أدوات اللهو. فقال لنا المعصوم: اكسروا ما وجدتم من أدوات اللهو. فقام أصحابها بالصراخ وساروا شاكين نحو قاضيهم ابن معيشة. فقال لهم القاضي: لولا ما رأى في السنة ما كسرها ومزّقها... فإنكم مخالفون للحق».

سار ابن تومرت بأتباعه من الطلاب والمريدين إلى مراكش سنة ٥١٤ هـ/١١٢٠م فنزل في مسجد صومعة الطوب. ثم أخذ يعقد مجالس العلم في صحون المساجد حتى ذاع صيته وانتشر خبره. فتوافد عليه الطلاب

(٦) ابن القطان: نظم الجمان ص ٤٠ ـ ٤١ ـ البيذق: أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين. نشره عبد الوهاب بن منصور. الرباط ١٩٧١م ص١٣ ـ ١٤. نشره بروفنسال بباريس ١٩٢٨م ص ٥١ ـ ٥٢ ـ محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق ١ ص ١٦٥ (نقلاً عن ابن القطان مخطوط نظم الجمان لوحة ١٦ ب و١٧ أ) ـ N. Barbour: Morocco p. 70 — 69 بينما أورد أندرية جوليان النص على النحو الآتي «... وكانوا رجالاً ونساء يختمون شهر رمضان بالاختلاط في ساحة المدينة» (تاريخ أفريقيا الشمالية ج ٢ ص ١٣٨).

(٧) نفس المصدر ص٢٣ ـ ٢٤ من ط ابن منصور وص ٦٥ من ط بروفنسال N. Barbour: opcit pp. 72 - 73 - B. Meakin: the moorish empire p. 66

والمريدون. كان ابن تومرت بعد الانتهاء من إلقاء الدروس يسير بأتباعه «فيمر على أحياء المدينة وأسواقها داعياً إلى المعروف ناهياً عن المنكر[٨]».

أثار ابن تومرت بذلك حفيظة فقهاء الدولة المرابطية وقضائها. كما أثار أيضاً حفيظة أمير المسلمين المرابطي علي بن يوسف ثم صادف ابن تومرت في أحد الأيام الصورة أُخت أمير المسلمين تسير في الطريق مع بعض حاشيتها من النساء وهنّ حاسرات الوجوه كعادة نساء المرابطين. فوبّخها ابن تومرت وأغلظ لها القول. ثم ذهبت الصورة إلى أخيها عليّ باكيةً شاكية. فانتهز الفقهاء والقضاة هذه الفرصة وحرّضوا أمير المسلمين علياً بن يوسف على ابن تومرت[٩].

جمع عليّ بن يوسف القضاة والفقهاء في مجلسه لمناظرة ابن تومرت حتى يتأكد من حسن نيته وصدق دعوته. تغلّب ابن تومرت على القضاة والفقهاء في المناظرة لعدم درايتهم بعلم الأُصول. فقد وجدهم «قوماً صياماً عن جميع العلوم النظرية خلا علم الفروع» لذلك لم يفهم كلام ابن تومرت ويدرك خطورته سوى قاضي مراكش مالك بن وهيب. وهو رجل من أهل الأندلس متمكناً من علوم الدين والفلسفة. «إلاّ أنه كان لا يظهر إلا ما ينفق في ذلك الزمان[١٠]». فأشار ابن وهيب على أمير المسلمين عليّ بن يوسف بقتل ابن تومرت وقال له: «نفقه يا أمير المسلمين اجعل عليه كبلاً حتى لا تسمع له طبلاً[١١]».

(٨) البيذق: نفس المصدر ص ٢٧ - ٢٨ من ط ابن منصور وص ٦٧ - ٦٨ من ط بروفنسال مراجع الغناي: قيام دولة الموحدين ص ١٨٤.

(٩) المراكشي: المعجب ص ١٨٥ حاشية رقم ٢ - الناصري: الاستقصا ج ٢ ص ٧٥ - اندريه جوليان: تاريخ إفريقيا الشمالية ج ٢ ص ١٢٨ - ١٢٩ - محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع ٣ ق ١ ص ١٦٩ - ١٧٠ (نقلاً عن مخطوط البيان المغرب هسبيرس ص ٧٦).

(١٠) المراكشي: نفس المصدر ص ١٨٤ - ١٨٥.

(١١) البيذق: أخبار المهدي بن تومرت ص ٢٧ - ٢٨ من ط ابن منصور وص ٦٨ من ط بروفنسال - محمد عبدالله عنان: المرجع السابق ص ١٧٠ - ١٧١ (نقلاً عن ابن تومرت: =

تذكر رواية أُخرى أن مالك بن وهيب قال بعد المناظرة لأمير المسلمين عليّ بن يوسف: «إني أخاف عليك من هذا الرجل وأرى أن تعتقله وأصحابه وتنفق عليهم ديناراً لتكفي شره! وإن لم تفعل فلتنفقن عليه خزائنك كلها، ثم لا ينفعك ذلك[١٢]».

أخذ عليّ بن يوسف برأْي مالك بن وهيب. فأمر أبا بكر بن تيزمت أن يضع ابن تومرت في السجن. ثم تدخّل اثنان من كبار رجال الدولة هما ينتان بن عمر وسير ابن دريبل وقالا لأمير المسلمين عليّ: «يا أمير المؤمنين ماذا يقال عنك في البلاد تسجن رجلاً يعرف الله وهو أعرف أهل الأرض بالله تعالى. فغضب عليّ بن يوسف وخرج عنهم[١٣]».

قام ينتان بن عمر فنقل محمد بن تومرت إلى داره. ثم رجع إلى أمير المسلمين عليّ وأخذ يقنعه بإطلاق سراح ابن تومرت وأصحابه. فوافق الأمير عليّ بشرط أن يسير ابن تومرت وأصحابه من مراكش[١٤]. بينما ذكرت مصادر أُخرى أن المجلس انفض بعد المناظرة دون أن يتم اعتقال ابن تومرت وأصحابه[١٥].

- ابن تومرت في بلاد السوس:

أدرك ابن تومرت خطورة البقاء في مدينة مراكش. فقد قال لأصحابه: «لا مقام لكم هنا بمراكش مع وجود مالك بن وهيب. فما تأمين أن يعاود الملك في أمرنا فينالنا منه مكروه[١٦]. سار ابن تومرت بأصحابه ومريديه إلى

= كتاب: اعز ما يطلب ص ١ - ٥، ١١ - ١٨، ٣٩ - ٤٠، المراكشي: المعجب ص ٩٥ - ٩٦، ١٠٢).

(١٢) الناصري: الاستقصا ج ٢ ص ٧٦ - المراكشي: المعجب ص ١٨٦ حاشية رقم ١.

(١٣) البيذق: المصدر ص ٢٩ - ٣٠ من ط ابن منصور وص ٦٨ من ط بروفنسال.

(١٤) مراجع الغناي: قيام دولة الموحدين ص ١٨٧ - ١٨٨.

(١٥) الناصري: نفس المصدر ج ٢ ص ٧٦ - ٧٧.

(١٦) الناصري: نفس المصدر ص ٧٧.

مدينة أغمات. ثم سار منها إلى بلاد السوس موطن عشيرته وأهله. كان ابن تومرت خلال طريقه يدعو القبائل ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويتوقف في المدن والمحلات فيبني الأربطة للعبادة ويلقي الدروس والمواعظ(١٧).

رأى ابن تومرت أن ينزل في مكان حصين من بلاد السوس خوفاً من بطش السلطات المرابطية. فنزل في جبل إيجليز، «وأمر بتحصين موضعه لأنه ما كان له إلا طريقاً واحداً، وذلك الطريق لا يمشي فيه إلا راكب بعد راكب من كثرة توعره(١٨)».

أقام ابن تومرت بصحبه ومريديه ثلاث سنوات في جبل إيجليز من سنة ٥١٥ ـ ٥١٨ هـ/١١٢١ ـ ١١٢٤ م «فقواهُ خلالها عليه جماعات كثيرة من قبائل بلاد السوس سواء لتلقي العلم أو نصرته وتأييده. ألّف ابن تومرت لأنصاره عدة كتب باللغتين العربية والبربرية. منها كتاب التوحيد سماه المرشدة يحتوي على معرفة الله تعالى وسائر العقائد، كالعلم بحقيقة القضاء والقدر والإيمان بما يجب لله تعالى وبما يجب على المسلم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. جعل ابن تومرت كتابه هذا سبعة أحزاب عدد أيام الأسبوع، فأمر أتباعه بقراءة حزب واحد منه كل يوم بعد صلاة الفجر والمغرب(١٩)».

وضع ابن تومرت كتباً أُخرى، منها كتاب بعنوان القواعد، وآخر بعنوان الإمامة وضعه باللغتين العربية والبربرية. هناك كتاب ثالث يبحث في

---

(١٧) نفس المصدر والصفحة ـ البيذق: أخبار المهدي بن تومرت ص ٢٩ ـ ٣٣ من ط ابن منصور.

(١٨) ابن عذارى: البيان المغرب ج ٤ ص ٦٨ ـ محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع ٣ ق ١ ص ١٧٣ (نقلاً عن ابن القطان: مخطوط نظم الجمان لوحة ١٣٣).

(١٩) ابن القطان: نظم الجمان ص ١٢٧ ـ ١٢٨ ـ ابن صاحب الصلاة/المن بالإمامة ص ٢٢٩ حاشية رقم ٣ ـ مراجع الغنامي: قيام دولة الموحدين ص ٢٣٦ ـ B. Meakin: Moorish empire p. 69

العقيدة والعلم والإمامة، رواه عنه تلميذه وخليفته عبد المؤمن بن علي بعنوان «أعز ما يطلب» وهي جملة مأخوذة من افتتاحية الكتاب نفسه[٢٠]. وضع ابن تومرت كتاباً آخراً سماه موطأ المهدي، يشمل الأحاديث النبوية التي وردت في موطأ مالك بعد حذف معظم الإسناد منها للإختصار. فهذا يدل على أن ابن تومرت لم يكن يهدف إلى مهاجمة المذهب المالكي في حد ذاته، إنما أراد مهاجمة نفوذ فقهاء المالكية[٢١].

افتتن المصامدة بابن تومرت حتى أصبحوا طواعية أمره. يقول المراكشي[٢٢]: «لم تزل طاعة المصامدة لابن تومرت تكثر، وفتنتهم به تشتد وتعظيمهم له يتأكد إلى أن بلغوا في ذلك إلى حد لو أمر أحدهم بقتل أبيه أو أخيه أو ابنه لبادر إلى ذلك من غير إبطاء. وأعانهم على ذلك وهونه عليهم ما في طباعهم من خفة سفك الدماء عليهم. وهذا أمر جهلت عليهم فطرهم واقتضاه ميل إقليمهم».

كان ابن تومرت يمهد لفكرة الإمام المعصوم والمهدي المنتظر. فيذكره خلال إلقاء الدروس والمواعظ ويروي الأحاديث التي وردت فيه حتى يشوق المصامدة إلى معرفته. فلما تأكد ابن تومرت من إيمان المصامدة بالمهدي وفضله ونسبه «ادّعى ذلك لنفسه. وقال أنا محمد بن عبد الله... ورفع نسبهُ إلى النبي ﷺ. وصرح بدعوى العصمة لنفسه وأنه المهدي المعصوم... وبسط يده فبايعوه على ذلك. وقال أنا أُبايعكم على ما بايع عليه أصحاب رسول الله ﷺ»[٢٣].

(٢٠) ابن صاحب الصلاة: نفس المصدر والصفحة وص ٢٣٠ وحاشية رقم ١ ـ محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق ١ ص ١٧٥ (نقلاً عن ابن القطان: مخطوط نظم الجمان لوحة ٣٤أ)، ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ٨٠، ١١٤، ابن خلدون: العبر ج ٦ ص ٢٢٦).

(٢١) أحمد مختار العبادي: دراسات ص ١٠٩ ـ ١١٠.

(٢٢) المعجب ص ١٩١.

(٢٣) نفس المصدر ص ١٨٧ ـ ١٨٨.

نظم ابن تومرت أنصاره ومريديه في أربع عشرة طبقة. فأول هذه الطبقات هي طبقة العشرة تضم أول من بايع ابن تومرت ونصره، فجعلهم أهل مشورته. ثم طبقة أهل خمسين تضم خمسين رجلاً من زعماء قبائل المصامدة. ثم طبقة سبعين تضم سبعين رجلاً من زعماء القبائل غير المصامدة. أما الطبقة الرابعة فهي طبقة الطلبة تضم كبار علماء الموحدين. سيقوم أعضاؤها بحكم الولايات أو يمثلون الهيئة المساعدة للوالي في عهد عبد المؤمن بن علي. ثم الطبقة الخامسة تضم صغار الحفاظ. ثم طبقة أهل الدار يقوم أفرادها بخدمة ابن تومرت. أما الطبقة السابعة فتضم قبيلة هرغة وهي قبيلة ابن تومرت نفسه. ثم الطبقة الثامنة فتضم قبيلة تينمل. والطبقة التاسعة تشمل أهل جدميوه. والعاشرة تشمل أهل جنفيسه، والحادية عشرة تشمل أهل هنتانة. أما الطبقة الثانية عشرة فتتكون من الجند أو أهل القبائل. والثالثة عشرة تتكون من الغزاة والرماة والطبقة الأخيرة تتكون من الفرات وهم الأطفال الصغار(٢٤).

جعل ابن تومرت لكل طبقة من هذه الطبقات وظيفة خاصة بها في السلم والحرب. كما جعل لها رتبة لا تتعداها في سفر ولا حضر. ثم أنذر بعقوبة القتل كل من تهاون في طاعة أوامره. وجعل عقوبة الجلد بالسياط كل من لم يحفظ حزبه أو درسه، وإن تمادى في ذلك فعقابه القتل. جعل أيضاً عقوبة القتل لكل من يداهن عن ابنه أو أخيه أو أبيه أو قريبه(٢٥).

أضاف ابن تومرت بعض النداءات البربرية على الآذان، مثل تاصليت

---

(٢٤) مراجع الغناي: قيام دولة الموحدين ص ٢٢٨ - ٢٣٥ - الناصري: الاستقصا ج ٢ ص ٨٦ - محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق ١ ص ١٧٤ - ١٧٥ (نقلاً عن البيذق: أخبار المهدي ص ٣٣ - ٣٤، ابن القطان: مخطوط نظم الجمان لوحة ١٠أ وب) وردت هذه الطبقات مع اختلاف بسيط عند اندريه جوليان: تاريخ إفريقيا الشمالية ج ٢ ص ١٣٠ - ١٣٢ - B. Meakin: The Moorish Empire p. 70

(٢٥) ابن القطان: نظم الجمان ص ٢٩ - مراجع الغناي: نفس المرجع ص ٢٣٥ - ٢٣٦.

الإسلام وسودود، ونارديِ، وأصبح ولله الحمد. ثم ألغى الخليفة المأمون هذه النداءات من الآذان في سنة ٦٢٧ هـ/ ١٢٣٠ م(٢٦).

وضع ابن تومرت نظاماً خاصاً للسير في المواكب والاحتفالات. وذلك بأن ينادي المنادي: «الاستخارة بالله والتوكل عليه. وإذا ما تحركوا أن يقدموا أمامهم لواءً أبيض مع عدد من الرجالة يكون بينه وبين الأمير مقدار ربع ميل. ويكون الأمير متقدماً على الناس خلف اللواء المذكور في جملة من يختص به يحفون به. ثم تتبعهم الرايات الكبار والطبول والعسكر المعروفون بالساقة. ثم كل قبيلة على ترتيب وحسن هيئة ومعه علاماته. فأما راياته المنصورة المتقدمة بين يديه ففي أحد وجهها مكتوب الواحد الله محمد رسول الله، المهدي خليفة الله. وفي الوجه الثاني: وما من إله إلاّ الله. وما توفيقي إلاّ بالله، وأُفوِّضُ أمري إلى الله(٢٧)».

- قتال ابن تومرت للمرابطين:

أطلق ابن تومرت على أتباعه اسم الموحدين وذلك تعريضاً بالمرابطين وبفقهائهم لعدولهم عن التأويل وإقرارهم التشابهات والإيمان بها كما وردت(٢٨). فيضيفون بذلك حسب قوله صفات بشرية ومادية على ذات الله. لذلك اعتقد الموحدون أنهم المؤمنون حقاً دون غيرهم. فكفروا جميع الخصوم إلى أن يخضعوا لهم ويعتنقوا مذهب التوحيد(٢٩).

(٢٦) ابن عذارى: البيان المغرب: القسم الثالث تحقيق أمبروتو هو-ثي ميراندا ومحمد بن تاويت وإبراهيم الكتاني تطوان ١٩٦٠ م، ص٢٦٧ - ٢٦٨ - ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٦٨.

(٢٧) ابن القطان: نظم الجمان ص ١٢٧ - ١٢٨.

(٢٨) الناصري: الاستقصا ج ٢ ص ٧٦ - ٧٧ - محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق ١ ص ١٧٥ (نقلاً عن ابن خلدون: العبر ج ٦ ص ٢٢٩) - أندريه جوليان: تاريخ إفريقيا الشمالية ج ٢ ص ١٢٦ - ١٢٧ N. Barbour: Morocco p. 74 - J. F. O'callaghan: A History of medieval spain pp. 227 - 228

(٢٩) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص ٣٢٤ - ٣٢٥ - أحمد مختار العبادي: دراسات في =

أدرك المرابطون بعد فوات الأوان خطورة حركة ابن تومرت. فعملوا على تشويه سمعته والتشهير بأنصاره للحيلولة دون انضمام بقية قبائل بلاد السوس إليهم. ولذلك إتهم المرابطون الموحدين بالكفر والضلال، وأشاعوا بأن الموحدين خوارج وأن صاحبهم ابن تومرت يكفر الناس بالذنوب. ولا يلزم التائب بقضاء الصوم والصلاة، وبغير ما شابه ذلك من العبادات والعقائد(٣٠). فحين بلغ ذلك ابن تومرت قال للموحدين: «سبقونا بالقبيح لو كان خيراً أحجموا عنه وما سبقونا إليه. لقبوهم أنتم، فإن الله ذكر في كتابه: ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه﴾ الآية. تولوا لهم أنتم أيضاً المجسمون(٣١)».

حثّ ابن تومرت الموحدين على قتال المرابطين. فقد اتخذ من إصرار أبي بكر الصديق رضي الله عنه على قتال كل من امتنع عن دفع الزكاة عقب وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام حجة لإقناع الموحدين على قتال المرابطين بلا تردّد. علّق ابن تومرت على موقف أبي بكر بقوله: «كل من منع فريضة من فرائض الله حقّ على المسلمين جهاده حتى يأخذوها منه، فكيف بمن منع الإيمان والدين والسنة(٣٢)».

فشل المرابطون في تشويه سمعة ابن تومرت وتفريق الأنصار من حوله. كما فشلوا في تحريض الناس عليه في بلاد السوس، فجهزوا الجيوش للقضاء على ابن تومرت في قاعدته بجبل إيجليز. بعث المرابطون ثلاث حملات على التوالي الأولى بقيادة ابراهيم ابن تعيشت عاملهم على بلاد السوس، والثانية

= تاريخ المغرب والأندلس ص ١٠٦ ـ ١٠٧ و ١١٠ ـ ١١٢ ـ B. Meakin: The Moorish empire p. 69

(٣٠) ابن القطان: نظم الجمان ص ١٠ ـ ١١.

(٣١) البيذق: أخبار المهدي بن تومرت ص ٣٨ ـ ٣٩ من ط ابن منصور وص ٧٧ من ط بروفنسال.

(٣٢) ابن القطان: نظم الجمان ص ٤٧ ـ ٤٨.

بقيادة الأمير أَبي ابراهيم اسحاق. والثالثة بقيادة سير بن فودي ومهدي بن توالي. فشلت هذه الحملات الثلاث في مهمتها. فقد ألحق ابن تومرت بها الهزيمة واستولى على غنائمها وأَسلابها(٣٣).

قويت نفس ابن تومرت إثر هذه الإنتصارات وذاعت شهرته. فانتهز الفرصة لإخضاع القبائل المجاورة وقام بتسع غزوات متتالية. كانت الغزوة الأولى ضد مدينة ناوزت فأَنزل الهزيمة بالمرابطين وكانوا بقيادة ينتان بن عمر. لكن فشلت الغزوة الثانية فقد انتصر المرابطون بقيادة سليمان بن يكلد وابن أبي فراس وعبد الرحمن قاضي السوس ويانو. ثم انتصر ابن تومرت في الغزوة الثالثة على حامية مرابطية عند موضع يسمى تالات ان ميزك. انتصر كذلك في الغزوة الرابعة على المرابطين بقيادة يانو وأكدي بن موسى في موضع يسمى تيزي ان ماست. أما الغزوة الخامسة فقد سقط فيها ابن تومرت جريحاً. ثم انتهت كالغزوة السادسة، فلم ينتصر أحد الطرفين على الآخر(٣٤).

أما الغزوة السابعة، فقد قام بها ابن تومرت ضد قبيلة هسكورة. وهي من القبائل التي لم تعلن خضوعها للموحدين بعد. فنشبت المعركة في مكان يسمى أَزليم فسقط خلالها ابن تومرت جريحاً وشجَّ رأْسه فحمله أَصحابه الى داره. قام ابن تومرت بعد ذلك بقليل بغزوة ثامنة، استولى فيها على مدينة تازاكورت، ثم قام بغزوة تاسعة انتصر فيها على المرابطين في مكان يسمى أَسدوم ان الغربي(٣٥).

---

(٣٣) ابن القطان: نفس المصدر ص ٨١ ـ ٩٣ ـ الناصري: الاستقصا ج ٢ ص ٨٣ ـ ٨٤ ـ مراجع الغناي: قيام دولة الموحدين ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩ ـ محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع ٣ ق ١ ص ١٧٨ ـ ١٧٩ (نقلاً عن ابن القطان: مخطوط نظم الجمان لوحة ٣٧ أ. مجهول: الحلل الموشية ص ٨٠، ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١١٤، ابن خلدون: العبر ج ٦ ص ٢٢٨).

(٣٤) البيذق: أخبار المهدي بن تومرت ص ٣٥ ـ ٣٨ من ط ابن منصور وص ٧٣ ـ ٧٧ من ط بروفنسال.

(٣٥) ابن القطان: نظم الجمان ص ٨١ ـ ٩٧ ـ مراجع الغناي: قيام دولة الموحدين =

رأى ابن تومرت أن ينقل مركز نشاطه إلى مكان أكثر حصانةً وأفضل موضعاً من قاعدته بجبل إيجليز. فانتقل في أواخر سنة ٥١٨ هـ/١١٢٤ م بأصحابه الموحدين إلى قلعة تينمل وهي من أحصن القلاع لا يستطيع الفارس الواحد أنْ يدخلها إلا من شرقيها أو غربيها. فأعرض طريق من غربيها لا يسع أكثر من فارس واحد، أو ينزل عن فرسه خوفاً من السقوط. كذلك الطريق من شرقيها مصنوعة من حافات وفيها مواضع مصنوعة بالخشب يستحيل المرور إليها إذا أُزيلت منها خشبة(٣٦).

أخذ ابن تومرت من هذا المكان يسير بالموحدين لغزو بعض الجهات وإخضاع بعض القبائل. فتغلّب على بلاد جدميوه وبلاد ركراكة. خرج مرة ثانية للغزو بثلاثين ألفاً من الموحدين فغزا وادي نفيس وبلاد هزرجة وأغمات ثم انتصر على المرابطين وقسّم غنائمهم على أصحابه بعد عودته إلى تينمل. ثم خرج مرةً ثالثةً للغزو، ففتح جميع قلاع جبل درن وحصونه وأوديته. وطاع له جميع من فيه من القبائل خاصة هنتانة وجنفيسة. لذلك بعث المرابطون جيشاً بقيادة أبي بكر بن عليّ بن يوسف، فألحق الموحدون به الهزيمة بعد قتال استمرْ ثمانية أيام. ثم عاد إلى مراكش(٣٧).

لم يعد ابن تومرت بعد ذلك يسير بنفسه للغزو. بل أخذ يعد الجيوش ويبعثها بقيادة أخلص رجاله. ففي ٥٢١ هـ/١١٢٧ م أرسل جيشاً كبيراً بلغ عدده نحو أربعين ألف راجل وأربعمائة فارس لغزو مدينة مراكش. فخرج للقائهم أمير المسلمين عليّ بن يوسف فحلّت به الهزيمة وعاد إلى مراكش

= ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧ ـ عبدالله علام: الدولة الموحدية ص ٧٦ ـ ٧٩ ـ محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ج٣ ق ١ ص ١٨٠ (نقلاً عن البيذق: أخبار المهدي ص ٧٤ ـ ٧٨، ابن القطان: مخطوط نظم الجمان لوحة ١٤٦).

(٣٦) مجهول: الحلل الموشية ص ٨٢ ـ مراجع الغناي: نفس المرجع ص ٢٥٠ ـ محمد عبد الله عنان: نفس المرجع ص ١٨٢.

(٣٧) الناصري: الاستقصا ج ٢ ص ٨٤ ـ ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١١٥.

للتحصّن بداخلها ثم خرج المرابطون بعد أيام من مراكش لقتال الموحدين. فحلّت بهم الهزيمة للمرة الثانية وتراجعوا إلى داخل مراكش. بينما فرّ بعض المرابطين إلى وادي أُم الربيع فلما عادوا إلى مراكش قبض عليهم أمير المسلمين عليّ بن يوسف وأمر بحلق لحاهم والتمثيل بهم(٣٨).

خشي المرابطون أن يعاود الموحدون غزو مراكش. فبعثوا جيشاً لقتال الموحدين بقيادة الأمير تميم بن عليّ بن يوسف، لكن الموحدين ألحقوا الهزيمة به في موقعة كيك وأجبروه على الفرار(٣٩).

جهّز ابن تومرت جيشاً آخراً أكثر عدداً من الأول لغزو مراكش. فجعل على قيادته محمد البشير أخلص رجاله وجعل على الصلاة عبد المؤمن بن عليّ ثم كلّف عبد المؤمن بمخاطبة المرابطين يدعوهم إلى الطاعة والولاء. سار هذا الجيش فانتصر خلال طريقه على جيش للمرابطين بقيادة الأمير الزبير بن عليّ بن يوسف ثم واصل زحفه حتى بلغ مراكش فضرب الحصار عليها. وخاطب عبد المؤمن أمير المسلمين المرابطي عليّ بن يوسف يدعوه إلى الطاعة «فرد عليه عليّ بن يوسف يحذره عاقبة مفارقة الجماعة ويذكره الله في سفك الدماء وإثارة الفتنة(٤٠)».

استمر الموحدون على حصار مراكش زهاء أربعين يوماً. طلب خلالها عليّ بن يوسف النجدة من كافة ولاته على أنحاء بلاد المغرب. فساروا إليه بقواتهم، ونشبت موقعة بين المرابطين والموحدين خارج مراكش في مكان يسمّى البحيرة(٤١). واشترك فيها عليّ بن يوسف بعد خروجه بقواته من

(٣٨) ابن عذارى: البيان المغرب ج ٤ ص ٧٥ ـ ٧٦ ـ محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع ٣ ق ١ ص ١٨٦ ـ ١٨٨ (نقلاً عن ابن عذارى عن ابن القطان في الأوراق المخطوطة هسبيرس ص ٨٨).

(٣٩) ابن عذارى: نفس المصدر ص ٨٣ ـ ٨٤ ـ ابن القطان: نظم الجمان ص ١١٤ ـ ١١٥.

(٤٠) المراكشي: المعجب ص ١٩٢ ـ ١٩٣.

(٤١) تعني البحيرة في مفهوم المغاربة انذاك البستان (ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ٢١٩ ـ ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص ٤٣٣ و٤٤٨ و٤٦٦ و٤٦٧، ٥١٧).

مراكش. فحلّت الهزيمة بالموحدين وسقط أكثرهم قتلى مع قائدهم محمد البشير فلم ينج من الموحدين إلا عدد قليل انسحب بهم عبد المؤمن حين خيّم الظلام، وعاد إلى تينمل(٤٢).

تلقّى ابن تومرت نبأ هذه الهزيمة الفادحة بحزنٍ بالغ. فقد كان مريضاً ساعتئذٍ «ولكنه أخذ يهوّن من فداحة الهزيمة على الموحدين. فاعتبر نجاة عبد المؤمن بن عليّ نجاة للموحدين كلهم وعلامة على بقاء أمرهم واستمراره. ثم توفي ابن تومرت في شهر رمضان سنة ٥٢٤ هـ/أغسطس ١١٣٠ م بعد الهزيمة المذكورة بعدة أشهر. تولّى عبد المؤمن بن عليّ خلافة الموحدين من بعده. وهو من قبيلة كومية المقيمة بساحل تلمسان من بلاد المغرب الأوسط(٤٣)».

ـ قتال عبد المؤمن للمرابطين:

واصل الموحدون ـ رغم هزيمتهم في موقعة البحيرة ووفاة ابن تومرت ـ قتال المرابطين حتى أسقطوا دولتهم. انتهز المرابطون فرصة وفاة ابن تومرت

(٤٢) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١١٦ ـ الزركشي: تاريخ الدولتين ص ٤ ـ عبد الله علام: الدولة الموحدية ص ٧٩ ـ ٨٠ مراجع الغناي: قيام دولة الموحدين ص ٢٥٦ ـ ٢٦٠ ـ محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع ٣ ق ١ ص ١٨٥ ـ ١٩٠ (نقلاً عن ابن القطان: مخطوط نظم الجمان لوحة ٤٠ أو ما بعدها، ابن الأثير الكامل ١٠ ص ٢٠٥، مجهول: الحلل الموشية ص ٨٤ ـ ٨٦، ابن خلدون: العبر ج ٦ ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩، البيذق: أخبار المهدي ص ٧٨ ـ ٧٩، المراكشي: المعجب ص ١٠٧).

(٤٣) هناك ثلاث روايات بخصوص تولي عبد المؤمن أمر الموحدين بعد وفاة ابن تومرت. فرواية تذكر أنه تولاها بعهد ابن تومرت. وأخرى تذكر إجماع مشيخة الموحدين على خلافة عبد المؤمن. -أما الرواية الثالثة فهي ذات طابع اسطوري تنسب إلى دهاء عبد المؤمن نفسه. ترجع بعض المصادر أيضاً نسب الخليفة عبد المؤمن إلى الرسول ﷺ: ابن القطان: نظم الجمان: ص ١٦٨ ـ الناصري: الاستقصا ج ٢ ص ٩٢ ـ مراجع الغناي: قيام دولة الموحدين ص ٢٦٧ ـ ٢٧٩ ـ عبدالله علام: الدولة الموحدية ص ٨٣ ـ ٨٦ و ٩٩ ـ ١٠٣ ـ محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع ٣ ق ١ ص ٢١٩ ـ ٢٢٣ (نقلاً عن ابن القطان: مخطوط نظم الجمان لوحة ٤٥ أ و٦٦ أ، ابن أبي زرع: روض القرطاس ١١٧ و١١٩ ـ ١٢١، البيذق: أخبار المهدي ص ٢١ ـ ٢٢ و ٨٥ المراكشي: المعجب ص ١٠٨ ـ ١٠٩، مجهول: الحلل الموشية ص ١٠٧، ابن خلكان: وفيات الأعيان: ج ٢ ص ٣٩١، ابن خلدون: العبر ج ٦ ص ٢٢٩).

فأرسلوا سنة ٥٢٥ هـ/١١٣١ م جيشاً بقيادة الأمير ابراهيم الشهير بابن تاغيشت للقضاء على الموحدين. فحلّت الهزيمة بهذا الجيش، واستولى الموحدون على ألويته وأسلحته. ثم شاع خبر هذا النصر في بلاد المصامدة، فأخذت الجموع تتوافد على الموحدين وتنضم إليهم(٤٤).

انتهز عبد المؤمن الفرصة، فأرسل جيشين للغزو سنة ٥٢٦ هـ/١١٣٢ م. الأول بقيادة الشيخ عمر أصناك، والثاني بقيادة عبد الرحمن بن زجو. التقى الجيش الأول بقوات للمرابطين فأنزل بها الهزيمة. هاجم الجيش الثاني حصن تسغيموت فقتل الموحدون قائد الحامية المرابطية أبا بكر بن ورصوال. ثم حملوا الباب الحديدي للحصن وعادوا به إلى تينمل، فوضعوه على باب الفخارين أحد أبواب تينمل(٤٥).

سار عبد المؤمن في شهر شوال سنة ٥٢٦ هـ/١١٣٢ م بجيش من الموحدين بلغ عدده نحو ثلاثين ألف مقاتل، وضرب الحصار على مراكش. ثم ارتد عنها نظراً لمناعة أسوارها، وسار ناحية نادلة في وادي درعة، ففتح حصن درعة وحصن هزرجة وبلاد جلاوة. سار بعد ذلك إلى سلا فهاجم قلعة تازاجورت واقتحمها وقتل قائدها المرابطي وأسر زوجته ميمونة بنت ينتان بن عمر(٤٦). عاد عبد المؤمن إلى بلاد السوس فهاجم في طريقه مدينة ناوروت واستولى عليها بعد أن هزم قائدها المرابطي الذي فر إلى مدينة تيونوين. ثم أخضع عبد المؤمن قبائل بلاد السوس فقتل كل من اعترض طريقه وامتنع عن طاعته. ثم عاد إلى تينمل(٤٧).

(٤٤) ابن عذارى: البيان المغرب ج ٤ ص ٨٥.

(٤٥) البيذق: أخبار المهدي بن تومرت ص ٤٤ ـ ٤٥ من ط ابن منصور وص ٨٤ من ط بروفنسال ـ ابن القطان: نظم الجمان ص ١٩٤.

(٤٦) ابن القطان: نظم الجمان ص ١٩٥ ـ ١٩٦ ـ مراجع الغناي: قيام دولة الموحدين ص ٢٨٨ ـ محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق١ ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦ (نقلاً عن مجهول: الحلل الموشية ص ١٠٧، ابن أبي زرع: ٨٥، ابن القطان: مخطوط نظم الجمان لوحة ٢٧٠).

(٤٧) ابن عذارى: البيان المغرب ج ٤ ص ٩٤ ـ ابن القطان: نفس المصدر ـ ص ٢١٠.

استأنف عبد المؤمن غزواته، فاستولى سنة ٥٣٠ هـ/١١٣٦ م على أرزجان ثم سار إلى مضطروكُن فانتصر على جيش من المرابطين بقيادة الأمير سير بن علي بن يوسف واستولى على كميات كبيرة من الغنائم والسلاح. استمر عبد المؤمن في غزواته وانتصاراته لكنه فشل في الإستيلاء على حصن تينلين بفضل بسالة لحاكمه المرابطي يوجين بن ويدرن ووصول نجدة مرابطية. فعاد عبد المؤمن نحو الجنوب واستولى على قواعد ومحلات بلاد السوس الأدنى. هاجم المرابطون بلدة تيغيغايين الموحدية فسبوا كثيراً من النساء. ثم أطلق الموحدون والمرابطون نساء الطرف الآخر. فقال عبد المؤمن، «إنما أعمالنا ردّت علينا، ونحن قوم لا نعمل على هتك العروض(٤٨)».

سار الأمير تاشفين بن عليّ بالجيش المرابطي لقتال الموحدين في سنة ٥٢٣ هـ/١١٣٩ م. فنزل في بلدة تاحكوط من أرض حاحة. بلغ ذلك عبد المؤمن بن عليّ فسار إليه بجيش الموحدين ونزل في بلدة بني سلول من أرض حاحة. فنشبت بين الطرفين معارك وغزوات استمرت أكثر من شهر. فأسفرت عن هزيمة المرابطين وانسحابهم إلى بلدة إيمي تانورت مما جعلهم يستنجدون بقبيلة جزولة. فسارت قبيلة جزولة وشنت هجوماً على مؤخرة جيش الموحدين. ثم استدار الموحدون وفتكوا بمعظم أبناء قبيلة جزولة، واستولوا على أسلحتها ودوابها(٤٩).

ثم عاود الأمير تاشفين المسير بجيشه في العام التالي لقتال الموحدين.

---

(٤٨) البيذق: أخبار المهدي بن تومرت ص ٤٨ ـ ٤٩ من ط ابن منصور وص ٨٧ ـ ٨٨ من ط بروفنسال.

(٤٩) ابن القطان: نظم الجمان ص ٢٤١ ـ ٢٤٢ ـ ابن عذارى: البيان المغرب ج ٤ ص ٩٦ ـ محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع ٣ ق ١ ص ١٣٠ ـ ٢٣١ (نقلاً عن ابن القطان: مخطوط نظم الجمان لوحة ٨١ ب إلى ٨٢ ب، ابن عذارى: البيان المغرب أوراق مخطوطة هسبيرس ص ١٠٣، والقسم الثالث نسخة تاجموت التي نشرت في تطوان ص ١١).

فظل يحاربهم نحو شهرين دون أن يحقق نصراً عليهم. ثم عاد إلى مراكش وعاد الموحدون إلى تينمل. عاود الأمير تاشفين المسير لقتال الموحدين بجيش كبير من المرابطين والحشم والنصارى. فانتصر على الموحدين عند جبل جذميرة وطاردهم حتى فج طرودنت. ثم توقف الموحدون وقاتلوا المرابطين: فحلّت الهزيمة بالمرابطين وعادوا إلى مراكش. ثم سار قائد الروم بالجيش المرابطي لقتال الموحدين لكن الموحدين أقاموا حواجز بالحجر والطين مما أدّى إلى عودة الجيش المرابطي خائباً إلى مراكش(٥٠).

سار الموحدون إلى بلاد حاحة وصعدوا جبل تاجاوطت. فانتهز الفرصة الأمير تاشفين وسار بقواته وعسكر في بلدة تيزغورة. ثم حاصر الموحدين في الجبل زهاء شهرين. فتعرّض الموحدون على أثر ذلك لخطر الفناء، فقد نفد طعامهم وأصابتهم المجاعة. أدرك المرابطون ذلك فكانوا يقولون للموحدين: «اصعدوا إلى السماء أو غوصوا في الأرض»، ثم اندفع الموحدون يائسين لفك الحصار. فنشبت موقعة بين الطرفين قتل فيها كثيراً من الطرفين دون أن يحرز أحدهما نصراً على الآخر. يعلّق البيذق على ذلك بقوله: «فهزمونا أول النهار وهزمناهم آخره وغنمنا بنداً أحمر(٥١)».

استمرت المعارك ناشبةً بين الموحدين والمرابطين دون أن يترتب عليها نتائج حاسمة. فرأى الموحدون أن ينقلوا مسرح المعارك إلى قلب الدولة المرابطية للقضاء عليها. لذلك جهّز عبد المؤمن معظم الموحدين وعيّن على تينمل صهره أبا عمران موسى بن سليمان. ثم سار سنة ٥٣٥ هـ/١١٤٠ م في غزوة كبرى نحو الشمال. فمرّ على بلدة وانزال ثم وقاد ثم أشيار. بلغ المرابطون ذلك فسار الأمير تاشفين بالجيش وأخذ يطارد الموحدين من بلدة إلى أُخرى. سار الموحدون إلى تاسلوت ثم إلى دمنات. ولم يقع خلال ذلك

(٥٠) ابن عذاري: نفس المصدر ص ٩٨.
(٥١) عبدالله علام: الدولة الموحدية ص ١١٥ ـ ١١٦.

معارك ذات شأن بين المرابطين والموحدين. إنما كانت القبائل تدخل تباعاً في طاعة الموحدين. فقد استولى الموحدون على داي بلا مقاومة حين فرّ حاكمها المرابطي عليّ بن ساقطرا. فأعلنت صنهاجة طاعتها للموحدين وطالبت عبد المؤمن الإفراج عن أسرى قبيلتهم ففعل(٥٢).

سار الموحدون بعد ذلك إلى ديقيقين ثم إلى لجدارة ومنها إلى تين طوين ثم هاجموا تازاجارت واستولوا عليها رغم دفاع حاكمها المرابطي يحيى بن ساقطرا وأخذوا غنائمها. ثم ساروا إلى قلعة واوما، فبادر حاكمها يحيى بن سير بتسليمها إليهم وأعلن طاعته لهم. استمر الموحدون في زحفهم حتى نزلوا في مدينة آزرو الواقعة في منطقة قازار. فاتخذوها لفترة وجيزة مقاماً لهم. وأخذوا يبعثون من هذا المكان بعض قواتهم لإخضاع القبائل المجاورة. فسيّروا حملة إلى نوليس وأُخرى إلى تاكريرت. ثم أرسلوا حملةً ثالثةً إلى صفروي بقيادة عبد الرحمن بن زجو، فاستولى عليها وسلب غنائمها(٥٣).

استأنف الموحدون مسيرهم فاستولوا على بلدة القلاج ووضعوا فيها حاميةً بقيادة يحيى أغوال. ثم ساروا إلى أرض غياثة الواقعة شرقي مدينة فاس فعسكروا في جبل عفرا استعداداً لغزو فاس(٥٤). حاول الأمير تاشفين اللحاق بالموحدين فلم يستطع، لكنه وصل مدينة فاس في وقت الشتاء أواخر سنة ٥٣٥ هـ/١١٤١ م. كان الموحدون يمشون في الجبال المانعة حيث الأرزاق الواسعة وكان تاشفين ينزل البسائط بعساكره. فما يجد من البربر من يداخله ولا من يستعين به فيواصله. وذلك بسبب إدباره إلى أن استقر عبد المؤمن بالجبال المجاورة لجهة فاس المعروفة بكراندة. ونزل تاشفين بحصن بالموضع

(٥٢) محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق١ ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥.

(٥٣) البيذق: أخبار المهدي بن تومرت ص ٥٠ ـ ٥١ من ط ابن منصور وص ٩٠ من ط بروفنسال.

(٥٤) البيذق: نفس المصدر ص ٥١ ـ ٥٢ من ط ابن منصور ونفس الصفحة من ط بروفنسال.

المذكور. هكذا عسكر المرابطون والموحدون بالقرب من مدينة فاس(٥٥).

هطلت الأمطار على الفريقين. فبقي الموحدون في معسكرهم بجبل عفرا. بينما رحل الأمير تاشفين بقواته من ظاهر فاس ونزل بالنواظر من ناحية تازا. وانتهى حال عسكر تاشفين حتى أحرقوا السرج وصحاف العود. ولم تمسك أوتاد الأجنبية لرخاوة الأرض. وغرقت الدواب في مرابطها إلى بطنها وكثر الموتى في الضعفاء فكانت شرائط الأجنبية مربوطةً في جيف الموتى. وتوالى عليها المطر نحو خمسة عشر يوماً بلياليها. ثم رفع الله ذلك عنهم بعد يأس من الدنيا(٥٦).

استأنف الموحدون زحفهم بعد توقف المطر مع بداية فصل الربيع. فساروا إلى الشمال الشرقي من مدينة فاس، ونزلوا بلدة لكاي. سار الأمير تاشفين وراءهم بجيشه، فاضطر الموحدون للسير إلى أرض غمارة، ثم سار جيش مرابطي آخر بقيادة الربرتير، فالتقى مع الموحدين في تازغدرا واشتبك معهم دون أن يحرز نصراً عليهم(٥٧). سار الموحدون بعد ذلك إلى نهليط ثم إيجن ومنها ارتحلوا إلى تامقريت. كما استمر المرابطون يطاردون الموحدين حتى مدينة تيطلوين. فارتد الموحدون إلى بالويس الواقعة على البحر المتوسط. ثم رحلوا منها إلى المزمة فهطلت عليهم الأمطار فسماها عبد المؤمن تاغروت آن والوط. ثم سار الموحدون منها إلى جبل تمسامان(٥٨).

بعث عبد المؤمن من هذا المكان ابن زجو لغزو مليلة. فهاجمها وعاد

---

(٥٥) محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق١ ص ٢٣٥.

(٥٦) ابن عذارى: البيان المغرب ج ٤ ص ١٠٠.

(٥٧) البيذق: أخبار المهدي بن تومرت ص ٥٣ من ط ابن منصور وص ٩١ من ط بروفنسال.

(٥٨) ابن عذارى: البيان المغرب ج ٤ ص ١٠٠ - عبدالله علام: الدولة الموحدية ص ١٢١ - ١٢٢ - محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق١ ص ٢٣٨ (نقلاً عن البيذق: أخبار المهدي بن تومرت ص٩٢ - ٩٣، والبيان المغرب في الأوراق المخطوطة السالفة الذكر).

بالسبي والغنائم. رحل الموحدون بعد ذلك إلى ندرومة بلاد كومية ثم رحلوا إلى تاجرا. فبعث عبد المؤمن ابن زجو إلى جهة الساحل فأتى بغنائم وهران وترادفت الفتوحات من كل مكان. ووصل إلى عبد المؤمن زيري بن ماخوخ الزناتي مطيعاً. فبعثه إلى غياته فقبضوا عليه بنو مكود وقتلوه وحزوا رأسه وحملوه إلى فاس وعلق على باب السلسلة(٥٩).

بعث عبد المؤمن ثلاث حملات من تاجرا. الأولى بقيادة عبد الرحمن بن زجو لغزو وهران، فانتصر وعاد بالغنائم. والثانية بقيادة أبي ابراهيم اسماعيل فأخضع قبائل بني وانفرن وآنون. والثالثة بقيادة يوسف بن وانودين لإخضاع بلاد مديونة تكيز من أحواز تلمسان، فالتقى بجيش مرابطي في وادي الزيتون فهزمه وقتل قائديه، ثم وفد على الموحدين عددٌ من زعماء القبائل المجاورة فأعلنوا خضوعهم. ورحل الموحدون بعد ذلك من تاجرا فنزلوا بتفسرت بالقرب من تلمسان وأخضعوا أربع قبائل في تلك النواحي. بينما ارتد المرابطون بقيادة تاشفين والربرتير إلى مدينة فاس(٦٠).

ـ سقوط دولة المرابطين:

تعرّضت دولة المرابطين آنذاك لبعض الإضطرابات مما ساعد الموحدين على مواصلة انتصاراتهم. فمن هذه الاضطرابات أنّ أمير المسلمين عليّ بن يوسف خاب ظنه في ابنه تاشفين. فلم يستطع تاشفين التغلّب على الموحدين. فعزم أبوه على خلعه من ولاية العهد وتقليدها إلى ابنه الأصغر إسحاق. ثم استدعى الأمير عليّ واليه في أشبيليه ليجعله شيخ ابنه إسحاق ومدبر أمره،

(٥٩) ابن عذارى: نفس المصدر والصفحة.

(٦٠) البيذق: أخبار المهدي بن تومرت ص ٥٦ من ط ابن منصور وص ٩٤ من ط بروفنسال ـ عبدالله علام: نفس المرجع ص ١٢٣ ـ ١٢٤ ـ محمد عبدالله عنان: نفس المرجع ص ٢٤٠ ـ ٢٤١.

لكن الأمير عليّ توفي في شهر رجب سنة ٥٣٧ هـ/١١٤٣ م قبل أن يقلّد ابنه إسحاق ولاية العهد. فكتم خبر وفاته ثلاثة شهور. وأصبح تاشفين أمير المسلمين في مراكش[٦١].

توفي الأمير عليّ بن يوسف... بعد ما بلغته أخبار مرضته وأورثته همّاً وغمّاً أثّر في جسمه فالتزم فراشه. كذلك لم يكن الوفاق يجمع أسرة الأمير عليّ بن يوسف. فقد خشي الأمير عليّ أن يثور ابنه أبو بكر بعد وفاته. فلما شعر بتزايد المرض عليه ويئس من نفسه أمر عند ذلك بإخراج ابنه أبي بكر من مراكش وحمله إلى الجزيرة الخضراء ليسجن بها لأنه خاف من خوضه في أمور. فأصاب أبا بكر في سفره مرض. فكان الرجال يحملونه على أعناقهم. ووصل المذكور إلى الجزيرة فسجن بها[٦٢].

ظهرت الخصومة بين قبيلتي مسوفة ولمتونة حين تولّى الأمير تاشفين الحكم. فخرج عليه بعض زعماء مسوفة ولاذوا بحماية الموحدين. فكان من هؤلاء يحيى بن تاكفت وبراز بن محمد وعامل تلمسان يحيى بن أسحاق المعروف بانكمار[٦٣] فنبذ إليهم المرابطون العهد ونسائر مسوفة. كما خرج على الأمير تاشفين زعماء بني ومانوا من قبيلة زناتة. فساروا إلى الموحدين وأعلنوا الطاعة لهم فبعث عبد المؤمن هؤلاء الزعماء مع بعض قواته لإخضاع أبناء عمومتهم من زناتة بني عبد الواد وبني يلومي. بلغ ذلك الأمير تاشفين فبعث الربرتير بجيش لمتونة وأنزل الهزيمة بقوات الموحدين. لذلك سار عبد المؤمن

(٦١) البيان المغرب ج ٤ ص ٩٩ و١٠٠-١٠١ ـ محمد عبدالله عنان: نفس المرجع ص ٢٤١ و٢٤٣ (نقلاً عن الحلل الموشية ص ٩٠، الزركشي تاريخ الدولتين ص ٥، ابن الخطيب: الإحاطة مخطوط الإسكوريال لوحة ٢٩٢، ابن عذارى: البيان المغرب أوراق مخطوطة هسبيرس ص ١٠٥ و١٠٧).

(٦٢) ابن عذارى: نفس المصدر ص ١٠١.

(٦٣) محمد عبدالله عنان: نفس المرجع ص ٢٤٥.

بقواته إلى تلمسان ثم إلى سيرات فأوقع بجيش لمتونة وزناتة(٦٤).

انتقل تاشفين بحملته إلى تلمسان بينما نزل عبد المؤمن بحملته بين الصخرتين على مقربة منه. فجرت حروبٌ طويلة بين الطرفين. ثم بعث عبد المؤمن جيشاً بقيادة يوسف بن وانودين لإخضاع مديونة، فخرج لقتاله جيش لمتونة من تلمسان بقيادة أبي بكر بن الجوهر ومحمد بن يحيى بن فانوا. والتقى الطرفان بوادي الزيتون فنشب بينهما موقعة سنة **٥٣٩ هـ/١١٤٥ م**. ثم وصل خلال القتال عسكر بجاية بقيادة ميمون بن المنتصر لمساعدة المرابطين. ومع ذلك فقد انتصر الموحدون وطاردوا المرابطين إلى باب تلمسان. ثم بعث ميمون بن المنتصر قائد عسكر بجاية إلى عبد المؤمن يعلمه بتوحيده سراً ويعلمه بفتح أفريقيا إذا فتح المغرب(٦٥).

بعث الأمير تاشفين قائد الروم الروبرتير بعسكر ضخم. فأغار على بسائط زناتة ورجع بالغنائم. لكن الموحدين اعترضوا طريق الروبرتير خلال عودته فقتلوه وقتلوا عدداً كبيراً من عسكره(٦٦). فسار على أثر ذلك كثير من الجند النصارى العاملين في خدمة المرابطين إلى إسبانيا والتجأوا إلى ألفونسو ريموندیس ملك قشتالة مما أدّى إلى نقص في الجيش المرابطي. فكتب الأمير تاشفين يستدعي الحشود من كل ناحية. فوصل عسكر سجلماسة وعسكر بجاية بقيادة طاهر بن كباب الصنهاجي وعسكر الأندلس بقيادة الأمير ابراهيم بن تاشفين. فاجتمعت هذه الجيوش في ظاهر تلمسان في أحسن نظام وأكمل هيئة فتعجيب الناس من كثرتهم وحسن منظرهم. بيد أنها كانت آخر

---

(٦٤) الناصري: الاستقصا ج ٢ ص ٩٣ - ٩٤.
(٦٥) ابن عذارى: البيان المغرب ج ٤ ص ١٠٣.
(٦٦) الناصري: المصدر السابق ص ٩٤ - ٩٥ - محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق ١ ص ٢٤٨ (نقلاً عن ابن خلدون: العبر ج ٦ ص ٢٣١).

حشود يحتفل بها المرابطون(٦٧).

بقي الموحدون في معسكرهم بين الصخرتين. بينما نزل المرابطون بالسهل مما يلي الصفصاف. كان طاهر بن كباب قائد عسكر بجاية «يدل بإقدام تعرض بني لمتونة وأميرهم تاشفين بن عليّ لقعودهم عن مناجزة الموحدين وقال: إنما جئتكم لأخلصكم من صاحبكم عبد المؤمن هذا وأرجع إلى قومي! فامتعض تاشفين بن عليّ من كلمته وأذن له في المناجزة. فحمل على القوم، فركبوا وصمموا للقائه فكان آخر العهد به وانفض عسكره(٦٨)».

توالت الوقائع على تاشفين بن عليّ، فأجمع الرحلة إلى وهران وبعث ابنه ولي عهده ابراهيم إلى مراكش في جماعة من لمتونة وبعث معه أيضاً الكاتب أحمد بن عطية، رحل تاشفين بعد ذلك إلى وهران في شهر شعبان سنة **٥٣٩** هـ/يناير **١١٤٥** م. ثم طلب من قائد أسطوله محمد بن ميمون أن يحضر ببعض السفن. فسار ابن ميمون إليه بعشر سفن من المرية دارس على الشاطىء قريباً من معسكر تاشفين(٦٩).

سار عبد المؤمن ومعه بنو ومانوا من زناتة وراء الأمير تاشفين. فنزل منداس وسط بلاد زناتة. فتلاحقت بطون زناتة وبنو يادين وبنو يلومي وبنو مرين ومغراوة لقتال عبد المؤمن، فانتصر عليهم عبد المؤمن وأثخن فيهم حتى أذعنوا للطاعة وانضموا إلى الموحدين. ثم حضر من رؤسائهم سيد الناس بن أمير الناس شيخ بني يلومي وحمامة بن مطهر شيخ بني عبد الواد وغيرهم. فتلقاهم عبد المؤمن بالقبول وسار بهم في جموع الموحدين إلى وهران. ثم فضّ

(٦٧) محمد عبدالله عنان: نفس المرجع والصفحة - عبدالله علام: الدولة الموحدية ص ١٢٧ - ١٢٨.

(٦٨) الناصري: المصدر السابق ص ٩٤.

(٦٩) الناصري: المصدر السابق ج ٢ ص ٩٥ - عبدالله علام: المرجع السابق ص ١٢٩ - محمد عبدالله عنان: المرجع السابق ص ٢٤٩.

عبد المؤمن خلال طريقه عسكر لمتونة، فخرج تاشفين من وهران وسار إلى حصن يقع على ربوة عالية بالقرب من شاطىء البحر كي يسير بالأسطول إلى الأندلس. فعلم عبد المؤمن بذلك فحاصر الحصن وأشعل النيران من حوله. فحاول تاشفين الهرب ليلاً لكنه تردّى به فرسه من حافة فمات، ثم صلب الموحدون جثة تاشفين وبعثوا برأسه إلى تينمل، وساروا إلى وهران فاقتحموها أول عيد الفطر سنة ٥٣٨ هـ/١١٤٥ م واستأصلوا أهلها قتلاً وسبياً(٧٠).

سار عبد المؤمن من مدينة وهران إلى مدينة تلمسان للإستيلاء عليها فمدينة تلمسان تتكوّن من ضاحيتين كبيرتين بينهما مسافة تقدّر بشوط فرس. تسمّى إحداهما تاجررت والأُخرى أقادير. فاغلق أهل أقادير الأبواب وتأهّبوا لمقاومة الموحدين. أما تاجررت فقد أعلن أهلها الطاعة فدخلها الموحدون غداة عيد الفطر. ثم استولى الموحدون بعد ذلك على أقادير. نظّم عبد المؤمن شؤون تلمسان وعيّن عليها سليمان بن محمد ثم غادرها في ربيع الثاني سنة ٥٤٠ هـ/أكتوبر ١١٤٥ م متجهاً إلى مدينة فاس. فاستولى خلال طريقه على وجدات وأكرسيف(٧١).

نشب خلاف بين المرابطين في مراكش على أثر وفاة تاشفين. فقامت بعض جهات الأندلس بالثورة على المرابطين والدعوة للموحدية. ففي حوادث سنة ٥٣٩ هـ/١١٤٥ م يقول ابن عذارى(٧٢) ولي إسحاق بن يوسف، وذلك أنه لما مات تاشفين على ما ذكر بعض المؤرخين بويع لابنه ابراهيم بن تاشفين، فطلع عليه أسحاق إلى مراكش فنقض بيعته ودعا

(٧٠) الناصري: نفس المصدر والصفحة ـ عبدالله علام: نفس المرجع ص ١٢٩ ـ ١٣١ ـ محمد عبدالله عنان: المرجع السابق ص ٢٤٩ ـ ٢٥١ (نقلاً عن البيان المغرب نسخة تاجروت ص ١٦، والقسم الثالث ص ١٦ ـ ١٧، ابن خلدون: العبر ج ٦ ص ٢٣١، مجهول: الحلل الموشية ص ١٠٠، ابن الخطيب: الإحاطة ج ١ ص ٤٦٢، ابن الآبار الحلة السيراء ص ١٩٧ ـ ١٩٨).

(٧١) مراجع الغناي: قيام دولة الموحدين ص ٢٩٨ ـ ٢٩٩.

(٧٢) البيان المغرب ج ٤ ص ١٠٥.

لنفسه. ووقع الخلاف والتدابر بينهم إلى انقطاع دولتهم ودخول الموحدين عليهم... وفي هذه السنة ظهرت في الأندلس دعوة الموحدين. فأول من قام بدعوتهم فيها أهل مبرتلة في السابع عشر من ربيع الأول. ثم خالفت بعد ذلك طلياطة على المرابطين ودخلت في دعوة الموحدين.

ساعد هذا الخلاف الموحدين على مواصلة انتصاراتهم. فقد استمر عبد المؤمن في زحفه حتى بلغ مدينة فاس فضرب الحصار عليها. لكن الأمير أبا بكر يحيى بن الصحراوي أحسن تنظيم الدفاع عن مدينة فاس. ثم خرج بقواته واشتبك مع الموحدين فلم يحرز نصراً عليهم ولم يستطع ردّهم فعاد بقواته إلى المدينة ثم ترك عبد المؤمن بعض قواته على حصار فاس وسار للإستيلاء على مدينة مكناسة. فبقي الموحدون على حصار فاس زهاء تسعة أشهر أقاموا خلالها الحواجز أمام مدخل نهرها. فنشأ عن ذلك بحيرة كبيرة هدمت بعض أجزاء سور المدينة. ثم حصل خلاف بين الأمير يحيى بن الصحراوي وشرف المدينة خيار بن الجياني، فاتصل الجياني بالموحدين وفتح لهم أبواب فاس. فاستولى الموحدون على فاس في ذي القعدة سنة ٥٤٠ هـ/ابريل ١١٤٦ م. بينما فرّ الصحراوي ناجياً بنفسه(٧٣).

ذكر ابن الآبار دخول الموحدين مدينة فاس فقال(٧٤): «إن واليها يحيى بن أبي بكر بن علي يوسف المعروف بابن الصحراوية أعرس تلك الليلة بامرأة من قومه فشغله ابن خيار بكثرة ما أهدى إليه عن النظر لنفسه. وقد واعد الموحدين تمكينهم من البلد لما مكنته الفرصة. فدخلوا عند الفجر ولم يكن ليحيى محيص عن الفرار والنجاة بنفسه فيمن خفّ معه من أصحابه وانتهوا إلى طنجة ثم أجازوا البحر منها إلى الأندلس».

(٧٣) عبدالله علام: الدولة الموحدية ص ١٣٤ - ١٣٦ - مراجع الغناي: المرجع السابق ص ٢٩٩ - محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق ١ ص ٢٥٦ - ٢٥٨.

(٧٤) الحلة السيراء ج ٢ ص ٢٣٦.

بلغ الخليفة عبد المؤمن استيلاء الموحدين على فاس. فعاد إليها ونظّم شؤونها. ثم هدم أسوارها، وعيّن عليها أبا عبد الله محمد بن يحيى الكدميوي على أن يعاونه الجياني في إدارة شؤونها. سار عبد المؤمن بعد ذلك نحو مدينة مكناسة، فترك على حصارها القائد أبا زكريا بن يومور واتجه إلى مدينة سلا فاستسلمت له دون مقاومة. ثم استأنف مسيره بالجيش فاستولى على قصبة الرباط وعيّن الشيخ عبد الواحد الشرقي والياً على سلا والرباط، سار عبد المؤمن بعد ذلك للاستيلاء على مدينة مراكش(٧٥).

أما الموحدون الذين كانوا يحاصرون مكناسة، فقد ضيّقوا عليها الحصار، وبنوا حولها سوراً، وحفروا أمامه خندقاً، وتركوا فيها ثغرات لمهاجمتها ومقاتلة المدافعين عنها. سقطت مدينة مكناسة على أثر ذلك بأيدي الموحدين فعيّن عبد المؤمن أبا زكريا بن يومور والياً عليها بينما تذكر رواية أخرى أن عبد المؤمن حضر سقوط مكناسة ثم غادرها إلى تادلا. فميز فيها جيشه وانضمت إليه هسكورة وصنهاجة. ثم سار إلى وادي أم الربيع فاخترقه شرقاً حتى ثغر أزمور. وهناك حملت إليه صنهاجة المؤن. ثم استدعى عبد المؤمن أشياخ دكالة إليه، فوفدوا عليه وأعلنوا خضوعهم. ثم هبط بعد ذلك إلى مراكش(٧٦).

وصلت طاعة سبتة للموحدين خلال مسير عبد المؤمن إلى مراكش. فقبل عبد المؤمن طاعتها وعيّن عليها يوسف بن مخلوف. أوقع عبد المؤمن خلال طريقه أيضاً بجموع قبيلة لمطة ثم بعث الشيخ أبا حفص عمر ابنتي، فغزا قبيلة برغواطة وأثخن فيها(٧٧).

بلغ الموحدون مدينة مراكش أول شهر محرم سنة ٥٤١ هـ/١٣ يونية

(٧٥) عبدالله علام: المرجع السابق ص ٢٥٩.
(٧٦) محمد عبدالله عنان: المرجع السابق ص ٢٥٩.
(٧٧) الناصري: الاستقصا ج ٢ ص ٩٧ ـ مراجع الغناي: قيام دولة الموحدين ص ٣٠١.

١١٤٦ فعسكروا في جبل ايجليز الواقع غربي المدينة. وضرب عبد المؤمن قبته وأمر ببناء مسجد وصومعة ثم أخذ يشرف على الحصار والمعارك الحربية. كان أمير المرابطين صغير السن فتولّى عمليات المقاومة بعض قادة لمتونة أمثال سير بن الحاج واسحاق بن ينتان ومحمد بن حواء ومحمد بن يانجلا. ثم خرج المرابطون لقتال الموحدين فاستمر القتال أربعة أيام دون أن ينتصر أحد. وفي اليوم الخامس رتّب عبد المؤمن كمائن فأوقعت الهزيمة بالمرابطين وطاردتهم حتى باب الشريعة أحد أبواب مراكش خرج بعد ذلك بقليل القائد إسحاق بن ينتان مع بعض أصحابه فبايع الموحدين(٧٨).

ضاق المرابطون بالحصار فقد استمر زهاء تسعة أشهر، فنضبت خلالها المواد الغذائية، وتساقط الناس من الجوع، ونفقت الدواب وضعفت مقاومة المرابطين، بلغ عبد المؤمن ذلك فأمر باقتحام المدينة بواسطة السلالم وجعل كل قبيلة تقتحم مراكش من جهة معينة، ففي ١٨ شوال سنة ٥٤١ هـ/٢٤ مارس ١١٤٧ م اقتحم الموحدون مراكش، فلم ينتصف النهار حتى استولوا عليها واستباحوها ثلاثة أيام. وقبض الموحدون على الأمير ابراهيم وعلى بعض حاشيته واقتادوهم إلى جبل إيجليز ثم قتلوهم أمام عبد المؤمن(٧٩).

لم يسكن الموحدون مدينة مراكش فور احتلالها. ذلك أن الموحدين كانوا يرون في غلوائهم الدينية أن مراكش هي مدينة المجسمين وأهل اللثام الذين لعنهم المهدي وأفتى بشركهم وتكفيرهم. فهي إذن مدينة نجسة لا تصلح لنزول الموحدين الأطهار. وقال أشياخ الموحدين فوق ذلك إن المهدي، امتنع عن سكن مراكش لتشريق مساجدها عن القبلة المستقيمة. والتشريق والتحريف لغير المسلمين من اليهود وغيرهم. فأشار الفقهاء الموحدون عندئذ

(٧٨) عبدالله علام: الدولة الموحدية ص ١٣٧ - ١٣٨ - محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق ١ ص ٢٦٠ - ٢٦١ - مراجع الغناي: نفس المرجع ص ٣٠١ - ٣٠٢.

(٧٩) محمد عبدالله عنان: نفس المرجع ص ٢٦٢ - ٢٦٣ - بروفنسال: نخب تاريخية ص ٤١ - أندريه جوليان: تاريخ إفريقيا الشمالية ج ٢ ص ١٣٦.

بتطهير المدينة تمهيداً لسكانها ونصحوا بهدم جوامعها القائمة بسبب تشريقها وتحريفها عن القبلة. وهكذا هدم جامع علي بن يوسف هدماً جزئياً وهدمت الجوامع الأخرى... بعد أن تم تطهير المدينة... دخل عبد المؤمن مراكش وقسّم أرزاقها ودورها على الموحدين(٨٠).

- إخضاع الثائرين على الموحدين:

إن استيلاء الموحدين على مراكش وسقوط المرابطين لم يؤدّ إلى استتباب الأمور للموحدين. فقد رفعت بعض القبائل والمدن راية العصيان على الموحدين. بدأ هذا العصيان بثورة محمد بن هود بن عبد الله السلاوي من أهل سلا. كان السلاوي قد بايع عبد المؤمن وشهد معه فتح مراكش، ثم نكث البيعة فغادر مراكش وظهر في رباط ماسة من بلاد السوس ودعا لنفسه وتسمّى بالهادي. اتسعت حركة السلاوي وتوافد الأنصار عليه من كل ناحية فدخل دعوته أهل سجلماسة ودرعة وقبائل دكالة ورجراجة وتامسنا وهوارة وغيرهم حتى لم يبق تحت طاعة عبد المؤمن إلا مراكش(٨١).

بعث عبد المؤمن جيشاً لإخضاع السلاوي بقيادة يحيى بن إسحاق انكمار فهاجم انكمار السلاوي فحلّت الهزيمة بانكمار وعاد إلى مراكش. ثم بعث عبد المؤمن جيشاً آخراً بقيادة الشيخ أبي حفص الهنتاني. فسار أبو حفص إلى رباط ماسة فبرز له السلاوي بستين ألف راجل وسبعمائة فارس فنشبت بين الطرفين حرب شديدة انتهت بانتصار الموحدين ومقتل السلاوي وتفريق جموعه. عاد أبو حفص إلى مراكش فأقلم قليلاً ثم خرج ثانية لقتال القائمين بدعوة السلاوي في جبال درن. فأوقع بأهل نفيس وهيلانة وأثخن فيهم حتى أذعنوا للطاعة. ثم سار إلى هسكورة فأوقع بها وافتتح الحصون والمعاقل. ثم سار إلى سجلماسة فاستولى عليها ورجع إلى مراكش(٨٢).

(٨٠) الناصري: الاستقصا ج ٢ ص ٩٩.

(٨١) الناصري: الاستقصا ج ٢ ص ٩٩.

(٨٢) الناصري: نفس المصدر ص ٩٩ - ١٠١ - ابن خلدون: العبر ج ٦ ص ٢٣٢ - محمد عبدالله =

سار عبد المؤمن أيضاً بجيشه من مراكش لقتال قبيلة دكالة، وهي من القبائل التي نكثت بيعة الموحدين وحشدت لقتالهم عشرين ألف فارس وعشرين ألف راجل. هاجم عبد المؤمن قبيلة دكالة فجأة من جهة لم تخطر على بالهم فهزمهم وقتل أكثرهم وسبى أطفالهم وغنم أموالهم(٨٣).

عاود الشيخ أبو حفص المسير بالجيش لإخضاع برغواطة فحلّت به الهزيمة وعاد إلى مراكش مما أدّى إلى انتشار الثورات على الموحدين. كانت مدينة سبتة أُولى المدن التي أعلنت الثورة على الموحدين بزعامة قاضيها محمد بن عياض(٨٤) فقد قتل أهل سبتة الموحدين الموجودين في مدينتهم بما فيهم العامل الموحدي يوسف بن مخلوف التنملي. ثم سار ابن عياض إلى الأندلس فقابل يحيى بن غانية قائد المرابطين في الأندلس وطلب منه والياً على سبتة. أرسل يحيى بن غانية يحيى الصحراوي والياً على سبتة مع القاضي ابن عياض، فانضم إلى الصحراوي قبائل برغواطة ودكالة وحاحة وركراكة. ثم غزا الصحراوي المناطق المجاورة لسبتة فدخلت في طاعته طنجة وسلا(٨٥).

بعث عبد المؤمن جيشاً بقيادة بصلاسن لإخضاع الثائرين. فسار بصلاسن إلى تادلة ثم إلى سلا فاقتحمها وتغلّب على قصبتها بالسيف وأعاد أهلها إلى الطاعة. ثم عهد بولايتها إلى موسى بن زيري الهنتاني. سار بصلاسن بعد ذلك إلى بني درياغل فأخضعهم واقتسم الموحدون غنائمهم.

= عنان: المرجع السابق ص ٢٦٩ ـ ٢٧٢ (نقلاً عن مجهول: الحلل الموشية ص ١١٠، ابن عذارى: البيان المغرب القسم الثالث ص ٢٦، ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٢٣، ١٣٤، البيذق: أخبار المهدي ص ١٠٦ ـ ١٠٧ ابن الخطيب: الإحاطة ج ١ ص ٢٧١ و ٢٧٧).

(٨٣) مراجع الغناي: قيام دولة الموحدين ص ٣٠٦.

(٨٤) اعتبر محمد عبدالله عنان أن ثورة القاضي عياض وتغيره على الموحدين كانت لأسباب غير واضحة (دولة الإسلام ع ٣ ق ١ ص ٢٧٣). كان القاضي عياض من أشد انصار مذهب مالك (الناصري: الاستقصا ج ٢ ص ١٠٣).

(٨٥) مراجع الغناي: قيام دولة الموحدين ص ٣٠٦ ـ ٣٠٧.

ثم سار شمالاً صوب طنجة فاقتحمها وقتل واليها المرابطي يحيى بن تايشا. وسار بعد ذلك شرقاً إلى سبتة فضرب الحصار عليها ولم يدخلها ثم تركها وعاد إلى مكناسة، ذلك أن القاضي عياض بادر فبعث إلى بصلاسن بيعة أهل سبتة للموحدين فأنقذت سبتة من العقاب(٨٦).

كان يحيى الصحراوي قبل ذلك قد غادر سبتة استجابة لبرغواطة لمساعدتها على قتال عبد المؤمن فأحسنت برغواطة استقبال يحيى الصحراوي وبايعته وانضمت إليه. مما أدّى إلى هزيمة عبد المؤمن. عاود عبد المؤمن الهجوم فانتصر على برغواطة وحكم السيف فيهم حتى انقادوا للطاعة وتبرأوا من يحيى الصحراوي ولمتونة. فرّ يحيى الصحراوي إلى منجاتة ثم طلب الأمان من عبد المؤمن وتشفع إليه بأشياخ القبائل، فحصل على الأمان ثم وفد على عبد المؤمن فبايعه وحسنت طاعته(٨٧).

عاد عبد المؤمن إلى مراكش ظافراً، فعقد للموحدين مجلساً وعظهم فيه ثم قدم إليهم قوائم بأسماء من يشك في ولائهم من أبناء مختلف القبائل، وطلب منهم قتل من ورد اسمه في هذه القوائم. استجاب الموحدون لطلب عبد المؤمن فقتلوا أعداداً كثيرة من أبناء القبائل وأهل المدن ذكرها البيذق. كان قتلى مدينة فاس أقل عدداً فبلغ ثمانين رجلاً بينما بلغ قتلى زناتة بأرض فازار ستة آلاف وهو أكبر عدد يقول البيذق بعد ذكر عدد قتلى كل قبيلة ومدينة: «تم الاعتراف بحمد الله وعونه.. فهدّأ الله البلاد للموحدين وأعانهم على الحق ونصرهم وأقاموا الدين ولم يتفرقوا فيه وتمهدت الدنيا وأزال الله ما كان فيها من التخليط. وهذا كان سبب الاعتراف» ثم يضع تاريخ هذه الحوادث الدموية في سنة ٥٤٤ هـ/١١٤٩ م(٨٨).

---

(٨٦) محمد عبدالله عنان: نفس المرجع ص ٣٧٤.
(٨٧) الناصري: الاستقصا ج ٢ ص ١٠٢.
(٨٨) محمد عبدالله عنان: المرجع السابق ص ٢٧٧ ـ ٢٧٨.

ـ احتلال إفريقيا:

رأى عبد المؤمن بعد ذلك أن يمد سيطرة الموحدين على بقية بلاد المغرب فيستولي على إفريقيا. كانت أحوال إفريقيا آنذاك مضطربة وغير مستقرة بسبب ضعف حكامها وعبث العرب واستبداد المتغلبين من الزعماء والقبائل على بعض المدن والجهات بالإضافة إلى استيلاء فرنجة صقلية على معظم الثغور من طرابلس حتى تونس[٨٩]. فقد استولى روجر ملك صقلية على جزيرة جربة سنة ٥٢٩ هـ/١١٣٥ م. ثم استولى على طرابلس سنة ٥٤١ هـ/١١٤٦ م. ثم استولى على المهدية وسوسة وصفاقس سنة ٥٤٣ هـ/١١٤٨ م. فخشي عبد المؤمن أن تمتد سيطرة ملك صقلية على بونة وبجاية لضعف حكامها من بني حماد الصنهاجيين مما سيشكل خطراً على الموحدين في المغرب[٩٠].

شاور عبد المؤمن الشيخ أبا حفص وأبا ابراهيم وغيرهما من مشيخة الموحدين فوافقوه. أحاط عبد المؤمن مشروع غزو إفريقيا بسرية تامة. فخرج من مراكش أواخر سنة ٥٤٦ هـ/١١٥١ م، بعد أن استخلف عليها الشيخ أبا حفص الهنتاني. ثم سار إلى سلا فأقام بها شهرين. سار بعد ذلك إلى سبتة مظهراً العبور إلى الأندلس بقصد الجهاد. فاستدعى فقهاء الأندلس وأعيانها وقوادها وسألهم عن أحوال بلادهم ثم أوصاهم وودعهم[٩١].

استعرض عبد المؤمن جيشه وأظهر العودة إلى مراكش ولكنه سلك

---

(٨٩) عبدالله علام: الدولة الموحدية ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣ ـ محمد عبدالله عنان: نفس المرجع ص ٢٧٩ ـ ٢٨٠ ـ مراجع الغناي: قيام دولة الموحدين ص ٣٠٨ ـ ٣٠٩.

(٩٠) أحمد بن عامر: الدولة الصنهاجية. الدار التونسية للنشر ١٩٧٢، ص ١٤٢ ـ ١٤٤ ـ N. Barbour: A survey of north west Africa (the Maghrib) Oxford University press. London 1959 p. 284

(٩١) الناصري: الاستقصا ج ٢ ص ١٠٧ ـ ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ٦٤.

طريقاً غير مطروقة. ثم أمر فجأة بإخلاء الطريق إلى تلمسان وتزويدها بالعلونة والمياه.

جدّ عبد المؤمن في السير فخرج سريعاً على وادي ملوية، وسار إلى تلمسان فأقام فيها يوماً واحداً. ثم استأنف زحفه نحو بجاية فدخل جزائر بني فرغنة فجأة على حين غرة واستولى عليها. فهرب حاكمها القائم بن يحيى إلى بجاية وأبلغ أباه يحيى بن العزيز بالهجوم الموحدي وسقوط جزائر بني فرغنة بأيديهم(٩٢).

لم يحاول الأمير يحيى بن العزيز لقاء عبد المؤمن وقتاله. إنما جمع أمواله وذخائره ثم هرب إلى مدينة بونة ومنها سار إلى مدينة قسنطينة. فسار عبد المؤمن وراءه وضرب الحصار عليه. لذلك اضطر الأمير يحيى أن يفاوض عبد المؤمن ففعل ودخل في طاعته. فوفى له عبد المؤمن ذلك ونقله مكرماً بعائلته إلى المغرب الأقصى وأجرى عليه الأرزاق(٩٣).

سار عبد المؤمن بعد ذلك إلى بجاية فاستولى عليها بدون قتال. فقد أعلن أهلها الولاء والطاعة. كما أنّ حاكمها أبا محمد ميمون بن علي بن حمدون وزير بني حماد اتصل سراً بعبد المؤمن وفتح له أبواب بجاية. فدخلها عبد المؤمن واستولى عليها بلا إراقة دماء(٩٤). أما قلعة بني حماد فقد استولى الموحدون عليها عنوة. فقد كان فيها جيوش ابن عبد العزيز بجموع صنهاجة. فأرسل عبد المؤمن إليها جيشاً بقيادة ابنه أبي محمد بن عبد الله. فأضرم النيران حول القلعة واقتحمها عنوةً وقتل ثمانية عشر ألفاً من أهلها واستولى على الغنائم والسبي(٩٥).

(٩٢) الناصري: نفس المصدر ج ٢ ص ١٠٧ ـ ١٠٨ B. Meakin: The Moorish Empire p. 72
(٩٣) المراكشي: المعجب ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧ و ٢٣١ ـ ٢٣٢ ـ ابن خلدون: العبر ج ٦ ص ٢٣٦.
(٩٤) البيذق: أخبار المهدي ص ٧٣ ـ ٧٥ من ط ابن منصور وص ١١٣ ـ ١١٤ من ط بروفنسال ـ محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع ٣ ق ١ ص ٢٨٢ (نقلاً عن ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٢٦، بروفنسال: مجموع رسائل موحدية ص ٢٠) ـ Ibid
(٩٥) الناصري: الاستقصا ج ٢ ص ١٠٨ ـ ابن خلدون: المصدر السابق ص ٢٣٦.

رفض العرب في تلك النواحي الإذعان للموحدين والخضوع لهم. فجمعوا حشودهم من بطون أبثح وزغبة ورياح ثم ساروا وأنزلوا الهزيمة بأحد جيوش الموحدين، لذلك عاود عبد المؤمن تجهيز جيش آخر، فسار هذا الجيش وانتصر على العرب وشتت جموعهم واستولى على أسلابهم سنة ٥٤٨ هـ/١١٥٣ م. ثم نقل عبد المؤمن بعض أشياخ العرب إلى مراكش وأحسن إليهم فردّ إليهم حريمهم وأموالهم اكتساباً لمحبتهم وتآلفاً لقلوبهم. ثم سمح لهم بالعودة إلى أهلهم وبلادهم(٩٦).

آثر عبد المؤمن أن يعود إلى مراكش، فسار إليها أواخر سنة ٥٤٨ هـ/١١٥٣ م. ولكنه قبل أن يعود عيّن على بجاية وأعمالها ابنه السيد أبا محمد بن عبد الله واستوزر له أبا سعيد يخلف بن الحسين(٩٧). كلّف عبد المؤمن ابنه أن يشن الغارات على نواحي أفريقيا وأن يضيّق على تونس ويمنع عنها المرافق التي تصل إليها على طريقه. ففعل ذلك(٩٨).

سار عبد الله بن عبد المؤمن بجيش من المصامدة والعرب للاستيلاء على مدينة تونس. فضرب الحصار عليها وقطع أشجارها ومنع المياه عنها. كانت تونس آنذاك خاضعة للملك روجر صاحب صقلية ويتولاها عامل مسلم من قبله يعرف بعبد الله بن خراسان. ضاق ابن خراسان بالحصار فخرج بجنده وبأهل تونس لقتال عبد الله بن عبد المؤمن ونشبت موقعة بين الطرفين في ظاهر تونس فحلّت الهزيمة بعبد الله بن عبد المؤمن وعاد إلى بجاية. ثم بعث إلى أبيه عبد المؤمن يخبره بذلك(٩٩).

رأى الخليفة عبد المؤمن أن يسير بنفسه للاستيلاء على إفريقيا. فقد شجّعه على ذلك قيام أهل إفريقيا بالثورة على حكامهم فرنجية صقلية حين

(٩٦) أندريه جوليان: تاريخ إفريقيا الشمالية ج ٣ ص ١٣٨ - ١٣٩ - مراجع الغناي: قيام دولة الموحدين ص ٣١١ - ٣١٢ - محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق ١ ص ٢٨٤ - ٢٨٥.
(٩٧) ابن خلدون: العبر ج ٦ ص ٢٣٦ - الناصري: الاستقصا ج ٢ ص ١١٠.
(٩٨) المراكشي: المعجب ص ٢٠٧ و٢٢٧ - ٢٢٨.
(٩٩) المراكشي: نفس المصدر ص ٢٢٨.

توفي الملك روجر سنة ٥٤٩ هـ/١١٥٤م فخلفه في الحكم ولده وليم. فاضطربت الأحوال في صقلية على الملك وليم وثارت عليه بعض النواحي. فانتهز الفرصة أهل أفريقيا وقاموا بالثورة على الفرنجة في بلادهم. ثارت جربة سنة ٥٥١ هـ/١١٥٦م ثم تلتها مدينة صفاقس بزعامة واليها عمر بن أبي الحسن القرباني. كما قام أهل زويلة بتشجيع والي صفاقس بالثورة على الفرنجة في بلدهم فنشب القتال بين الطرفين. كذلك قام العرب بحصار المهدية فقطعوا عنها المياه والمؤن. وقامت الثورة أيضاً في مدينة طرابلس بزعامة شيخها يحيى بن مطروح وأسرت الحامية الفرنجية ببلدهم. لذلك بعث الملك وليم أُسطوله لنجدة المهدية وإخضاع الثوار. فترك العرب حصار المهدية. ثم نشب القتال بين أهل ذويلة والفرنجة فحلّت الهزيمة بأهل زويلة ونهب الفرنج أموالهم وسبوا نساءهم وأطفالهم(١٠٠).

فرّ جماعة من أهل زويلة إلى عبد المؤمن بن علي وهو بمراكش يستغيثونه ويستنصرونه على العدو. فلما وصلوا إليه أكرمهم وأخبروه بما جرى على المسلمين، وأنه ليس في ملوك الإسلام من يُقصد سواه ولا يكشف هذا الكرب غيره. فدمعت عيناه وأطرق. ثم رفع رأسه وقال: أبشروا لأنصرنكم ولو بعد حين. وأمر بإنزالهم وأطلق لهم ألفي دينار(١٠١).

وكان الحسن بن علي الصنهاجي آخر ملوك بني زيري بن مناء يشجع عبد المؤمن على غزو أفريقيا واستنقاذها من الفرنجة. كان الحسن صاحب المهدية سابقاً ثم غادرها سنة ٥٤٣ هـ/١١٤٨م على أثر وصول الأُسطول الصقلي لاحتلالها فسار بأهله إلى ابن عمه يحيى بن العزيز صاحب بجاية.

---

(١٠٠) الزركشي: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية تونس ١٣٨٩ هـ ص ٨ - عبدالله علام: الدولة الموحدية ص ٢٠٧ - ٢٠٨ - محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق ١ ص ٢٩٢ - ٢٩٣ (نقلاً عن رحلة التيجاني ص ٧٥ و ٢٤٢، ابن الأثير: الكامل ج ١ ص ٧٦ - ٧٧) - N. Barbour: The Maghrib pp. 284 - 285 S. painter: A history of the middle ages pp. 198 - 199

(١٠١) الناصري: الاستقصا ج ٢ ص ١٢٠ - ١٢١.

فأنزله ابن عمه في جزائر بني فرغنة كالسجين. ثم دخل في طاعة الموحدين حين استولى عبد المؤمن على جزائر بني فرغنة سنة ٥٤٧ هـ/١١٥٢ م. فقبله عبد المؤمن وأنزله في مراكش على جراية واسعة. فكان الحسن يحثّ عبد المؤمن على احتلال إفريقيا(١٠٢).

عزم عبد المؤمن أمره على احتلال إفريقيا فأمر ولاته بتخزين الحبوب وحفر الآبار كي يستفيد منها الجيش خلال مسيره ففعلوا. سار عبد المؤمن بجيش ضخم من مراكش مع بداية سنة ٥٥٤ هـ/١١٦٠ م. وسار الأسطول في نفس الوقت بسبعين قطعة. حاصر عبد المؤمن مدينة تونس، وبعث إلى أهلها يدعوهم إلى الطاعة، فرفضوا واستعدوا للمقاومة بزعامة واليهم، فهاجم عبد المؤمن المدينة بكل عنف وشدة في اليوم التالي فأدرك أهلها أن لا جدوى في المقاومة مما جعل بعض الأعيان يسيرون إلى عبد المؤمن يسألونه الأمان. فوافق عبد المؤمن وأمن هؤلاء الأعيان في أنفسهم وأموالهم وأهلهم لمبادرتهم إلى الطاعة. أما سائر أهل تونس فقد أمنهم عبد المؤمن على أنفسهم وأهلهم وقاسمهم على أملاكهم وأموالهم نصفين. ثم وافق عبد المؤمن على خروج حاكم المدينة بأهله حيث يريد فتم ذلك. عرض عبد المؤمن الإسلام على اليهود والنصارى بتونس «فمن أسلم سلم ومن أبى قتل»(١٠٣).

أقام عبد المؤمن في تونس ثلاثة أيام. ثم سار منها إلى مدينة المهدية. بلغ ذلك الفرنجة فغادروا مدينة زويلة وتحصّنوا بداخل المهدية واستعدوا للمقاومة. احتل عبد المؤمن مدينة زويلة ثم حاصر مدينة المهدية وأخذ في

(١٠٢) الناصري: نفس المصدر ص ١٢٠ ـ مراجع الغناي: قيام دولة الموحدين ص ٣١٣ ـ محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق ١ ص ٢٨٠ و٢٩٣ ـ ٢٩٤.

(١٠٣) الناصري: نفس المصدر ص ١٢١ ـ ١٢٢ ـ محمد عبدالله عنان: نفس المرجع ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥ (نقلاً عن ابن عذارى: البيان المغرب القسم الثالث ص ٣٨، ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ٩١، مجهول: الحلل الموشية ص ١١٥).

غزوها لكنه لم ينل منها لمناعتها فحاصر الأسطول الموحدي مدينة المهدية. ثم صعد عبد المؤمن إحدى السفن مع حاكمها السابق الحسن بن علي ودار حول المهدية لمعاينتها في البحر. فهاله مناعتها وقال للحسن: «كيف نزلت عن مثل هذا الحصن؟! فقال: لقلة من يوثق به وعدم القوت وحكم القدر، فقال: صدقت»[(١٠٤)].

أدرك عبد المؤمن أن الاستيلاء على المهدية لن يتم إلا بمواصلة الحصار فترة طويلة فظل على حصارها ستة أشهر. أرسل خلالها فرقاً من جيشه لاحتلال بعض البلاد. فحضرت إليه الوفود تعلن الولاء والطاعة إذ حضر إليه عمر بن الحسن القرباني صاحب صفاقس بوفد من أشياخها. كما حضر يحيى بن مطروح شيخ طرابلس ثم حضر يحيى بن تميم بن المعز بن الرند صاحب قفصة. فقبل عبد المؤمن طاعتهم وأعادهم لبلادهم[(١٠٥)].

أعلن أيضاً بعض المتغلبين على المدن والنواحي طاعتهم للموحدين. فمن هؤلاء عيسى بن مقرب بن طراد اللخمي صاحب بنزرت، ومنيع الصنهاجي صاحب زرمة وطبرقة[(١٠٦)]. أرسل عبد المؤمن بعد ذلك ابنه عبد الله لإخضاع بعض الجهات عنوة. فسار عبد الله واستولى على سوسة وجبال نفوسة وبلاد الجريد وما ولاها ثم استولى على جبل زغوان من بني حماد بن خليفة وشقبنارية من يد بني عياد بن نصر الله، واستولى على مدينة الأربص من العرب[(١٠٧)]. أما مدينة قابس فقد استولى عليها بعد معركة مع أصحابها

(١٠٤) الناصري: نفس المصدر ص١٢٢ ـ أحمد مختار العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٣٣ ـ ٣٣٥.

(١٠٥) الزركشي: تاريخ الدولتين ص٨ ـ مراجع الغناي: قيام دولة الموحدين ص ٣١٦ ـ محمد عبدالله عنان: نفس المرجع ص ٢٩٦.

(١٠٦) الزركشي: نفس المصدر والصفحة.

(١٠٧) ابن خلدون: العبر ج ٦ ص ٢٣٧ ـ الناصري: الاستقصا ج ٢ ص ١٢٣.

المتغلبين عليها من بني كامل. ثم سار بنو كامل إلى عبد المؤمن فأعلنوا الولاء والطاعة(١٠٨).

بعث وليم ملك صقلية أُسطولاً لإنقاذ قواته في المهدية بعد شهرين من حصارها. فانتصر عليه الأُسطول الموحدي وأسر منه سبع شواني وأجبره على التراجع. فيئس الملك من إمكانية إنقاذ المهدية فتركها لمصيرها. كما ضاق الفرنجة من طول الحصار فسألوا عبد المؤمن النزول عن المدينة مقابل المسير بأمان إلى صقلية. فوافق عبد المؤمن ودخل المهدية في المحرم سنة ٥٥٥ هـ/يناير ١١٦٠ م(١٠٩).

أقام عبد المؤمن في مدينة المهدية عشرين يوماً فرتب أحوالها وأَصلح سورها. ثم نقل إليها الذخائر والأقوات والرجال. وعيّن عليها أَبا عبد الله محمد بن فرج الكومي وجعل إلى جانبه الحسن بن علي الصنهاجي للاقتداء برأْيه وأَفعاله(١١٠). عيّن عبد المؤمن بعد ذلك الولاة والقضاة على جهات إفريقيا فجعل على تونس ابنه أَبا إسحاق ابراهيم وقيل الشيخ أَبا محمد عبد الله الهرغي. وولّى على أعمالها المخزنية أَبا حفص عمر. ثم عاد عبد المؤمن إلى مراكش في شهر صفر سنة ٥٥٥ هـ/فبراير ١١٦٠ م(١١١).

تم بذلك توحيد بلاد المغرب لأول مرة منذ الفتح العربي. أصبحت دولة الموحدين في أقصى اتساعها تمتد من برقة شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً. ومن الصحراء الكبرى وغانة جنوباً إلى بلاد الأندلس شمالاً حتى نهر التاجة.

---

(١٠٨) محمد المرزوقي: قابس مكتبة الخانجي بمصر ١٩٦٢ ص ١٢٩ و ١٧٩ - ١٨٠.

(١٠٩) أحمد مختار العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٣٥ - ٣٣٦ - محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق ١ ص ٢٩٦ - ٢٩٧ - أندريه جوليان: تاريخ إفريقيا الشمالية ج ٢ ص ١٤٤.

(١١٠) الناصري: الاستقصا ج ٢ ص ١٢٤.

(١١١) الزركشي: تاريخ الدولتين ص ٨.

الفصل الثاني

ثورات الأندلسيين على المرابطين في أواخر دولتهم

قام أهل الأندلس بالثورات على المرابطين في أواخر دولتهم وانتشرت هذه الثورات بسرعة مذهلة في معظم قواعد الأندلس. إن حوادث بعض هذه الثورات متوفرة في المصادر، وحوادث بعضها الآخر لا يتعدى الأسطر إن لم يكن مجرد ذكر(١١٢).

---

(١١٢) يرى محمد عبدالله عنان أن سبب هذه الثورات يعود إلى القومية الأندلسية. فيطيب له التركيز على هذا العامل وتكراره. ثم أورد رأي كوديرا الخاص في العطف على النصارى وإدماجهم في الجيوش المرابطية. ويعلق على ذلك بقوله: «بيد أن هذا السبب يعتبر في نظرنا ثانوياً إزاء العامل القومي» (دولة الإسلام ع٣ ق١ ص ٣٠٥ ـ ٣٠٦).

إنني لا أتفق مع محمد عبدالله عنان في هذا الرأي. فإن فكرة القومية بمفهومها الحديث لم تكن قد تبلورت بعد في أذهان أهل ذلك الزمان. إنني أرى أن عوامل ثورات الأندلس على المرابطين هي تلك التي وردت في التمهيد بالإضافة إلى قيام الموحدين وانتصاراتهم المتوالية على المرابطين في المغرب.

على كل حال فإن هذا الموضوع يجب أن لا ينظر إليه بهذه البساطة ولا يحلل بهذه السطحية. فإن علاقة الإمام بالرعية من حيث وجوب طاعته أو القيام عليه كانت شغل المفكرين والفقهاء المسلمين طوال قرون عديدة خلال العصور الوسطى. بل أرى أنها لا زالت قائمة حتى يومنا هذا.

هناك دراسة طيبة حول هذا الموضوع خلال العصور الوسطى قام بها م. ك. س. لامبتون انظر شاخت وبوزورث: تراث الإسلام. القسم الثالث ص٣٣ ـ ٧٣. ترجمة حسين مؤنس وصدقي العمد. منشورات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت سنة ١٩٧٨ م/١٣٩٨ هـ.

ـ ثورات غربي الأندلس:

قامت أول الثورات على المرابطين في بلاد غربي الأندلس. كان زعيم الثورة أبو القاسم أحمد بن الحسين بن قسي، أصله رومي من بادية شلب تولّى فيها الإشراف على الأعمال المخزنية. ثم مال إلى الزهد فتصدّق بجميع ماله واعتنق مذاهب الصوفية. أخذ بعد ذلك يتجول في أنحاء الأندلس، فلقي في المرية شيخ الصوفية يومئذ أبا العباس بن العريف ودرس عليه. ثم عاد إلى بلده سنة ٥٣٨ هـ/١١٤٤ م وأقبل على قراءة كتب أبي حامد الغزالي وألّف كتاباً في الصوفية سماه خلع النعلين وغدا شيخاً من مشايخ الصوفية الذين عُرف أتباعهم في غربي الأندلس باسم المريدين(١١٣).

بنى ابن قسي رابطةً في قرية جلة إحدى قرى شلب، وأخذ يجمع الطلاب والمريدين حوله، فذاع أمره وأقبل عليه أولئك «الذين كثر خوضهم في الكتب الصوفية وموضوعات الغلاة من الباطنية، والكلف برسائل إخوان الصفا وأمثال ذلك(١١٤)». ثم ادّعى ابن قسي الولاية وتسمّى بالمهدي وبالإمام. وكثرت ادعاءاته لاستمالة قلوب العامة. فاشتهر أنه حج في ليلة واحدة ويناجي بما يشاء وينفق من الكون(١١٥).

أخذ ابن قسي يحرض أتباعه المريدين والناس من حوله بالثورة على المرابطين، فاستجابوا إليه وقاموا بالثورة، وهرع بعض أشياخ الجند والعشائر في تلك النواحي للانضمام إلى الثورة، وكان من هؤلاء سيد رأي بن وزير وابن عنان ومحمد بن عمر ومحمد بن المنذر وعبد الله بن أبي حبيب ومحمد بن

---

(١١٣) ابن الخطيب: أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام. القسم الثاني نشر ليفي بروفنسال بيروت ١٩٥٦ ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩ ـ ابن الابار: الحلة السيراء ج ٢ ص ١٩٧.

(١١٤) ابن الخطيب: نفس المصدر ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩.

(١١٥) عبدالله علام: الدولة الموحدية ص ١٤٧ ـ ١٤٨ ـ محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع ٣ ق ١ ص ٣٠٧.

يحيى الشلطيشي يُعرف بابن القابلة مشهوراً بالدهاء والشجاعة والبلاغـة. فاصطفاه ابن قسي من دونهم لذلك سماه بالمصطفى واتخذه كاتبـه وكاتم سرّه(١١٦).

وقفت السلطات المرابطية في غربي الأنـدلس على حـركة ابن قسي وأبعادها، فبادرت على الفور بإلقـاء القبض على بعض أنصـاره المريـدين وبعثتهم إلى إشبيلية، بينما تمكّن ابن قسي من الفرار والاختفاء(١١٧)، لذلك اعتدى الناس في غربي الأندلس على جند المرابطين فانتهز ابن قسي الفرصة وبعث أحد رجاله أواخر سنة ٥٣٨ هـ/١١٤٤ م للاستيلاء على حصن منتقوط ولكن المرابطين في تلك الجهات قتلوا قـائد ابن قسي واستعـادوا الحصن(١١٨).

ثم خشي ابن قسي أن يقع بأيدي السلطات المرابطية فسار إلى حصن ميرتلة(١١٩) أحد حصون غربي الأندلس في كورة اكشونبة. واختفى في قرية الجوزة عند قوم يعرفون ببني السنة. ثم أمر من موضع اختفائه هذا ابن القابلة أخلص قواده ورجاله بالاستيلاء على حصن ميرتلة. فسار ابن القابلة بسبعين رجلاً واستولى على الحصن في أوائل سنة ٥٣٩ هـ/١١٤٥ م(١٢٠). سار على أثر ذلك ابن قسي بجمع حاشد من أتباعه المريدين شعارهـم التهليل والتكبير فنزل في قصبة ميرتلة ثم كتب إلى أعيان غربي الأندلس يحثّهم على الثورة فاستجابوا له وطردوا حاميات المرابطين من بلادهم فهذا ما فعله سيد

(١١٦) ابن الخطيب: نفس المصـدر ص ٢٤٩ - ٢٥٠ - ابن الابـار: الحلة السيـراء ج ٢ ص ١٩٧ - ١٩٨.

(١١٧) ابن الابار: نفس المصدر ص ١٩٧.

(١١٨) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ٢٥٠.

(١١٩) حصن أولي فيه آثار للأول يقع شرقي مدينة باجة بينهما أربعون ميلاً. يقع على وادي آنّه (الحميري: المروض المعطار في خبر الاقطار نشر ليفي بروفنسال القاهرة سنة ١٩٣٧ م ص ١٩١).

(١٢٠) ابن الخطيب: نفس المصدر والصفحة.

راي بن وزير في يابرة(١٢١) ومحمد بن عمر بن منذر في شلب(١٢٢).

حاول المرابطون في تلك الجهات استعادة الحصن ولكنهم فشلوا فأخذوا ينتقمون بالاعتداء على الناس وتخريب الأراضي. مما أدّى إلى التفاف الناس حول ابن قسي وازدياد أنصاره. أجزل ابن قسي العطاء للناس من غير عمل ولا خراج. وإذا أعطى يحثو بيديه من غير عدد. فكان أصحابه يقولون للناس: إن المال يتكون عنده إذا فرغ. فاتفق أن رجلاً من البادية أَخذ نصيبه ثم قال: «عجباً لهذا المال الذي يصل الإمام من السماء كيف عليه طابع المرابطين؟ فقتل الرجل من ساعته(١٢٣)».

رأى محمد بن عمر بن المنذر أن يطرد بقية القوات المرابطية من غربي الأندلس، فسار بقواته واستولى على حصن مرجيق من أعمال شلب(١٢٤) وتغلّب على المرابطين فقتلهم عن آخرهم. ثم سار إلى مدينة باجة(١٢٥) وطلب العون من سيد راي بن وزير الثائر في يابرة. فأَمدّه ابن وزير بقوات يقودها أخوه أحمد بن وزير وخاله عبد الله بن علي بن الصميل، خشي المرابطون قتال هذه القوات فطلبوا الأمان من أهل باجة، وأن يسمحوا لهم

---

(١٢١) مدينة من كورة باجة بالأندلس وهي قديمة تنتهي أحواز باجة فيها حواليها مائة ميل (الحميري: المصدر السابق ص ١٩٧ ـ الادريسي: وصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق طبعة ليدن سنة ١٨٦٦ م بعناية دوزي ودي غوي ص ١٨١).

(١٢٢) ابن الآبار: الحلة السيراء ج ٢ ص ١٩٨ ـ ١٩٩ ـ عبدالله علام: الدولة الموحدية ص ١٤٨ ـ ١٤٩ ـ محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع ٣ ق ١ ص ٣٠٨.

(١٢٣) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ٢٥٠ ـ ٢٥١.

(١٢٤) قاعدة بلاد اكشونبة تقع بقبلي مدينة باجة. تبعد عن بطليوس ثلاث مراحل وعن ميرتلة أربع مراحل (الحميري: الروض المعطار ص ١٠٦ ـ ١٠٧، الإدريسي: وصف المغرب وأرض السودان ص ١٨٠).

(١٢٥) من أقدم المدن بالأندلس تبعد عن قرطبة مائة فرسخ وهي من الكور المجندة. لها خطة وحوز واسع ولها معاقل موصوفة بالمنعة والحصانة (الحميري: نفس المصدر ص ٣٦).

بالمسير إلى إشبيلية. فاستجاب أهل باجة للمرابطين، ثم دخل ابن المنذر باجة واحتلّها(١٢٦).

سار ابن وزير وابن المنذر بعد ذلك إلى حصن ميرتلة لتقديم الولاء والطاعة إلى ابن قسي، فسلّما عليه بالإمارة، وتقبّل ابن قسي ذلك منهما، ثم عيّن ابن وزير على مدينة باجة وما والاها وابن المنذر على مدينة شلب وما والاها ثم سار كل منهما إلى ولايته(١٢٧).

جمع ابن المنذر أنصاره من المريدين وعسكر أكشونبة وشلب، ثم سار إلى ميرتلة فقدم الولاء والطاعة ثانية إلى ابن قسي وأبدى الاستعداد لفتح البلاد باسمه، أحسن ابن قسي استقبال ابن المنذر فجدد له عهد الولاية ولقّبه العزيز بالله. ثم عبر ابن المنذر على أثر ذلك وادي أنة فهاجم مدينة ولبة واستولى عليها. ثم هاجم مدينة لبلة(١٢٨) فاستولى عليها بمعاونة يوسف بن أحمد البطروجي أحد قادة الثوار المريدين. ثم بلغ ابن المنذر أن مدينة إشبيلية بلا أمير فسار إليها واستولى خلال طريقه على طلياطة وحصنيّ القصر والزاهر(١٢٩).

بلغ قائد المرابطين يحيى بن غانية مسير ابن المنذر إلى إشبيلية، فأرسل قوةً من جيشه التقت مع ابن المنذر في ظاهر طريانة من ضواحي إشبيلية. فنشبت معركة بين الطرفين فحلّت الهزيمة بابن المنذر وانسحب عائداً إلى لبلة.

---

(١٢٦) ابن الآبار: الحلة السيراء ج ٢ ص ٢٠٣ ـ عبدالله علام: الدولة الموحدية ص ١٤٩ ـ محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع ٣ ق ١ ص ٣٠٨ ـ ٣٠٩.

(١٢٧) ابن الآبار: نفس المصدر والصفحة ـ أشباخ: تاريخ الأندلس ج ١ ص ٢١٦ ـ ٢١٧ ـ محمد عبدالله عنان: نفس المرجع ص ٣٠٩.

(١٢٨) مدينة قديمة في غربي الأندلس بها ثلاث عيون تبعد عن طلياطة عشرين مرحلة وعن إشبيلية أربعين مرحلة (الحميري: الروض المعطار ص ١٦٨).

(١٢٩) محمد عبدالله عنان: نفس المرجع والصفحة ـ أشباخ: نفس المرجع ص ٢١٧ ـ عبدالله علام: الدولة الموحدية ص ١٥٠ ـ ١٥١.

ثم ترك يوسف بن أحمد البطروجي والياً على لبلة وسار بعد يومين إلى ولايته شلب(١٣٠).

رأى يحيى بن غانية أن يتولى بنفسه عملية القضاء على الثوار المريدين في غربي الأندلس. فسار بقواته من قرطبة وحاصر مدينة لبلة ثلاثة أشهر في برد الشتاء فلم ينل منها. بلغ ابن غانية أثناء ذلك قيام ابن حمدين بالثورة على المرابطين في قرطبة فترك ابن غانية حصار لبلة وعاد إلى إشبيلية، لكنه لم يستمر فيها طويلاً فقد ثار عليه أهل إشبيلية فاضطر أن يسير منها إلى حصن مرجانة(١٣١).

انتهز ابن قسي ثورة قرطبة على المرابطين فرأى أن يمد سيطرته عليها. فقد كان في ريضها الشرقي دعاةٌ لابن قسي كأَبي الحسن بن مؤمن وغيره. لذلك بعث قائده ابن منذر وكاتبه ابن القابلة للاستيلاء على قرطبة، لكنهما عادا خائبين قبل بلوغها، فقد طرد أهل قرطبة ابن حمدين واستدعوا إليهم سيف الدولة ابن هود ليتولى أُمورهم(١٣٢).

نشب خلاف بعد ذلك بين ابن قسي وقادته. فقد رفض سيد راي بن وزير المسير إلى ميرتلة لمقابلة ابن قسي. فبعث ابن قسي قائده ابن المنذر لقتال ابن وزير، فحلّت الهزيمة بابن المنذر ووقع في الأسر واعتقل في باجة، ثم بعث سيد راي بن وزير بعد فترة قصيرة خاله عبد الله بن الصميل والي بطليوس إلى باجة كي يسمل عيني ابن المنذر ففعل. وخلع ابن وزير طاعة ابن قسي سنة ٥٤٠هـ/١١٤٥م، ثم سار بقواته واستولى على شلب

---

(١٣٠) ابن الآبار: الحلة السيراء ج ٢ ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦ ـ من مراجع الغناي: قيام دولة الموحدين ص ٧٤.

(١٣١) عبدالله علام: الدولة الموحدية ص ١٥١ و ١٥٤ ـ ١٥٥.

(١٣٢) ابن الآبار: الحلة السيراء ج ٢ ص ٢٠٦ ـ مراجع الغناي: قيام دولة الموحدين ص ٧٥.

وميـرتلة، فهرب ابن قسي وعبـر البحر إلى المغـرب يطلب النجـدة من الموحدين[١٣٣].

- ثورات جنوبي الأندلس:

قام الأندلسيون بالثورات على المرابطين في معظم مدن جنوبي الأندلس أيضاً. فثاروا في مدن رندة وشريش وقادس ومالقة والمرية. إن حوادث بعض هذه الثورات غير متوفرة في المصادر ولا تتعدى السطرين والثلاث.

تزعم ثورة رندة[١٣٤] الكاتب الأديب أَخيل بـن إدريس الرندي. كان في بداية حياته كاتباً للمرابطين ثم استكتبه أَبو جعفر بن حمدين الثائر في قرطبة على المرابطين. ثم سار أَخيل بعد انتصار المرابطين على ابن حمديـن سنـة ٥٤٠ هـ/١١٤٥ م - إلى بلدة رندة فـاستبد فيهـا وأَعلن الثورة عـلى المرابطين. لكن الخصوم والحسّاد من أَهل رندة ثاروا على أَخيل فاستدعوا اليهم أبا الغمر بن غزون قائد الثورة في شريش. فسار أبو الغمر بقواته واستولى على رندة وسجن أخيل ونهب دياره ثم أطلق سراحه. فسار أَخيل إلى أبي الحكم بن حسون زعيم ثورة مالقة[١٣٥].

استبد في مدينة قادس[١٣٦] قائد الأُسطول المرابطي علي بن عيسى بن ميمون فخلع طاعة المرابطين إثر وفاة تاشفين بن علي وخطب للموحدين بجامع قادس[١٣٧]. كان أبو الغمر العلاء بن عزون والياً للمرابطين على

---

(١٣٣) مراجع الغناي: نفس المرجع والصفحة - محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق١ ص ٣١٠ - ٣١١.

(١٣٤) مدينة قديمة بالأندلس من مدن تاكرنا بها أنهار كثيرة وأرزاق واسعة (الحميري: الروض المعطار ص ٧٩).

(١٣٥) محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق١ ص ٣٢١.

(١٣٦) جزيرة بالأندلس عند طالقة من مدن إشبيلية. طول جزيرة قادس من القبلة إلى الجوف اثنا عشر ميلاً وعرضها في أوسع المواضع ميل (الحميري: المصدر السابق ص ١٤٥).

(١٣٧) ابن الآبار: الحلة السيراء ج ٢ ص ٢٤٣ - ابن خلدون: العبر ج ٦ ص ٢٣٣.

شريش. ثم خلع طاعة المرابطين واستبد بشريش حين بلغه الثورات على المرابطين في غربي الأندلس. وأخذ يسير بقواته للاستيلاء على بعض النواحي المجاورة فاستولى على أركش ورندة(١٣٨).

وتزعّم ثورة مالقة أبو الحكم الحسين بن حسون الكلبي. كان يتولى قضاء مالقة منذ سنة ٥٣٨ هـ/١١٤٤ م، ثم خلع طاعة المرابطين واستبد بمالقة حين اجتاحت الثورات بعض أنحاء الأندلس على المرابطين. فحاصر المرابطين نحو ستة أشهر في قصبة مالقة حتى استنزلهم. ثم دخل قصبة مالقة واتخذ لقب أمير وقام بوظيفتي القضاء والإمارة معاً وجعل أخاه أبا الحسن قائد جيشه ونائبه في قرطبة وأحوازها. أخذ المرابطون يشنّون الغارات على مالقة لاستردادها. فعجز ابن حسون عن مقاومتهم مما جعله يستعين بالجند المرتزقة النصارى ففرض المغارم على رعيّته لدفع نفقات الجند(١٣٩).

ثار أيضاً أهل المرية يقول المراكشي(١٤٠): «وأما أهل المرية فأخرجوا من كان عندهم أيضاً من المرابطين، واختلفوا فيمن يقدمونه على أنفسهم. فندبوا إليها القائد أبا عبد الله بن ميمون ولم يكن منهم. إنما هو من أهل مدينة دانية. فأبى عليهم وقال: إنما أنا رجل منكم ووظيفتي البحر وبه عرفت. فكل عدو جاءكم من جهة البحر فأنا لكم به فقدمّوا على أنفسكم من شئتم غيري. فقدموا على أنفسهم رجلًا منهم اسمه عبد الله بن محمد يُعرف بابن الرميمي. فلم يزل عليها إلى أن دخلها عليه النصارى من البر والبحر. فقتلوا أهلها

(١٣٨) ابن خلدون: العبر ج ٦ ص ٢٤٣ - ابن الآبار: الحلة السيراء ج ٢ ص ٢٤٢ - محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع ٣ ق ١ ص ٣٢٢.

(١٣٩) الضبي: بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس وعلمائها وأمرائها وشعرائها وذوي النباهة فيها ومن دخل إليها أو خرج عنها. المكتبة الأندلسية ص ٣٢ - ٣٣ - يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس ج ١ ص ٢١٨ - عبدالله علام: الدولة الموحدية ص ١٦٣ - محمد عبدالله عنان: نفس المرجع ص ٣١٩ - ٣٢٠ (نقلاً عن ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ٢٥٥).

(١٤٠) المعجب ص ٢١٠ - ٢١١.

وسبوا نساءهم وبنيهم وانتهبوا أموالهم».

قام أيضاً أهل غرناطة بالثورة على المرابطين في بلدهم فتزعّم ثورتهم القاضي أبو الحسن علي بن عمر بن أضحى. وحصروا المرابطين في قصبة غرناطة. كان المرابطون بقيادة علي بن أبي بكر بالمعروف بابن فتو يخرجون بين الحين والآخر من قصبة غرناطة ويوقعون بالثوار فلم يستطع ابن أضحى التغلّب على المرابطين فطلب النجدة من بعض الثوار في المدن الأخرى. فبعث ابن حمدين زعيم ثورة قرطبة جيشاً إلى ابن أَضحى بقيادة ابن أخيه علي بن القاسم المعروف بابن أُم العماد. ثم استنجد أَهل غرناطة بابن هود. فسار ابن هود إلى غرناطة واشترك مع ابن أَضحى في قتال المرابطين فحلّت الهزيمة بالثوار(١٤١).

عاود ابن هود القتال واستمر يشتبك مع المرابطين نحو شهر. فجرح في إحدى هذه المعارك ولد ابن هود وقبض عليه المرابطون. ثم توفي متأثّراً بجراحه فدفع المرابطون بنعشه إلى أبيه ليدفنه. ثم توفي القاضي ابن أَضحى فخلفه في زعامة الثورة ابنه محمد وتعاون مع ابن هود على قتال المرابطين. حضر خلال ذلك القاضي ابن أبي جعفر زعيم ثورة مرسية بأَلفي فارس لقتال المرابطين في غرناطة فحلّت به الهزيمة واستباح المرابطون مدينة غرناطة ثم عادوا إلى القصبة ثم يئس ابن هود من استنزال المرابطين والتغلّب عليهم. فتخلّى عن مساعدة ثوار غرناطة وعاد إلى قاعدته جيان(١٤٢).

تولّى زعامة ثورة غرناطة بعد هروب ابن هود أبو بكر محمد بن أبي الحسن ابن أضحى فظل يقاتل المرابطين في القصبة مدة ثمانية أيام دون جدوى، ثم يئس من السيطرة على غرناطة والتغلّب على المرابطين فهرب ليلة

(١٤١) عبدالله علام: الدولة الموحدية ص ١٥٨ ـ ١٥٩.
(١٤٢) محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع ٣ ق ١ ص ٣١٧.

الجمعة إلى المنكب. تصالح أهل غرناطة على أثر ذلك مع المرابطين الممتنعين بالقصبة وكانوا بقيادة ميمون بدر بن ورقاء. ذلك أن قائدهم السابق علي بن أبي بكر المعروف بابن فتو قد توفي أثناء الحصار. فعادت غرناطة لحكم المرابطين(١٤٣).

- ثورات وسط الأندلس:

ثارت كذلك معظم قواعد وسط الأندلس على المرابطين متأثرة بثورات المريدين في جنوب غربي الأندلس. فلما كاد يحيى بن غانية قائد عام القوات المرابطية بالأندلس يسير من قرطبة لإخضاع ثورات غربي الأندلس حتى قام القرطبيون بالثورة على المرابطين وخلعوا الوالي المرابطي أبا عمر اللمتوني وبايعوا القاضي ابن حمدين أميراً عليهم في المسجد الكبير بقرطبة(١٤٤). وذلك في شهر رمضان سنة ٥٣٩ هـ/١١٤٥ م. استقر ابن حمدين بقصر الخلافة وتسمّى بأمير المسلمين وناصر الدين واتخذ لقب المنصور بالله. ثم دعي له على منبر قرطبة ومعظم منابر القواعد الأندلسية(١٤٥).

لم ينجح ابن حمدين في فرض سلطته كاملة على قرطبة، فقد خرج عليه بعض الخصوم واستدعوا إليهم أحمد بن عبد الملك بن هود. فهرب ابن حمدين إلى أحد الحصون القريبة من قرطبة. سار ابن هود بقواته فدخل قرطبة، لكنه لم يمكث فيها طويلاً، فقد ثار عليه أهل قرطبة وقتلوا وزيره ابن الشماخ، فخشي ابن هود على نفسه وسار عنها، انتهز الفرصة ابن حمدين فعاد إلى قرطبة وضبط الأمر وفرض الاستقرار، ثم دوّن الدواوين ونظّم الجند ورسم الخطط، فخاطب ثوّار الأندلس يطالبهم بالطاعة والولاء، فاستجاب له بعضهم أمثال ابن أضحى في غرناطة وابن عزون في شريش وابن الحاج

(١٤٣) مراجع الغناي: قيام دولة الموحدين ص ٨٥.
(١٤٤) عبدالله علام: الدولة الموحدية ص ١٥٤.
(١٤٥) محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع ٣ ق ١ ص ٣١٢-٣١٣.

اللورقي في مرسية[١٤٦].

استمرت إمارة ابن حمدين في قرطبة نحو سنة، ثم بدأت سلطته بالانهيار فقد خرجت مرسية على سلطته لقيام أبي جعفر بن أبي جعفر بالثورة على ابن الحاج اللورقي، فخطب أبو جعفر لنفسه، واتخذ لقب الناصر لدين الله وأسقط من الخطبة لقب ابن حمدين، لكنه توفي سنة ٥٤٠ هـ/١١٤٥ م فانتهز ابن حمدين الفرصة كي يعيد سلطته على مرسية، وبعث جيشاً بقيادة ابن أخيه المعروف بابن أم العماد لكن فشل هذا الجيش في مهمته، فبعث ابن حمدين جيشاً آخراً بقيادة ابن عمه المشهور بالفلفي وسار معه بعض أعيان مرسية الذين لجأوا إلى ابن حمدين أمثال ابن الحاج وابن سوار، ففشل هذا الجيش أيضاً، وعاد إلى قرطبة فبقي أبو طاهر عبد الرحمن أميراً على مرسية بعد وفاة ابن أبي جعفر[١٤٧].

كتب بعض خصوم ابن حمدين إلى يحيى بن غانية يسألونه القدوم لاستعادة قرطبة، فسار ابن غانية بقواته وأنزل الهزيمة بابن حمدين ودخل قرطبة في سنة ٥٤٠ هـ/١١٤٥ م، هرب ابن حمدين إلى بطليوس محتمياً بصاحبها عبد الله بن الصميل أحد ثوار غربي الأندلس، ثم سار إلى حصن أندوجر الواقع شرقي قرطبة فتحصّن بداخله وأخذ يبسط سلطانه على البلاد المجاورة، فسار ابن غانية بقواته وحاصر ابن حمدين مدى شهر، فاستنجد ابن حمدين بملك قشتالة فاضطر ابن غانية للعودة بقواته إلى قرطبة، سار ملك قشتالة وابن حمدين وراء ابن غانية فدخلا مدينة قرطبة في ٥٤٠ هـ/١١٤٥ م بينما تحصّن ابن غانية بالقصبة، فعاث النصارى في مدينة قرطبة واستباحوا المسجد الجامع ومزّقوا المصاحف وأحرقوا الأسواق[١٤٨].

(١٤٦) ابن الأبار: الحلة السيراء ج ٢ ص ٢٠٦ - ٢٠٧ و ٢١٢ و ٢١٤ و ٢٢٧ و ٢٤٢ - أشباخ: تاريخ الأندلس ج ١ ص ٢٢٠.

(١٤٧) ابن الأبار: نفس المصدر ص ٢٢٩ - ٢٣٠.

(١٤٨) محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع ٣ ق ١ ص ٣١٤ - ٣١٥ - B. Meakin: The Moorish Empire p. 71

جاءت الأخبار أثناء ذلك بأنّ الموحدين عبروا البحر إلى الأندلس وأن أهل إشبيلية خلعوا طاعة المرابطين، فرأى ملك قشتالة أن يعقد صلحاً مع ابن غانية حتى يجعله حائلاً بينه وبين الموحدين، فعقدت بين الطرفين شروط الصلح وخرج ابن غانية من القصبة، ثم خاطب ملك قشتالة أهل قرطبة فقال لهم: «إني قد فعلت معكم من الخير ما لم يفعله أحد قبلي وتركتكم رعيّة لي وقد ولّيت عليكم يحيى بن غانية فاسمعوا له وأطيعوا(١٤٩)».

أما شروط الصلح فهي أن يدفع يحيى بن غانية مبلغاً من المال لملك قشتالة ويتنازل له عن مدينتي أبدة وبياسة مقابل عودة الملك إلى بلاده والكفّ عن الغزو(١٥٠).

ترك ملك قشتالة ابن غانية في قرطبة، وعاد بقواته إلى بلاده، فاستولى خلال طريقه على مدينتي أبدة وبياسة، كما استولى على قلعة رياح مفتاح الطريق بين طليطلة والأندلس، ولذلك اتخذت مركزاً لجمعية دينية(١٥١).

غادر ابن حمدين قرطبة مع النصارى، وسار إلى حصن فرنجلوش، فأقام به مدة ثم عبر بعد ذلك البحر إلى المغرب، فقابل عبد المؤمن تحت أسوار مراكش سنة ٥٤١ هـ/١١٤٦ م، ثم رجع إلى الأندلس، ونزل عند أبي الحكم بن حسون زعيم ثورة مالقة، حاول ابن حمدين أن يسترد سلطانه بقرطبة دون جدوى فعاد إلى مالقة وأقام فيها حتى وفاته سنة ٥٤٦ هـ/١١٥١ م(١٥٢).

---

(١٤٩) عبدالله علام: الدولة الموحدية ص ١٥٧ ـ ١٥٨.

(١٥٠) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ٢٥٤ ـ ابن خلدون: العبر ج ٦ ص ٢٣٥ ـ الضبي: بغية الملتمس ص ٣٤ ـ ٣٥ ـ A Bell: Les Benou Ghanya. Paris 1903 p. 9

(١٥١) J. F. O'callaghan: A history of medieval spain p. 229

(١٥٢) محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق ١ ص ٣١٥ ـ ٣١٦ ـ عبدالله علام: الدولة الموحدية ص ١٥٨.

قامت الثورة أيضاً في مدينة قرمونة، فاستبد بها أحد الثوار، يدعى دردوش، كما استبد ابن مروان بحصن فرنجلوش وقاتل المرابطين(١٥٣). وثار ابراهيم بن أحمد بحصن شقوبش، فقاتل المرابطين واستولى على شقورة، كما ثار أهل جيان على المرابطين بزعامة القاضي يوسف بن عبد الرحمن بن جزي فدعي بالرئيس بن الحكم(١٥٤). انتهز ابن هود اجتياح الثورات أنحاء الأندلس، فسار بقواته وهزم المرابطين بالثغور الجوفية ثم استولى على جيان وبسط سلطانه فترة على قرطبة وقاتل المرابطين في غرناطة(١٥٥).

ـ ثورات شرقي الأندلس:

ثار أهل شرقي الأندلس على المرابطين فاستبد زعماء الثورات بالمدن والنواحي، فمن ذلك ثورة أحمد بن محمد بن ملحان الطائي، الذي استبد في وادي آش حين بلغه قيام ابن حمدين على المرابطين في قرطبة. تلقب ابن ملحان «بالمستأيد بالله» وحصن القصبة وأخذ بالحزم، ولم يكل أمره إلى غيره وخاض به الفتنة خوض الجرأة فأتى على كثير من الأنفس والأموال واقتنى كثيراً من المال والذخيرة واستعان على غناه بالفلاحة وإثارة الحرث فكان أغنى أهل زمانه وظهر على كثير مما يجاور بلده كمدينة بسطة... واستخدم جملة من مشاهير العلم والأدب كأبي بكر بن طفيل وأبي الحكم هردوس(١٥٦).

كذلك ثارت مدينة بلنسية على المرابطين حين بلغها قيام ابن حمدين بالثورة على المرابطين في قرطبة، خشي والي بلنسية المرابطي أبو محمد عبد الله بن محمد بن علي عواقب الثورة فاجتمع مع قاضي بلنسية أبي عبد الملك مروان بن عبد الله بن مروان محمد مروان بن عبد العزيز واتفقا على التعاون

(١٥٣) البيذق: أخبار المهدي بن تومرت ص ٨٧ من ط ابن منصور.
(١٥٤) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ٢٥٩ و٢٦٣.
(١٥٥) ابن الأبار: الحلة السيراء ج ٢ ص ٢١٣ ـ ٢١٤ وص ٢٤٩ ـ ٢٥١.
(١٥٦) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ٢٦٤.

معاً للعمل دون اتساع الثورة وامتدادها رغم التنافر الذي كان بينهما، ثم «خرجا إلى المسجد الجامع حيث اجتمع الناس، فقام فيهم مروان خطيباً يذكر بجهاد المتونيين للروم ونصرهم للجزيرة واستنقاذهم بلنسية من أيديهم ويحض على التمسّك بدعوتهم والوفاء لهم، ثم قام محمد بن عبد الله الوالي وتكلّم بما حضره في هذا المعنى وذكّر الناس بما انتظم بينهم وبين عمة من الصحبة وانفصلوا[١٥٧]».

إن هذا التفاهم بين الوالي والقاضي لم يستمر طويلاً ولم يؤد إلى إطفاء نار الثورة في أهل بلنسية فسرعان ما اشتعلت الثورة من جديد بشكل أكثر عنفاً واتساعاً فشعر الوالي المرابطي بنار الثورة تقترب منه فهرب إلى مدينة شاطبة، ثم أجمع الثوار على اختيار القاضي ابن عبد العزيز رئيساً لثورتهم، ولكنه عفّ عن الرياسة، فألحّ عليه عبد الله بن مردنيش وعبد الله بن عياض قائد الثغر في قبول زعامة الثورة فقبلها مكرهاً وذلك في سنة ٥٣٩ هـ/١١٤٥ م[١٥٨].

أخذ المرابطون يسيرون من مدينة شاطبة ويغزون بلنسية وأحوازها، فحشد القاضي ابن عبد العزيز جنود الثغر وسار إلى شاطبة وألحق الهزيمة بالمرابطين وأجبرهم على الامتناع في قصبة شاطبة، ثم حضر القاضي ابن أبي جعفر بعسكر مرسية كي يساعد ابن عبد العزيز على حصار المرابطين، فهرب عبد الله بن محمد بن غانية من شاطبة إلى المرية وركب أُسطول محمد بن ميمون الذي لا زال على طاعة المرابطين فنقله الأُسطول إلى الجزائر الشرقية عند أبيه، فاستولى ابن عبد العزيز على شاطبة صلحاً وعيّن عليها قائداً ثم دخلت لقنت وما جاورها في طاعته فاتسعت إمارته، ثم عـاد إلى بلنسية فجددت له البيعة في سنة ٥٤٠ هـ/١١٤٥ م[١٥٩].

(١٥٧) مراجع الغناي: قيام دولة الموحدين ص ٨٧.
(١٥٨) عبدالله علام: الدولة الموحدية ص ١٦٥ - ١٦٦.
(١٥٩) محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق ١ ص ٣٥٥ - ٣٥٦ - أشباخ: تاريخ الأندلس ج ١ ص ٢٢٣.

لم يلبث ابن عبد العزيز أن هرب من بلنسية لقيام الثورة عليه، فقد خانه الجند ولم تف الجباية بالواجبات فتعللوا عليه بذلك وعزموا على خلعه وخاطبوا ابن عياض يستعجلونه في الوصول إليهم من مرسية... فلم يرع ابن عبد العزيز إلا أحداق من الجند بقصره... فخرج راجلاً متنكراً وتدلّى من سور بلنسية ليلاً واعتسف الطريق دون دليل حتى لحق بجبال المرية واجتمع بالقائد محمد بن ميمون فقبض عليه وقيده وفاء لبني غانية وأقام عنده إلى أن دفعه إلى عبد الله بن محمد عدو ابن عبد العزيز وطريده من بلنسية وشاطبة. وقد ورد على المرية في قطع ميورقة برسم أتباع العدو، فعف عبد الله عن دمه واحتمله معه مقيداً ونقم الناس على ابن ميمون فعله(١٦٠).

بعد هرب ابن عبد العزيز قدم الجند للرياسة عبد الله بن محمد بن سعد بن مردنيش صهر ابن عياض نائباً عنه وأسكنوه قصر بلنسية، ثم واصل ابن عياض إلى بلنسية بعد أن وصلته بيعة أهلها وهو في الطريق إليها، فأقام فيها حيناً ينظّم شؤونها ويحصّن ثغورها ثم عاد إلى مرسية بعد أن ترك في بلنسية صهره عبد الله بن سعد بن مردنيش أميراً عليها من قبله(١٦١).

ثار أيضاً أهل مدينة مرسية على المرابطين سنة ٥٣٩ هـ/١١٤٥ م بزعامة أبي محمد بن الحاج اللورقي، لكنه لم يعلن استقلاله إنما خطب لابن حمدين زعيم ثورة قرطبة فأدرك ابن هود ضعف شخصية اللورقي، وأرسل قائده عبد الله بن فتوح الثغري للاستيلاء على مرسية، سار الثغري فاستولى على مرسية وطرد اللورقي وخطب لابن هود، لكن ثوار مرسية رفضوا الخضوع للثغري فقاموا عليه وأجبروه على الفرار ثم قدموا عليه القاضي محمد بن عبد الله بن أبي جعفر الخشني، فقبل الخشني الرئاسة مكرهاً وكان شهماً

(١٦٠) ابن الآبار: الحلة السيراء ج ٢ ص ٢٢١ - ٢٢٢.

(١٦١) محمد عبدالله عنان: المرجع السابق ص ٣٥٦ - مراجع الغناي: قيام دولة الموحدين ص ٨٩.

شجاعاً فأسرع بتقديم العون إلى ثوار بلنسية خلال حصارهم للمرابطين في شاطبة ثم سار بقواته لمساعدة ثوار غرناطة على قتال المرابطين، فقتل في المعركة وعادت قواته إلى مرسية[١٦٢].

بلغ أهل مرسية ذلك فأجمعوا على تأمير أبي عبد الرحمن بن طاهر، فانتقل إلى القصر ودعا لابن هود ثم لنفسه بعده، وقدّم أخاه أبا بكر على الخيل. حاول ابن حمدين زعيم ثورة قرطبة الاستيلاء على مرسية، فبعث جيشاً بقيادة ابن أخيه المعروف بابن أُم العماد، فرد الجيش خائباً، بعث ابن حمدين جيشاً آخراً بقيادة ابن عمه المعروف بالفلفي صحبة أبي محمد بن الحاج وابن سوار وغيرهما من الواصلين من أهل مرسية إليه، فصد عن دخولها وطولب الماثلون إليه[١٦٣].

خاطب بعض أهل مرسية ابن عياض قائد الثغر سراً يستدعونه ليتولى بلدهم، فاستجاب ابن عياض لهم وسار بقواته، فتلقاه خلال الطريق زعنون صاحب أوريولة وتنازل لابن عياض عن أوريولة، ثم استأنف ابن عياض مسيره فدخل مرسية واستولى عليها دون إراقة دماء، فلم يحاول ابن طاهر المقاومة، إنما انتقل بهدوء من القصر إلى داره، فعف ابن عياض عن قتله، تطورت الحوادث حينئذ في مدينة بلنسية فقد خلع الجند مروان بن عبد العزيز واستدعوا ابن عياض إليهم، فسار ابن عياض بقواته واستولى على بلنسية وأصبح أمير شرقي الأندلس كله داعياً لابن هود ولنفسه من بعده[١٦٤].

بعث ابن هود ابنه أبا بكر إلى بلنسية فأحسن ابن عياض استقباله وصحبه إلى بلنسية، سار ابن هود بعد ذلك بنفسه إلى مدينة مرسية فدخلها ونزل بقصرها، فبلغ ذلك ابن عياض فأسرع بالتوجه إلى مرسية وقدّم الولاء

(١٦٢) عبدالله علام: الدولة الموحدية ص ١٦٧.
(١٦٣) ابن الآبار: الحلة السيراء ج ٢ ص ٢٣٠.
(١٦٤) ابن الآبار: نفس المصدر ص ٢٣٠ ـ ٢٣١.

والطاعة لابن هود ونزل بالقصر الصغير ثم عهد ابن هود بالأمور كلها إلى ابن عياض وأسبغ عليه لقب الرئيس مكتفياً بلقب الإمارة ومظاهرها، وكان ذلك أواخر رجب سنة ٥٤٠ هـ/أوائل ١١٤٦ م(١٦٥).

دخل في طاعة ابن هود أيضاً أصهار ابن عياض وهما عبد الله بن مردنيش ومحمد بن سعد بن مردنيش، فأصبح حكم ابن هود يشمل شرقي الأندلس كله من لورقة حتى نهر إيبرو، ثم بلغ ابن هود خلال إقامته في مرسية غزو النصارى لنواحي شاطبة، فسار بقواته للقائهم وسار معه ابن عياض وعبد الله بن مردنيش، فنشبت موقعة بين الطرفين تعرف بموقعة اللج أو البسيط بالقرب من جنجالة في سنة ٥٤٠ هـ/١١٤٥ م فحلّت الهزيمة بالمسلمين وقتل ابن هود وابن مردنيش بينما نجا ابن عياض فعاد إلى بلنسية وأصبح أمير شرقي الأندلس بلا منازع، فامتدت دولته من بلنسية شمالاً إلى قرطاجنة جنوباً(١٦٦).

أما الرواية النصرانية عن موقعة البسيط فتذكر أن ابن هود استعان بملك قشتالة في إخضاع أبده وبياسة الثائرتين على طاعة ابن هود، فبعث ملك قشتالة جيشاً بقيادة أربع من كبار رجاله لإخضاعها فأساء القادة النصارى معاملة المسلمين من أهل المدينتين فاستنجد المسلمون بابن هود، لكن القادة النصارى رفضوا الاستجابة لطلبات ابن هود بالكف عن غزو البلاد وتشريد المسلمين، فسار ابن هود بقواته واشتبك معهم في موقعة البسيط المذكورة، فحلّت هزيمة فادحة بالمسلمين ووقع ابن هود في الأسر ثم قتله بعض الجند النصارى دون معرفة شخصيته، بلغ ذلك ملك قشتالة فحزن عليه وتبرّأ من دمه(١٦٧).

---

(١٦٥) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع ٣ ق ١ ص ٣٦٠.

(١٦٦) مراجع الغناي: قيام دولة الموحدين ص ٩٨ و ١٠٠ ـ ١٠١ ـ عبدالله علام الدولة الموحدية ص ١٦٨ ـ ١٦٩.

(١٦٧) محمد عبدالله عنان: المرجع السابق ص ٣٦١ ـ ٣٦٢ ـ عبدالله علام: الدولة الموحدية ص ١٦٩ حاشية ٢.

نجح ابن عياض في حماية بلاد شرقي الأندلس من غزوات النصارى، فقد كان شهماً بطلاً يتجنب النصارى لقاءه ويعدونه وحده بمائة فارس إذا رأوا رأيته قالوا: هذا ابن عياض: هذه مائة فارس! فحمى الله تلك الجهات ودفع عنها العدد ببركة هذا الرجل الصالح! وانتشر له من الهيبة في صدور النصارى ما ردّهم عن البلاد وأقام ابن عياض هذا بشرقي الأندلس يحفظ تلك البلاد ويذود عنها إلى أن توفي رحمه الله ونضر وجهه وشكر له سعيه، لا أتحقق تاريخ وفاته(١٦٨).

استمر ابن عياض حاكماً على بلاد شرقي الأندلس بلا منازع مدى عام وتسعة أشهر وعشرين إلى أن لقي مصرعه في اليوم الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ٥٤٢ هـ/٢١ أغسطس ١١٤٧ م. يقول ابن الآبار إن ابن عياض توفي من جراء سهم أصابه خلال بعض المعارك مع النصارى، بينما يقول الضبي إن ابن عياض قتل خلال معركة نشبت بينه وبين بني جميل على مقربة من بلش فحمل جثمانه إلى بلنسية وقام على مواراته بها صهره ونائبه في بلنسية محمد بن سعد بن مردنيش، ثم أعلن للناس أن ابن عياض قد ولّاه عهده بالإمارة من بعده فبايعوه على ذلك، هكذا أصبح محمد بن سعد بن مردنيش أمير شرقي الأندلس كله، وذلك في جمادى الأولى سنة ٥٤٢ هـ/أكتوبر ١١٤٧ م(١٦٩).

هناك رواية أخرى تذكر أن أهل بلنسية بايعوا ابن مردنيش من ذات أنفسهم وبايع أهل مرسية علياً بن عبيد، ثم تخلّى ابن عبيد عن مرسية لابن مردنيش في جمادى الأولى ٥٤٢ هـ/أكتوبر ١١٤٧ م، فآل بذلك حكم شرقي الأندلس كله لابن مردنيش(١٧٠).

---

(١٦٨) المراكشي: المعجب ص ٢٠٩.
(١٦٩) محمد عبدالله عنان: المرجع السابق ص ٣٦٤.
(١٧٠) مراجع الغناي قيام دولة الموحدين ص ١٠١.

أما المراكشي(١٧١) فيقول خلال حديثه عن ابن عياض: وقام بأمر تلك الجهات بعده رجل اسمه محمد بن سعد المعروف عندهم بابن مردنيش، كان محمد هذا خادماً لابن عياض يحمل لـه السلاح ويتصـرف بين يـديه في حوائجه، فلما حضرته الوفاة اجتمع إليه الجند وأعيان البلاد فقالوا له: إلى من تسند أُمورنا وبمن تشير علينا؟ وكان له ولد فأشاروا به عليه، فقال: إنه لا يصلح لأني سمعت أنه يشرب الخمر ويغفل عن الصلاة فإذا كان ولا بد فقدموا عليكم هذا ـ وأشار إلى محمد بن سعد ـ فإنه ظاهر النجدة كثير الغناء ولعل الله أن ينفع به المسلمين، فاستمرت ولاية ابن سعد على البلاد إلى أن مات في شهور سنة ٥٦٨.

(١٧١) المعجب ص ٢٠٩ ـ ٢١٠.

الفصل الثالث

احتلال الموحدين معظم بلاد الأندلس

لم يتكلف الموحدون كثيراً في احتلال الأندلس ما عدا شرقي الأندلس والجزائر الشرقية، فلم يجدوا صعوبة تذكر في هذا الاحتلال، فقد تم احتلال معظم الأندلس بسهولة إلى حد ما وبسرعة مذهلة في بعض الأحيان، فلم تنشب معركة كبيرة تذكر ولا مقاومة طويلة، تروي المصادر حوادث احتلال معظم الأندلس بإيجاز شديد لا يتعدى الأسطر في بعض الأحيان.

ـ عوامل الاحتلال:

أما العوامل التي دفعت الموحدين لاحتلال الأندلس فيمكن القول إن الموحدين ربما اعتبروا هذا الاحتلال خطوةً نحو تحقيق هدفهم الخاص بإقامة وحدة إسلامية شاملة تحت راية خلافتهم(١٧٢). فبلاد الأندلس تعتبر المجال الطبيعي لتوسيع دولة الموحدين شمالاً، بالإضافة إلى أن الموحدين كفّروا كل من لم يعتنق مذهبهم في التوحيد، فأحلّوا قتاله وسفك دمه إلى أن يعتنق مذهبهم وينضوي تحت لوائهم(١٧٣).

---

(١٧٢) بخصوص هدف الموحدين هذا انظر أحمد العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص ١٠٤ ـ ١٢٠

(١٧٣) انظر ابن القطان: نظم الجمان ص ٤٧ ـ ٤٨ ـ الناصري: الاستقصا جـ٢ ص ٨٣ و١٠٣ ـ مراجع الغناي: سقوط دولة الموحدين. منشورات جامعة بنغازي ليبيا الطبعة الأولى ١٩٧٥ م ص ٣٩ ـ ٤٠ و٤٧ ـ ٤٨

ربما اعتقد الموحدون أن احتلال الأندلس ما هو إلا بغرض حمايته من السقوط بأيدي الممالك النصرانية ويجعلهم أقدر وأقرب على جهاد النصارى، ثم توفير الأمن والأمان للمسلمين، بالإضافة إلى أن هذا الاحتلال سيقضي على مخاوف الموحدين من احتمال عبور القادة والجند المرابطين من الأندلس إلى المغرب فيشكلون ويثيرون القلاقل فقد أخذ الموحدون يبعثون بجيوشهم إلى الأندلس قبل احتلال مراكش وقبل تثبيت انتصاراتهم في بلاد المغرب، لكن أندريه جوليان يقول[١٧٤]: «دُعيَ الموحدون إلى إسبانيا قبل استيلائهم على مراكش... ولم تكن لهم خطة مسبقة لأنه حتى لو سلمنا كما هو محتمل جداً بأن عبد المؤمن كان راغباً في طرد المرابطين من إسبانيا كما فعل في المغرب فإنه كان أكثر حذراً من أن يطلب هذه الغايات في نفس الوقت».

لا شك أن الاضطرابات التي عمّت أنحاء الأندلس نتيجة ثورات الأندلسيين على المرابطين تعتبر من العوامل التي حثّت الموحدين على التعجيل بالعبور إلى الأندلس واحتلاله. بالإضافة إلى أن بعض الثوار الأندلسيين على المرابطين قد أعلنوا الولاء والطاعة للموحدين قبل عبور جيوشهم إلى الأندلس. مثال ذلك علي بن عيسى بن ميمون قائد الأسطول في مدينة قادس والثائر فيها على المرابطين فقد عبر البحر إلى المغرب وقابل عبد المؤمن وهو على حصار فاس، فأعلن له الولاء والطاعة. ثم عاد إلى قادس وخطب بجامعها للخليفة عبد المؤمن سنة ٥٤٠ هـ/١١٤٥ م. فكانت أول خطبة للموحدين في الأندلس[١٧٥].

كذلك فعل أبو الغمر بن عزون الثائر على المرابطين في مدينة شريش، فقد عبر البحر إلى المغرب، وقابل عبد المؤمن وهو على حصار مراكش فأعلن له الولاء والطاعة ثم عاد إلى شريش سنة ٥٤١ هـ/١١٤٦ م[١٧٦]. كذلك

(١٧٤) تاريخ إفريقيا الشمالية جـ٢ ص ١٣٧

(١٧٥) ابن خلدون: العبر جـ٦ ص ٢٣٣

(١٧٦) ابن عذارى: البيان المغرب ق ٣ ص ٢٢ ـ الناصري: الاستقصا جـ٢ ص ٩٧

فعل أخيل بن إدريس الرندي الثائر على المرابطين في رندة، فقد عبر البحر في نفس السنة وأعلن الولاء والطاعة للموحدين(١٧٧).

هناك بعض الثوار الأندلسيين على المرابطين عبروا البحر إلى المغرب يطلبون العون من الموحدين على قتال المرابطين مثال ذلك القاضي ابن حمدين زعيم ثورة قرطبة، فقد عبر البحر إلى المغرب وقابل عبد المؤمـن وهو على حصار مراكش سنة ٥٤١ هـ/١١٤٦م فأحسن عبد المؤمن استقباله وأكرم وفادته(١٧٨). كان بصحبة ابن حمدين بعض أعيان البلاد يحملون كتاباً يتضمن بيعة أهل بلادهم للخليفة عبد المؤمن، فتقبل عبد المؤمن الكتاب حسب رواية ابن الأثير(١٧٩) وشكرهم وطيّب قلوبهم وطلب منهم النصرة، وطلبوا منه النصرة على الافرنج.

سار أيضاً أحمد بن قسي زعيم غربي الأندلس فعبر البحر إلى المغرب، ونزل في مدينة سبتة ثم سار إلى مدينة سلا، فقابل الخليفة عبد المؤمن واعتذر له وتبرّأ من دعاويه السابقة في الإمامة والهداية(١٨٠) فتقبّل عبد المؤمن اعتذار ابن قسي وأكرم وفادته، أخذ ابن قسي بعد ذلك يحثّ عبد المؤمن على عبور الأندلس لإخضاع المرابطين والثوار جميعاً(١٨١).

(١٧٧) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع ٣ ق ١ ص ٣٢٢

(١٧٨) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ٢٥٤ ـ محمد عبد الله عنان: نفس المرجع والصفحة (نقلا عن ابن عذارى: البيان المغرب القسم الثالث ص ٢٢).

(١٧٩) الكامل في التاريخ جـ ١١ ص ٤٧

(١٨٠) كان ابن قسي قد بعث من الأندلس أبا بكر بن حبيس رسولاً يحمل كتاباً إلى عبد المؤمن. سار أبو بكر وقدّم الكتاب إلى عبد المؤمن وهو على تلمسان. لم يرد عبد المؤمن الجواب فقد أنكر ما ورد في الكتاب من ادّعاء ابن قسي الهداية والإمامة (ابن خلدون: العبر جـ ٦ ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤ ـ ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ٢٥١ ـ
J. F. O'callaghan: A History of medieval Spain PP. 228 - 229.

(١٨١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع ٣ ق ١ ص ٣١٠ ـ ٣١١.

ـ احتلال جنوبي الأندلس:

رأى عبد المؤمن على أثر ذلك أن يبعث جيشاً كبيراً من الموحدين إلى الأندلس. فجهّز ثلاثة جيوش يتكون الأول من عشرة آلاف فارس وعشرين ألف راجل، جعل على قيادته بدران بن محمد المسوّفي، بينما أسند قيادة الجيش الثاني إلى موسى بن سعيد، أما الجيش الثالث فجعل على قيادته عمر بن صالح الصنهاجي، أمر عبد المؤمن هذه الجيوش بعبور الأندلس وقتال كل من يرفض إعلان الولاء والطاعة للموحدين(١٨٢).

عبرت هذه الجيوش الأندلس أوائل سنة ٥٤١ هـ/١١٤٦ م(١٨٣). فأخذت تبعث القوات هنا وهناك للسيطرة على جنوبي الأندلس. فاستولت على طريف والجزيرة الخضراء، سار الموحدون بعد ذلك إلى شريش، فخرج حاكمها أبو الغمر بن عزون على رأس ثلاثمائة فارس واستقبل الموحدين وأعلن الولاء والطاعة لهم، ثم انضم إليهم بفرسانه، لذلك حفظ الموحدون هذا الصنيع لأهل شريش فحرروا أملاكهم من المغارم وأطلقوا عليهم لقب السابقين الأولين وجعلوا وفدهم أول من يدخل عليهم من وفود الأندلس(١٨٤).

ـ احتلال غربي الأندلس:

وضع الموحدون بعض قواتهم كحاميات في هذه الجهات للسيطرة عليها، ثم استأنفوا زحفهم نحو غربي الأندلس، فلما بلغوا مدينة لبلة أعلن

---

(١٨٢) ابن خلدون: نفس المصدر ص ٢٣٤ ـ الناصري: الاستقصا جـ ٢ ص ١٠٤.

(١٨٣) يجعل أندريه جوليان هذه الجيوش بقيادة أخوي المهدي بن تومرت (تاريخ إفريقيا الشمالية جـ ٢ ص ١٣٧).

(١٨٤) الناصري: المصدر السابق ص ١٠٤ ـ أشباخ: تاريخ الأندلس ص ٢٢١ ـ ٢٢٢ ـ محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع ٣ ق ١ ص ٣٢٦ (نقلاً عن ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٢٢ ـ ١٢٣).

حاكمها الثائر بها يوسف بن أحمد البطروجي الولاء والطاعة للموحدين ثم ساروا للسيطرة على بقية المدن والنواحي فاستولوا على حصن طبيرة من ابن مهيب واستولوا على مدينة بطليوس وميرتلة وشلب، أما مدينة باجة ويابرة فقد أعلن صاحبهما سيدراي بن وزير الولاء والطاعة(١٨٥).

رأى الموحدون بعد ذلك أن يسيروا لاحتلال مدينة إشبيلية أمنع وأكبر مدن غربي الأندلس. كان في مدينة إشبيلية آنذاك حاميةً مرابطية. فسار الموحدون إلى إشبيلية بقواتهم وسار معهم ثوار غربي الأندلس بقواتهم أمثال سيدراي بن وزير وأحمد بن قسي ويوسف بن أحمد البطروجي. فأعلن أهل طلياطة وحصن القصر الولاء والطاعة. فاستولى الموحدون عليهما صلحاً(١٨٦).

حاصر الموحدون مدينة إشبيلية من البر، ثم سار إليها صاحب قادس عيسى بن ميمون بالأسطول ـ وهو أحد الثائرين على المرابطين ـ فضرب الحصار عليها من البحر ثم اقتحم الموحدون مدينة إشبيلية في شهر شعبان سنة ٥٤١ هـ/يناير ١١٤٧ م فاستولوا عليها عنوة، فقتل خلال ذلك بعض رجال الحامية المرابطية بينما فرّ الباقي إلى مدينة قرمونة(١٨٧).

سار على أثر ذلك وفد من مدينة إشبيلية برئاسة القاضي أبي بكر بن

---

(١٨٥) الناصري: نفس المصدر ص ١٠٤ ـ ١٠٥ ـ محمد عبد الله عنان: نفس المرجع ص ٣٢٧ (نقلاً عن ابن خلدون: العبر جـ٦ ص ٢٣٤، ابن الأبار الحلة السيراء جـ٢ ص ٢٠٠).

J. F. O'callaghan: A History of medieval Spain P. 229.

(١٨٦) ابن خلدون: العبر جـ٦ ص ٢٣٤

(١٨٧) الناصري: الاستقصا جـ٢ ص ١٠٥ ـ ابن الأثير: الكامل جـ١١ ص ٤٧ ـ يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس ص ٢٢٤ ـ محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق١ ص ٣٢٨ (نقلاً عن ابن الأبار: الحلة السيراء جـ٢ ص ٣٢٩)

J. F. O'callaghan: A History of medieval Spain P. 229 - S. P. Scott: moorish Empire. V. II P. 287.

العربي المعافري، فعبر البحر إلى مراكش وحظي بمقابلة الخليفة عبد المؤمن، وقدم أعضاء الوفد بيعة أهل إشبيلية وألقوا الخطب بين يدي عبد المؤمن، فتقبل عبد المؤمن بيعة أهل إشبيلية وشكر أعضاء الوفد وقدم لهم الجوائز والصلات(١٨٨).

ـ ثورة إشبيلية:

رأى الموحدون بعد الاستيلاء على إشبيلية أن يسيروا لغرض السيطرة على بقية الجهات، فساروا بقواتهم بعد أن تركوا في إشبيلية حاميةً موحديةً بقيادة عيسى وعبد العزيز أخوي المهدي محمد بن تومرت وجعلوا إلى جانبها يوسف بن أحمد البطروجي أحد زعماء الثوار في غربي الأندلس. أساء عيسى وعبد العزيز أخوا المهدي بن تومرت معاملة إشبيلية فاستطالت أيديهما على الأموال واستباحا سفك الدماء، فحاول يوسف بن أحمد البطروجي منعهما من الاستمرار في تعسفهما، لكنه فشل، ثم اعتزم أخوا المهدي الفتك بالبطروجي فهرب إلى بلده لبلة وأخرج الموحدين منها واستبد بها(١٨٩).

اتصل يوسف بن أحمد البطروجي بالمرابطين في الأندلس واتفق معهم على قتال الموحدين، فسار قائد المرابطين يحيى بن غانية واستولى على الجزيرة الخضراء ليمنع وصول إمدادات الموحدين من المغرب، بلغ ذلك ثوار غربي الأندلس فخلعوا طاعة الموحدين واستبدوا بولاياتهم فقد استبد أحمد بن قسي بمدينة شلب واستبد علي بن عيسى بن ميمون بجزيرة قادس واستبد محمد بن

(١٨٨) ابن عذارى: البيان المغرب ق ٣ ص ٢٢ ـ ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٢٤ ـ ابن خلدون: نفس المصدر والصفحة ـ الناصري: نفس المصدر والصفحة ـ ابن أبي دينار: المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس. ١٢٨٦ هـ ص ١١٠ ـ محمد عبد الله عنان: نفس المرجع ص ٢٦٧ (نقلاً عن مجهول الحلل الموشية ص ١١١ ـ ١١٢)، الزركشي: تاريخ الدولتين ص ٦).

(١٨٩) ابن خلدون: العبر جـ٦ ص ٢٣٤.

علي الحجام بمدينة بطليوس، بينما بقي أبو الغمر بن عزون صاحب شريش على الطاعة والولاء للموحدين(١٩٠).

لم يستطع عيسى وعبد العزيز أخوا محمد بن تومرت البقاء في مدينة إشبيلية خوفاً على حياتهما، فقد ثار عليهما أهل طلياطة وحصن القصر من ضواحي إشبيلية بتحريض من يوسف بن أحمد البطروجي فهرب أخوا محمد بن تومرت من إشبيلية واعتصما بالجبال مع ابن عمهما بصليتن، ثم حضر لنجدتهم أبو الغمر بن عزون صاحب شريش واتفق معهم على المسير بقواته لاسترداد الجزيرة الخضراء من المرابطين. فساروا وحاصروا الجزيرة الخضراء حتى استولوا عليها وقتلوا من كان فيها من المرابطين(١٩١).

انتهز عبد المؤمن الفرصة فجهّز جيشاً كبيراً بعثه إلى الأندلس بقيادة يوسف بن سليمان للقضاء على الثوار وإعادة البلاد للطاعة، سار يوسف بن سليمان فعبر البحر واستولى على مدينة إشبيلية وأخضع أهل طلياطة، سار بعد ذلك ناحية لبلة فاعلن حاكمها يوسف بن أحمد البطروجي الولاء والطاعة، استأنف يوسف بن سليمان زحفه فاستولى على شلب وأعادها للطاعة، ثم سار منها فأخضع حصن طبيرة، واتجه بعد ذلك ناحية قادس وشنتمرية الغرب، فبادر صاحبهما علي بن عيسى بإعلان الولاء والطاعة، كذلك أعلن صاحب بطليوس محمد بن علي بن الحجام الولاء والطاعة وبعث الهدايا فتقبلت منه، عاد يوسف بن سليمان بعد ذلك إلى إشبيلية(١٩٢).

ـ احتلال وسط الأندلس:

أخذ الموحدون يستعدون للاستيلاء على بلاد وسط الأندلس من يحيى بن غانية قائد المرابطين في قرطبة، فانتهز ملك قشتالة الفرصة ونقض اتفاقه

(١٩٠) عبد الله علام: الدولة الموحدية ص ١٨٣ ـ ١٨٤ ـ محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق ١ ص ٣٢٩.

(١٩١) ابن خلدون: العبر جـ ٦ ص ٢٣٤
A. Bell: Les Benou Ghanya P. 14.

(١٩٢) عبد الله علام: المرجع السابق ص ١٨٤ ـ محمد عبد الله عنان: المرجع السابق ص ٣٢٩.

السابق مع يحيى بن غانية، فقد سار بقواته واستولى على مدينة جيان، ثم بعث رسله وطالب ابن غانية بالزيادة في بيته أو الإفراج له عن قرطبة[١٩٣]، رأى ابن غانية على إثر ذلك أن يتفاهم مع الموحدين، فأظهر الموافقة على شروط الملك وأحسن استقبال رسله ثم اتصل سراً بقائد الموحدين بدران بن محمد واجتمع معه في مدينة استجة، فاتفقا أن يسلم ابن غانية مدينتي قرطبة وقرمونة للموحدين مقابل أن يضمن له بدران أمان الخليفة عبد المؤمن[١٩٤].

عاد يحيى بن غانية بعد هذا الاجتماع السري إلى مدينة قرطبة، فألقى القبض على رسل ملك قشتالة واعتقلهم في قلعة بني سعيد، بلغ ذلك ملك قشتالة فسار بقواته من مدينة جيان لإنقاذ رجاله وقتال ابن غانية فضرب الحصار على مدينة قرطبة لكنه فشل في الاستيلاء عليها، ثم ترك حصارها وانسحب بقواته عائداً إلى بلاده، فقد بعث الموحدون إليها ثلاثة جيوش الأول بقيادة أبي الغمر بن عزون، والثاني بقيادة يوسف البطروجي والثالث بقيادة يحيى بن يغمور، فدخلوا قرطبة[١٩٥] واستولوا عليها ٥٤٣ هـ/١١٤٨ م[١٩٦].

---

(١٩٣) ابن خلدون: المصدر السابق ص ٢٣٥ - الناصري: الاستقصا جـ٢ ص ١٠٥ النص واضح لا لبس فيه ومع ذلك فقد ذكر محمد عبد الله عنان أن ملك قشتالة طالب ابن غانية بالنزول له عن مدينة جيان: يتابع محمد عنان في ذلك كل من عبد الله علام ومراجع الغناي (انظر: دولة الإسلام ع٣ ق١ ص ٣٣٢، الدولة الموحدية ص ١٨٦، قيام دولة الموحدين ص ١٠٨).

(١٩٤) الناصري: نفس المصدر والصفحة. وردت كلمة «أمان الخليفة» عند ابن خلدون على الشكل الآتي «أمداد الخليفة» العبر جـ٦ ص ٢٣٥.

(١٩٥) يوسف أشباخ أن الموحدين استولوا على قرطبة بخيانة واليها المرابطي يحيى بن علي. فعاقبه قائد المرابطين يحيى بن غانية بأن فلق رأسه بنفسه (تاريخ الأندلس ص ٢٢٨).

(١٩٦) الناصري: نفس المصدر والصفحة - ابن الأثير: الكامل جـ١١ ص ٦١ - زيني دحلان: الفتوحات الإسلامية جزءان المطبعة الحسينية بمصر جـ١ ص ٣١٩ - محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق١ ص ٣٣٤ (نقلاً عن ابن خلدون: العبر جـ٦ ص ٢٣٥، ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٢٥).

أخذ الموحدون بعد ذلك يبعثون سرايا قواتهم للاستيلاء على بقية بلاد وسط الأندلس، لذلك آثر ملك قشتالة عدم الاشتباك مع الموحدين فسحب قـواته من مدينتـي أبده وبيـاسة، فقـامت سرايـا المـوحـدين بـالاستيـلاء عليهما(١٩٧). وهرب دردوش المستبد بمدينة قرمونة إلى ابن مردنيش أمير شرقي الأندلس(١٩٨).

كذلك اهتم الموحدون بالاستيلاء على الحصون التي استبد بها بعض الثوار فقد رفض ابن مروان صاحب حصن فرنجلوش الخضوع للموحدين، فسار إليه عبد الرحمن بن نعمان ويخلف بلولي بسرية موحدية، فقتلاه واستوليا على الحصن، كما سار عبد الله بن سليمان بسرية أُخرى فاستولى على حصون شلير وأركش بعد أن قتل صاحبهما، استولى أيضاً عبد الله بن سليمان وأبو سعيد على أحد الحصون لم يذكر البيذق اسمه وقتلا صاحبه عمر بن أبي وطوط، وسار أبو حفص بسرية أُخرى فغزا ابن مقدام وقتله ثم استولى على برشانة(١٩٩).

ـ ثورة ابن قسي:

مرّت بعد ذلك بضع سنوات قبل أن يستكمل الموحدون سيطرتهم على بقية معظم أنحاء الأندلس، اعتصم القائد المرابطي ميمون بن بدر اللمتوني بقواته في مدينة غرناطة ورفض التنازل عنها للموحدين، اعتصمت كذلك حامية مرابطية في مدينة أنتقيرة وأخذت تشن الغارات على أبي الحكم بن

---

(١٩٧) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٢٦ ـ الناصري: الاستقصا جـ٢ ص ١٠٩ ـ محمد عبد الله عنان: نفس المرجع ص ٣٣٤ ـ ٣٣٥.

(١٩٨) ابن أبي دينار: المؤنس في تاريخ افريقيا وتونس ص ١١١ ـ يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس ص ٢٢٩.

(١٩٩) البيذق: أخبار المهدي بن تومرت ص ٨٧ من طـ ابن منصور.

حسون الذي ثار بمدينة مالقة واستبد بها، كان أحمد بن ملحان مستبداً بوادي آس(٢٠٠) بينما كانت المرية بيد النصارى منذ استيلائهم عليها في سنة ٥٤٢ هـ/١١٤٧ م(٢٠١).

رأى الموحدون أن يعززوا سيطرتهم على ما تحت يدهم من بلاد الأندلس قبل الشروع في احتلال المدن المذكورة، فعيّن الخليفة عبد المؤمن ولاة موحدين يثق بهم، ثم أسند ولاية إشبيلية لابنه أبي يعقوب يوسف وأسند ولاية الجزيرة الخضراء مضافاً إليها سبتة لابنه أبي سعيد عثمان، كان عبد المؤمن يشك في ولاء زعماء ثورات غربي الأندلس فقام باستدعائهم إليه، فساروا إلى مراكش بوفود بلادهم يتقدمهم سيدراي بن وزير صاحب يابرة وباجة، وأبو الغمر بن عزون صاحب شريش ورندة، ثم يوسف بن أحمد البطروجي .صاحب لبلة، ثم محمد بن علي الحجام صاحب بطليوس ثم عامل بن مهيب صاحب طبيرة. فلم يتخلف سوى أحمد بن قسي صاحب شلب وميرتلة(٢٠٢).

أحسن الخليفة عبد المؤمن استقبال هؤلاء الزعماء ووفود بلادهم، ثم أمر الوفود بالعودة إلى بلادهم وأبقى الزعماء إلى جانبه في مراكش(٢٠٣). خلع أحمد بن قسي الولاء والطاعة وثار ببلده على الموحدين، ثم اتصل بابن الرنق ملك البرتغال وطلب منه العون والمساعدة، استجاب ملك البرتغال لابن قسي فوعده بالمساعدة وأرسل إليه هدية تشمل فرساً وترساً ورمحاً(٢٠٤).

(٢٠٠) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ٢٥٥ و ٢٦٤.
(٢٠١) المراكشي :المعجب ص٢١٠ ـ ٢١١ ـ عبد الله علام: الدولة الموحدية ص ١٧٥ ـ ١٧٦.
(٢٠٢) الناصري : الاستقصا جـ ٢ ص ١٠٧ ـ مراجع الغناي: قيام دولة الموحدين ص ١٠٦ ـ ١٠٧ ـ محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق١ ص ٣٢٠ (نقلاً عن ابن خلدون: العبر جـ ٦ ص ٢٣٥).
(٢٠٣) الناصري: نفس المصدر والصفحة.
(٢٠٤) ابن الآبار: الحلة السيراء جـ ٢ ص٢٠٠ و٢٠٧ ـ ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ٢٥١.

استنكر أهل شلب وميرتلة اتصال أحمد بن قسي بالعدو ملك البرتغال، فتآمروا عليه للتخلص منه واتفقوا على قتله مع محمد بن عمر بن المنذر، ففي شهر جمادى الأولى ٥٤٦ هـ/سبتمبر ١١٥١ م أعد بعض المتآمرين نزهةً للحسين ولد أحمد بن قسي بينما قام البعض الآخر باقتحام قصر الشراجب فجأة. فقبضوا على أحمد بن قسي وقتلوه، ثم علّقوا رأسه على نفس الرمح الذي جاءه هديةً من ملك البرتغال، تولّى على أثر ذلك محمد بن عمر بن المنذر ولاية شلب وميرتلة، فأعلن الولاء والطاعة للموحدين(٢٠٥).

ـ احتلال مالقة:

رأى الموحدون أن يستكملوا سيطرتهم على بقية معظم الأندلس، فسار السيد أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاني للاستيلاء على وادي آس وبسطة، فلقي خلال طريقه صاحبهما أحمد بن ملحان هارباً من مطاردة ابن مردنيش أمير شرقي الأندلس، فأعلن أحمد بن ملحان الولاء والطاعة للموحدين وتنازل لهم عن بلاده، وهي التي استولى عليها ابن مردنيش، ثم استأنف أبو حفص عمر زحفه فطلب ابن مردنيش العون من حليفه كونت برشلونة مما أدّى إلى انسحاب أبي حفص عمر وعودته(٢٠٦).

حاول المرابطون المعتصمون بمدينة أنتقيرة وغيرها في الجبات استرداد مدينة مالقة من صاحبها المستبد بها أبي الحكم بن حسون، فأخذوا في غزوها وشن الغارات عليها، لم يستطع أبو الحكم بن حسون قتال المرابطين وردهم فاستعان بالجند النصارى، مما جعله يفرض المغارم على رعيته حتى يدفع نفقات الجند النصارى، تذمّر الناس من ذلك فتآمروا على قتله مع قائد حرسه يدعى اللوشي(٢٠٧).

(٢٠٥) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق١ ص ٣٣٠.

(٢٠٦) ابن الأثير: الكامل جـ ١١ ص ٦٣ ـ ابن الخطيب: المصدر السابق ص ٢٦٤ ـ البيذق: أخبار المهدي بن تومرت ص ٨٨ من طـ ابن منصور.

(٢٠٧) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع ٤ ق ١ ص ٣١٩

ثار الناس في أحد الأيام المتفق عليها من سنة ٥٤٧ هـ/١١٥٢ م، فقاموا على أبي الحكم بن حسون وقتلوا أخاه ثم اقتحموا القصر في مالقة فقاتلهم أبو الحكم بن حسون حتى عجز عن ردهم، فتراجع إلى داخل قصره وحاول قتل نسائه وبناته غيرة عليهن، فامتنعن منه بالغرف، ثم أشعل النار في كتبه وذخيرته فأحرقها، وشرب سماً فلم يفعل فيه فذلق رمحاً وتحامل على أسنانه إلى أن خرج من ظهره ولم يجهز عليه ودخل إلى القصر فوجد مشحطاً في دمه يجود بنفسه، ثم مات ليومين. . . وصلبت جثته وحمل رأسه إلى مراكش، واستولى الموحدون على مالقة بعده فبيع بناته وأهله(٢٠٨).

قام الموحدون بعد استيلائهم على مالقة بنبش قبر القاضي بن حمدين زعيم ثورة قرطبة على المرابطين فقد توفي في رجب سنة ٥٤٦ هـ/نوفمبر ١١٥١ م ودفن بالمسجد الجامع في مالقة، فوجد الموحدون جثمانه بحاله لم يتغير فاستخرجوه وصلبوه(٢٠٩). بينما يذكر البيذق(٢١٠) أن ابن حمدين قتله مخلوف بن يلولي ويحيى بن يومور وهما من قادة الموحدين.

ـ احتلال غرناطة:

سار يحيى بن غانية إلى مدينة غرناطة سنة ٥٤٣ هـ/ ١١٤٨ م بعد أن تفاهم مع الموحدين واحتلوا قرطبة. كانت مدينة غرناطة آخر ما بقي للمرابطين في الأندلس من مدن ومعاقل بالإضافة إلى أنتقيرة، امتنع في مدينة غرناطة الوالي المرابطي ميمون بن بدر اللمتوني، فحاول يحيى بن غانية أن يقنع ميمون بالدخول في طاعة الموحدين وأن ينزل لهم عن غرناطة(٢١١). أو كما

---

(٢٠٨) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ٢٥٥

(٢٠٩) محمد عبد الله عنان: المرجع السابق ص ٣١٥ ـ ٣١٦

(٢١٠) أخبار المهدي بن تومرت ص ٨٦ من طـ ابن منصور

(٢١١) الناصري: الاستقصا جـ ٢ ص ١٠٦

يقول ابن خلدون(٢١٢): «ليحمله على مثل حاله مع الموحدين».

يبدو أن يحيى بن غانية فشل في إقناع ميمون أو أن المنية قد عجلت بيحيى بن غانية قبل أن يقوم بإقناع ميمون، فقد توفي يحيى بن غانية في غرناطة في شهر شعبان سنة ٥٤٣ هـ/ديسمبر ١١٤٨ م ودفن فيها(٢١٣).

بقي ميمون بن بدر اللمتوني معتصماً بمدينة غرناطة حتى سنة ٥٥١ هـ/١١٥٦ م. ففي هذه السنة رأى ميمون أن ينزل للموحدين عن مدينة غرناطة بعد أن توالت انتصاراتهم واشتدت قبضتهم على الأندلس، عرض ميمون على الخليفة عبد المؤمن النزول عن غرناطة مقابل الحصول على الأمان، فوافق عبد المؤمن وأرسل ابنه السيد أبا سعيد والي سبتة والجزيرة الخضراء كي يتسلم غرناطة وبعث معه عبد الله بن سليمان قائد الأسطول(٢١٤).

بلغ ذلك ميمون بن بدر اللمتوني فخرج لاستقبالهما وسلمهما مدينة غرناطة. سار ميمون بعد ذلك إلى مدينة مالقة ثم إلى مدينة مراكش مصحوباً بقائد الأسطول عبد الله بن سليمان، فأحسن الخليفة عبد المؤمن استقبال ميمون وأنزله المنازل الحسنة وأغدق عليه الصلات والأرزاق. أضاف عبد المؤمن ولاية غرناطة إلى ابنه السيد أبي سعيد والي سبتة والجزيرة الخضراء فاتخذ السيد أبو سعيد مدينة غرناطة مقراً له(٢١٥).

---

(٢١٢) العبر جـ ١ ص ٢٣٥

(٢١٣) يذكر يوسف أشباخ أن يحيى بن غانية سقط قتيلاً في معركة ضد الموحدين تحت أسوار غرناطة في شهر شعبان سنة ٥٤٣ هـ/ديسمبر ١١٤٨ م. ثم تذكر رواية أخرى نصرانية ملخصها أن يحيى بن غانية وقع أسيراً بأيدي حلفائه النصارى فقتله أهل جيان عقاباً له لتآمره على ملك قشتالة: (انظر تاريخ الأندلس ص ٢٢٩)....

تجمع الرواية الإسلامية على أن يحيى بن غانية توفي في مدينة غرناطة وفاة طبيعية ودفن في قصبة غرناطة بإزاء قبر باديس بن حبوس الصنهاجي. ويقول ابن خلدون: «قبره بها معروف لهذا العهد» (العبر جـ ٦ ص ٢٣٥، الناصري: الاستقصا جـ ٢ ص ١٠٦).

(٢١٤) عبد الله علام: الدولة الموحدية ص ١٨٦ - ١٨٧

(٢١٥) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع ٣ ق ١ ص ٣٤٥ - ٣٤٦

ـ احتلال المرية:

أخذ الموحدون بعد ذلك مباشرة يستعدون لاحتلال مدينة المرية. فجهّزوا قواتهم البرية والبحرية. كانت مدينة المرية بأيدي النصارى منذ سنة ٥٤٢ هـ/١١٤٧ م. فقد انتهز النصارى ثورة الأندلسيين على المرابطين في أواخر دولتهم وساروا بقواتهم إلى مدينة المرية فاستولوا عليها من أيدي صاحبها عبد الله بن محمد الرميمي، فقتلوا أهلها وسبوا نساءهم وبنيهم وانتهبوا أموالهم في خبر يطول ذكره(٢١٦).

قام بالاستيلاء على مدينة المرية قوات مشتركة من مملكة قشتالة ومن جليقية واشتوريش وارغونة ونبرة تحت قيادة ملك قشتالة نفسه. بينما قامت أساطيل جنوا وبيزا وبرشلونة ومونبليه بحصار المرية من البحر مما أدّى إلى استيلاء النصارى عليها(٢١٧).

قاد حملة استرداد المرية من النصارى ولد الخليفة عبد المؤمن السيد أبو سعيد والي غرناطة فقد أرسل السيد أبو سعيد أولاً حملة استطلاعية ثم سار بنفسه في قوات كبيرة. عزز الموحدون قواتهم بقوة أندلسية بقيادة أحمد بن ملحان وقوة بحرية وصلت من سبتة بقيادة عبد الله بن سليمان(٢١٨).

ضرب الموحدون حول المرية حصاراً محكماً ونصبوا عليها المجانيق. ثم بنوا من معسكرهم في الجبل الذي يقع إزاء المدينة سوراً يمتد إلى البحر، وأمامه خندق عميق ليحول دون وصول النجدات إلى المدينة. ضاق النصارى بالحصار فاستغاثوا بملك قشتالة ألفونسو ريمونديس. فسار الملك بإثني عشر ألف فارس وسار معه حليفه محمد بن سعد بن مردنيش أمير شرقي الأندلس

---

(٢١٦) المراكشي: المعجب ص ٢١٠ ـ ٢١١

(٢١٧) يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥

J. F. O'callaghan: A History of medieval Spain P. 231

(٢١٨) مراجع الغناي: قيام دولة الموحدين ص ١١٤

بستة آلاف من المسلمين. فحاولت هذه القوات المشتركة اقتحام الحصار دون جدوى. ثم استنجد السيد أبو سعيد بأبيه عبد المؤمن فبعث إليه الوزير أبا جعفر بن عطية. مما أدى إلى انسحاب ملك قشتالة وحليفه ابن مردنيش خائبين. استمر الحصار سبعة أشهر ثم نزل النصارى على الأمان. فدخل الموحدون مدينة المرية أواخر ٥٥٢ هـ/١١٥٧ م(٢١٩).

هناك رواية أُخرى تذكر أن الموحدين اقتحموا مدينة المرية فجأة على النصارى واحتلوها. فلاذ النصارى بالقصبة واعتصموا بها إلى أن نزلوا عنها. يبدو من هذه الرواية أن الموحدين حاصروا قصبة المرية لا المدينة نفسها(٢٢٠).

(٢١٩) ابن أبي زرع: الروض القرطاس ص ٤١٥ - زيني دحلان: الفتوحات الإسلامية جـ١ ص ٣٢٠ - محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق١ ص ٣٤٦ - ٣٤٧.

(٢٢٠) مراجع الغناي: نفس المرجع ص ١١٥

الباب الأول

علاقات الموحدين السياسية
بالدول الإسلامية في الأندلس

الفصل الأول

علاقة الموحدين السياسية بابن مردنيش أمير شرقي الأندلس

امتدت دولة ابن مردنيش في شرقي الأندلس من مدينة بلنسية شمالاً حتى مدينة المرية في الجنوب. فكانت حدودها تشترك مع حدود النصارى من ثلاث جهات. مملكة أرغونة في الشمال ومملكة قشتالة في الشمال الغربي ونصارى المرية في الجنوب. أما الجهة الرابعة فكانت تشترك في الحدود مع البلاد الأندلسية الخاضعة للموحدين.

ـ أصل ابن مردنيش:

هو أبو عبد الله محمد بن سعد بن محمد بن سعد الجذامي بن مردنيش. ولد بقلعة بنشكلة سنة ٥١٨ هـ/١١٢٤ م. وهي إحدى قلاع طرطوشة المنيعة. أما والد ابن مردنيش فقد كان والياً للمرابطين على مدينة أفراغة. وكان عمه عبد الله بن محمد بن سعد بن مردنيش صهر ابن عياض وعضده القوي في تأسيس إمارته بشرقي الأندلس[1].

تجعل الرواية العربية ابن مردنيش ينتمي إلى جذام فهو على ذلك من أصل غربي لكن بعض الباحثين جعله من أصل إسباني وأن جده دخل في ولاء بعض الجذاميين فانتسب إليهم يقول حسين مؤنس[2]: «إن مردنيش أو

(١) مراجع الغناي: قيام دولة الموحدين ص ١١٧

(٢) ابن الآبار: الحلة السيراء جـ٢ ص ٢٣٢ حاشية رقم ١

مردانيش أو مردنيش ليس اسماً عربياً مما يقطع بأن نسبته الجذامية ليست صحيحة. والواقع أن أصله من شبه الجزيرة وقد يكون جده مردنيش هذا دخل في ولاء بعض الجذاميين وانتسب إليهم. وهو فرض مقبول لأن دار بطون جذام بن عدي بن الحارث بن مرة بالأندلس كانت شذونة والجزيرة وتدمير وإشبيلية».

إن صفات ابن مردنيش وسلوكه حسبما تصورها الرواية العربية تؤيد انتماء ابن مردنيش إلى المولدين. فقد كان شغوفاً بالتشبه بالنصارى في الزي والملابس والسلاح واللجم والسروج. كما كان يجيد اللغة القشتالية ويفضل التحدث بها وكان يدعو إلى جيشه كثيراً من المرتزقة النصارى البشكنس والقطلان والقشتال. فيبني لهم الأحياء والمعسكرات والحانات. ويغدق عليهم الصلات والإقطاعات. لقد أقطع أحد فرسان البشكنس بيدرو دي اثاجرا مدينة شنتمرية ابن رزين مع سائر مرافقها وأراضيها فأنشأ فيها الفارس بيدرو أسقفية[٣]. عرف ابن مردنيش في المراجع النصرانية باسم الملك لويو. وقد منحه البابا لقب صاحب الذكر الحميد[٤].

استعان ابن مردنيش برجل قوي الشكيمة يدعى ابراهيم بن أحمد بن مفرج بن همشك من أصل نصراني «كان معروف الشجاعة إذا رآه النصارى في الحرب قالوا: همشك ومعناه هذا مقطوع الأذن. وكان ابراهيم دليلاً بالأرض وفارساً نجداً خدم مع النصارى وتقرّب إلى ابن غانية بقرطبة وسافر رسولاً بين ابن حمدين وبين ملك قشتالة إلى أن تمكّن من الإنتزاء بحصن شقوبش ثم تغلب على شقورة وتملكها فغلظ أمره وساوى محمد بن مردنيش وداخله حتى عقد معه صهراً على ابنته، فاتصلت له الرياسة والإمارة. وكان سيفاً لصهره سلطاناً على من عصاه[٥]».

(٣) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق ١ ص ٣٦٦

(٤) عبد الهادي التازي في تحقيقه لكتاب ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص ١١٥ حاشية رقم ١.

(٥) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ٢٦٣

ـ معاهدات ابن مردنيش مع النصارى:

عزم ابن مردنيش في بداية أمره على الاستقلال بدولته. فكان حريصاً على رد أي اعتداء خارجي والقضاء على أي ثورة داخلية. بلغه خلال مسيره إلى بلنسية هجوم النصارى على حصن حلال، فكر راجعاً واسترد الحصن ثم بعث قائده ابن همشك للاستيلاء على بلاد ابن سوار، فنجح ابن همشك في مهمته وعاد إلى مرسية. ثم عيّن ابن مردنيش أخاه أبا الحجاج يوسف بن سعد والياً على بلنسية وعيّن ابن همشك والياً على مرسية(٦).

عقد ابن مردنيش في سنة ٥٤٣ هـ/١١٤٨ م معاهدة صلح مع جمهورية بيزا مدتها عشر سنوات. ثم عقد معاهدة أُخرى مع جمهورية جنوا، فتعهد بموجبها أن يدفع أتاوة قدرها عشرة آلاف دينار مرابطية خلال عامين، وأن يبني للرعايا الجنويين في بلنسية ودانية فندقاً يزاولون فيه تجارتهم. بينما تعهدت جمهورية جنوا في جانبها بأن لا تحدث أضراراً لأحد رعايا الملك لويو في طرطوشة والمرية. كان ابن مردنيش يراسل كثيراً من الملوك النصارى ويبعث إليهم الهدايا القيمة. فمن ذلك هدية قيمة من الذهب والحرير والخيل والجمال بعثها إلى ملك انجلترا، فبعث إليه الملك هدية جليلة(٧).

عقد ملك قشتالة مع ملك أرغونة معاهدة في شهر رجب سنة ٥٤٥ هـ/يناير ١١٥١ م. عرفت هذه المعاهدة باسم معاهدة تطيلة. فاتفق فيها الملكان على تقسيم بلاد الأندلس بينهما. فكان نصيب ملك أرغونة بموجب المعاهدة غزو شرقي الأندلس والاستيلاء عليه بشرط أن يتولى حكم مدينتي بلنسية ومرسية بصفته تابعاً لملك قشتالة(٨).

أدرك ابن مردنيش على أثر ذلك صعوبة رد الغزو النصراني. فقام بعقد

(٦) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق ١ ص ٣٧١ ـ ٣٧٢
(٧) محمد عبد الله عنان: نفس المرجع ص ٣٦٧ ـ مراجع الغناي: قيام دولة الموحدين ص ١١٩.
(٨) J. F. O'callaghan: A History of medieval Spain P. 232.

اتفاقيتين مع النصارى. الأُولى مع ملك قشتالة مدتها أربع سنوات. تعهد ابن مردنيش بموجبها أن يكون فصلاً لملك قشتالة وأن يدفع له خمسين ألف مثقال ذهباً جزية سنوية. أما الاتفاقية الثانية فعقدها ابن مردنيش مع ملك أرغونة مدتها أيضاً أربع سنوات وتعهد بموجبها أن يدفع خمسين ألف مثقال ذهباً جزية سنوية(٩).

ـ نزاع ابن مردنيش مع الموحدين:

يبدو أن بعض القضاة والأعيان في شرقي الأندلس قد استنكروا الاتفاقيات التي عقدها ابن مردنيش مع النصارى. ففي العام التالي ٥٤٦ هـ/١١٥٢ م قامت ثورتان على ابن مردنيش. الأولى في مدينة بلنسية فعيّن الثوار أحدهم حاكماً عليهم يدعى أبو مروان عبد الملك بن شلبان بينما قامت الثورة الثانية في مدينة لورقة. ثم فشلت هاتان الثورتان فقد تمكن ابن مردنيش من القضاء عليهما والتنكيل بالمشتركين فيهما(١٠).

غضب الموحدون على ابن مردنيش بقيامه بالقضاء على هاتين الثورتين. فقد بعث الخليفة عبد المؤمن رسالة إلى ابن مردنيش جاء فيها: «فقد كان منكم في أمر أهل بلنسية حين إعلانهم بكلمة التوحيد وتعلقهم بهذا الأمر السعيد ما كان. ثم ما كان منكم في عقب ما اعتمدتموه في أمر أهل لورقة ـ وفقهم الله ـ حين ظهر اختصاصهم وبان إخلاصهم وليس لذلك وأمثاله عاقبة تحمد، فالخير خير ما يقصد. والنجاة فيما ينزح عن الشر ويبعد. وإنا لنرجو أن يكفكم عن ذلك وأشباهه إن شاء الله تعالى نظر موفق ومتاع محقق ويجذبكم إلى موالاة هذه الطائفة المباركة جاذب يسعد وسائق يرشد. والله يمن

(٩) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ٢٦٠، الإحاطة جـ٢ ص ١٢٣ ـ ١٢٤ ـ Ibid

(١٠) مراجع الغناي: قيام دولة الموحدين ص ١٢٠ ـ ١٢١ ـ عبد الله كنون: النبوغ المغربي جـ٢ ص ١٠١ ـ ١٠٣

عليكم بما ينجيكم ويمكن لكم في طاعته أسباب تأميلكم وترجيكم(١١)».

ليس بعيداً ما زعمه الموحدون، فربما كان لهم صلات ببعض الثوار. فإن بعض زعماء الثوار في شرقي الأندلس ممن قاموا على المرابطين في أواخر دولتهم كانوا يعتقدون بمذهب الموحدين. وكان من أشهر هؤلاء الأديب الكاتب أبو عبد الرحمن محمد بن عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الرحمن بن طاهر القيسي. فخاطب الخليفة عبد المؤمن برسالة حاول أن يثبّت فيها بالأدلة المنطقية والتاريخية أمر الإمام المهدي محمد بن تومرت وصدق إمامته وعصمته وانتسابه لآل البيت. عنوان الرسالة «الكافية في براهين الإمام المهدي رضي الله عنه تعالى عقلاً ونقلاً(١٢)».

كان عبد الرحمن بن طاهر يخشى محمد بن سعد بن مردنيش، لما كان يسمع ويبصر من شهامته وحزامته وربما عرض له ابن سعد بما يزيده حذراً منه وانقباضاً عنه. فأخذ في التلون وأقبل على الانهماك والإدمان وزهد في الإمارة وطلب السلامة من غائلتها وقطع معه مدته خائفاً إلى أن توفي ابن سعد فتسلخ رجب سنة سبع وستين وخمسمائة، فأفرج روعه ورسح بالدخول في الدعوة المهدية آمنة وتوفي بمراكش سنة أربع وسبعين(١٣).

ـ غزوات ابن مردنيش:

أخذ ابن مردنيش يغزو بلاد الأندلس الخاضعة للموحدين بغية الاستيلاء عليها. ففي سنة ٥٥٤ هـ/١١٦٠ م سار بقواته من مرسية وسار معه قوات نصرانية للاستيلاء على مدينة جيان منتهزاً انشغال عبد المؤمن بفتح أفريقيا. فخشي والي جيان محمد بن علي الكومي لقاء ابن مردنيش فسلمه

(١١) عبد الله كنون: نفس المرجع والصفحة ـ مراجع الغناي: نفس المرجع ص ١٢١
(١٢) ابن القطان: نظم الجمان ص ٥٢ ـ ٥٣
(١٣) ابن الآبار: الحلة السيراء جـ٢ ص ٢٣٣

مدينة جيان بلا قتال. سار ابن مردنيش بعد ذلك للاستيلاء على مدينة قرطبة، فنازلها ودمر زرعها وعاث فيها لكنه لم يتمكن من الاستيلاء عليها فقد تحصن بداخلها الوالي أبو زيد عبد الرحمن بن تيجيت، وأحسن مقاومة ابن مردنيش وصده(١٤).

ضاق والي قرطبة بحصار ابن مردنيش فتشاور مع القاضي أخيل بن إدريس على صرف ابن مردنيش عن قرطبة. فكتبا كتاباً باسم سيدراي بن وزير يدعو فيه ابن مردنيش على التوجه إلى إشبيلية والاستيلاء عليها، لأنها بدون دفاع وسوف يساعده على احتلالها. ثم حمل الكتاب أحد رجال القاضي بعد أن غيّر هيئته على شكل رجل زيات من شرق إشبيلية. وسلّم الكتاب إلى ابن مردنيش. فصدّق ابن مردنيش ما ورد في الكتاب، فأقلع عن قرطبة وسار نحو إشبيلية، فنزل بقواته على بعد ميل عنها في موضع يسمى البونت(١٥).

بلغ ذلك والي إشبيلية السيد أبا يعقوب يوسف فثقف المدينة والأسوار بالجند والرجال واستعد لمقاومة الحصار. ثم بعث ابن مردنيش بعض قواته لاقتحام إشبيلية من باب قرمونة دون جدوى. وأخذ في نفس الوقت يواصل الغزو لإرهاق إشبيلية فأصابها عظيم الخطب وجماع الرعب وحل بها وبأهلها كرب وحرب، لكن بعض القادة الموحدين والأندلسيين أحسنوا تثقيف المدينة وحراسة أبوابها، ثم ألقوا القبض على من لحقه الظنة من أهلها. فبقي ابن مردنيش يحاصر إشبيلية ثلاثة أيام، فلما لم ير شيئاً مما كان في الكتاب علم أنها خدعة وأقلع خاسراً(١٦).

بعث ابن مردنيش في أوائل العام التالي جيشاً بقيادة ابراهيم بن همشك

---

(١٤) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص ١١٥ ـ ١١٦
(١٥) نفس المصدر ص ١١٧ ـ ١١٨ ـ محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق ١ ص ٣٧٤.
(١٦) نفس المصدر ص ١١٨ ـ ١٢٠ ـ مراجع الغناي: قيام دولة الموحدين ص ١٢١ ـ ١٢٢ ـ محمد عبد الله عنان ـ نفس المرجع ص ٣٧٤ ـ ٣٧٥

للاستيلاء على قرطبة. فنازل ابراهيم بن همشك قرطبة ودمّر زرعها وخرّب أحوازها ثم تراجع ورتب كميناً في بلدة أطابة القفرة من أحواز قرطبة. فخرج والي قرطبة وسار بقواته يستطلع الأحوال. فخرجت عليه كمائن ابن همشك وألحقت به الهزيمة وسقط قتيلاً في الموقعة. فعاد الموحدون الذين نجوا من الموقعة إلى قرطبة وتحصّنوا بداخلها(١٧).

سار ابن همشك بعد ذلك بقواته إلى مدينة قرمونة. وهي حصن إشبيلية من الشمال الشرقي فهاجمها واستولى عليها ما عدا قصبتها بمعاونة أحد زعمائها يدعى عبد الله بن شراحيل. كان ذلك في شهر ربيع الأول سنة ٥٥٥ هـ/مارس ١١٦٠(١٨). ثم يذكر ابن الخطيب(١٩) أن ابن همشك بقي يحاصر الموحدين بقصبة قرمونة حتى استنزلهم على حكمه.

حاول ابن همشك الاستيلاء على مدينة إشبيلية فظل يواصل غزوها دون جدوى لكنه ألحق بها أفدح الخسائر. ثم بعث والي إشبيلية السيد أبو يعقوب يوسف يستنجد بوالده عبد المؤمن. فذكر له أن ابن همشك يلح في الفتنة والضرر ويستعين بإخوانه النصارى وبالمنافقين أصحابه الأخر. وإشبيلية مثل الحلقة من الفتن، قد نهل بالقصص ساكنيها وذهل خوفاً من القنص متحركاً وساكناً. وينتظر الفرج من الله تعالى ومن عدة منجزة في كتاب. ويستمطر الغيث بأن يرفع الله العيث بآيات الله المتلوة في الكتاب(٢٠).

بعث الخليفة عبد المؤمن رسالتين جواباً على كتاب ابنه. الرسالة الأُولى مؤرّخة في شهر ربيع الأول سنة ٥٥٥ هـ/مارس ١١٦٠ م. فجاء فيها انتصار

---

(١٧) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص ١٢٦ - ١٢٧ - ابن عذارى: البيان المغرب ق٣ ص ٤٣

(١٨) محمد عبد الله عنان: المرجع السابق ص ٣٧٥ - مراجع الغناي: قيام دولة الموحدين ص ١٢٧

(١٩) أعمال الأعلام ص ٢٦١

(٢٠) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص ١٢٧ - ١٢٩

الخليفة عبد المؤمن على أعراب بني سليم في أفريقيا واعترافهم بالطاعة. كما جاء فيها نية الخليفة على العبور إلى الأندلس للقضاء على زعماء الفتنة. أما الرسالة الثانية التي بعثها عبد المؤمن فقد أمر فيها أبناءه وولاته بالأندلس بناء مدينة حصينة وقاعدة حربية في جبل طارق تكون هذه المدينة منزلاً للأمر عند إجازة العساكر المنصورة، ومحلاً ريثما تتقدم الرايات المظفرة والأعلام المنشورة إلى بلاد الروم(٢١).

انتهى بناء المدينة في شهر ذي القعدة سنة ٥٥٥ هـ/ديسمبر ١١٦٠ م فعبر الخليفة عبد المؤمن البحر إلى الأندلس ونزل في جبل طارق. فكان في استقباله ولداه أبو يعقوب يوسف والي إشبيلية وأبو سعيد والي غرناطة ثم أشياخ الموحدين وأعيان الأندلس والقضاة والطلبة والحفّاظ. وجرى احتفال في هذه المناسبة فجددت البيعة لعبد المؤمن وأُلقيت الخطب بين يديه. أقام الخليفة زهاء شهرين في جبل طارق وأطلق اسم مدينة الفتح تلي المدينة الجديدة هذه ثم أمر الوفود بالانصراف وعاد إلى مراكش في أوائل سنة ٥٥٦ هـ/فبراير ١١٦١ م(٢٢).

أوصى عبد المؤمن قبل عودته ولديه وقواده بمواصلة غزو ابن مردنيش وقتاله. فعيّن ابنه السيد أبا يعقوب يوسف والياً على إشبيلية. وعيّن ابنه أبا سعيد عثمان والياً على غرناطة. ثم عيّن على قرطبة وأعمالها أبا حفص عمر أنيتي. وترك في الأندلس جيشاً كبيراً يتألف من الموحدين والأندلسيين. فجعل على قيادة الموحدين ابن الشرقي وجعل على الأندلسيين أحد قوادهم المشهورين يعرف بابن صناديد(٢٣).

---

(٢١) مراجع الغناي: قيام دولة الموحدين ص ١٢٥.

(٢٢) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص ١٣٧ - ١٧١ - محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع ٣ ق ١ ص ٣٧٧ - ٣٨٦

(٢٣) محمد عبد الله عنان: نفس المرجع ص ٣٨٦

- استرداد قرمونة:

ترك ابن همشك في مدينة قرمونة والياً يدعى ابن أبي جعفر ثم سار عائداً إلى جيان. فانتهز الفرصة السيد أبو يعقوب يوسف فأرسل جيشاً لاسترداد قرمونة. فأحسن ابن أبي جعفر حماية قرمونة فكان يخرج ويشتبك مع الموحدين ثم وقع في إحدى هذه الاشتباكات عبد الله بن شراحيل أسيراً وهو الذي ساعد ابن همشك على اقتحام قرمونة واحتلالها فأرسله الموحدون مكتوفاً إلى إشبيلية. ثم وصل جيش كبير من المغرب بقيادة الشيخ أبي يعقوب يوسف بن سليمان مدداً للموحدين في الأندلس وكان يحمل من الميرة والأقوات والآلات(٢٤).

سار السيد أبو يعقوب يوسف والي إشبيلية إلى مراكش استجابة لأبيه عبد المؤمن. فتولى حكم إشبيلية الشيخ أبو محمد عبد الله بن أبي حفص بن علي. ثم سار بقواته لاسترداد قرمونة ونزل بقلعة جابر على بعد أميال من المدينة وأخذ في غزوها يومياً. ثم تقدم بقواته نحو المدينة فنزل بحصن ابن سلام وأحكم الحصار على قرمونة. ضاق أهل قرمونة بالحصار فبعثوا رجلاً منهم اسمه شراحيل لمفاوضة الموحدين على فتح المدينة مقابل تأمين أهلها. فوافق الموحدون ففتحت أبواب المدينة ضحى يوم الجمعة العاشر من محرم سنة ٥٥٧ هـ/ ٣٠ ديسمبر ١١٦١ م. فاقتحم الموحدون المدينة واستولوا عليها ثم وفوا لأهلها بعهدهم(٢٥).

لجأ حاكم المدينة ابن أبي جعفر بجنده إلى القصبة، ثم نزل على حكم الموحدين فكبّلوه بالحديد وسجنوه في إشبيلية إلى أن وصل الأمر من مراكش بصلبه. فصلب في الرملة تحت قصر ابن عباد. ثم قام الشيخ أبو محمد مع رجاله بتطهير قرمونة وغسل جامعها. فقد كان الموحدون يعتقدون بأن جميع

(٢٤) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص ١٨١ - ١٨٢
(٢٥) مراجع الغناي: قيام دولة الموحدين ص ١٢٨

خصومهم من المجسمين الكافرين. شاهد ابن صاحب الصلاة ذلك بنفسه فقال عن الشيخ أبي محمد: «وغسل جامعها بالماء ولقد مشيت إليه فيها وهنيته على الفتح وهو في الجامع يغسله... والرجال يغسلون بمرأى منه وأقام فيها حتى أصلحها وآمنها وانصرف إلى إشبيلية. وأعلم في خبر فتحها حضرة الخليفة بما فتح الله له فشكر وحمد[٢٦]».

- غزو غرناطة:

عـزز الموحـدون جبهتهم في إشبيلية وقـرطبة. فـأصبح من العسـير الاستيلاء عليها. لذلك رأى ابن همشك أن يقوم بالاستيلاء على غرناطة. فاتفق سراً مع يهود غرناطة - وهم الذين أسلموا رغم إرادتهم - وحليفهم ابن وهرى كي يفتحوا له أبواب المدينة في ليلة معينة متفق عليها. سار ابن همشك بقواته فكسر اليهود في تلك الليلة باب الـربض بغرنـاطة وتنادوا بالصياح يا للأصحاب. فاقتحم ابن همشك غرناطة، بينما هرع الموحدون إلى القصبة فتحصّنوا بها. حاول ابن همشك احتلال القصبة لكنه فشل لشدة حصانتها. فبعث يستدعي صهره محمد بن سعد بن مردنيش ويطلب منه النجدة لأخذ غرناطة[٢٧].

قام ابن همشك خلال ذلك باحتلال القصبة الحمراء وهي تقع في جبل السبيكة بإزاء قصبة غرناطة، وشرع منها في القتال وإقامة المنجنيقات لرمي الحجارة على الموحدين في قصبتهم بأعظم الاحتفال. وعذّب من حصل في يده من الموحدين وعبث فيهم ورماهم في كفة المنجنيق واستخفّ بالخالق في عيثه بالمخلوق وهزأ بجهله كل فريق وأمد الله تعالى الموحدين بالقصبة وأعانهم وثبّتهم بمعونته ونصرته. وكانت عندهم الأقوات والآلات فعدوها مع عون الله

(٢٦) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص١٨٢ - ١٨٥ - ابن عذارى: البيان المغرب ق ٣ ص ٤٦
(٢٧) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق١ ص ٣٨٧

عدتهم وقطعوا الساباط المتصلة بينهم وبين القصبة الحمراء حذراً من قتال الأعداء فيه إليهم. واستغاثوا بأمير المؤمنين رضي الله عنه وبالموحدين الذين بإشبيلية أبي محمد عبد الله بن أبي حفص بن علي الشهيد وشاعت الأخبار وسرى الرقاصون بالاستغاثة الليل والنهار(٢٨).

استجاب ابن مردنيش لصهره ابن همشك. فبعث ثلة من قواته تعاضدهم قوة من النصارى بقيادة ثلاثة من أمرائهم هم البارون دريجس المعروف عند المسلمين باسم الأقرع. والثاني أيرمانكو السابع. والثالث شقيق أيرمانكو يسمى كوسيران ووصال(٢٩).

استجاب أيضاً الخليفة عبد المؤمن للموحدين المحصورين بقصبة غرناطة. فأمر ابنه أبا سعيد أن يسير لإنقاذ غرناطة. فسار أبو سعيد أولاً إلى مالقة ثم استدعى جيوش إشبيلية بقيادة عبد الله بن أبي حفص. فسارت الجيوش الموحدية مجتمعة صوب غرناطة وعسكرت في مكان يسمى مرج الرقاد. كذلك أسرع ابن مردنيش بقوات كبيرة من جيان ومرسية للقاء الموحدين فنشبت موقعة بين الطرفين فحلّت الهزيمة بالموحدين وتناثرت قواتهم بين قتيل وأسير أو غريق في آبار المرج(٣٠).

هناك رواية أخرى لا يستدل منها اشتراك ابن مردنيش في الموقعة. بل قاد قوات ابن مردنيش صهره ابن همشك فأنزل هزيمة فادحة بالموحدين وغرق منهم عدد كبير في سواقي مرج الرقاد. كان من بين القتلى الشيخ أبو محمد عبد الله بن أبي حفص والي إشبيلية وعدة من أشياخ الموحدين وأكابر الأندلسيين. بينما لاذ السيد أبو سعيد بالفرار في نفر من رجاله إلى مالقة(٣١).

---

(٢٨) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص ١٨٨ ـ ١٩٠

(٢٩) مراجع الغناي: قيام دولة الموحدين ص ١٢٩

(٣٠) عبد الله علام: الدولة الموحدية ص ١٩٥

(٣١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع ٣ ق ١ ص ٣٨٨

يلخص ابن الخطيب استيلاء ابن همشك على غرناطة ثم موقعة مرج الرقاد فيقول[٣٢]: «وفي جمادى الأولى من عام ٥٥٧ وجّه صهره القائد أبا الحسن بن همشك إلى محاصرة غرناطة فدخلها ليلاً وامتنع الموحدون بقصبتها. فعرض عليه ضروب الحرب. وتحرك إليها السيد أبو سعيد بن الخليفة بجيش من الموحدين ومعه والي إشبيلية أبو محمد بن أبي حفص. فكان اللقاء بظاهر غرناطة بالموضع المعروف بمرج الرقاد، فانهزم الموحدون أقبح هزيمة وتمادى الحصار بمن في قصبة غرناطة».

دارت رحى هذه الموقعة على مرآى الموحدين الممتنعين بقصبة غرناطة مما زاد في ذعرهم وخوفهم فتوقعوا الهلاك. عاد ابن همشك بعد الموقعة مباشرة إلى معسكره السابق في جبل السبيكة فنزل في القصبة الحمراء إزاء قصبة غرناطة. ثم أخذ يعذب الأسرى الموحدين على مرآى زملائهم، ويضع الموحدين في كفة المنجنيقات فيقذف زملائهم الممتنعين بقصبة غرناطة[٣٣].

كان ابن همشك جباراً قاسياً فظاً غليظاً شديد النكال عظيم الجرأة والعيث بالخلق، بلغ من عيثه فيهم إحراقهم بالنار وقذفهم من الشواهق والأبراج. وإخراج الأعصاب والرباطات من ظهورهم عن أوتار القسي بزعمة. وضم أغصان الشجر العادي بعضها إلى بعض، وربط الإنسان بينها ثم تسريحها حتى يذهب كل غصن بحظه من الأعضاء[٣٤].

بلغ الخليفة عبد المؤمن هزيمة الموحدين في مرج الرقاد فبعث جيشاً كبيراً يتألف من عشرين ألف مقاتل يضم جماعة كبيرة من أعراب بني سليم. وأسند قيادته إلى ابنه السيد أبي يوسف يعقوب وجعل معه الشيخ أبا يعقوب

(٣٢) أعمال الأعلام ص ٢٦١

(٣٣) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص ١٨٨ - ١٩٣ - ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة جـ ١ ص ٣٠٠ - ٣٠١

(٣٤) ابن الخطيب: نفس المصدر من ٢٩٩ - أعمال الأعلام ص ٢٦٣ - ورد مثل هذا عند ابن عذارى البيان المغرب ق ٣ ص ٥١

يوسف بن سليمان. فعبر هذا الجيش البحر إلى الأندلس ونزل في الجزيرة الخضراء. ثم سار إلى مالقة فانضم إليه السيد أبو سعيد عثمان بقواته. ثم اتجه صوب غرناطة عن طريق وادي دلير وقرية همدان منزل وادي شميل الواقع جنوبي غرناطة[٣٥].

وقف ابن مردنيش على أخبار الموحدين وتقدمهم. فسار بقواته وبفرقة من حلفائه النصارى لنجدة صهره ابن همشك. فنزل فوق الجبل المتصل بقصبة غرناطة على الضفة الأخرى لنهر حدرة فأصبح نهر حدرة بذلك يفصل بين محلة ابن همشك ومحلة صهره ابن مردنيش. فقد بقي ابن همشك معسكراً بقواته في القصبة الحمراء فوق جبل السبيكة ومعه حلفاؤه النصارى تحت إمرة قائدهم البارون دريجس الأصلع حفيد البار هانيس ومعه كونت أورقلة (أرخل). وهم يبلغون نحو ثمانية آلاف مقاتل[٣٦].

جمع يوسف بن سليمان جنده في ليلة السابع والعشرين من شهر رجب سنة ٥٥٧ هـ/١٢ يوليو ١١٦٢ م فنظمهم وألقى فيهم خطبة دينية حماسية ثم زحف بهم نحو معسكر ابن همشك في جبل السبيكة فوصل عند الفجر وانقض الموحدون على قوات ابن همشك قبل أن يركبوا خيولهم. ثم نشبت موقعة فانتصر الموحدون وسقط أكثر أعدائهم قتلى كان من بينهم قائد النصارى البارون دريجس فرفع رأسه على باب القنطرة بقرطبة وابن عبيد صهر ابن مردنيش[٣٧].

دخل الموحدون مدينة غرناطة في وسط النهار من نفس اليوم واستولوا عليها واجتمعوا بالموحدين المحصورين بالقصبة. لم يستطع ابن مردنيش عبور نهر حدرة بقواته للاشتراك في المعركة فظل يرى قتل إخوته ويعاين حسرته

(٣٥) مراجع الغناي: قيام دولة الموحدين ص ١٣٠
(٣٦) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق ١ ص ٣٨٩
(٣٧) عبد الله علام: الدولة الموحدية ص ١٩٦

ويندب شيعته وكفرته. . . وأقلع ابن مردنيش منهزماً من موضع محلته بباقي شرذمته وترك أخبيته وأسلابه، كما أفرد في ذلك أصحابه واقتفى الموحدون أعانهم الله أثره وقتلوا من أدركوه وأخبر خبره. . . ولما أكمل الله هذا الفتح بعونه لم تبق بلد في البلاد المجاورة لغرناطة إلا وصل أهله تائبين، وبالطوع راغبين مذعنين متضرّعين، فصفح عنهم بالعدل[٣٨].

رأى الموحدون بعد ذلك أن ينتهزوا الفرصة فيستردوا بقية البلاد التي استولى عليها ابن همشك وساروا بقواتهم لاسترداد جيان. خشي ابن همشك لقاء الموحدين، فغادر جيان بعد أن ترك عليها وزيره أبا جعفر أحمد بن عبد الرحمن بن أحمد الوقشي. فأحسن الوقشي مقاومة الموحدين وضبط جيان. ثم صدرت الأوامر للموحدين بالعودة إلى قرطبة لتعميرها، فعادوا ودخلوا قرطبة وبها إذ ذاك - فيما حكي - نحو من ثمانين رجلاً قد أكلتهم الفتنة وشرّدتهم المجاعة من طول إلحاح ابن همشك عليهم بالحروب وشنّ الغارات مع الشروق والغروب وجاء انتظامها مع جيان وسائر بلاده. فنفس عن أبي جعفر وقد ناب أحسن مناب وحلّ من صاحبه أثر محل[٣٩].

عزم الموحدون أمرهم على غزو بلاد ابن مردنيش والقضاء عليه. فرأى الخليفة عبد المؤمن أن يعمل على تحصين مدينة غرناطة وإصلاح مدينة قرطبة أولاً، فقد أدرك أهمية موقع مدينة غرناطة الاستراتيجي ومناعة قصبتها، لذلك ملأ مخازن قصبة غرناطة بالقمح والشعير والملح ومختلف أنواع آلات الحرب. فزودها بالرماح والدورق والقسي والسيوف والسهام والترسة. كانت السفن تنقل هذه المؤن والآلات من عدوة المغرب فترسو في ميناء المنكب. ثم تنقل براً إلى مدينة غرناطة وتخزّن في قصبتها. جعل عبد المؤمن أيضاً في مدينة

(٣٨) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص ١٩٩ - ٢٠١ - ورد مثل هذا عند ابن عذارى فهو ينقل عن ابن صاحب الصلاة (انظر البيان المغرب ق٣ ص ٥٢ - ٥٣).
(٣٩) ابن الآبار: الحلة السيراء جـ٢ ص ٢٥٨ - ٢٥٩

غرناطة تواناً من الجند الأندلسي الموثوق بشجاعتهم وإخلاصهم فقطع بذلك أمل ابن مردنيش في الاستيلاء على غرناطة[٤٠].

أمر الخليفة عبد المؤمن أيضاً ولديه بالأندلس أبا يعقوب يوسف وأبا سعيد عثمان بإصلاح مدينة قرطبة واستيطانها وجعلها بدلاً من إشبيلية قاعدة لحكم الموحدين في الأندلس «كما كانت على عهد بني أمية». فاستجاب ولدا الخليفة لهذا الأمر وسارا إلى قرطبة مع القائد يوسف بن سليمان فدخلوها في ١٥ شوال سنة ٥٥٧ هـ/٣٠ سبتمبر ١١٦٢ م. وأخذوا في تعميرها وإعادة أهلها إليها. ثم نقلوا إليها سائر الدواوين والأموال والكتّاب والأشياخ والأعيان من إشبيلية. تولى بعد ذلك السيد أبو سعيد عثمان ولاية قرطبة يعاونه القائد أبو إسحاق براز بن محمد[٤١].

يصف ابن صاحب الصلاة أحوال قرطبة وأهلها حين وصل السيدان أبو يعقوب وأبو سعيد لتعميرها بقوله[٤٢]: «قدم السيدان الأجلان أبو يعقوب وأبو سعيد ابنا أمير المؤمنين رضي الله عنهم إلى قرطبة... فخرج جميع أهل قرطبة إلى لقائهم وكنت أحد من من خرج للنبوك بهم مع وفد أهل إشبيلية... فكان عدد أهل قرطبة اثنين وثمانين رجلاً لجلائهم من الفتنة عن البلاد وبما كان حل ببلدتهم من الفقر بغورها والنجاد. وقد ظهر على هيأتهم وصورهم البؤس... وقد لبسوا من الثياب أطماراً... فلقد ذاقت قرطبة وأهلها من بؤس هذه الفتنة الأندلسية ما لم يذقه أحد من أوائلهم في الفتنة الحمودية بإلحاح ابن همشك وقساوته القصية العجمية».

أخذ الخليفة عبد المؤمن بعد تحصين غرناطة وتعمير قرطبة يستعد للعبور

(٤٠) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص ٢٠١ - ٢٠٢ - ابن عذارى: البيان المغرب ق ٣ ص ٥٣ - ٥٤

(٤١) ابن صاحب الصلاة: نفس المصدر ص ٢٠٣ - ٢٠٧ - محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع ٣ ق ١ ص ٢٩١ (نقلاً عن مخطوط المن بالإمامة لوحة ٣٣، ٣٤)

(٤٢) المن بالإمامة ص ٢٠٥

إلى الأنـدلس كي يقود الغـزوات بنفسه... ففي ١٥ ربيـع الأول سنـة ٥٥٨ هـ/٢١ فبراير ١١٦٣م خرج من مراكش بجيشه ونزل رباط الفتح بسلا ينتظر بقية الحشود. ثم مرض فجأة وازداد عليه المرض مما أدّى إلى وفاته في جمادى الآخرة سنة ٥٥٨ هـ/١٥ مايو ١١٦٣م فحمل جثمانه إلى تينمل ودفن بجانب قبر المهدي. تعطل الغزو على أثر ذلك فانصرفت الجيوش وظهر بعض الخلاف بين الموحدين. فقد رفض بعض أبناء الخليفة عبد المؤمن البيعة بالخلافة لأخيهم السيد أبي يعقوب يوسف. فحمل أبو يعقوب يوسف لقب أمير حتى تم تسوية الخلاف، ولم تتم البيعة للسيد أبي يعقوب يوسف كأمير للمؤمنين وخليفة للموحدين إلا في ٨ ربيع الأول سنة ٥٦٣ هـ(٤٣).

انتهز ابن مردنيش فرصة أحوال الموحدين هذه وسار بقواته للاستيلاء على غرناطة. فهاجمها وألحّ عليها بالغزو، بلغ ذلك الأمير أبي يعقوب يوسف فبعث أربعة آلاف فارس معظمهم من العرب بقيادة أبي سعيد يخلف بن الحسين وأبي عبد الله بن يوسف نزل هذا الجيش في إشبيلية ثم استأنف مسيره إلى غرناطة، فانسحب ابن مردنيش بقواته عـائداً إلى بـلاده. سار الجيش بعد ذلك إلى قرطبة لتأمين أهلها ثم التقى خلال عودته بقوات ابن مردنيش عند وادي لك، فجرت بين الطرفين مدافعات وكرات دون أن ينتصر أحدهما على الآخر(٤٤).

يعلق مراجع الغناي على ذلك بقوله(٤٥): «والظاهـر أن قوات ابن مردنيش فتكت بالقوات الموحدية ذلك أن ابن صاحب الصلاة لم يصرح بانتصار قوات ابن مردنيش وإنما يشير إشارة إلى انتصار الموحدين. وهي إشارة

---

(٤٣) مراجع الغناي: قيام دولة الموحدين ص ١٣٦ - ١٣٧ - محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق ١ ص ٣٩٣ - ٣٩٦

(٤٤) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص ٢٦٩ - ٢٧٠ - ابن عذارى: البيان المغرب ق ٣ ص ٦٤ - محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق ٢ ص ١٥

(٤٥) قيام دولة الموحدين ص ١٣٩

أقرب إلى الدعاء بالنصر عنها إلى الإثبات. والذي يؤكد ما ذهبت إليه من هزيمة الموحدين هو أن قائدي الجيش بعثا برسالة إلى العاصمة الموحدية يطلبان فيها النجدة. وعند وصولها ذكر ابن صاحب الصلاة أن السيد الأعلى أبا حفص قد أخذته لله غيره عظيمة وعسكر في يومه وأمر بالتغير إليهم والإسراع بالموحدين من الصابرين ونخبة الفرسان الأبطال من العرب الرياحيين والإبثحيين والزغبيين ورجالهم».

بعث قائدا الجيش الشيخان أبو سعيد وأبو عبد الله بأنباء القتال إلى مراكش. فوصفا ما لقياه في القتال من هول ومشقة وطلبا العون والإنجاد. فاهتم لذلك السيد أبو حفص وجهّز في الحال جيشاً من الموحدين والعرب وسار به من مراكش ومعه أخوه السيد أبو سعيد عثمان. ثم عبر البحرَ إلى الأندلس فنزل في إشبيلية واجتمع فيها بزعماء الموحدين للتشاور، فاستقر الرأي على محاربة ابن مردنيش وغزو بلاده قبل أن يبادرهم بغزو قرطبة(٤٦).

خرج الموحدون بناء على ذلك من مدينة إشبيلية أول ذي القعدة سنة ٥٦٠ هـ/سبتمبر ١١٦٥ م. وساروا للاستيلاء على اندوجر فهي من معاقل ابن مردنيش، تنطلق منها قواته لغزو قرطبة والعيث فيها. فاقتحم الموحدون أندوجر عنوة واستولوا عليها. فبادر أهل الحصون المجاورة إعلان الولاء والطاعة. سار الموحدون بعد ذلك ناحية بسطة فنزلوا في وادي القشتالي وأخذوا يبعثون بسراياهم لإخضاع البلاد والحصون القريبة التابعة لابن مردنيش، فعادت سرايا الموحدين ظافرة تسوق غنائم لا تحصى من جهات عليرة وقرباقة وبسطة وجبال سقورة(٤٧).

حضر من غرناطة خلال ذلك فرقة من الرماة وانضمت إلى الموحدين.

---

(٤٦) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق٢ ص ١٥

(٤٧) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص ٢٧١ - ٢٧٢، ٢٧٧، ٢٧٨ - ابن عذارى: البيان المغرب ق٣ ص ٦٥

فاستأنف الموحدون زحفهم، وبادر أهل حصن قليلة إلى إعلان الولاء والطاعة، ثم حاصر الموحدون حصن بلس فنزل قائده ابن الشرقي على الأمان هو وأصحابه. سار الموحدون بعد ذلك ناحية مدينة لورقة، فبلغ ابن مردنيش ذلك وخشي أن تسقط لورقة بأيدي الموحدين، فسار بقواته من مرسية وحضر إليه ثمانية آلاف فارس من نصارى أرغونة. لذلك ارتد الموحدون قليلاً إلى الوراء وسلكوا طريقاً آخراً، ثم نزلوا الفحص المسمى بالفندون(٤٨).

ارتد ابن مردنيش بقواته ناحية مرسية خشية أن يهاجمها الموحدون. فقد استأنف الموحدون السير حتى أشرفوا على فحص مرسية عند ظهر يوم الجمعة السابع من ذي الحجة سنة ٥٦٠ هـ/١٥ أكتوبر ١١٦٥ م. ثم نزلوا بفحص الجلاب فوجدوا ابن مردنيش معسكراً بقواته قبالتهم. نظم الموحدون صفوفهم من أهل هرغة وتينمل وهنتانة وجدميوه، كما نظم العرب صفوفهم من بني هلال ورياح. كان تعداد جيش الموحدين اثني عشر ألف مقاتل. أما جيش ابن مردنيش فلم تذكر الرواية جملته، ولكنها تقدر من كان به من النصارى المرتزقة بثلاثة عشر ألف مقاتل(٤٩).

نشبت موقعة بين الطرفين في فحص الجلاب على بعد عشرة أميال عن مرسية فحلت الهزيمة بابن مردنيش وتقهقر منسحباً إلى مرسية. فلحقه الموحدون وضربوا الحصار عليه حتى نهاية عيد الأضحى من سنة ٥٦٠ هـ/أكتوبر ١١٦٥ م. ثم رفع الموحدون الحصار، وعادوا أدراجهم دون أن تذكر الرواية سبباً لذلك. لكنهم وضعوا قبل عودتهم حاميات في الحصون والمدن التي استولوا عليها(٥٠).

---

(٤٨) ابن صاحب الصلاة: نفس المصدر ص ٢٧٢و ٢٨٠

(٤٩) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق٢ ص ١٦ ـ ١٧

(٥٠) مراجع الغناي: قيام دولة الموحدين ص ١٤٠

عاود الموحدون غزو بلاد ابن مردنيش. ففي سنة ٥٦٢ هـ/١١٦٧ م سار والي غرناطة أبو عبد الله بن أبي ابراهيم ونازل حصن بلس على قرب وادي آش حتى استولى عليه. ثم انصرف عائداً إلى غرناطة وأعلم الخليفة بذلك، عاود أبو عبد الله المسير بجيش الموحدين إلى بلاد ابن مردنيش فاستولى على بسطة وعاد إلى غرناطة(٥١).

بعث ابن مردنيش بعض قواته من النصارى المرتزقة للاستيلاء على مدينة رندة فغزوا وادي شنيل وتقدموا جنوباً حتى بلغوا أحواز رندة. بلغ ذلك والي غرناطة السيد أبا عبد الله فأرسل جيشاً لقتال النصارى يتألف من الموحدين والجند الأندلسيين. لكن النصارى خشوا لقاء الموحدين فامتنعوا بأحد الجبال القريبة من وادي آش. فصعد الموحدون الجبل وراء النصارى وانتصروا عليهم في أعلى الجبل. هرب بعض النصارى أثناء القتال فسقطوا بين حافات الجبل وتكسرت أعضاؤهم كما أسر الموحدون ثلاثة وخمسين رجلاً من النصارى. ثم ضربوا أعناقهم في غرناطة(٥٢).

- نزاع ابن مردنيش مع أعوانه:

ساءت علاقة ابن مردنيش، بكبار رجال دولته وأعوانه فاضطهدهم وعذبهم فثار بعضهم عليه مما أدى إلى ضعف دولته والقضاء عليه. يبدو أن توسع ابن مردنيش في الاعتماد على الجند النصارى والاهتمام بهم قد أثار عليه بعض قواده. فقد جلب جموعاً كثيرة من النصارى اتخذهم أجناداً له وأنصاراً وذلك حين أحس باختلاف وجوه القواد عليه وتنكر أكثر الرعية له. فقتل من أولئك القواد الذين اتهمهم جماعة بأنواع القتل. بلغني أن منهم من بني عليه في حائط وتركه حتى مات جوعاً وعطشاً إلى غير هذا من ضروب

(٥١) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص ٢٩٧ و ٣٢٣ - ٣٢٤

(٥٢) ابن صاحب الصلاة: نفس المصدر ص ٣٥٦ - ٣٥٧ - محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع ٣ ق ١ ص ٢٩ - ٣٠

القتل واستدعى النصارى كما ذكرنا فجعلهم أجناداً له وأقطعهم ما كان أولئك القواد يملكونه وأخرج كثيراً من أهل مرسية وأسكن النصارى دورهم(٥٣).

يبدو أن سلوك ابن مردنيش قد أثار عليه القواد والرعية، فقد كان غريب السيرة في الثوار. وكان عظيم القوة في نفسه شديد الأسر في تركيب بنيته أصيل الشهامة والفروسية. ينادم كبار الأبطال ومشاهير الفرسان ومساعير الحروب فيعاقرهم الخمر ويعاطهم الكأس. وربما هزه الارتياح فأفضل حتى بآنية شرابه وفرس مجلسه وانهمك فكان يراقد أزيد من مائتي جارية تحت لحاف واحد. ومال إلى اتخاذ زي الروم من اللباس الضيق وركوب البرازين المهماليج واتخاذ السروج الضخمة القرابيس(٥٤).

فرض ابن مردنيش المغارم والمكوس على الناس ليسد نفقات الجند النصارى. فقد استعان بالنصارى على تدبيره ورتب منهم أعواناً وجنداً وأفرد لهم بمرسية منازل فيها الحانات والبيع واضطر إلى المال فتحيف الرعية بكل وجه من وجوه الجور واستكثر من القبالات ورسم بدائع من المكوس وقرر في المواشي عدداً يلزم المتين وفرض على الأدم والبقول والحبوب معاون ثقيلة تقارب أُصول الإثمان(٥٥).

ذكر ابن الخطيب مثل هذا أيضاً في الإحاطة(٥٦). فقد ابتنى ابن مردنيش لجيشه من النصارى منازل معلومات وحانات للخمور وأجحف برعيته لأرزاق من استعان به منهم فعظمت في بلاده المغارم وثقلت. واتخذ حوانيت بيع الأدم والمرافق تختنق بجانبه وجعل على الأغنام وعروض البقر مؤناً غريبة. وأما رسوم الأعراس والملاهي فكانت قبالتها غريبة.

---

(٥٣) المراكشي: المعجب ص ٢٤٩

(٥٤) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ٢٦٠ - ٢٦١

(٥٥) ابن الخطيب: نفس المصدر ص ٢٦١

(٥٦) جـ٢ ص ١٢٤

ساءت علاقة ابن مردنيش بصهره يوسف بن هلال ما أدّى إلى نشوب النزاع والقتال بينهما. ففي ذلك يقول ابن الخطيب[٥٧]: كان يوسف بن هلال صهر الأمير شجاعاً حازماً، أحظاه الأمير محمد وصاهره وجعل لنظره حصن مطريشة ومواضع كثيرة. وفسدت طاعته فقبض عليه ونكبه وعنف به واستخلص ما كان لنظره وتركه فأعمل الحيلة ولحق مورتله وثار بها وعاقد صاحب برجلونة على تصيير ما يملكه إليها. فأعانه بخيل من النصارى. لم يزل يضرب بها ويوالي الضرب على بلنسية ويشجي أهلها. وتملك الصخرة والصخيرة وغيرهما. وأدفع بابن مردنيش وقيعة انهزم ابن مردنيش فيها.

عاود ابن مردنيش قتال صهره فقبض عليه ونزع عينيه ففي ذلك يقول ابن الخطيب[٥٨]: «ثم استرجع ابن مردنيش وساعده الجد في جريدة خيل وجهها ببعض الأطراف للضرب على مورتلة الموضع المذكور. فلقيت البائس ابن هلال متوجهاً في خويصته إلى شنطبيطور. فقبض عليه وسيق إلى ابن مردنيش. فأسرع به إلى مورتلة وطالبه بإخلائها وإلا نزعت عينه فأبى ذلك، فأمر ابن مردنيش فأخرجت عينه اليمنى بعود. ثم قرب من مورتلة وطلب بإخلاء الحصن أو تخرج عينه الأُخرى. فحمل على التكذيب ولم يجبه أحد فأخرجت للحين عينه الأخرى».

قتل ابن مردنيش بعض كبار أعوانه وعذب بعضهم الآخر. فانقطع ابن همشك عن زيارة صهره ابن مردنيش خوفاً منه. ففي ذلك يقول ابن صاحب الصلاة[٥٩] خلال حديثه عن ابن همشك «وقد كانت الشحناء والعداوة والبغضاء ببركة هذا الأمر العزيز قد نشأت بينه وبين صهره أميره محمد بن سعد بن مردنيش سراً وإعلاناً وخافه إبراهيم على نفسه فانقطع عن مواصلته

---

(٥٧) أعمال الأعلام ص ٢٦٢
(٥٨) أعمال الأعلام ص ٢٦٢ - ٢٦٣
(٥٩) المن بالإمامة ص ٣٨٨

وزيارته أزماناً. وزاده روعاً منه وفزعاً قتله لإبني الجذع وزيريه وبناهما في الحائط بمرآى منه وقتله لابن صاحب الصلاة الفرناطي بالجوع».

غضب ابن مردنيش على ابن همشك فطلق زوجته وهي ابنة همشك مما أدى إلى نشوب القتال بينهما يقول ابن صاحب الصلاة[٦٠] «طلق ابن مردنيش في هذه المدة ابنة إبراهيم بن همشك طلاقاً بتلا وبانت عن عصمته بياناً وطردها إلى أبيها مهانة مستهانة باكية بدموعها إصراره وهجرانه. فغشيت من حديثها الكرب، واتصلت في نفسه له الحزب وراجاه مدجاة يتراءى فيها كيف ينجلب له الطعن منه والضرب».

كانت صبيحة ابنة ابن همشك قد أنجبت ولداً لابن مردنيش. فلما طلقت وسارت إلى أبيها في جيان «سئلت عن ولدها وإمكان صبرها عنه فقالت: جرو كلب جرو سوء من كلب سوء لا حاجة لي به. فأرسلت كلمتها في نساء الأندلس مثلاً». اشتدت الخصومة بين ابن مردنيش وابن همشك فنشبت بينهما الحروب هلك فيها كثيراً من الرعايا وأدت إلى محنة وفتنة شديدة[٦١].

لم يستطع ابن همشك الصمود في وجه ابن مردنيش وغزواته المتواصلة فأعلن الولاء والطاعة للموحدين. يقول ابن صاحب الصلاة[٦٢]: «تطارح إبراهيم بن همشك المذكور بإرساله إلى الشيخ المرحوم أبي حفص بالتوحيد والتوبة ورغب أن يصدق متابه بظهور النصح منه بتمكين الموحدين من بلاده بأوفى ود وطاعة ومحبة وكرر خطابه بالوصول بنفسه والانتباذ من طاعة ابن مردنيش وموالاة الكفار. فوصل إلى قرطبة إلى الشيخ المرحوم وإلى السيد في شهر رمضان المعظم من عام أربعة وستين وخمسمائة المؤرخ فقبل وصوله

(٦٠) نفس المصدر ص ٣٨٨ - ٣٨٩ - مراجع الغناي: قيام دولة الموحدين ص ١٤٤ - ١٤٥
(٦١) ابن الخطيب: الإحاطة جـ١ ص ٣٠٢
(٦٢) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص ٣٨٩ - ٣٩٠

أحسن القبول. . . وأقر أن الله تعالى هداه إلى المذهب الرشيد وصحبة أهل التوحيد. وكتب إلى الخليفة أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين الخليفة رضي الله عنهم عن نفسه معلناً متابته وأنه دخل في الطاعة. . . فجاوبه الأمر العالي ـ أدامه الله ـ بتقريبه واستجلابه والجزاء الأوفى على حسن متابه».

اتصلت على أثر ذلك بلاد ابن همشك التي يحكمها ببلاد الموحدين «فأمنت من الفتنة الطرق والرفاق، وارتفع في تلك النواحي الفرق والنفاق». ثم بعث السيد أبو اسحاق بن الخليفة رسالة ابن قرطبة إلى الولاة الموحدين بالأندلس يخبرهم بتوحيد ابن همشك. فقد جاء فيها:(٦٣) «أن الشيخ أبا إسحاق إبراهيم بن همشك وفقه الله. . . أذاع الدعوة المهدية في جميع بلاده وأعلن بها وأبدى الاعتلاق بعصمتها والتمسك بسببها. . . وخاطبناكم بذلك أدام الله كرامتكم لتجددوا شكر الله تعالى ما أسبغ من نعمه وأولى. . . والسلام الأتم عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته. كتب في شهر رمضان المعظم عام أربعة وستين وخمسمائة».

انتهز الموحدون فرصة توحيد ابن همشك وإعلانه الولاء والطاعة. فبعث الخليفة أبو يعقوب يوسف رسالة إلى «ابن مردنيش يطلب إليه أن يفيء هو كذلك إلى الله»(٦٤).

أخذ ابن مردنيش يواصل غزو بلاد همشك طوال سنة كاملة. فأحسن ابن همشك خلالها رد ابن مردنيش وكان في نفس الوقت يوالي الاستنصار بالموحدين. يقول ابن صاحب الصلاة(٦٥) «عندما اتصل توحيد إبراهيم بن همشك بمحمد بن مردنيش أمير قبل، سقط بيده وتحقق أن ساعده قد كسر

---

(٦٣) ابن صاحب الصلاة: نفس المصدر ص ٣٩٠ ـ ٣٩٢

(٦٤) عبد الهادي التازي في تحقيقه لكتاب المن بالإمامة ص ٣٩٠ حاشية رقم ٢

(٦٥) المن بالإمامة ص ٣٩٤ ـ أورد محمد عبد الله عنان الخبر دون النص. دولة الإسلام ع٣ ق٢ ص ٤٠

مع عضدة فحملته الأنفة والعجلة أن يأمر قواده وأجناده المجاورين في بلاده لبلاد ابن همشك بالفتنة معهم وأن يضيقوا عليهم متسعهم. فامتثلوا ذلك فدامت الفتنة مدة أكثر من سنة كاملة وزادت بينهم الشحناء على الإستدامة. وألقى الله بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ولم يزل ابن همشك يستغيث إلى الموحدين - أيدهم الله - من عدوه ويستنصر بهم عليه ويستصرخهم إلى غزوه».

أعطى ابن مردنيش حصنين للنصارى كي يواصلوا منهما غزو بلاد ابن همشك وقتاله. وهما حصنا بلج والكرس. يقول ابن صاحب الصلاة(٦٦) «وكان السبب في إعطائه ابن مردنيش للنصارى الفتنة الواقعة بين ابن همشك وبين ابن مردنيش بسبب توحيد ابن همشك وطاعته للموحدين أيدهم الله فأراد ابن مردنيش التضييق على ابن همشك بذلك».

عجز ابن همشك عن صد ابن مردنيش وحلفائه النصارى. واستبطأ قدوم الموحدين بالنجدة فبعث وزيره أبا جعفر إلى مراكش يحث الموحدين على الإسراع بالنجدة. ففي ترجمة الوزير أبي جعفر الوقشي يقول ابن الآبار(٦٧) «اعتلق ابن همشك بالدعوة الموحدية خلدها الله ونابز صهره محمد بن سعد... ووجه وزيره أبا جعفر هذا وافداً عنه إلى مراكش ومستصرخاً على صهره ابن سعد. وكان قد وطىء أعماله ودوخها وتغلب على كثير من معاقله. وكانت تحته بنت ابن همشك فطلقها ثم ندم وهدم رحى الوقشي بولجة بلنسية».

يبدو أن الموحدين تأخروا في نجدة ابن همشك. مما جعل ابن همشك يسير بنفسه إلى مراكش. يقول ابن الخطيب(٦٨) في ترجمة ابن همشك: «ولما

---

(٦٦) نفس المصدر ص ٤٨٩ و ٤٩٠

(٦٧) الحلة السيراء جـ ٢ ص ٢٦٠ - ورد مثل هذا عند ابن عذارى: البيان المغرب ق ٣ ص ٨٤

(٦٨) الإحاطة جـ ١ ص ٣٠٢

صرف ابن سعد عزمه إلى بلاده وتغلب على كثير منها، خدم ابن همشك الموحدين ولاذ بهم واستجارهم. فأجاز البحر فقدم على الخليفة عام خمسة وستين وخمسمائة».

استدعى ابن مردنيش جنوداً آخرين من المرتزقة النصارى. فوصل إليه «أربعمائة فارس وجههم إلى مدينة لورقة لضبط قصبتها مع قائده الأخص به الأمين عنده أبي عثمان بن عيسى فضبطها وحصنها بهم»(٦٩).

ـ سقوط دولة ابن مردنيش:

بعث الموحدون جيشاً لغزو ابن مردنيش بعد أن ثبت صدق استغاثات ابن همشك. يقول ابن صاحب الصلاة:(٧٠) «ألح محمد بن مردنيش بفتنته على جهة بلاد إبراهيم بن همشك واستكفى عليه بعسكره الشرقي وبالنصارى حلفائه. فاستغاث ابن همشك بالموحدين وكثر صراخه إلى أمير المؤمنين وشكا حاله وأوجاله. وكتب الشيخ المرحوم أبو حفص من قرطبة إلى حضرة الخلافة معيناً لابن همشك بكتابه مصدقاً له فيما استغاث به من عدوه. فاجتمع الرأي الموفق السعيد والنظر الحميد أن يتقدم السيد الأعلى أبو حفص رضي الله عنه بالخروج من حضرة مراكش بعسكره الضخم».

سار السيد أبو حفص بعسكره من مراكش أول شهر ذي القعدة سنة ٥٦٥ هـ/ اغسطس ١١٧٠ م. ومعه أخوه السيد أبو سعيد عثمان وعدة من الأشياخ والحفاظ الموحدين والزعماء الأندلسيين كي ينتفع بخبرتهم ومشورتهم. فوصل إشبيلية أوائل سنة ٥٦٦ هـ/ كما حضر إليه من قرطبة الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى ومعه إبراهيم بن همشك. ثم عقد السيد أبو حفص مؤتمراً للتشاور في خطط القتال وغزو البلاد. فاستقر الرأي على غزو ابن

(٦٩) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص ٤٠٣

(٧٠) نفس المصدر ص ٣٩٨ - ٣٩٩

مردنيش في داره. لذلك سار السيد أبو حفص بعسكره ومعه أخوه السيد أبو سعيد والشيخ أبو حفص وإبراهيم بـن همشك من إشبيلية في شهر رجب سنة ٥٦٦ هـ/ مارس ١١٧١ م. فنزلوا مدينة قرطبة(٧١).

سار السيد أبو حفص بعد أيام بعسكره لغزو بلاد ابن مردنيش. فنازل مدينة فيحاطه حتى استولى عليها فقبض على حاكمها الشرقي وضرب عنقه برأى ابن همشك ثم استأنف زحفه نحو مدينة مرسية مباشرة. فاستولى خلال طريقه على حصن الفرج منتزه ابن مردنيش واستباح الريـاض والبساتـين والقرى المجاورة حتى أذعن أهل هذه النواحي بالطاعة. كان ابن همشك يدل السيد أبا حفص على أماكن الضعف ومسالك الطرق. فاستمر السيد أبو حفص في زحفه حتى ضرب الحصار على ابن مردنيش في مرسية(٧٢).

قام أثناء ذلك أهل مدينة لورقة بالثورة على النصارى ببلدهم من أعوان ابن مردنيش، وحاصروهم بقصبة المدينة. كان النصارى بقيادة أبي عثمان بن عيسى أخلص رجال ابن مردنيش. فضبط القصبة وتحصن بها. ثم بعث أهل لورقة يستنجدون بالسيد أبي حفص ويعلنون الولاء والطاعة. فأقلع السيد أبو حفص بعسكره عن مرسية واحتل لورقة ثم شدد الحصار على القصبة. وبعث بعض السرايا لاحتلال البلاد والحصون المجاورة. فقبضت إحدى السرايا على محمد بن القائد أبي عثمان بن عيسى. فأمر السيد أبو حفص أن يؤتى به على مقربة من القصبة كي يراه والده فينزل عن القصبة، لكن القائد أبا عثمان رفض الإذعان والنزول(٧٣).

---

(٧١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق٢ ص ٤٥ - ٤٦ - ٤٨ - مراجع الغناي قيام دولة الموحدين ص ١٤٦

(٧٢) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص ٤٠٣ - ابن عذارى: البيان المغرب ق٣ ص ٨٦ - محمد عبد الله عنان: نفس المرجع ص ٤٨ - ٥٠

(٧٣) ابن صاحب الصلاة: نفس المصدر ص ٤٠٣ - ٤٠٤ - محمد عبد الله عنان: نفس المرجع ص ٥٠

«طال الحصار على النصارى في القصبة حتى نفد لهم الماء والقوت. فتغلبوا على أبي عثمان بالقول والكلام حتى أذعن بـالطوع لهم في رأيهم وتوسط ابن همشك لأبي عثمان في النزول عن القصبة بمن معه على الأمان والصفح في ذلك... فنزل ابن عيسى المذكور عن القصبة مع النصارى وأصحابه وأجلوها على ما ذكر. ودخلها الموحدون أيدهم الله واحتووها. ودفـع الابن محمد إلى أبيه مسلماً محفوظاً مكرماً. ورجع أبو عثمان القائد مع أصحابه وابنه والي مرسية إلى ابن مردنيش وانصرف النصارى الذين كانوا بلورقة إلى بلادهم طالبين النجاة بنفوسهم»(٧٤).

عاد السيد أبو حفص إلى مرسية فضرب الحصار عليها. فأعلنت خلال الحصار بعض الحصون والبلاد الولاء والطاعة للموحدين. فمن ذلك أهل حصن ألج وأكثر الحصون المجاورة له. فقد وصلوا إلى معسكر السيد أبي حفص تائبين طائعين. فبعث معهم السيد أبو حفص عسكراً بقيادة الشيخ الحافظ إلى عبد الله لافتتاح مدينة بسطة. «ففتحها الله على يديه ودخلت في طاعة المـوحدين... واتصـل عند أهـل الشرق هـذا الفتح والأمـان لهم والصفح. فبادر أهل جزيرة شقر بالطاعة والتوحيد. وقاموا على النصارى الذين كانوا عندهم بدعوة التوحيد وأخرجوهم عن بلدتهم ووصلوا بأجمعهم إلى السيد الأعلى بالمحلة الوثيدة بمرسية. فوجه معهم والياً عليهم قائدهم من قبل. وكان قد وحّد وبادر أبو أيوب بن هلال الشرقي. فنهض معهم وضبطها للتوحيد ضبط الحازم الفارس المقدام الصنديد(٧٥).

أما ابن الابار فيقول:(٧٦) «لما ضعف أمر أبي عبد الله محمد بن سعد بشرق الأندلس... أخرج أهل بلنسية منها وأسكنهم ظاهرها وشحنها بالروم

(٧٤) ابن صاحب الصلاة: نفس المصدر ص ٤٠٤
(٧٥) ابن صاحب الصلاة: نفس المصدر ص ٤٠٥ ـ ٤٠٦
(٧٦) الحلة السيراء جـ٢ ص ٢٦٨ ـ أورد محمد عبد الله عـنان الخبر دون النص. دولة الإسلام ع٣ ق٢ ص ٥٠ ـ ٥١

وأتباعهم وقوى ذلك في غيرها. فخاف أبو بكر بن سفيان هذا أن يخرجه من بلدة ـ جزيرة شقر ـ وكان فيها متبعاً. فدعا للموحدين أعزهم الله وخلع ابن سعد ورأس بموضعه ومالأ جيرانه. فأنفذ إليه الرئيس أبو الحجاج يوسف بن سعد قائداً من كبار أصحابه في جملة من خيله ورسم له حصاره والتضييق عليه فبدأ بمنازلته. . . وابن سفيان يقاومه ويقوم بتدبير بلده والإمداد تتلاحق في كل حين وتحدق به. وابن سعد وأخوه أبو الحجاج قد اكتنفاه في الجموع الكثيفة حتى خيف من الوهن. فاقتحم البلد ذو الوزارتين أبو أيوب بن هلال مقوياً عزائم أهله وضامناً لهم الاستقلال بضبطه. فتخلى ابن سفيان له عنه راضياً في الظاهر متبرماً في الباطن».

خرجت طاعة المرية على ابن مردنيش، فأعلنت الولاء والطاعة للموحدين. فقد ثار بها محمد بن مردنيش المعروف بابن صاحب البسيط وهو ابن عم ابن مردنيش وزوج أُخته. عاونه في ثورته صاحبه محمد بن هلال. فقبضا على ابن مقدام والي المرية من قبل ابن مردنيش. وخاطبا بذلك السيد أبا حفص وهو بعسكره على مرسية. فشكرهما وبعث إليهما عسكراً لمعاونتهما على ضبط المرية. ثم أمرهما بقتل ابن مقدام والي المدينة من قبل ابن مردنيش فنفذا الأمر(٧٧).

علم ابن مردنيش بالخبر وهو محاصر بمرسية من قبل الموحدين، فأمر بقتل أُخته زوج ابن عمه محمد الثائر عليه بالمرية وقتل أولادها منه. فقد كانت في زيارته أثناء ذلك. «فأخذهم ابن الراعي الموكل بالعذاب منه بالناس وحملهم إلى البحيرة المتصلة بالبحر بقرب بلنسية وأدخلهم في قارب مع نفسه فلما توسط بهم البحيرة المذكورة غرقهم في البحر على أبشع حال وأشنع مقال. واختل ذهن مردنيش في أثر ذلك وقل عونه من الله ومن الناس هنالك.

---

(٧٧) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص ٤٠٦ ـ ٤٠٧

وعاد صبحه كالليل الحالك وفزع من إذايته أهله وقرابته وشيعته وحامته واختلت جبايته وحالته[٧٨]».

انتهز ملك أرغونه الفونسو الثاني فرصة حصار الموحدين لابن مردنيش بمرسية. فغزا أراضي بلنسية المتاخمة لحدود قطالونية واستولى على عدة مواقع وحصون. ثم أرسل حملة برية وأخرى بحرية لغزو بلنسية. فتولى الرئيس أبو الحجاج أخو ابن مردنيش مدافعة الحملة البرية وتولى ابن قاسم قائد اسطول ابن مردنيش مدافعة الحملة البحرية فهزمها وأحرق بعض سفنها[٧٩].

جاز أمير المؤمنين الموحدي أبو يعقوب يوسف إلى الأندلس بجيش كبير في السابع والعشرين من رمضان سنة ٥٦٦ هـ فوصل إشبيلية يوم الجمعة ١٢ شوال من نفس السنة. بلغ ذلك السيد أبا حفص فرفع الحصار عن مرسية آخر شهر ذي الحجة سنة ٥٦٦ هـ وسار إلى إشبيلية للقاء أخيه الخليفة أبي يعقوب يوسف. فوصل إشبيلية في الخامس عشر من المحرم سنة ٥٦٧ هـ[٨٠].

كان السيد أبو حفص قد وصل إشبيلية بعسكره من الموحدين والاجناد الأندلسيين وبعض أعيان وقواد شرقي الأندلس الذين أعلنوا الولاء والطاعة للموحدين. «فأنعم عليهم أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه ببركةٍ عظيمة العدد وكسوة كاملة للرأس والجسد. وحف بهم التقريب باللسان وبالجود باليد والإحسان إليهم وللأهل والولد. وأحسن الأمر لكل من وصل

(٧٨) ابن صاحب الصلاة: نفس المصدر ص ٤٠٧ - ابن عذارى: البيان المغرب ق٣ ص ٨٧ - البيذق: أخبار المهدي بن تومرت ص ٨٩ من ط ابن منصور - محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق٢ ص ٥٢ (نقلاً عن ابن صاحب الصلاة: مخطوط المن بالإمامة لوحة ١٣٦ و ١٣٧)

(٧٩) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق٢ ص ٥١ - ٥٢

(٨٠) مراجع الغناي: قيام دولة الموحدين ص ١٤٧

معه من الأجناد الأندلسيين الشرقيين المبادرين لهذا الأمـر العزيـز وسلموا وبايعوا ورحب بهم[٨١]».

انتهز ابن مردنيش مسير السيد أبي حفص بعسكره من مرسيـة إلى إشبيلية. فسار بقواته لاسترداد جزيرة شقر من القائد أبي أيوب بن هلال الشرقي الذي أعلن الولاء والطاعـة للموحـدين لكنه عجـز عن استرداد جزيرة شقر فاستدعى أخاه يوسف لمساعدته. «فظهر من يوسف بن مردنيش لأخيه محمد في منازلته جزيرة شقر التقصير به وعدم المعونة لمذهبه في قتال ابن هلال عدوه وتحقق من أخيه الإنحراف والميل إلى الموحـدين والإنعطاف. فزادت كبده ألماً واتصلت نفسه سقماً. فرجع إلى مرسية لغير طية. ولازمته العلة المزمنة بأسباب المنية[٨٢]».

يقول ابن صاحب الصلاة[٨٣] في موضع آخر: «وخرج على علته من مرسية زاعماً أنه سيغلب جزيرة شقر ويأخذ ابن هلال القائم بدعوة الموحدين فيها. فوصلها واستدعـى أخاه أبا الحجاج ليعينه في منازلتها فوصله وقصر به وعجزا جميعاً وأقلعا منها خاسرين خائبين. ثم أن أبا الحجاج أخاه المذكور أظهر الإنابه والمبادرة إلى التوحيد. وتحقق محمد بذلك فزادت علته بالذهول. وتوقف أخوه عن عيادته ومخاطبته. فاشتدت علته وحضرت منيته. فتوفي في العاشر من رجب الفرد من سنة سبع وستين وخمس مائة وله ثمانية وأربعون سنة».

يقول ابن الخطيب[٨٤] في خبر وفاة ابن مردنيش: «توالى عليه الحصار وأدركه الجهد ولزمته الشكاية. فقضي عليه عقب انصرافه من منازلة جزيرة

(٨١) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص ٤٠٨ ـ ٤٠٩
(٨٢) ابن صاحب الصلاة: نفس المصدر ص ٤٠٦
(٨٣) المن بالإمامة ص ٤٧٠ ـ ٤٧١
(٨٤) أعمال الأعلام ص ٢٦٢

شقر. بادر إليها بعد إقلاع السيد عنها وعجز عن قتالها. فكرّ إلى مرسية فتوفي عاشر رجب من عام ٥٦٧ هـ واستوسقت طاعة الموحدين بالشرق وشملته دعوتهم».

هناك رواية أخرى تضع وفاة ابن مردنيش بمرسية خلال حصار الموحدين له. يقول ابن الخطيب(٨٥): «وظهر عليه أمر الموحدين، فاستخلصوا معظم ما بيده وأوقعوا بجنده الوقائع العظيمة وحصر بمدينة مرسية. واتصل حصاره فمات أثناء الحصار في عاشر رجب من عام سبع وستين وخمسمائة وله ثمانية وأربعون عاماً. ووصل أمره أبو القمر هلال وألقى باليدين إلى الموحدين فنزل على عهد ورسوم».

يتفق ابن الآبار مع ابن صاحب الصلاة ومع ابن الخطيب في روايته الأولى في أن ابن مردنيش قد توفي بمرسية بعد فشله في حصار جزيرة شقر لاستردادها من ابن هلال. فهو يقول(٨٦): «تولى ابن هلال من المصابرة في تلك المحاصرة والمحاولة لتلك المصاولة ما أبقاه أثراً مشهوراً وخبراً تداولته الألسن دهوراً. واعتل ابن سعد خلال ذلك فلحق بمرسية وألزم أخاه ملازمة البلد. فتنفس الخناق ثم انتعشت بوفاته الأرباق».

بينما نجد المراكشي وهو المؤرخ المعاصر للأحداث إلى حد ما المقرب من بعض السادة أبناء الخلفاء الموحدين يتفق مع ابن الخطيب في روايته الثانية بأن ابن مردنيش قد توفي بمرسية خلال حصار الموحدين له. فهو يقول(٨٧): «انهزم أصحاب محمد بن سعد انهزاماً قبيحاً وقتل من أعيان الروم جملة. ودخل محمد بن سعد مدينة مرسية مستعداً للحصار. فضايقه الموحدون وما زالوا محاصرين له إلى أن مات وهو في الحصار حتف أنفه».

---

(٨٥) الإحاطة جـ٢ ص ١٢٧
(٨٦) الحلة السيراء جـ٢ ص ٢٦٨
(٨٧) المعجب ص ٢٤٩

يلخص محمد عبد الله عنان[٨٨] بعض أقوال ابن صاحب الصلاة في خبر موت ابن مردنيش فيقول: «الواقع أن ابن مردنيش بما توالى عليه في تلك الآونة العصيبة من الضربات الأليمة ومن انشقاق معظم قادته ووزرائه وقرابته من استيلاء الموحدين على معظم قواعده وتشددهم في حصاره وإرهاقه قد بلغ ذروة اليأس والألم. . . ويبدو من أقوال ابن صاحب الصلاة أن ابن مردنيش قد انتهى به اليأس إلى نوع من الذهول والخبل. وزاد من ذهوله ما عمد إليه أخوه أبو الحجاج يوسف من المبادرة إلى التوحيد. ثم جاء الموت فأنقذه من المصير المروع الذي كان ينتظره».

أما أندريه جوليان[٨٩] فقد لخص جميع أخبار ابن مردنيش في أقل من صفحة واحدة. وقال في خبر موته: «ذهب ابن مردنيش ضحية خيانات عائلته ولقي حتفه أثناء حصار مرسية. ومهد ذلك إلى انتصار أبي يعقوب. ودخل أولاد المتمرد في خدمة الخليفة وانضوت إسبانيا الإسلامية بأجمعها تحت سلطة الموحدين».

لم يتم انشقاق الأنصار والأعوان عن ابن مردنيش مرة واحدة. إنما أقسى مرة وجد فيها ابن مردنيش نفسه وحيداً كانت في المحرم من سنة ٥٦٧ هـ مما أدى إلى ازدياد علته ثم وفاته. يقول ابن صاحب الصلاة[٩٠]: «وفي شهر المحرم أيضاً من هذه السنة المؤرخة وصل في عسكر السيد الأعلى أبي حفص بأمره أعيان وفرسان من مرسية مهاجرين راغبين في البيعة والتوبة. . . فأذن لهم في الدخول إلى المجلس العالي والسلام للمبايعة. . . وأمر لهم بظهائر كتبت لهم بتحرير أموالهم. . . فتسامع أهل الشرق بما فعل معهم فجاؤا عند ذلك أفواجاً أفواجاً وأفراداً وأزواجاً حتى انفرد صاحبهم ابن سعد وتمادى به فكر إلى القبر واللحد».

(٨٨) دولة الإسلام ع٣ ق٢ ص ٥٢ ـ ٥٣
(٨٩) تاريخ إفريقيا الشمالية جـ٢ ص ١٤٧
(٩٠) المن بالإمامة ص ٤٧٠

تذكر بعض الروايات أن ابن مردنيش لم يمت موتاً طبيعياً. إنما انتحر بتناول السم. أو أن أمه دست له السم فمات. فحين اشتد ابن مردنيش على أهله وكبار رجال دولته نصحته أُمه وأغلظت له القول. فنهرها ولم يسمع منها. لذلك خافت أُمه على نفسها لما تعلمه من وحشية طباعه فدبرت قتله بالسم(٩١).

خلف ابن مردنيش في الحكم ولده أبو القمر هلال. فعزم عليه أشياخ وقواد شرقي الأندلس الدخول في طاعة الموحدين فاستجاب أبو القمر إليهم وأعلن الولاء والطاعة للموحدين. لذلك سار الشيخ أبو حفص بعسكر من الموحدين وتسلم بلاد شرقي الأندلس وأعلن الأمان للناس والأجناد كافة. ثم سار أبو القمر هلال بإخوته وحاشيته ورجال دولته إلى إشبيلية. لذلك سير الخليفة أبو يعقوب يوسف أخويه أبا زكريا يحيى وأبا إبراهيم إسماعيل بوفد من أشياخ الموحدين لاستقبال أبي القمر هلال وصحبه خارج إشبيلية. فدخل أبو القمر هلال وصحبه إشبيلية قرب صلاة المغرب وساروا للتسليم على الخليفة ومبايعته أمام حضور السادة أُخوة الخليفة والأشياخ وطلبة الحضر(٩٢).

طلع خلال ذلك هلال شهر رمضان من سنة ٥٦٧ هـ، فقال القاضي أبو موسى عيسى بن عمران بعد أن خطب وهنأ الحضرة العليا بما وجب لها: يا سيدنا يا أمير المؤمنين طلع علينا في هذه الليلة هلالان: هلال شهر رمضان وهلال هذا بالطاعة! فاستحسن أمير المؤمنين كلامه وتبسّم له. وانفصل هلال ابن مردنيش في ذلك الوقت مع أصحابه. وقد كان النظر له في موضع لنزوله ونزول أصحابه. فأنزل في قصر محمد بن عباد أمير إشبيلية الرفيع الشأن العظيم البنيان وأنزل أصحابه في الدور المتصلة به. وقد أُعدّت لهم الفرش

(٩١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق٢ ص ٥٣

(٩٢) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص ٤٧١ - ٤٧٢ - محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق٢ ص ٥٥ - ٥٦

والبسط والمطاعم والمكارم والمشارب، وأفهموا أنهم الأقارب والأصحاب ورحبت بهم المملكة الخلافية والدولة الإمامية(٩٣).

جلس الخليفة في صباح اليوم التالي أول شهر رمضان لتلقي بيعة قواد وأعيان شرقي الأندلس. فحين جلس الخليفة... خرج الوزير أبو العلاء إدريس بن جامع وأمرهم بالدخول عليه والمثول بين يديه. فدخلوا وسلموا سلام جماعة. ثم بايعوا واحداً بعد آخر وتقدمهم شيخهم أبو عثمان سعيد بن عيسى كبير الأجناد المذكورين وصاحب الثغر والتزموا الطاعة... فتوالت عليهم البركات مدرة غاية الإدرار حتى نسوا ما كانوا عهدوه في رياستهم(٩٤).

يذكر المراكشي روايتين بخصوص إعلان أبناء ابن مردنيش الولاء والطاعة للموحدين، فيذكر في الرواية الأولى أن وفاة ابن مردنيش سترت إلى أن ورد أخوه يوسف بن سعد الملقّب بالرئيس من بلنسية، وكان والياً عليها من جهة أخيه محمد. فاجتمع رأيه ورأى أكابر ولد محمد بن سعد - بعد أن اتهموا وأنجدوا وأخذوا في كل وجه من وجوه الحيل - على أن يلقوا أيديهم في يد أمير المؤمنين أبي يعقوب ويسلموا إليه البلاد ففعلوا ذلك(٩٥).

أما الرواية الثانية فهي: «وقيل إن أبا عبد الله محمد بن سعد حين حضرته الوفاة جمع بنيه... فكان فيما أوصاهم به أن قال: يا بنيّ إني أرى أمر هؤلاء القوم قد انتشر وأتباعهم قد كثروا ودخلت البلاد في طاعتهم. وإني أظن أنه لا طاقة لكم بمقاومتهم. فسلموا إليهم الأمر اختياراً منكم تحظوا بذلك عندهم قبل أن ينزل بكم ما نزل بغيركم. وقد سمعتم ما فعلوا بالبلاد التي دخلوها عنوة: ففعلوا ما أمرهم به. فالله أعلم أي الأمرين كان(٩٦)».

(٩٣) ابن صاحب الصلاة: نفس المصدر ص ٤٧٢ - ٤٧٣
(٩٤) ابن صاحب الصلاة: نفس المصدر ص ٤٧٣
(٩٥) المراكشي: المعجب ص ٢٤٩ - ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ٤٢٠ - ٤٢١.
(٩٦) المراكشي: نفس المصدر ص ٢٥٠ - ابن أبي زرع: نفس المصدر ص ٤٢١ زيني دحلان: الفتوحات الإسلامية جـ١ ص ٣٢٤ - ٣٢٥

يتفق ابن الخطيب مع ابن صاحب الصلاة في أن أبا القمر هلال خلف أباه في الحكم وبادر بالتخلي عن مرسية والإذعان للأمير أبي يعقوب بالطاعة. فوجه الأمير أبو يعقوب إلى مرسية السيد أبا حفص أخاه. وقدم هلال بن محمد إشبيلية مستهل رمضان من السنة(٩٧).

يضيف ابن الخطيب إلى ذلك قائلاً(٩٨): «فذكروا أن الأمير محمد بن سعد لما يئس من نفسه وعلم بتصيير ملكه إلى الموحدين أشهد على نفسه بإيصاء يوسف بن عبد المؤمن هدوة على ولده وأهله ورغب منه في قبول ذلك. وجاب إليه ولده بعد موته. فرقّ لهذا القصد الأمير أبو يعقوب واهتز لرعي هذه الوسيلة. فتزوج ابنة أبي عبد الله بن سعد... وولع بها وتغلبت عليه حتى كان يضربون المثل بحب الخليفة للزرقاء المردنيشية. واتفق لقومها من البخت بسببها ما لم يتفق لثائر ولا مخالف ملك من أعادته إلى ملكه. فأنفذ تقديم الأمير أبي الحجاج يوسف بن سعد بن مردنيش على بلنسية وجهاتها. وقدم غانم بن محمد ابن أخيه على أساطيل العدوة بسبته وأمسك هلالاً بحضرته أثير الرتبة لديه(٩٩)».

يطيب لبعض المؤرخين أن يعيد ويكرر رأيه في صراع ابن مردنيش للموحدين ـ فيعتبره تجسيداً لفكرة القومية الأندلسية ضد الغزاة المرابطين والموحدين القادمين من وراء البحر(١٠٠).

لكنني أرى أن فكرة القومية بمفهومها الحديث لم تكن قد تبلورت بعد في عقول أهل ذلك الزمان البعيد. بالإضافة إلى أن المجتمع الأندلسي لم يكن يجمعه روابط عرقية بقدر ما كان يجمعه مظاهر حضارية مشتركة فقد حارب

---

(٩٧) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ٢٧١

(٩٨) نفس المصدر والصفحة

(٩٩) أورد محمد عبد الله عنان الخبر دون النص: دولة الإسلام ع٣ ق٢ ص ٥٦

(١٠٠) محمد عبد الله عنان: نفس المرجع ص ٢٨ ـ ٢٩ و ٥٤

ابن مردنيش الموحدين زهاء ربع قرن دون أن يجد تعاوناً ولا تعاطفاً من بقية أقطار الأندلس. فكيف إذن نعتبر صراع ابن مردنيش للمرابطين والموحدين تجسيداً لفكرة القومية الأندلسية؟!

فإذا وجد ابن مردنيش خلال معظم حكمه الطاعة والولاء من رعيّته فلا يعود هذا إلى نداء القومية الأندلسية. إنما يعود إلى رفض هؤلاء المسلمين مذهب الموحدين القائل بعصمة ابن تومرت وبتأويل الآيات القرآنية وبمحاربة فقه مالك. وإن هذا السبب لعمري هو الذي جعل ابن غانية يجد تعاوناً من أهل أفريقيا على قتال الموحدين طوال خمسين عاماً متواصلاً.

الفصل الثاني

علاقة الموحدين السياسية ببني غانية أمراء الجزائر الشرقية

كانت الجزائر الشرقية إحدى ولايات المرابطين في الأندلس. وهي عبارة عن ثلاث جزر ميورقة ومنورقة ويابسة. يقول الحميري[١٠١]: «ميورقة هي جزيرة في البحر الزقائي تسامتها من القبلة بجاية من بر العدوة بينهما ثلاثة مجار. ومن الجوف برشلونة من بلاد أرغون وبينهما مجرى واحد. ومن الشرق إحدى جزيرتيها منورقة وبينهما مجرى في البحر طوله أربعون ميلاً... وغربيها جزيرتها يابسة بينهما مجرى في البحر طوله سبعون ميلاً.. وميورقة أُم هاتين الجزيرتين وهما بنتاها واليها مع الأيام خراجهما».

- أصل بني غانية:

ينتمي بنو غانية حكام الجزائر الشرقية إلى قبيلة سوفة الصنهاجية إحدى أعظم قبيلتين قامت عليهما الدولة المرابطية. كان علي المسوفي جد بني غانية يتمتع بشخصية قوية ويتحلّى بمواهب عدة وله مكانة عالية في قومه مما جعله مقرّباً من أمير المرابطين يوسف بن تاشفين. ثم اختلف يوماً ما مع أحد رجال قبيلة لمتونة فقتله وهرب إلى الصحراء فتدخل يوسف بن تاشفين في النزاع ووضع من ماله الخاص ديّة القتيل وأرضى أهله. ثم استدعى إليه عليّاً المسوفي من مقره بالصحراء وزوجه امرأة من أهل بيته تسمى غانية بعهد أبيها

(١٠١) الروض المعطار ص ١٨٨

إليه. فأنجبت غانية ولدين هما يحيى ومحمد وتربيا في رعاية يوسف بن تاشفين. فلما خلف علي بن يوسف بن تاشفين أبيه في الحكم.رعى لهما هذه الحقوق وقرّبهما إليه واستعملهما على الولايات(١٠٢).

عُرف يحيى ومحمد وأحفادهما من بعدهما باسم بني غانية نسبة إلى أُمهم غانية. إن أمثال هذه التسميات من حيث نسبة الرجل إلى أُمه كانت معروفة عند المرابطين. فكثير من قوادهم ينسبون إلى أمهاتهم مثل ابن عائشة وابن فاطمة وابن الصحراوية وغيرهم(١٠٣).

لخّص المراكشي التعريف بابن غانية فقال(١٠٤): «وتلخيص خبر هؤلاء القوم ـ أعني بني غانية ـ أن أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين وجّه إلى الأندلس برجلين اسم أحدهما يحيى والآخر محمد إبني علي من قبيلة مسوفة يُعرفان بابن غانية وهي أُمهما. فأما يحيى منهما وهو الأكبر فكان حسنة من حسنات الدهر. اجتمع له من المناقب ما افترق في كثير من الناس فمنها أنه كان رجلاً صالحاً شديد الخوف لله ـ عزوجل ـ والتعظيم له والاحترام للصالحين هذا مع علو قدم في الفقه واتساع رواية للحديث. وكان مع هذا شجاعاً فارساً إذا ركب عُدَّ وحده بخمسمائة فارس. وكان علي بن يوسف يعده للعظايم ويستدفع به المهمات. وأصلح الله على يديه كثيراً من جزيرة الأندلس ودفع به عن المسلمين غير مرة مكاره قد كانت نزلت بهم. كان أمير المسلمين ولاّه مدينة بلنسية ثم عزله عنها وولاّه قرطبة. فلم يزل بها والياً إلى أن مات ـ رحمة الله عليه ـ أول الفتنة الكائنة على المرابطين لا أعلم له عقباً».

أما محمد بن غانية فيقول عنه المراكشي(١٠٥): «وكان أخوه محمد والياً

(١٠٢) ابن خلدون: العبر جـ٦ ص ١٩٠
(١٠٣) أحمد مختار العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٣١
(١٠٤) المعجب ص ٢٦٧
(١٠٥) نفس المصدر ص ٢٦٧ ـ ٢٦٨

من قبله على بعض أعمال قرطبة. فلما مات اضطرب أمر محمد هذا وبقي يجول في بلاد الأندلس والفتنة تزيد ودعوة المصامدة تنتشر. فلما اشتد خوف محمد هذا أتى مدينة دانية. فعبر منها إلى جزيرة ميورقة في حشمه وأهل بيته. فملكها والجزيرتين اللتين حولها منورقة ويابسة. ويقال إن أمير المسلمين علي بن يوسف نفاه إليها على طريق السجن بها. فالله أعلم».

هناك رواية ثالثة حول ولاية محمد بن غانية حكم الجزائر الشرقية. ففي سنة ٥٠٩ هـ/١١١٦ م عيّن أمير المسلمين علي بن يوسف لولاية الجزائر الشرقية وأنور بن أبي بكر اللمتوني. فبقي وأنور في منصبه عشر سنوات ثم استبد وبغى. فقام أهل الجزائر الشرقية وقبضوا عليه ثم بعثوا إلى أمير المسلمين علي بن يوسف يشرحون له سبب ثورتهم ويسألونه أن يعيّن عليهم والياً آخر. حقّق أمير المسلمين رغبتهم فبعث إليهم سنة ٥٢٠ هـ/١١٢٦ م محمد بن غانية المسوفي. فاستمر محمد في منصبه زهاء ثلاثين عاماً[١٠٦].

أما ابن خلدون فيقول[١٠٧]: «بعث علي بن يوسف والياً عليها وأنور بن أبي بكر من رجالات لمتونة وبعث معه خمسمائة فارس من معسكره. فأرهب لهم حده وأراءهم على بناء مدينة أُخرى بعيدة من البحر فامتنعوا وقتل مقدمهم فثاروا به وحبسوه ومضوا إلى علي بن يوسف. فأعفاهم منه وولّى عليهم محمد بن علي بن يحيى المسوفي المعروف بابن غانية. وكان أخوه يحيى على غرب الأندلس وكان نزله بإشبيلية واستعمل أخاه على قرطبة. فكتب إليه علي بن يوسف يأمره بصرف محمد أخيه إلى ولاية ميورقة. فارتحل إليها من قرطبة ومعه أولاده... ولما وصل محمد بن علي بن غانية إلى ميورقة قبض على أنور وبعثه مصفداً إلى مراكش».

استطاع محمد بن علي بن غانية أن يدير دفة الحكم في تلك الجزر

(١٠٦) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق٢ ص ١٤٤ ـ ١٤٥
(١٠٧) العبر جـ٦ ص ٢٤٢

بحنكة سياسية بارعة وحزم وقوة عظيمتين. ثم أخذ يرقب بحذر شديد انتصارات الموحدين على المرابطين في المغرب. فلما دخل الموحدون مراكش عاصمة المرابطين شدد محمد بن غانية قبضته على الجزائر الشرقية ليجعلها نواة لإمارة تحمل اسم قبيلته وتمثل تراث المرابطين. فاستقبل جموع المرابطين الوافدين عليه من الأندلس بالحفاوة والتكريم وأسبغ عليهم جزيل عطاياه. فقوي بهم جانبه وجعلهم قوة يعتد بها[١٠٨].

لبث محمد بن غانية على ولائه لقضية المرابطين ولمتونة. فاستمر يدعو في الخطبة لأمير المسلمين وبني العباس وجعل من ميورقة والجزائر ملجأ ومثوى للوافدين والفارين من فلول لمتونة والمرابطين يستقرون بها تحت حمايته ورحمته. كان لمحمد بن غانية أربعة من الأولاد عبد الله وإسحاق والزبير وطلحة. فاختار لولاية عهده أكبر أولاده عبد الله. وهنا تختلف الرواية فيقال أن إسحاق حقد على أخيه ودبّر مؤامرة قتل فيها أبوه وأخوه. وفي رواية أُخرى أن عبد الله خلف أباه في حكم الجزائر حينما توفي سنة ٥٥٠ هـ/١١٥٥ م وأن أخاه إسحاق خلفه في الحكم بعد وفاته[١٠٩].

كان عبد الله وإسحاق ابنا محمد بن غانية في رعاية عمهما يحيى بن غانية بالأندلس. فولّى عبد الله على غرناطة وإسحاق على غرموتة. فلما ضعف أمر لمتونة وظهر عليهم الموحدون بعث محمد عن ابنيه عبد الله وإسحاق فوصلا إليه في الأُسطول وانفض ملك لمتونة. ثم عهد محمد إلى ابنه عبد الله فنافسه أخوه إسحاق وداخل جماعة من لمتونة في قتله فقتلوه وقتلوا أباه محمداً ثم أجمعوا الفتك به فارتاب بهم وداخل لب بن ميمون قائد البحر في أمرهم. فكبسهم في منازلهم وقتلهم سنة ست وأربعين وخمسمائة وبقي أميراً لميورقة[١١٠].

(١٠٨) مراجع الغناي: سقوط دولة الموحدين ص ١٧٢
(١٠٩) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق٢ ص ١٤٥
(١١٠) ابن خلدون: العبر جـ٦ ص ٢٤٢

هناك رواية أُخرى تجعل عبد الله بن محمد بن غانية والياً على بلنسية خلال ثورة الأندلسيين على المرابطين في أواخر دولتهم يقول ابن الآبار[١١١]: اضطرب أهل بلنسية وواليها حينئذ أبو محمد عبد الله بن محمد بن علي ابن أخي أبي زكريا بن غانية. فشل أبو محمد عبد الله بن محمد بن غانية تسكين أهل بلنسية أو القضاء على ثورتهم. فخشي على نفسه ولم يجد بداً من الفرار ولحق بالمرية في خبر طويل. ومنها ركب البحر إلى أبيه محمد بن علي وهو بميورقة قد ملكها واستقر فيها برأي أخيه أبي زكريا يحيى بن علي عند ثورة العامة بإشبيلية منصرفة عن حصار لبلة.

هناك رواية أُخرى تذكر أن إسحاق قتل أخيه عبد الله فقط ولم يقتل أبيه. يقول المراكشي[١١٢]: «استقل محمد بمملكة هذه الجزر وضبطها لنفسه، وأقام فيها جارياً على أمر لمتونة الأول يدعو لبني العباس. وكان له من الولد عبد الله وإسحاق والزبير وطلحة وبنات. فعهد في حياته إلى أكبر ولده عبد الله. فنفس ذلك عليه أخوه إسحاق ودخل عليه في جماعة من الجند وعبيد له فقتله - قيل في حياة أبيه وقيل بعد وفاته - وتوفي عبد الله المذكور».

على أي حال فقد تولّى إسحاق بن محمد بن غانية حكم الجزائر الشرقية. فضبطها بحزم وقوة واستمر على سياسة أبيه في استقبال فلول لمتونة الوافدين عليهم. فقدّم هؤلاء الوافدون العون لإسحاق بن محمد وعملوا على تأصيل كراهية الموحدين. كما ازدهرت موارد الجزائر الشرقية خلال حكم إسحاق بن محمد، وأضحى أُسطولها يحسب حسابه في الحوض الغربي من البحر المتوسط. فهذا ما ورد في خطاب أرسله أحد أشراف برشلونة - كان مقيماً في ميورقة آنذاك - إلى الفونسو الثاني ملك أرغونة سنة ٥٦٧ هـ/١١٧١ م[١١٣].

(١١١) الحلة السيراء جـ٢ ص ٢١٨ و ٢٢٠

(١١٢) المعجب ص ٢٦٨

(١١٣) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق٢ ص ١٤٥ - ١٤٦

كان أُسطول ابن غانية آنذاك تثخن بشواطىء الممالك النصرانية فتحرز مقادير عظيمة من الغنائم والسبي. غزا الأُسطول أيضاً ثغر طولون في جنوب فرنسا واستولى عليه، فأسر الفيكونت هوجو جود فريد صاحب مرسيليا وغيره من أكابر النصارى. لذلك خشيت جمهوريات جنوا دبيزا والبندقية أسطول ابن غانية. فعقدت معه معاهدة صلح وصداقة في سنة ٥٧٢ هـ/١١٧٧ م. تعهد فيها الطرفان أن لا يلحق أحدهما ضرراً بالآخر[١١٤]. والغالب أن تلك الجمهوريات قد دفعت مبالغ كبيرة من المال نظير ضمان حرية تحرك أساطيلها التجارية في البحر المتوسط وعدم التعرض بسوء لشواطئها[١١٥].

يقول المراكشي[١١٦]: «استقل أبو ابراهيم - إسحاق بن محمد - بالملك استقلالاً حسناً وحسُن حاله وكثر الداخلون عليه بجزيرة ميورقة من فل لمتونة وبقاياهم. فكان يحسن إليهم ويصلهم حسب طاقته. وأقبل على الغزو وصرف عنايته إليه. فلم يكن له هم غيره. فكان له في كل سنة سفرتان إلى بلاد الروم يغنم ويسبي وينكي في العدو أشد نكاية إلى أن امتلأت أيدي أصحابه أموالاً فقوي بذلك أمره وتشبّه بالملوك. ولم يزل هذه حاله إلى أن توفي في سنة ٧٩، وفي أولها وفي آخر أيام أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن».

- النزاع مع الموحدين:

كان بنو غانية في الجزائر الشرقية يشعرون بالأمان والطمأْنينة خلال قتال ابن مردنيش للموحدين. ثم أخذ بنو غانية في مصانعة الموحدين بعد وفاة ابن مردنيش واحتلال الموحدين شرقي الأندلس سنة ٥٦٧ هـ/١١٧٢ م. فصار إسحاق بن غانية يبعث إلى الموحدين بنفيس الهدايا من غنائمه وسبيه يشغلهم

(١١٤) محمد عبد الله عنان: نفس المرجع ص ١٤٦
(١١٥) مراجع الغناي: سقوط دولة الموحدين ص ١٧٦
(١١٦) المعجب ص ٢٦٩

بذلك عنه. كان الموحدون لا يحفلون بأمر الجزائر الشرقية. ثم أدركوا أهمية موقعها البحري. فتوالت كتبهم على إسحاق بن غانية يطلبون الدخول في طاعتهم(١١٧).

بعث الموحدون كتاباً إلى إسحاق بن غانية سنة ٥٧٨ هـ/١١٨٣م يدعونه إلى الدخول في طاعتهم والدعاء لهم على المنابر ويتوعدونه على ترك ذلك. فوعدهم ذلك واستشار وجوه أصحابه فاختلفوا عليه. فمن مشير عليه بالامتناع بمكانه وحاض له الدخول فيما دعوه إليه. فلما رأى اختلافهم أرجأ الأمر أن ينظر في الأصل... وخرج إلى بلاد الروم غازياً. فاستشهد ـ رحمه الله ـ هناك. وقيل إنه طعن طعنة في حلقه لم يمت منها بمكانه وإنما جيء به حياً حتى أُدخل قصره فمات فيه. فالله أعلم. وكان له من الولد علي ـ وهو أكبر ولده القائم بأمره من بعده ـ وعبد الله ويحيى وأبو بكر وسير وتاشفين ومحمد والمنصور وابراهيم(١١٨).

هناك رواية تختلف عن رواية المراكشي هذه كل الاختلاف. يقول الغبريني(١١٩): «كان إسحاق بن غانية بجزيرة ميورقة هو وبقية اللمتوني. فوجه له من مراكش من قبل خليفتها من يطلبه بالبيعة والدخول تحت الطاعة. فامتنع من ذلك. وكان بين يديه ولداه علي ويحيى فقال للرسول: أنا لا أراهم ولا يرونني. ولكن قل للموحدين يهيئون ما ينفقون على رأس هذين وأشار إلى رأسي ولديه. فانفصل الرسول عنه».

هناك رواية ثالثة أيضاً تذكر أن إسحاق بن غانية اشتغل أول أمره بالبناء والفراسة وضجر عنه الناس لسوء مسلكه وفر عنه لب بن ميمون ـ قائد

(١١٧) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق ٢ ص ١٤٧

(١١٨) المراكشي: المعجب ص ٢٦٩ ـ ٢٧٠

(١١٩) عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية. نشر محمد بن أبي شنب. الجزائر ١٣٢٨ هـ. ص ٢٤ في ترجمة القاضي أبو الظاهر عمارة بن يحيى بن عمارة الشريف الحسيني.

الأسطول - إلى الموحدين. ثم رجع أخيراً إلى الغزو. وكان يبعث الأسارى والعلوج للخليفة أبي يعقوب إلى أن هلك قبيل مهلكه سنة ثمانين وخلف من الولد محمداً وعلياً ويحيى وعبد الله وسير والمنصور وجبارة وتاشفين وطلحة وعمر ويوسف والحسن. فولّي ابنه محمد وبعث إلى الخليفة أبي يعقوب بطاعته. فبعث هو علي بن الروبزتير(١٢٠) لاختبار ذلك منه. وأحس بذلك إخوته فنكروه وتقبضوا عليه وقدّموا علياً منهم وبلغهم مهلك الخليفة وولاية ابنه المنصور فاعتقلوا ابن الروبريتر(١٢١).

أما ابن عذارى فيقول(١٢٢): «كان أبو يعقوب رحمه الله وجه القائد أبا الحسن علي بن الربرتير إلى جزيرة ميورقة بعد هلاك إسحاق بن غانية ليعرض الطاعة على من بها من بني إسحاق المذكور وليقدم الأعذار والأنذار على جري العادة فيمن خالف الجماعة من الثوار.

هناك رواية أُخرى تجعل مسير رسل الموحدين في عهد الخليفة المنصور وليس في عهد أبيه. يقول الحميري(١٢٣): «وكان السبب في التوجيه إلى ميورقة أن المنصور يعقوب كان وجّه إلى صاحب ميورقة علياً بن إسحاق بن محمد بن غانية يستدعي بيعته. فأنف من ذلك وأساء الرد واحتال على الرسل حتى اعتقلهم وأودعهم في السجون.

فشل الموحدون في غزو مدينة شنترين فاستشهد الخليفة أبو يعقوب

---

(١٢٠) الربرتير فارس برشلوني مسيحي وقع أسيراً بيد قائد الأسطول علي بن ميمون. فحمله إلى الأمير علي بن يوسف بمراكش. فجعله علي بن يوسف قائداً على الجند النصارى نظراً لكفايته وشجاعته. ثم توفي الربرتير في معركة ضد الموحدين بالقرب من تلمسان سنة ٥٣٩ هـ/١١٤٥م. اعتنق ابن الربرتير بعد ذلك الإسلام واتخذ اسم أبا الحسن علي ثم دخل في خدمة الموحدين إلى أن توفي سنة ٥٨٣ هـ/١١٨٧م (أحمد العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٥٥ حاشية رقم ١).

(١٢١) ابن خلدون: العبر جـ٦ ص ٢٤٢ - ٢٤٣

(١٢٢) مراجع الغناي: سقوط دولة الموحدين ص ١٧٣

(١٢٣) الروض المعطار ص ١٨٩ - ١٩٠

يوسف في ربيع الثاني سنة ٥٨٠ هـ/ يوليو ١١٨٤ م من أثر جراح اصابته في الغزو: «وتصادف في ذلك الوقت أن بعض وحدات الأسطول الموحدي كانت في زيارة رسمية لجزيرة ميورقة بقيادة أبي الحسن بن الربرتير فتظاهر الميورقيون باستقباله والحفاوة به. ثم بعثوا سراً إلى مراكبه من استولى عليها وأسر بحارتها. فلم يكن للقائد أبي الحسن محيد عن الاستسلام. واعتقلوه في دار الضيافة التي كانوا قد أنزلوه بها، ووكلوا به الحرس والرقباء ما أمنوا به مكره واحتياله»(١٢٤).

بينما يقول مراجع الغناي(١٢٥): «شجعت الظروف التي تمر بها دولة الموحدين من فشل قواتهم أمام مدينة شنترين ومقتل خليفتهم ومبايعة الأمير الجديد يعقوب بن يوسف، وانشقاق بني عبد المؤمن على أنفسهم وامتناع بعضهم عن البيعة للأمير الجديد. شجعت هذه الظروف علياً بن إسحاق على التمرد على دولة الموحدين. بل وأكثر من ذلك إذ شحن قواته في الأسطول ونزل على مدينة بجاية قاعدة الحكم في المغرب الأوسط واستولى عليها».

لم يكتف بنو غانية برفض طاعة الموحدين واعتقال سفيرهم. بل اتجهوا بأبصارهم إلى افريقيا. تلك المنطقة المضطربة التي كانت دائماً مثار القلاقل والمتاعب للموحدين. كان بنو غانية في مشروعهم لغزو افريقيا يعتمدون على مؤازرة خصوم الموحدين أمثال طوائف العرب من بني هلال ورياح والأبثج وبني جامع. ثم بني الرند في قفصة. فقد قضى الموحدون على ثورتهم سنة ٥٧٦ هـ/ ١١٨١ م. كما أنهم سيعتمدون بلا شك على بني حماد أصحاب بجاية فقد قضى الموحدون على ملكهم. بالإضافة إلى الاعتماد على بني مطروح في طرابلس وعلى قراقوش التقوي مملوك صلاح الدين الأيوبي(١٢٦).

(١٢٤) أحمد مختار العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٥٥ - ٣٥٦
(١٢٥) سقوط دولة الموحدين ص ١٧٦ - ١٧٧
(١٢٦) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق٢ ص ١٤٨ - ١٤٩
A. Bell: Les Benou Ghanya P. 39 - 40

يقول المراكشي[١٢٧]: «لما توفي أبو ابراهيم إسحاق. . . قام بالأمر من بعده ابنه علي بعهد أبيه إليه. وخرج بأُسطول ميورقة إلى العدوة وقصد مدينة بجاية حين راسله جماعة من أعيانها ـ على ما يقال ـ يدعونه إلى أن يملكوه. ولولا ذلك لم يجسر على الخروج. ومما جرّاه أيضاً كون الموحدين بالأندلس وسماعه خبر موت أبي يعقوب واشتغالهم ببيعة أبي يوسف وظن أن الأمر سيضطرب وأن الخلاف سينشأ. فكان هذا أيضاً مما أعانه على الخروج. ولولا لهذه الأسباب التي ذكرنا لم يجسر على الخروج. فقصد ساحل بجاية فنزل به. فقاتله أهلها قتالاً غير كثير ثم دخلها».

كان بنو غانية على علم تام بأحوال مدينة بجـاية. فكـانت السفن التجارية تسير بانتظام واستمرار بين ميورقة وبجاية لتبادل السبي أوبيعه. يقول الغبريني[١٢٨]: «إن بجاية بلدة غزاة وكان غزاة قطعها يدخلون إلى دواخل الجزر الرومانية وغيرها ويسوقون السبي الكثير منها وينزل الناس لشرائه. . . وكانت أجفان إسحاق بن غانية تصل أيضاً من ميورقة كما تصل به أجفان بجاية، فلما عزم بنو غانية غزو أفريقيا ساروا بالأُسطول ونزلوا شاطىء بجاية بمحل بيع السبي منها وكانت البلدة شاغرة من الجيش فتلقاهم الناس على عادة تلقيهم لأجل السبي. فنزلت الخيل معدة ولما وصلت إليه مستعدة. والناس ما عندهم من شأْنهم خبر. فطلعوا عـلى جبل الخليفة ودخلوا من باب اللوز إلى قصبة البلد وتملّكوا البلد. ولم يكن فوق باب اللوز سور في ذلك الزمان. وطلبوا الناس بالبيعة فبايعوهم».

تذكر بعض الروايات أن علياً بن إسحاق حشد أُسطولاً يتألف من اثنين وثلاثين سفينة تحمل نحو مائتي فارس وأربعة آلاف راجل تحت إمرة القائد رشيد النصراني. استخلف علي بـن إسحاق على ميورقة عمه أبا الزبير وسار

(١٢٧) المعجب ص ٢٧٠
(١٢٨) عنوان الدراية ص ٢٤

مع اخوته في سفنه صوب بجاية. فوصلت بسلام إلى الميناء. بينما كان والي المدينة السيد أبو الربيع سليمان على مقربة منها راحلاً عنها في طريقه إلى مراكش. لذلك لم يكن ببجاية آنذاك قوات كبيرة للدفاع. فنزل ابن غانية بقواته إلى الشاطىء وسار نحو المدينة. فاحتشد أهل البلد للمقاومة دون قائد ودون استعداد. فسلّط ابن غانية عليهم القسي والسهام تفتك بهم. ثم اقتحم المدينة واستولى عليها في السادس من شهر شعبان سنة ٥٨٠ هـ/١٣ نوفمبر ١١٨٤ م(١٢٩).

يأْخذ مراجع الغناي (١٣٠) برواية ابن عذارى. فيجعل سقوط بجاية بأيدي ابن غانية في التاسع عشر من صفر سنة ٥٨١ هـ/مايو ١١٨٥ م، ثم يقول: كان السيد أبو موسى عمران بن عبد المؤمن والي ولاية أفريقيا في هذا الحين قادماً إلى مراكش ونازلاً ببجاية للراحة فوقع في الأسر.

يجعل ابن خلدون سقوط بجاية(١٣١) في صفر سنة ٥٨١ هـ. ويذكر أن علياً بن غانية ترك على ميورقة أخاه طلحة. فهو يقول: «... وركبوا البحر في أُسطولهم إلى بجاية وولى على ميورقة أخاه طلحة وطرق بجاية في أُسطوله على حين غفلة وعليها السيد أبو الربيع بن عبد الله بن عبد المؤمن وكان خراجها في بعض مذاهبه فاستولوا عليها سنة إحدى وثمانين وتقبضوا على السيد أبي الربيع والسيد أبي موسى عمران بن عبد المؤمن صاحب أفريقيا وكان بها مجازاً».

ويذكر ابن خلدون(١٣٢) في موضع آخر أن علياً ترك عمه أبا الزبير على ميورقة. فهو يقول: «... وركبوا البحر في اثنتين وثلاثين قطعة من أساطيلهم.

---

(١٢٩) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق٢ ص ١٤٩

(١٣٠) سقوط دولة الموحدين ص ١٧٧ ـ ١٧٨

(١٣١) العبر جـ٦ ص ٢٤٣

(١٣٢) نفس المصدر والجزء ص ١٩٠

وركب معه إخوته يحيى وعبد الله والغاني وولّى على ميورقة عمه أبا الزبير وأقلعوا إلى بجاية. فطرقوها على حين غفلة من أهلها وعليها السيد أبو الربيع بن عبد الله بن عبد المؤمن وكان بميلول من خارجها في بعض مذاهبه فلم تمانعه أهل البلد واستولى عليها في صفر سنة إحدى وثمانين. واعتقلوا بها السيد أبا موسى بن عبد المؤمن كان قافلاً من أفريقيا يؤم المغرب».

بلغ ذلك والي بجاية السيد أبا الربيع سليمان وهو في طريقه إلى مراكش فتوقف ورأى أن يعود لاسترداد ولايته. فقد كان لديه ثلاثمائة فارس من الموحدين. ثم استنفر ألف فارس من عرب تلك النواحي(١٣٣).

التقى السيد أبو الربيع سليمان بعلي بن غانية عند ياميليون فنشبت بينهما موقعة انتهت بهزيمة السيد أبي الربيع سليمان ومقتل معظم رجاله. فقد انحاز العرب إلى علي بن غانية. ثم لاذ السيد أبو الربيع بالفرار وسار مع بقية رجاله إلى مدينة الجزائر فوجدها ضعيفة التحصينات وخشي أن يلحق به ابن غانية. فسار عنها إلى مدينة تلمسان واجتمع مع واليها السيد أبي الحسن بن أبي حفص. فأخذ في تحصينها ورمّم أسوارها(١٣٤).

استولى علي بن غانية على أثر ذلك على مدينة مليانة فعيّن عليها بدراً بن عائشة ثم عاد إلى مدينة بجاية. فقد رأى الذي حصل له فوق قدره ومطلبه(١٣٥). لا يستدل من بعض الروايات الأُخرى عودة علي بن غانية إلى بجاية بعد هذه الموقعة. إنما تذكر البلاد التي استولى عليها. فيقول

(١٣٣) ابن الأثير: الكامل جـ١١ ص ٢٠٦

A. Bell: Benou Ghanya P. 43

(١٣٤) ابن الأثير: نفس المصدر والصفحة ـ محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق٢ ص ١٥٠

A. Bell: Opcit P. 44

(١٣٥) ابن عذارى: البيان المغرب ق٣ ص ١٤٨

الحميري[١٣٦]: «تحرك من ميورقة علي المذكور إلى بجاية فاحتال حتى استولى عليها وملكها. ولما تمّ له ذلك أتى الجزائر فدخلها ثم مليانة ومازونة ثم دخل أشير عنوة ثم أتى القلعة فملكها. وبعد ثلاث من دخولها كانت له في العرب الحطمة المشهورة وبث في هذه البلاد عمالاً وحكاماً. ثم قصد قسنطينة فسار إليها وحاصرها أشهراً فلم يفلح».

أما ابن خلدون فيقول[١٣٧]: «غار علي بن محمد بن غانية في الأموال وفرقها في ذؤبان العرب ومن انضاف إليهم ورجل إلى الجزائر فافتتحها وولّى عليها يحيى بن أبي طلحة. ثم افتتح مازونة وانتهى إلى مليانة فافتتحها وولّى عليها بدر بن عائشة. ثم نهض إلى القلعة فحاصرها ثلاثاً ودخلها عنوة. وكانت له في المغرب خطة مشهورة. ثم قصد قسنطينة فامتنعت عليه، واجتمعت إليه وفود العرب فاستنجدهم وجاءوا بأحلاقهم».

ويقول ابن خلدون[١٣٨] في موضع آخر: «استعمل أخاه يحيى على بجاية ومضى إلى الجزائر فافتتحها وولّى عليها يحيى بن أخيه طلحة. ثم إلى مليانة فولّى عليها بدر بن عائشة ونهض إلى القلعة ثم إلى قسنطينة فنازلها».

تذكر بعض الروايات أن علياً بن غانية حين استولى على مدينة بجاية وجد الناس في المسجد الجامع. فأحاطه بقواته من كافة جوانبه. وطالب الناس بالبيعة أثناء خروجهم من المسجد. فمن بايعه منهم أخلى سبيله ومن امتنع قتله. ثم طالب قاضي الجماعة أبا علي حسن بن علي بن محمد المسيلي بالبيعة. فرفض القاضي وقال له: «لا نبايع من لا نعرف هل هو رجل أو امرأة!» فكشف علي بن غانية عن وجهه. فبايعه القاضي عندئذ[١٣٩].

(١٣٦) الروض المعطار ص ١٩٠
(١٣٧) العبر جـ ٦ ص ١٩١
(١٣٨) نفس المصدر والجزء ص ٢٤٣
(١٣٩) الغبريني: عنوان الدراية ص ١٥

استخرج علي بن غانية المال والثياب والمتاع من مخازن الموحدين ببجاية وبغيرها من المدن التي استولى عليها. وأخذ يوزعها على جنده وأنصاره وعلى جموع العرب التي انحازت إليه(١٤٠). ثم قطع علي بن غانية الخطبة للموحدين من البلاد التي استولى عليها. فأمر بالدعاء للعباسيين باسم خليفتهم يومئذ الإمام أبي العباس أحمد الناصر. وصلى علي بن غانية الجمعة في بجاية. فكان خطيبه الفقيه الإمام المحدث المتقن أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الأزري الإشبيلي ـ مؤلف كتاب الأحكام وغيره من التأليف ـ فأحنق ذلك عليه أبا يوسف يعقوب أمير المؤمنين ورام سفك دمه، فعصمه الله منه وتوفاه حتف أنفه وفوق فراشه(١٤١).

كان من جملة الكلام الذي أحنق الموحدين هو قول الخطيب في خطبته، والحمد لله الذي أعاد الأمر إلى نصابه وأزاله من أيدي غصابه(١٤٢).

علم الخليفة المنصور بتلك الحوادث وهو ما يزال في بداية عهده. فاهتز لها وأدرك في الحال خطورتها فقرر القضاء عليها فوراً. لذلك جهّز جيشاً بلغ عدده عشرين ألف مقاتل وزوّده بوافر العدة والآلات ثم أسند قيادته إلى ابن عمه السيد أبي زيد بن أبي حفص وبعث في نفس الوقت اسطولاً موحدياً كبيراً من سبتة تحت قيادة أبي محمد بن إسحاق بن جامع وأبي محمد بن عطوش الكومي وأبي العباس الصقلي. سار الجيش والأسطول وفق خطة حربية واحدة متعاونين في البر والبحر(١٤٣).

مهّد الخليفة المنصور الطريق أمام الجيش والأسطول فبعث عيونه

(١٤٠) ابن عذارى: البيان المغرب ق ٣ ص ١٤٨
(١٤١) المراكشي: المعجب ص ٢٧١ - ٢٧٢
(١٤٢) الغبريني: عنوان الدراية ص ٢٤
(١٤٣) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق٢ ص ١٥١ ـ مراجع الغناي: سقوط دولة الموحدين ص ١٨١

وجواسيسه بالكتب إلى أهل البلاد. يقول ابن عذارى: «وكان أبو يوسف المنصور أتبع أمراء الجيوش البرية والبحرية كتباً لأهل سائر البلاد المغلوب عليها بالأمن والأمان والصفح والإحسان. ولما دنت الحملة من البلاد رسوا بالكتب جواسيس رحلوا بها ليلاً إلى البلاد. واجتمعوا بها مع من يوثق به للأمن. فلما وقفوا عليها ورأوا أنهم قد أمنوا غوائل العذاب، وأن العفو والرحمة لهم مفتحة الأبواب وثبوا على من كان عندهم من الأعداء وأرصدوا لفرارهم بالمضايق وقبضوا على أكثرهم بتلك المخانق(١٤٤).

بادر الأُسطول الموحدي فاستولى على الجزائر قبل أن يصل إليها الجيش وأسر بها يحيى بن طلحة وأتباعه. ثم سار الأُسطول واستولى على مليانة. ففرّ حاكمها المرابطي بدر بن عائشة. فلحقه أهل مليانة وأحضروه مصفداً بعد معركة هزم فيها ثم أُعدم بعد ذلك. ثم تقدّم أبو العباس الصقلي بسفينة من ميناء بجاية فدس عن طريق أعوانه الكتب إلى أهل بجاية يسألهم القيام على بني غانية ويخبرهم بوصول الجيش والأُسطول. استجاب أهل بجاية فثاروا وفتحوا أبواب المدينة. فاقتحمها رجال الأُسطول يتقدمهم أبو محمد بن جامع، وفتكوا بقوات ابن غانية وأنصاره. ثم أسروا رشيداً الرومي واستولوا على سفن ابن غانية. وأطلقوا سراح الأسرى الموحدين. هكذا استرد الموحدون بجاية في ١٩ صفر ٥٨١ هـ/٢٢ مايو ١١٨٥ م(١٤٥).

تمكّن يحيى بن غانية والي بجاية من الهرب مع بعض رجاله وسار إلى أخيه علي وهو لا يزال على حصار قسنطينة. فأخبره بوصول الجيش والأُسطول الموحدي وبسقوط الجزائر ومليانة وبجاية. أحرق علي بن غانية المنجنيقات وآلات الحصار تحت أسوار قسنطينة وسار بقواته جنوباً صوب الصحراء فسار

(١٤٤) أحمد مختار العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٥٨ - ٣٥٩

(١٤٥) محمد عبد الله عنان: المرجع السابق ص ١٥٢ - مراجع الغناي: المرجع السابق ص ١٨١ - ١٨٢

الموحدون وراءه حتى مقرة ونفاوس ثم عادوا إلى بجاية لعجزهم عن اللحاق به بسبب أحمالهم الثقيلة(١٤٦).

ألقى السيد أبو زيد القبض على جميع أهل بجاية ممن حامت عليهم تهمة التعاون أو الانحياز مع بني غانية ثم قتلهم جميعاً وقتل معهم رجال ابن غانية الأسرى. كان من بين أهل بجاية بعض القواد والأعيان، وهناك أعيان وقواد آخرون استصفى السيد أبو زيد أموالهم وحملهم على بيع أملاكهم وديارهم بثمن بخس ثم غرّبهم من بجاية إلى سلا(١٤٧). كما صلب الشاعر الرميلي في بجاية لقوله بيت الشعر الآتي في علي بن غانية:

أنتم صباح الدين يجلو عيهب الـ إلحاد والدنيا بكم ستنير(١٤٨)

اشتدت وطأة الموحدين على أهل بجاية فلم يسلم منهم حتى أهل العلم ورجال الدين ففي ذلك يقول الغبريني(١٤٩): «وتبع الموحدون الناس بما ظهر منهم من مقال أو فعال... فاشتدت وطأتهم على أهل العلم واعتقلوا أُناساً منهم. وكان في جملة من اعتقل الشريف أبو الطاهر عمارة، ولما وصل الموحدون خرج إلى الجهة التي كان بها قاضياً فوجّه إليه وجيء به مصفداً في الحديد فبقي معتقلاً مع أصحابه مدة من الزمن..

- تحالف ابن غانية مع قراقوش(١٥٠):

استمر علي بن غانية في توغله بالصحراء، ثم سار إلى جندة ومنها اتجه إلى الواحات ببلاد الجريد. وكان خلال الطريق يستميل إليه طوائف العرب

(١٤٦) محمد عبد الله عنان: المرجع السابق ص ١٥٢ - ١٥٣ - مراجع الغناي: المرجع السابق ص ١٨٢

(١٤٧) ابن عذارى: البيان المغرب ق ٣ ص ١٥١ و ١٥٤

(١٤٨) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب ص ٤٣٦

(١٤٩) عنوان الدراية ص ٢٤ - ٢٥

(١٥٠) هو شرف الدين قراقوش التقوي مملوك تقي الدين عمر أخي صلاح الدين الأيوبي. خرج من مصر بقواته =

بالعطايا والصلات الجزيلة فالتف حوله عرب بني رياح وبني جشم. ثم استولى بمساعدتهم على قفصة، لكنه فشل في الاستيلاء على يورق وقصطيلة وتوزر(١٥١).

بلغ علي بن غانية نزول شرف الدين قراقوش بقواته الغز في بلدة الحامة من جهات طرابلس. فقام علي وإخوته بمراسلة قراقوش وقالوا: «إننا قوم من بني العباس ونريد دولتهم. ونحن نريد أن نكون وإياك مجتمعين». فسار إليهم قراقوش في ستين فارساً والتقى بهم عند حامة البهاليل. تحالف الطرفان واتفقا على قتال الموحدين معاً. ثم اقتسما البلاد بينهما نصفين فالبلاد الواقعة غربي بونة أي المغربين الأوسط والأقصى من حق علي بن غانية. أما البلاد الواقعة شرقي بونة فمن حق قراقوش. تم هذا التحالف بينهما في سنة ٥٨١ هـ/١١٨٥ م(١٥٢).

عاد علي بن غانية بعد هذا الاجتماع فأخذ يستولي على البلاد وبعث قائده غزي الصنهاجي للاستيلاء على مدينة أشير. فسار إليها غزي واقتحمها عنوة وقتل واليها الموحدي بعد أن استولى عليها. لذلك بعث والي بجاية السيد أبو زيد حملة بقيادة ابنه السيد أبي حفص وأبي الظفر غانم لاسترداد أشير. فخرج غزي الصنهاجي لردهما فحلّت به الهزيمة ولقي مصرعه. ثم تولّى أخوه عبد الله الصنهاجي مقاومة الموحدين وحال دون استيلائهم عليها. فاتصل الموحدون بالقاضي أبي العباس بن الخطيب كي يقنع عبد الله بالنزول عن المدينة فنجح القاضي في مهمته، فقبض الموحدون على عبد الله وصلبوه

= فسار إلى جهات طرابلس واستولى على بعض البلاد (انظر مراجع الغناي: سقوط دولة الموحدين ص ٩٩ ـ ٢١٠، محمد المرزوقي: قابس ص ١٨٦ ـ ١٨٧).

(١٥١) ابن خلدون: العبر جـ ٦ ص ١٩١ و٢٤٣

A. Bell: Les Benou Ghanya P. 56 - 57

(١٥٢) مراجع الغناي: المرجع السابق ص ٢١٤ ـ ٢١٥

بإزاء رأس أخيه ببجاية(١٥٣).

سار علي بن غانية للاستيلاء على مدينة توزر، لكنه فشل لمناعة تحصيناتها. فضرب الحصار عليها وقطع أشجار النخيل التي حولها. ثم داخل بعض أهلها فاستولى عليها بمساعدتهم سنة ٥٨٢ هـ/١١٨٦ م. وعفا عن جميع الذين ساعدوه من أهلها بينما قام باستصفاء من تخلّى عنه أو قاومه وسجن البعض الآخر، فلم يطلق سراح أحد منهم إلا مقابل مبالغ كبيرة من المال. ثم قتل كل من رفض فداء نفسه بالمال وألقاه في بئر تسمّى بئر الشهداء(١٥٤).

التفّ حول قراقوش بعض العرب من بني ذياب وساروا معه إلى جبل نفوسة فاستولى عليه قراقوش واستخلص منه أموالاً كثيرة وزّعها على حلفائه العرب. ثم انضم إلى قراقوش مسعود بن زمام شيخ بني رياح. فهو من الخارجين على الموحدين. ثم سار قراقوش بقواته وبحلفائه العرب إلى طرابلس، فاستولى عليها وذاع صيته. فهرعت إليه طوائف العرب. وملك كثيراً من النواحي المجاورة(١٥٥).

استولى علي بن غانية على معظم أنحاء إفريقيا، ثم قصد «جزيرة باشر» وهي بقرب تونس تشمل على قرى كثيرة فنازلها وأحاط بها. فطلب أهلها منه الأمان فأمنهم. فلما دخلها العسكر نهبوا جميع ما فيها من الأموال والدواب والغلات وسلبوا الناس حتى ثيابهم. وامتدت الأيدي إلى النساء والصبيان وتركوهم هلكى. فقصدوا مدينة تونس. فأما الأقوياء فكانوا يستعطون ويسألون الناس. ودخل عليهم فصل الشتاء فأهلكهم البرد ووقع فيهم الوباء

(١٥٣) ابن خلدون: العبر جـ٦ ص ٢٤٣ - مراجع الغناي: سقوط دولة الموحدين ص ٢١٦ - محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق٢ ص ١٥٤

(١٥٤) محمد عبد الله عنان: نفس المرجع ص ١٥٣

A. Bell: Les Ghanya PP. 56 - 57

(١٥٥) محمد عبد الله عنان: نفس المرجع ص ١٥٦

فأحصى الموتى منهم فكان اثنا عشر ألفاً. هذا من موضع واحد فما الظن بالباقي[156].

يبدو أن علياً بن غانية قد فشل في الاستيلاء على تونس. فعاد وقصد في سنة اثنين وثمانين مدينة قفصة فحصرها. فأخرج أهلها الموحدين من عساكر ولد عبد المؤمن وسلّموها إلى الملثم. فرتّب فيها جنداً من الملثمين والأتراك وحصّنها بالرجال مع حصانتها بالبناء[157].

انضم قراقوش بقواته إلى علي بن غانية، كما انضم إليه الأتراك الواصلون من مصر حينئذ بقيادة مملوك التقي لدين الله ابن أخ صلاح الدين اسمه بوزابة. فكثر جمعهم وقويت شوكتهم. فلما اجتمعوا بلغت عدتهم مبلغاً كبيراً وكلهم كاره لدولة الموحدين واتبعوا جميعهم علياً بن إسحاق الملثم لأنه من بيت المملكة والرياسة القديمة وانقادوا إليه ولقّبوه بأمير المسلمين وقصدوا بلاد إفريقيا فملكوها جميعاً شرقاً وغرباً إلا مدينتي تونس والمهدية فإن الموحدين أقاموا بها وحفظوها على خوف وضيق وشدة[158].

لم يكتف ابن غانية باتخاذ لقب أمير المسلمين بل راسل العباسيين أيضاً وقطع الخطبة للموحدين. يقول ابن خلدون[159]: «لحق بابن غانية فل قومه من لمتونة ومسوفة من أطراف البقاع فانعقد أمره وتجدد بذلك القطر سلطان قومه وجدد رسوم الملك واتخذ الآلة وافتتح كثيراً من بلاد الجريد وأقام فيها الدعوة العباسية. ثم بعث ولده وكاتبه عبد المؤمن من فرسان الأندلس إلى الخليفة الناصر بن المستضيء ببغداد مجدداً ما سلف لقومه من المرابطين

(156) ابن الأثير: الكامل جـ 11 ص 211 - 212 - أورد محمد عبد الله عنان الخبر بدون نص وذكرها باسم جزيرة باشو. نفس المرجع ص 159 (نقلاً عن التيجاني: الرحلة ص 14)
(157) ابن الأثير: نفس المصدر والجزء ص 212
(158) ابن الأثير: نفس المصدر والجزء ص 211
(159) العبر جـ 6 ص 192

بالمغرب من البيعة والطاعة وطلب المدد والإعانة. فعقد له كما كان لقومه وكتب الكتاب من ديوان الخليفة إلى ملك مصر والشام النائب عن الخليفة بها صلاح الدين بن يوسف بن أيوب. فجاء إلى مصر فكتب له صلاح الدين إلى قراقوش واتصل أمرهما في إقامة الدعوة العباسية».

ويقول سعد زغلول(١٦٠): «قام ابن غانية بعمل سياسي بارع. وهو أنه إلى جانب رفع الأعلام العباسية أرسل ابنه مع كاتبه عبد البر بن فرسان إلى الخليفة الناصر بن المستضيء لإعلان الطاعة لهذا الخليفة وطلب الخلع والأعلام السوداء منه. وكان من الطبيعي أن يقابل ديوان الخليفة ببغداد هذه البعثة قبولاً حسناً وأن يمنح ابن غانية ما كان يمنحه للمرابطين من ميزات لاسيما لقب أمير المسلمين وأن يطلب إلى صلاح الدين أن يناصر الميورقيين في كفاحهم».

يذكر ذلك أيضاً ابن الأثير(١٦١) فهو يقول: «لما استولى الملثم على أفريقيا قطع خطبة أولاد عبد المؤمن وخطب للإمام الناصر لدين الله الخليفة العباسي. وأرسل إليه يطلب الخلع والأعلام السود».

بلغ ذلك الخليفة يعقوب المنصور فرأى أن يقود الجيش بنفسه للقضاء على ابن غانية واسترداد أفريقيا. ثم بعث إلى ولاته على البلاد يأمرهم بإعداد المنازل للجيش وتوفير المؤن والمياه فتهيأت بذلك جميع أسباب الراحة للجيش. خرج الخليفة بالجيش من مراكش في ٣ شوال ٥٨٢ هـ/١٧ ديسمبر ١١٨٦م. وصحب معه شيوخ رياح من بني زيان لثقته فيهم بينما لم يصحب معه أعراب بني هلال وسليم خوفاً من انحرافهم أثناء القتال. شاهد الخليفة حين أشرف على مدينة قسنطينة طلائع قوات ابن غانية وقراقوش وأنصارهما من قبائل بني

(١٦٠) العلاقة بين صلاح الدين وأبي يوسف يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن الموحدي. مجلة كلية آداب الإسكندرية م ٦ و ٧ سنة ٥٢ ـ ١٩٥٣ م ص ٩٥ ـ ٩٦

(١٦١) الكامل في التاريخ جـ ١١ ص ٢١٢

سليم. فعزم أن يبادرهم بالهجوم، لكن الأشياخ والوزراء أشاروا عليه بالتريث حتى يصل الجيش إلى تونس ليأخذ قسطاً من الراحة. فاستجاب الخليفة لهم(١٦٢).

بعث الخليفة من تونس حملة تتألف من ستة آلاف فارس تحت إمرة ابن عمه السيد أبي يوسف يعقوب بن أبي حفص، وعمر بن أبي زيد من أشياخ الموحدين والقائد علي الربرتير، كان ابن غانية يرابط بقواته وبحلفائه بالقرب من قفصة. ثم تقدم إلى سهل عمرة للقاء الموحدين فنشبت بين الطرفين موقعة في اليوم الخامس عشر من شهر ربيع الأول سنة ٥٨٣ هـ/٢٥ مايو ١١٨٧م. فأمطر ابن غانية الموحدين بوابل من السهام فظهر الاختلال والانقسام بين الموحدين وكثر القتل فيهم. وسقط الربرتير وابن يومور أسيرين وهلك عدة أشياخ من بينهم عمر بن أبي زيد بينما فرّ السيد أبو يوسف بفلول رجاله صوب تونس(١٦٣).

لجأ كثير من الجرحى الموحدين إلى مدينة قفصة فقد شجعهم على ذلك ابن غانية فوعدهم بالأمان وتركهم يملأون طرقات المدينة فهي من البلاد الخاضعة لسلطته. ثم أمر بقتلهم فقتلوا جميعاً. جلس ابن غانية بعد ذلك بخباء السيد أبي يوسف وجمعت بين يديه أسلاب الموحدين وأسلحتهم ففرّقها على جنده. ثم اقتيد إليه علي بن الربرتير وابن يومور فعذبهما وقتلهما وعلّق رأس ابن يومور على باب قفصة(١٦٤).

يضع ابن خلدون موقعة سهل عمرة بقفصة سنة ٥٨٨ هـ/١١٩٢م ويقدم معلومات أُخرى فهو يقول(١٦٥): «ولما اتصل بالمنصور ما نزل بأفريقيا

(١٦٢) مراجع الغناي: سقوط دولة الموحدين ص ٢١٧ - ٢١٨
(١٦٣) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق٢ ص ١٦١
(١٦٤) محمد عبد الله عنان: نفس المرجع والصفحة - مراجع الغناي: المرجع السابق ص ٢١٨
(١٦٥) العبر جـ٦ ص ١٩٢ - ١٩٣

من أجلاب ابن غانية وقراقوش على بلاد الجريد نهض من مراكش سنة ثمان وثمانين لحسم هذا الداء واستنقاذ ما غلبوا عليه. ووصل إلى تونس فأراح بها وسرح في مقدمته السيد أبا يوسف يعقوب بن أبي حفص عمر بن عبد المؤمن ومعه عمر بن أبي زيد من أعيان الموحدين فلقّبهم ابن غانية في جموعه بعهده فانهزم الموحدون وقتل ابن أبي زيد وجماعة منهم وأسر علي بن الربرتير في اخرين وامتلأت أملاك العدو من أسلابهم ومتاعهم ووصل سرعان الناس إلى تونس».

يذكر ابن خلدون رواية أخرى عن الموقعة لا تختلف كثيراً عن الرواية السابقة لكنه يضعها في سنة ٥٨٢ هـ/١١٨٦ م فهو يقول(١٦٦): «نازل علي بن غانية بلاد الجريد وتغلّب على الكثير منها. وبلغ الخبر باستيلائه على قفصة فخرج المنصور إليه من مراكش سنة اثنين وثمانين ووصل فاس فأراح بها وسار إلى رباط تازا ثم سار إلى التعبية إلى تونس. وجمع ابن غانية من إليه من الملثمين والأعراب وجاء معه قراقوش الغزي صاحب طرابلس. فسرح إليهم المنصور عساكره لنظر السيد أبي يوسف بن السيد أبي حفص ولقَبهم بغمرة. فانفض جموع الموحدين وأفلت المعركة عن قتل علي بن الربرتير وأبي علي بن يغمور وفقد الوزير عمر بن أبي زيد ولحق فلهم بقفصة فأثخنوا فيهم قتلاً ونجا الباقون إلى تونس».

بينما يضع ابن الأثير الموقعة في شهر ربيع الأول سنة ٥٨٣ هـ/مايو ١١٨٧ م ويضيف بعض المعلومات. فهو يقول(١٦٧): وكان الوالي على أفريقيا حينئذ عبد الواحد بن عبد الله الهنتاني وهو بمدينة تونس فأرسل إلى المغرب يعقوب وهو بمراكش يعلمه الحال وقصد الملثم... لما وصله الخبر اختار من عساكره

(١٦٦) نفس المصدر والجزء ص ٢٤٤ ـ يبدو أن الناصري اعتمد على روايتي ابن خلدون فلخصها (انظر الاستقصا جـ٢ ص ١٤٤)

(١٦٧) الكامل في التاريخ جـ ١١ ص ٢١١ ـ ٢١٢

A. Bell: Les Ghanya PP. 77 - 78.

عشرين ألف فارس من الموحدين. وقصد قلة العسكر لقلة القوت في البلاد ولما جرى فيها من التخريب والأذى. وسار في صفر سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة. فوصل إلى مدينة تونس وأرسل ستة آلاف فارس مع ابن أخيه. فساروا إلى علي بن أسحاق الملثم ليقاتلوه. وكان بقفصة فوافوه. وكان مع الموحدين جماعة من الترك فخامروا عليهم فانهزم الموحدون وقتل جماعة من مقدميهم وكان ذلك في ربيع الأول سنة ثلاث وثمانين.

هناك رواية أُخرى جاءت عند المراكشي(١٦٨) فهو يقول: «ونزل أمير المؤمنين بالقرب من بجاية.. ثم سار حتى نزل مدينة تونس. فجهّز جيشاً عظيماً أمر عليهم رجلاً من ولد عمر بن عبد المؤمن اسمه يعقوب وذلك لما كانوا يرونه في ملحمة كانت عندهم من أنهم سيهزمون مع رجل اسمه يعقوب بموضع يعرف بوطا عمره. فسار يعقوب هذا بالجيش المذكور وأقام هو في تونس. فكانت الهزيمة على يعقوب بن عمر كما ذكر. وذلك أن الموحدين التقوا هم وأصحاب علي بن غانية فانهزم الموحدون انهزاماً قبيحاً وأتبعتهم العرب والبربر يقتلونهم في كل وجه».

كانت لهزيمة سهل عمرة أعمق وقع في نفس الخليفة المنصور. فقرر أن يقود الجيش بنفسه وسار من تونس في مستهل رجب سنة ٥٨٣ هـ/٨ سبتمبر ١١٨٧ م واتجه جنوباً صوب القيروان فنزل بها. ثم بعث كتاباً إلى ابن غانية وحلفائه ينذرهم بوجوب دخول الطاعة ونبذ الشقاق والعدوان. لم يكتف علي بن غانية بعدم رد الجواب بل اعتقل أيضاً سفير الخليفة حامل الكتاب(١٦٩).

استأنف الخليفة زحفه فنزل بقواته على بعد فرسخين من الحمة في مواجهة معسكر ابن غانية. فنشبت الموقعة بين الطرفين في صبيحة يوم ٩

(١٦٨) المعجب ص ٢٧٢ - ٢٧٣

(١٦٩) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق٢ ص ١٦١ - ١٦٢

شعبان ٥٨٣ هـ/١٥ أكتوبر ١١٨٧ م. وانتهت في نفس اليوم بهزيمة علي بن غانية وفراره مع قراقوش. سار الخليفة بعد ذلك إلى قابس منزل أهل قراقوش وفيها ذخائره وأمواله. فوصلها في المساء وأحاطها بجيشه. ثم استنزل في صباح اليوم التالي أهل قراقوش وكل من ينتمي إليه، فأرسلهم إلى مراكش واستولى على قابس وما فيها من ذخائر ومتاع(١٧٠).

وردت موقعة الحمة في بعض الروايات باسم حامة دقيوس. فتذكر أن الخليفة سار بنفسه على رأس الجيش من تونس، حتى لقي علياً بن غانية بموضع يعرف بالحامة حامة دقيوس. فما وقف أصحاب علي إلا يسيراً حتى انكشفوا عنه وأبلى هو عذراً فأثخن جراحاً وخرج فارّاً بنفسه فمات في خيمة لعجوز أعرابية(١٧١).

سار الخليفة بعد ذلك إلى توزر فافتتحها وقتل من وجد بها ثم إلى قفصة فنازلها أياماً حتى نزلوا على حكمه وأمن أهل البلد والأغراب أصحاب قراقوش وقتل سائر الملثمين ومن كان معهم من الحشود وهدم أسوارها وانكفأ راجعاً إلى تونس(١٧٢). يقول ابن خلدون(١٧٣) في موضع آخر: «قصد المنصور إلى توزر فحاصرها فأسلموا إليه من كان فيها من أصحاب ابن غانية وبادر أهلها بالطاعة. ثم رجع إلى قفصة فحاصرها حتى نزلوا على حكمه وقتل من كان بهامن الحشود وقتل ابراهيم بن فراتكين وامتن على سائر الأعوان وأخلي سبيلهم وأمن أهل البلد في أنفسهم وجعل أملاكهم بأيديهم على حكم المساقاة».

---

(١٧٠) مراجع الغناي: سقوط دولة الموحدين ص ٢١٨ - ٢١٩ - محمد المرزوقي: قابس ص ١٨٣ - ١٨٤

A. Bell: Les Benou Ghanya P. 82

(١٧١) المراكشي: المعجب ص ٢٧٣

(١٧٢) ابن خلدون: العبر جـ٦ ص ٣٤٤

(١٧٣) نفس المصدر والجزء ص ١٩٣ - الناصري: الاستقصا جـ٢ ص ١٤٤

هنـــاك روايــة أُخــرى تختلف عن روايــة ابـن خلدون. يـقــول المراكشي[١٧٤]: «وفي هذه السفرة انتفضت عليهم أيضاً مدينة قفصة ونزع أهلها أيديهم من طاعتهم ودعوا للميورقيين. فنزل عليها أمير المؤمنين أبو يوسف فحاصرها أشد الحصار ثم دخلها عنوة فقتل أهلها قتلاً ذريعاً» بلغني أنه قتل أكثرهم ذبحاً وأمر بأسوارها فهدت.

أما رواية ابن الأثير فهي[١٧٥]: «توجّه إلى مدينة قفصة فحصرها ثـلاثة أشهر وقطع أشجارها وخرب ما حولها. فأرسل إليه الترك الذين فيها يطلبون الأمان لأنفسهم ولأهل البلد. فأجابهم إلى ذلك وخرج الأتراك منها سالمين. وسير الأتراك إلى الثغور لما رأى من شجاعتهم ونكايتهم في العدو وتسلّم يعقوب البلد وقتل من فيه من الملثمين وهدم أسواره وترك المدينة مثل قرية».

وصل إلى الخليفة المنصور يوم حلوله تحت أسوار قفصه خطاب من قراقوش يعرب فيه عن خضوعه ورغبته في دخول التوحيد. فأبدى استعداده إذا ما قبلت توبته أن يأتي إلى الموحدين تائباً طائعاً. ثم وصل في اليوم التالي خطاب مماثل من أبي زيّان زعيم الغزو وهو زميل قراقوش السابق الذي استقل بحكم طرابلس يعرب فيه هو الآخر انضواءه تحت لـواء التوحيـد بطرابلس ونواحيها[١٧٦].

سار الخليفة من قفصه لإخضاع قبائل العرب كي يحرم ابن غانية من عونهم. فطارد عرب أفريقيا وفتك بهم واستباح أموالهم ومحلاتهم وشرّدهم في كل وجه حتى جاءوا إليه تائبين خاضعين. ثم أجرى عليهم التمييز ونقل أهل الخلاف والفتنة منهم إلى المغرب الأقصى ليأمن شرّهم. فأنزل قبيلة رياح من بني هلال ببلاد الهبط فيما بين قصر كتامة المعروف بالقصر الكبير إلى أزغار

(١٧٤) المعجب ص ٢٧٤ وحاشية رقم ١ من نفس الصفحة.
(١٧٥) الكامل في التاريخ جـ ١١ ص ٢١٢
(١٧٦) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق ٢ ص ١٦٥

البسيط الأنبح هناك إلى ساحل البحر الأخضر. وأنزل قبائل جشم ببلاد تاسنا البسيط الأفيح ما بين سلا ومراكش(١٧٧).

أقام الخليفة المنصور بعد ذلك مدة في مدينة تونس والمهدية أشرف خلالها على إعادة تنظيم شؤون أفريقيا وعيّن عليها أخاه السيد أبا زيد ثم سار إلى مراكش سنة ٥٨٤ هـ/١١٨٨ م(١٧٨).

ذكر اندريه جوليان(١٧٩) إخضاع الخليفة المنصور بلاد أفريقيا في بضعة أسطر. وقال: «احتل علي وقراقوش أفريقيا باستثناء تونس والمهدية وذلك بمقتضى سلطات استثنائية عهد لهما بها الخليفة العباسي. وتمكّن المنصور على رأس جيش صغير منضبط من إلحاق الهزيمة بهما قرب فاس والاستيلاء على قفصة التي سلّط عليها شديد العقاب لتورّطها مع المرابطين ثم نقل إلى المغرب الأقصى عائلات القبائل العربية الثلاث جملة».

فعل هذا أيضاً أحمد مختار العبادي(١٨٠) فهو يقول: «توجّه الخليفة المنصور إلى أفريقيا في السنة التالية (٥٨٢ هـ/١١٨٦ م) حيث تولّى قيادة العمليات العسكرية بنفسه واتخذ من مدينة تونس مقراً لقيادته. واستطاع بفضل شجاعته وحزمه أن ينتصر على خصومه. وفرّ علي بن غانية إلى الصحراء حيث ظلّ محتمياً بها إلى أن مات سنة ٥٨٤ هـ/١١٨٨ م. أما قراقوش وجنوده الغز وحلفاؤهم الأعراب فقد انضموا إلى جيوش الموحدين وصحّ توحيدهم. وأرسل المنصور عدداً كبيراً منهم إلى المغرب والأندلس برسم الجهاد».

---

(١٧٧) الناصري: الاستقصا جـ ٢ ص ١٤٤و ١٥٠ - ١٥١ - ابن خلدون: العبر جـ ٦ ص ١٩٣
A. Bell: Les Benou Ghanya P. 85

(١٧٨) محمد عبد الله عنان: المرجع السابق ص ١٦٦ - مراجع الغناي: سقوط دولة الموحدين ص ٢٢٠

(١٧٩) تاريخ افريقيا الشمالية جـ ٢ ص ١٤٩

(١٨٠) دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٥٩

ـ حروب يحيى بن غانية للموحدين:

انتهز علي بن غانية مسير الخليفة المنصور إلى مراكش فعاد بقواته للاستيلاء على بلاد الجريد، لكنه توفي في بعض حروبه مع أهل نغزاوة سنة أربع وثمانين أصابه سهم غرب كان فيه هلاكه. فدفن هنالك وعفي على قبره وحمل شلوه إلى ميورقة فدفن بها وقام بالأمر أخوه يحيى بن إسحاق بن غانية(١٨١).

قيل أيضاً إن علي بن غانية توفي عقب هزيمته في موقعة الحمة. فقد فرّ منها جريحاً ولجأ إلى خيمة عجوز أعرابية فتوفي فيها متأثراً بجراحه(١٨٢). أما الحميري فيقول(١٨٣): «مات علي بعد أن تفرّق جمعه قيل أصابه سهم وهو على توزر سنة ٥٨٥ هـ . .».

سار يحيى بن غانية على سياسة أخيه علي في التحالف مع قراقوش على قتال الموحدين، لكن قراقوش تخلّى عن مناصرة يحيى بن غانية وأعلن الولاء للموحدين. ففي ذلك يقول ابن خلدون(١٨٤): «هلك علي. . . وقام بالأمر بعده أخوه يحيى بن إسحاق بن محمد بن غانية وجرى في مظاهرة قراقوش وموالاته على سنن أخيه علي. ثم نزع قراقوش إلى طاعة الموحدين سنة ست وثمانين فهاجر إليهم بتونس وتقبّله السيد أبو زيد بن أبي حفص بن عبد المؤمن. وأقام معه أياماً».

لم يكن قراقوش مخلصاً في إعلان الولاء والطاعة للموحدين. فسرعان ما هرب من مدينة تونس وعاد إلى الاستيلاء على البلاد. فاستولى على مدينة

(١٨١) ابن خلدون: العبر جـ ٦ ص ١٩٣ ـ محمد المرزوقي: قابس ص ١٨٤
A. Bell: Les Benou Ghanya PP. 87 - 88.

(١٨٢) المراكشي: المعجب ص ٢٧٣
A. Bell: Opcit P. 77

(١٨٣) الروض المعطار ص ١٩١

(١٨٤) العبر جـ ٦ ص ١٩٣

قابس بمخادعة أهلها. ثم قتل جماعة منهم. واستبد بقابس فتطاول على أشياخ العرب فيها من ذياب والكعوب وبني سليم وقتل سبعين شيخاً منهم بقصر العروسين. كان من بينهم محمود بن طوق أبو المحاميد وحميد ابن جارية أبو الجواري. سار قراقوش بعد ذلك إلى طرابلس. فاستولى عليها وأسند ولايتها إلى أحد رجاله يدعى ياقوت. ثم عاد إلى بلاد الجريد فاستولى على أكثر أنحائها(١٨٥).

سار يحيى بن غانية بقواته لقتال قراقوش واسترداد البلاد منه. فخشي قراقوش لقاء ابن غانية وهرب إلى ناحية طرابلس. فسار ابن غانية وراءه وأنزل به الهزيمة في موضع يسمى محسن بالقرب من طرابلس. جاء ذكر هذه الواقعة في شعر عبد البر بن فرسان كاتب الميورقي وهو قوله:

ألا لا سقى الرحمن محسن قطرة ولا زال مغير الجوانب محسن
وخيب قطيساً من الغيث كله ولا ابتل فيه للركائب فرسن(١٨٦)

فرّ قراقوش عقب الموقعة إلى ودان جنوبي طرابلس. فانتهز ابن غانية الفرصة واستأنف زحفه للاستيلاء على طرابلس. فحاصرها مدة طويلة لكن ياقوت مولى قراقوش أحسن الدفاع عنها. فبعث ابن غانية يطلب العون من أخيه عبد الله صاحب ميورقة. فبعث إليه أخيه قطعتين من الأسطول حاصرتا طرابلس من البحر. فتمكّن ابن غانية من الاستيلاء على طرابلس وبعث ياقوتاً مصفداً إلى ميورقة. فبقي ياقوت معتقلاً في ميورقة إلى أن احتلّها الموحدون. فانتقل منها إلى مراكش وبها توفي(١٨٧).

(١٨٥) محمد المرزوقي: قابس ص ١٨٧ و ١٨٩ - محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق٢ ص ١٩٥
A. Bell: Les Benou Ghanya PP. 91 - 92.

(١٨٦) محمد المرزوقي: نفس المرجع ص ١٨٨
A. Bell: Opcit P. 96 note I

(١٨٧) ابن خلدون: العبر جـ٦ ص ١٩٣ - ١٩٤ - محمد عبد الله عنان: المرجع السابق ص ١٩٥ (نقلاً عن رحلة التيجاني ص ٢٤٤ و ٢٤٥)
A. Bell: Les Benou Ghanya PP. 95 — 96

عيّن ابن غانية على طرابلس ابن عمه تاشفين الغاني. ثم سارللاستيلاء على بقية بلاد أفريقيا. كانت مدينة قابس قد عادت لطاعة الموحدين خلال الأحداث السابقة. فقد فرّ منها واليها من قبل قراقوش، فأرسل الشيخ أبو سعيد بن أبي حفص والي الموحدين على أفريقيا أحد رجاله والياً على قابس يدعى عمر بن تافراكين[١٨٨].

بعث ابن غانية كتاباً إلى أهل قابس يسألهم إعلان الولاء والطاعة ويحذّرهم إبداء المقاومة فقد جاء في الكتاب[١٨٩]: «ولما عزمنا على قرع بابكم والحلول بجنابكم رأينا الإنذار إليكم وإيراد النصيحة عليكم والكف عنكم ثلاثة أيام لا تمد لكم فيها يد ولا يتقدم إليكم بالأضرار أحد لنعلم ما عندكم ونتبيّن غيّكم أو رشدكم. فإن آثرتم الطاعة وتبعتم الجماعة مددنا لكم أكناف العدل وأتبعنا فيكم كريم القول وصحيح الفعل. وإن أبيتم إلا خلافاً فقد أبلينا النفس عذراً وآتينا بالتبرىء من أمركم براً».

رفض أهل قابس الإنذار والوعيد فأبدوا الاستعداد للدفاع والمقاومة. لذلك ضرب ابن غانية الحصار على قابس بعد انتهاء الأجل المحدد. ونصب عليها آلات الحصار والمنجانيق ثم أمر جنده بغزوها وتخريب أحوازها. فقطعوا غابات النخيل المحيطة بها إلاّ نخلة واحدة تركها ابن غانية عبرة لمن اعتبر. لم يستطع أهل قابس الاستمرار في المقاومة. فعرضوا تسليم المدينة مقابل الأمان لهم وللوالي الموحدي عمر بن تافراكين. فوافق ابن غانية واحتل قابس في ربيع الثاني سنة ٥٩١ هـ/مارس - ابريل ١١٩٥ م. وأصدر كتاباً بهذه المناسبة أشاد كاتبه بعودة قابس إلى طاعة الدعوة العباسية. ثم أوفى ابن غانية بالأمان لكنه

---

(١٨٨) ابن خلدون: نفس المصدر والجزء ص ١٩٤
A. Bell: Opeit PP. 97 - 98
(١٨٩) محمد المرزوقي: قابس ص ١٩١

فرض على أهل قابس مائة ألف دينار غرامة فلما عجزوا عن دفعها أنقصها إلى ستين ألف دينار(١٩٠).

نشب خلاف بين ابن غانية وابن عبد الكريم. ثم انتهى الخلاف بوفاة ابن عبد الكريم وسيطرة ابن غانية على معظم أنحاء أفريقيا. كان ابن عبد الكريم أحد قادة الموحدين على فرقة من الجند واشتهر بالشجاعة وبحسن القيادة. ثم نشب نزاع بينه وبين يونس بن أبي حفص الموحدي والي تونس. فثار ابن عبد الكريم بجنده على الموحدين وأخذ يستولي على بعض بلاد أفريقيا. ثم استولى على المهدية وقبض على واليها الموحدي ولم يطلقه إلا بفدية مقدارها خمسمائة دينار من الذهب. ثم استبدّ ابن عبد الكريم بالمهدية ودعا لنفسه وتلقّب بالمتوكل على الله(١٩١).

بعث الموحدون السيد أبا زيد بن أبي حفص عمر بن عبد المؤمن والياً على أفريقيا. فلما بلغ ذلك ابن عبد الكريم سار بقواته للاستيلاء على تونس ونزل بقواته في حلق الوادي. وأنزل الهزيمة بالموحدين سنة ٥٩٦ هـ/ ١٢٠٠ م وأسر عدداً منهم. ثم بعث السيد أبو زيد والشيخ أبو سعيد إلى ابن عبد الكريم يسألونه الإفراج عن الموحدين الأسرى ويذكرونه بسابق انتمائه لهم. فاستجاب ابن عبد الكريم لهما وعاد بقواته إلى المهدية(١٩٢).

نشبت الحروب بعد ذلك بين ابن غانية والموحدين كان النصر فيها لابن غانية، لكن المصادر تختلف في ترتيبها ووصفها إلى حد ما. ففي أوائل سنة

---

(١٩٠) ابن خلدون: العبر جـ ٦ ص ١٩٤ ـ محمد المرزوقي: قابس ص ١٩١ ـ ١٩٢ ـ محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق ٢ ص ٢٥٢
A. Bell: Opcit PP. 98 — 99

(١٩١) ابن خلدون: نفس المصدر والجزء والصفحة ـ محمد عبد الله عنان: نفس المرجع ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣

(١٩٢) ابن خلدون: نفس المصدر والجزء والصفحة ـ الأندلس: الحلل السندسية في الأخبار التونسية الطبعة الأولى تونس ١٢٨٧ هـ ص ٢٥٤

٥٩٦ هـ/١٢٠٠ م توالت الأنباء على العاصمة مراكش بتغلّب ابن غانية على كثير من بلاد إفريقيا واتّساع دولته. فسار السيد أبو الحسن بن السيد أبي حفص من بجاية «في عسكر مشتت الآراء عديم النصحاء قليل أهل الغناء ملفّق من أعراب حثالة أطماع وكلاب جياع وبقايا مكر وخداع». نزل السيد أبو الحسن بهذا الجيش بظاهر قسنطينة، فخرجت عليه كمائن ابن غانية وفتكت به وألحقت به الهزيمة وأجبرت فلوله على الفرار(١٩٣).

تضع بعض الروايات هذه الموقعة بعد تمام بيعة الخليفة أبي عبد الله محمد الناصر. أي في سنة ٥٩٥ هـ/١١٩٩ م. يقول المراكشي(١٩٤): «ولما تمّت بيعة أبي عبد الله العامة... كان أول شيء شرع فيه تجهيز الجيوش إلى إفريقيا. وذلك أن يحيى بن إسحاق بن غانية المتقدم الذكر كان استولى على أكثر بلادها أيام انشغل الموحدون عنه بغزو الروم. فأول جيش جهّز أبو عبد الله من الموحدين الجيش الذي استعمل عليه السيد أبا الحسن علي بن عمر بن عبد المؤمن. لم أر لهم جيشاً أضخم منه ولا أكثر منه سلاحاً ولا أحسن عدة وكان فيه من أعيان الموحدين وأشياخهم جملة وافرة. فسار أبو الحسن هذا بجيشه حتى التقى هو والميورقيون فيما بين بجاية وقسنطينة وبالقرب من قسنطينة. فانهزم الموحدون أصحاب أبي الحسن المذكور. ورجع أبو الحسن إلى بجاية على حالة سيئة. وجهّز بعد هذا الجيش جيشاً على مثاله. وأمر عليهم من الموحدين أبا زيد عبد الرحمن بن موسى الوزير. فسار بالجيش حتى بلغ قسطنطينة المغرب.

اعتمد محمد عبد الله عنان على رواية المراكشي هذه كما ينص صراحة، لكنه ذكرها بصورة تختلف عما وردت عند المراكشي. علاوة على أنه جعلها ضمن حوادث سنة ٥٩٧ هـ/١٢٠١ م. فهو يقول(١٩٥): «وبينما كان السيد

(١٩٣) ابن عذارى: البيان المغرب ق ٣ ص ٢١٣

(١٩٤) المعجب ص ٣١٣ - ٣١٤

(١٩٥) دولة الإسلام ع ٣ ق ٢ ص ٢٥٤ - ٢٥٥

أبو زيد والي أفريقيا ما يزال يعتقد أن الميورقي يرغب حقاً في السلم وأنه ينوي أن يضع حداً لأعماله العدائية، إذا بالميورقي يسير فجأة إلى بلدة باجة الواقعة غربي تونس. وقد كانت من أخصب بلاد هذه المنطقة وأوفرها حنطة وطعاماً، ويقتحمها عنوة ويستولي عليها ويقتل حاكمها الموحدي على الفور. فبعث السيد أبو زيد في الحال جيشاً تحت إمرة أخيه السيد أبي الحسن والي بجاية لكي يعمل على إنقاذ باجة وحماية سكانها الذين عادوا إليها. وكان الميورقي قد عاد لحصارها. فلما علم بمقدم الموحدين رفع الحصار عن المدينة وسار للقاء خصومه. وعسكر في موضع حصين بالقرب من قسنطينة. وهنالك أشرف عليه السيد أبو الحسن بجموعه ونشبت بين الفريقين معركة هزم فيها الموحدون واستولى الميورقي على معسكرهم وارتدّ أبو الحسن في بعض فلوله إلى بجاية وهو في أسوأ حال».

ورد عند ابن خلدون روايتان عن لقاء الموحدين بابن غانية عند قسنطينة وباجة. تضع الرواية الأولى حوادث الموقعة في ٥٩٦ هـ/١٢٠٠ م. يقول ابن خلدون(١٩٦): «لما هلك المنصور وأُمر ابنه محمد ولي عهده وتلقّب الناصر لدين الله... بلغه سنة ست وتسعين إجحاف العدو بإفريقيا وفساد الأعراب في نواحيها ورجوع السيد أبي الحسن من قسنطينة منهزماً أمام ابن غانية. فأنفذ السيد أبا زيد بن أبي حفص إلى تونس في عسكر من الموحدين لسد ثغورها». أما الرواية الثانية فسيأتي ذكرها بعد سقوط المهدية بيد ابن غانية سنة ٥٩٧ هـ/١٢٠١ م(١٩٧).

نشأت وحشة بين ابن عبد الكريم وابن غانية على أثر هذه الانتصارات التي حققها ابن غانية أو على أثر عودة التفاهم والتصالح بين ابن عبد الكريم والموحدين. فسار ابن عبد الكريم من المهدية بقواته لقتال ابن غانية بقابس. فلما أشرف على قابس هاله أمرها وأدرك عجزه عن احتلالها فسار عنها

(١٩٦) العبر جـ ٦ ص ٢٤٦

(١٩٧) ابن خلدون: العبر جـ ٦ ص ١٩٥

للاستيلاء على بعض بلاد ابن غانية فاستولى على قفصة. أما ابن غانية فقد سار من قابس وراء ابن عبد الكريم وأنزل به الهزيمة عند قصور لالا واستولى على أسلابه ففرّ ابن عبد الكريم إلى المهدية وتحصّن مع جنده بداخلها(١٩٨).

سار ابن غانية وراء ابن عبد الكريم فحاصره بالمهدية أول سنة ٥٩٧ هـ/١٢٠١ م. فكان من دهاء الميورقي أن بعث إلى السيد أبي زيد بتونس ليسأله السلم ويطلب منه في أثناء كتابه الإعانة بقطع من البحر يتمكن فيها من ابن عبد الكريم. وكان السيد أبو زيد حقد على ابن عبد الكريم فأجابه إلى ذلك وبعث إليه بقطعتين. فلما رآهما ابن عبد الكريم سقط ما في يده فأجمع على توجيه ابنه عبد الله إلى الميورقي ليصالحه على تسليم المهدية إليه ويشترط المسالمة في نفسه وأهله وماله(١٩٩).

سار عبد الله وعرض شروط أبيه فوافق ابن غانية. ثم عاد عبد الله إلى المهدية وأخبر أباه بنجاح المسعى فنزل ابن عبد الكريم وابنه عبد الله للسلام على ابن غانية. فأمر ابن غانية بثقيفهما وسجنهما ثم استولى على المهدية وما كان بها من الذخائر السنية. لم تمض أيام على ذلك حتى أخرج ابن عبد الكريم من السجن ميتاً لا أثر فيه فدفنه أهله بقصر فراضة. وبقي ابنه عبد الله في السجن يتوقع الموت في كل لحظة حتى أظهر ابن غانية نفيه إلى جزيرة ميورقة وبعث به على إحدى السفن. فألقاه أرباب السفينة بقيده في البحر إزاء ساحل قسنطينة(٢٠٠).

---

(١٩٨) الأندلسي: الحلل السندسية ص ٢٥٥ ـ محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام ع٣ ق ٢ ص ٢٥٤

A. Bell: Les Benou Ghanya PP. 202 - 203

(١٩٩) الأندلسي: نفس المصدر والصفحة.

(٢٠٠) الأندلسي: نفس المصدر والصفحة ـ محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق ٢ ص ٢٥٤

A. Bell: Les Benou Ghanya PP. 109 - 111, 203 - 204

انقضى أمر ابن عبد الكريم وولده وحصلت المهدية للميورقي ولم يبق له بإفريقيا منازع وحصلت تحت بيعته طرابلس وقابس وصفاقس وبلاد الجريد كلها والقيروان وتبسة ووصلت بيعته بونة(٢٠١).

رأى ابن غانية أن يستكمل سيطرته على بقية أنحاء أفريقيا فسار بقواته إلى باجة ونصب عليها المنجانيق. فافتتحها عنوة وخرّبها وقتل عاملها الموحدي عمر بن غالب فهرب الناس وتركوها خالية على عروشها. ثم عاد الناس إليها بمساعدة والي تونس السيد أبي زيد. فلما بلغ ذلك ابن غانية عاد إليها بقواته. فبعث السيد أبو زيد جيشاً بقيادة أخيه السيد أبي الحسن ونشب القتال مع ابن غانية عند قسنطينة. فحلّت الهزيمة بالموحدين واستولى ابن غانية على معسكرهم(٢٠٢).

سار ابن غانية بعد ذلك إلى مدينة بسكرة فهي من المدن التي خلعت طاعته عنوة وعاقب السكان على نكثهم بقطع أيدي الكثير منهم. وقبض على عاملها الموحدي أبي الحسن بن أبي يعلى. لذلك خشي أهل بونة أن يصيبهم ما أصاب أهل بسكرة فبعثوا إلى ابن غانية بطاعتهم. وسار ابن غانية بعد ذلك إلى تبسة والقيروان ثم عاد إلى المهدية(٢٠٣).

رأى ابن غانية أن يسير بقواته للاستيلاء على تونس. فعيّن على مدينة المهدية ابن عمه علياً بن الغاني ويعرف بالكافي بن عبد الله بن محمد بن علي بن غانية. سار ابن غانية إلى تونس آخر سنة ٥٩٩ هـ/آخر أغسطس ١٢٠٣ م «فنزل بقواته بالجبل الأحمر من جهة جوفيها، وأقام هنالك أياماً. ثم انتقل منه فنزل بين بابي السويقة وقرطاجنة ونزل أخوه الغازي ابن إسحاق على الموضع المعروف بحلق الوادي حيث يصب البحر في البحيرة. فردمه ردماً

(٢٠١) الأندلسي: الحلل السندسية ص ٢٥٥ - الباجي: خلاصة النقية في أمراء افريقيا تونس ١٣٢٣ هـ ص ٥٧

(٢٠٢) ابن خلدون: العبر جـ ٦ ص ١٩٥

(٢٠٣) نفس المصدر والجزء والصفحة - محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع ٣ ق ٢ ص ٢٥٥

حتى عاد أرضاً يبساً وقطع تصرّف القوارب الداخلة إليه والخارجة عنه وترك عليه من يحرسه»(٢٠٤).

انتقل ابن غانية بعد ذلك إلى جهة أُخرى «فنزل بقبلي المدينة بمقربة من باب الجزيرة وردم الخندق الذي هنالك ردماً ونصب أمام الباب منجنيقاً وآلات من آلات الحرب. وأقام محاصراً لها كذلك أكثر من أربعة أشهر. فلما كان يوم السبت السابع من ربيع الآخر من سنة ستمائة استولى على البلاد وقبض على السيد أبي زيد وولديه وجماعة من أشياخ الموحدين وثقفهم بدار بنيت لهم داخل القصبة وجعل عليهم من يحرسهم»(٢٠٥).

أمن ابن غانية أهل تونس في أنفسهم ورباعهم، وأغرمهم مائة ألف دينار ذكر أنها هي لزمته في النفقة عليها. قسّطها أهل تونس على أنفسهم بحسب أحوالهم وسعة أموالهم وجعل قابضها أبا بكر بن عبد العزيز بن السكاك من أهلها ولحقهم في استخلاصها من العنف والشدة على يد ابن عصفور ثقة الميورقي وكاتبه. مما أدّى إلى قتل جماعة منهم أنفسهم ورأوا ذلك أروح لهم. ومن جملتهم ابن عبد الرفيع وكان مقدماً على مال المخزن من الناس. ولما علم الميورقي بهذا الأمر رفع عنهم الطلب فيما بقي من المال قبلهم. وكان الباقي خمسة عشر ألف دينار ورفق بالناس ونادى فيهم بالإمان(٢٠٦).

ذكر الغرامة المالية أيضاً ابن أبي دينار(٢٠٧). فقال: «لما رجع أمير

(٢٠٤) الأندلسي: الحلل السندسية ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦

(٢٠٥) الأندلسي: نفس المصدر ص ٢٥٦ ـ وانظر محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق٢ ص ٢٦٢

A. Bell: Les Benou Ghanya P. 114

(٢٠٦) الأندلسي: نفس المصدر والصفحة ـ وانظر محمد عبد الله عنان: نفس المرجع والصفحة (نقلاً عن المصدرين السابقين)

A. Bell: Opcit PP. 114 - 115

(٢٠٧) المؤنس في أخبار افريقيا وتونس ص ١١٥

المؤمنين إلى المغرب رجع الميورقي إلى إفريقية وملك المهدية وتونس وعسف عماله على تونس وألزم أهلها مائة ألف دينار».

كان ابن غانية يحمل معه خلال غزواته السيد أبا زيد والي تونس المأسور. ففي ذلك يقول الباجي(٢٠٨) «ودانت له طرابلس وقابس وصفاقس وبلد الجريد والقيروان وتبسة إلى بونه في أخبار طوال. واتسع نطاقه واهمته نفسه. فقدم إلى حصار السيد أبي زيد بتونس وأقام عليها أربعة أشهر إلى أن استولى عليها يوم السبت سابع ربيع الثاني من أول المائة السادسة وقبض على السيد أبي زيد وجمع من مشايخ الموحدين وثقفهم داخل قصبتها وصار يحملهم معه في زحوفه.»

بلغ ابن غانية خلال إقامته بتونس عصيان أهل جبل نفوسة ورفضهم دفع الأتاوة المفروضة عليهم. فسار ابن غانية إليهم بقواته واستصحب معه السيد أبا زيد وابنيه. فاستوفى مغرمهم ثم عاد إلى تونس ونزل قصبتها(٢٠٩).

أصبح ابن غانية يسيطر على كافة أنحاء إفريقيا. فانتظمت له «أعمال إفريقيا وفرق العمال وخطب للخليفة العباسي... ثم ولى على تونس أخاه الغازي ونهض إلى جبال طرابلس فأغرمهم ألف ألف دينار مكررة مرتين ورجع إلى تونس»(٢١٠).

يلخص البعض أعمال يحيى بن غانية فيقول: «لما هلك المنصور رحمه الله قوي أمر يحيى بن إسحاق المسوفي ـ المعروف بابن غانية بأفريقيا ـ واستولى على أعمال قراقوش الغـزي صاحب طرابلس وعلى المهدية وتغلب على بلاد الجريد. ثم نازل تونس سنة تسع وتسعين وخمسمائة. وافتتحها عنوة لأربعة

(٢٠٨) خلاصة النقية في أمراء إفريقيا ص ٥٧

(٢٠٩) الأندلسي: الحلل السندسية ص ٢٥٦ ـ محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق٢ ص ٢٦٢ ـ ٢٦٣

(٢١٠) ابن خلدون: العبر جـ٦ ص ٢٤٨

أَشهر من حصارها في ختام المائة السادسة. وقبض على السيد أَبي زيد وابنه ومن كان معه من الموحدين. وطالب أهل تونس بالنفقة التي انفق. وبسط عليهم العذاب حتى هلك في الامتحان كثير من بيوتاتهم. ثم دخل في دعوته أهل القيروان وغيرها من البلاد وانتظمت له أعمال إفريقيا وفرق العمال وخطب للخليفة العباسي»(٢١١).

يقول أندريه جوليان(٢١٢): «ظهر بالجريد يحيى الذي خلف أخاه علياً واستعان ببني سليم للتخلص من جند قراقوش التركماني. وكان التحالف معهم شديد الوطأة عليه. ثم دخل المهدية وكان يحكمها أمير موحدي استقل عن الخليفة وحصن قابس التي جعل منها عاصمة له. واحتل باجة وبسكرة والقيروان وعنابة. وافتك في آخر الأمر مدينة تونس (١٢٠٣) وهكذا استقام له بالاعتماد على جيش معظمه من كتائب بني سليم وبني هلال العربية، أن يؤسس في بلاد البربر الشرقية امبراطورية مرابطية تمتد من عنابة إلى جبال نفوسة وتتوغل جنوباً حتى بسكرة».

ـ احتلال الجزائر الشرقية:

جرى في الجزائر الشرقية أحداث كثيرة وحروب بين بني غانية والموحدين. فانتهت بانتصار الموحدين واستيلائهم على الجزائر الشرقية من أيدي بني غانية. وقد جرت هذه الحوادث خلال قتال بني غانية للموحدين في أفريقيا.

كان علي بن الربرتير سفير الخليفة الموحدي يرقب الفرص لكي يتحرر من معتقله في ميورقة، فوجد فرصة للاتصال بالجند المرتزقة النصارى الذين يتولون حراسته. وكان هؤلاء الجند يرغبون في العودة إلى بلادهم. فوعدهم

(٢١١) الناصري: الاستقصا جـ٢ ص ١٩١
(٢١٢) تاريخ إفريقيا الشمالية جـ٢ ص ١٤٩ ـ ١٥٠

ابن الربرتير بتحقيق رغبتهم هذه إذا عملوا على إطلاق سراحه. ثم تمكن ابن الربرتير من استمالة بعض أعيان المدينة من أنصار محمد بن غانية المعتقل المعزول. ونفذ المتآمرون خطتهم وقت الصلاة من يوم الجمعة. فأخرجوا ابن الربرتير من معتقله ووثبوا إلى مخازن السلاح فاستولوا على ما فيها. ثم حاصروا القصبة فقتلوا من بها من الجند المرابطين وتحصن ابن الربرتير وأنصاره بالقصبة(٢١٣).

بلغ ذلك المرابطين وأهل ميورقة. فساروا معاً وحاصروا القصبة وضربوها بالمنجانيق فأظهر ابن الربرتير أهل علي بن غانية بما فيهم أمه وأبناؤه ـ وكان قد اعتقلهم ـ من فوق سور القصبة وهدد بقتلهم إذا استمر قذف القصبة بالمنجانيق. لذلك توقف القتال، وبدأت المفاوضات مع ابن الربرتير. فتم الاتفاق على إعادة محمد بن غانية حاكماً على الجزائر الشرقية وإعلان الولاء والطاعة للموحدين، وتسريح الجند المرتزقة النصارى إلى بلادهم. ثم غادر ابن الربرتير جزيرة ميورقة إلى مدينة مراكش حاملاً الذخائر والأموال فوصلها أوائل سنة ٥٨١ هـ/١١٨٥ م. تذكر رواية أُخرى أن محمد بن إسحاق غادر ميورقة مع ابن الربرتير ليقدم بنفسه الولاء والطاعة للخليفة بمراكش(٢١٤).

يصف أحمد مختار العبادي هذا العمل بالانقلاب ضدّ حكم بني غانية فهو يقول(٢١٥): «استطاع قائد الخليفة المنصور أبو الحسن علي بن الربرتير الذي كان معتقلاً في جزيرة ميورقة أن ينتهز فرصة غياب معظم أُمراء بني غانية في افريقيا ويداخل بعض مواليهم وجنودهم المسيحيين المرتزقة الذين كانوا في خدمتهم ويرغبون في العودة إلى بلادهم فوعدهم بتحقيق رغباتهم.

(٢١٣) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق٢ ص ١٥٦ ـ ١٥٧ ـ مراجع الغناي: سقوط دولة الموحدين ص ٢١٥

(٢١٤) محمد عبد الله عنان: نفس المرجع ص ١٥٧

(٢١٥) دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٦٠

وقـام معهم بانقـلاب في الجزيـرة ضد حكم بني غـانية في أواخـر سنـة ٥٨١ هـ/١١٨٦م وانضم إليهم حاكم الجزيرة السابق محمد بن إسحاق بن غانية الذي كان إخوته قد خلعوه واعتقلوه بالجزيرة. فأقامه الثوار حاكماً على الجزيرة باسم الموحدين. ثم عاد علي بن الربرتير إلى مراكش بعد أن سرح الجنود المسيحيين بأموالهم وأهليهم وأعادهم إلى بلادهم حسب وعده لهم.»

علم علي بن غانية وهو في إفريقيا خبر هذه التطورات، فبعث أخاه عبدا لله بأسطول كي يسترد ميورقة ففعل وفي ذلك يقول ابن خلدون(٢١٦): «كان من خبر ميورقة أن علياً بن غانية لما نهض إلى فتح بجاية ترك أخاه محمداً علياً بن الربرتير في معتقليهما. فلما خلا الجو من أولاد غانية وكثير من الحامية دخل ابن الربرتير نفر من معقل أهل الجزيرة وثاروا بدعوة محمد وحاصروا القصبة إلى أن صالحهم أهلها على إطلاق محمد بن إسحاق فأطلق من معتقله وصار الأمر له فدخل في دعوة الموحدين ووفد مع علي بن الربرتير على يعقوب المنصور وخالفهم إلى ميورقة عبد الله بن إسحاق وركب البحر من إفريقيا إلى صقلية وأمدوه بأسطول ووصل إلى ميورقة عند وفادة أخيه على المنصور فملكها ولم يزل بها والياً».

وفي موضع آخر يقول ابن خلدون خلال حديثه عن ابن الربرتير(٢١٧): «... وداخل مواليهم من العلوج في تخلية سبيلهم من معتقله على أن يخلي سبيلهم بأهلهم وولدهم إلى أرضهم فتم له مرادهم منـه وصار بـالقصبة واستنقذ محمداً بن أبي إسحاق من مكان اعتقاله ولحقوا جميعاً بالحضرة وبلغ الخبر علياً بن غانية بمكانه من طرابلس فبعث أخاه عبد الله إلى صقلية وركب منها إلى ميورقة ونزل في بعض قراها وأعمل الحيلة في تملك البلد فاستولى عليه.»

---

(٢١٦) العبر جـ٢ ص ١٩٤

(٢١٧) نفس المصدر والجزء ص ٢٤٣ - ٢٤٤

يقول أحمد مختار العبادي[٢١٨] في خبر عودة ميورقة إلى طاعة بني غانية: «على أن نفوذ الموحدين على جزيرة ميورقة لم يدم طويلاً. إذ سرعان ما علم بنو غانية في إفريقيا بأخبار هذا الانقلاب ورجع إلى الجزيرة فوراً عن طريق صقلية الأمير عبد الله بن غانية. ويرجح المؤرخ الفرنسي الفردبيل في البحث الذي كتبه عن بني غانية أن ملك صقلية وليام الثاني (١١٦٦ - ١١٨٩ م) قد أمد هذا الأمير ببعض سفنه كي يسترد ملكه في الجزيرة. واستطاع الأمير عبد الله بمساعدة مواليه وجنوده وعلى رأسهم علج يدعى نجاح أن يحتل الجزيرة ويطرد منها أخاه محمداً الذي فر إلى الأندلس حيث ولاه الموحدون مدينة دانية.»

أما محمد عبد الله عنان فيقول[٢١٩]: «هكذا حكم محمد بن إسحاق ميورقة في ظل طاعة الموحدين الاسمية. ولما حاول الخليفة يعقوب المنصور بعد ذلك أن يجعل من هذه الطاعة حقيقة واقعة بتملك ميورقة، وأرسل لهذه الغاية إليها أسطولاً بقيادة أبي العلاء بن جامع أبي محمد أن يستجيب إليه واستغاث بملك أراجون فأمده بالجند، ولم يستطع الموحدون تنفيذ مشروعهم..»

بينما يذكر أحمد مختار العبادي[٢٢٠] مسير الأسطول الموحدي لاسترداد ميورقة في عهد عبد الله. فهو يقول: «استطاع الأمير عبد الله.... أن يحتل الجزيرة.... وحاول الخليفة المنصور إنقاذ الجزيرة. فأرسل إليها أسطولاً بقيادة أمير البحر أبي علي بن جامع غير أن زمام الموقف كان قد أفلت من يده لا سيما بعد أن تدخل أسطول ملك أراجون بدوره الثاني في صالح الميورقيين.».

---

(٢١٨) دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٦٠

(٢١٩) دولة الإسلام ع٣ ق٢ ص ١٥٧

(٢٢٠) دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٦٠ - ٣٦١

بعد فشل الأُسطول الموحدي يذكر محمد عبد الله عنان(٢٢١): «أن الهدوء لم يستمر طويلاً بالجزائر. ذلك أن أهل ميورقة قد ثاروا على محمد لخضوعه للموحدين ورفعوا للولاية أخاه تاشفين.»

هناك رواية أُخرى يذكرها محمد المرزوقي(٢٢٢) خلال حديثه عن علي بن غانية. فهو يقول: «سمع أن أخاه محمداً المسجون تمكن من الهرب إلى الموحدين وأن المنصور أرجعه والياً على ميورقة فتمكن منها وأزاح أخاه طلحة. فأرسل علي أخاه عبد الله من طرابلس في قطع من الأُسطول لاسترجاع ميورقة. فوجد أن أهالي الجزيرة ثاروا بأخيه محمد وولوا أخاه تاشفين. ووصل عبد الله فتسلم زمام الجزيرة سنة ٥٨٣ هـ».

أما المراكشي فيقول(٢٢٣): «لم يزل يحيى بن غانية قائماً بما كان يقوم به أخوه علي من تدبير الأُمور. ورجع منهم عبد الله خاصة إلى جزيرة ميورقة. فألقاها قد انتفضت عليهم ودعي فيها للموحدين. فعل ذلك أخوهم أبو عبد الله محمد بن إسحاق. فلما قدم عبد الله قام معه علج من علوج أبيه يسمى نجاح. كان نجاح هذا لم ينقض عهداً ولا نزع يداً من طاعة وكان متحصناً في قلعة ومعه جماعة على رأيه من الموالي والجند. فلما قدم عبد الله تلقوه وانضاف إليهم خلق من بوادي الجزيرة من الفلاحين ورعاة الغنم. فنهد بهم عبد الله إلى المدينة فلم يدفعه عنها أحد ولا امتنع عليه من أهلها ممتنع. ففتحوا له الأبواب ودخلها بمن معه. وأخرج أخاه محمداً ونفاه إلى الأندلس. فحظي محمد هذا عند المصامدة حظوة عظيمة وولوه دانية. فلم يزل والياً عليها حتى مات..»

بعث الخليفة المنصور أُسطوله لاحتلال الجزائر الشرقية فلم يستطع. ثم

(٢٢١) نفس المرجع والصفحة.
(٢٢٢) قابس ص ١٨٣
(٢٢٣) المعجب ص ٢٧٥ - ٢٧٦

تمكن أمير البحر أبو العباس الصقلي من احتلال جزيرة يابسة صغرى الجزائر الشرقية سنة ٥٨٣ هـ/١١٨٧ م[٢٢٤] بينما يذكر محمد عبد الله عنان[٢٢٥] أن الأسطول كان بقيادة إبراهيم الهزرجي فاستولى على جزيرتي يابسة وميورقة في سنة ٥٨٣ هـ/١١٨٧ م.

صرف الموحدون نظرهم عن احتلال جزيرة ميورقة طوال خمسة عشر عاماً. فركزوا اهتمامهم على إفريقيا للقضاء على يحيى بن غانية، لكن هزائم متوالية حلت بهم، فبسط ابن غانية سلطته على أنحاء إفريقيا وخطب للعباسيين. لذلك تشجع عبد الله بن غانية في ميورقة ـ حين بلغته هذه الانتصارات التي حققها أخوه يحيى ـ فحاول الإستيلاء على جزيرتي ميورقة ويابسة، لكنه فشل فقد استرد الموحدون ميورقة بعد أن احتلها وعجز عن الإستيلاء على يابسة.

ففي ذلك يقول ابن عذارى[٢٢٦]: «.... ولما تمكن فصل الشتاء وارتج البحر ومنع ركوبه، تحرك ابن غانية المذكور في أسطوله إلى جزيرة يابسة ليكيدها بفرصة ويجريها على ما تقدم من تلصصه. فلم يصرف أهلها بالاً لما أمل لديهم ولا أرعوا سمعاً بندائه إليهم. وظفر ابن ميمون له بطريدتين فأضرمهما ناراً ورجع ابن غانية خائباً لوجهه. ثم جدد حالاً ولج ضلالاً ونازل ميورقة والأنواء قد صدقت بأمطارها ومنعت عن التصرف حتى لجأ أهلها إلى أكل الميتة وضعفوا عن كل مدافعة وحمية وسلموا له البلد. وتملكه وثقفه وترك فيه رجلاً منهم يعرف بابن نجاح.»

لم تستمر ميورقة تحت طاعة عبد الله بن غانية سوى فترة قصيرة. فقد سار إليها السيد أبو العلاء بالأسطول واستردها. فهذا ما يذكره ابن عذارى

(٢٢٤) أحمد مختار العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٦١
(٢٢٥) دولة الإسلام ع٣ ق٢ ص ١٥٨
(٢٢٦) البيان المغرب ق ٣ ص ٢١٦

فهو يقول[٢٢٧]: «ولما خفت الأنواء وحسن الهواء أسرى إليه السيد أبو العلاء في أُسطول سبته وصحبهم. فساء صاحبهم وبطش بهم الأُسطول قبل التئام أحوالهم وترتيب قتالهم. فدخل البلد عنوة وقبض على ابن نجاح وصير مع أصحابه إلى الحضرة فهلك بها.»

رأى الموحدون ضرورة صرف جهودهم للإستيلاء على جزيرة ميورقة قبل القضاء على ابن غانية في إفريقيا. ففي ذلك يقول مراجع الغناي[٢٢٨]: «ولما ازداد بنو غانية في بلاد إفريقيا وعم شرهم البلاد... أدركت السياسة الموحدية أن القضاء على بني غانية يجب أن يسبق بالقضاء على مركز قوتهم في جزيرة ميورقة. ذلك أن هذه الجزيرة وما يصاقبها من الجزر كانت بمثابة المورد الذي يغذي بني غانية في أفريقيا بالرجال والعتاد. وكانت السياسة التي أدت إلى الإستيلاء على جزر شرق الأندلس بمثابة قص أجنحة بني غانية لإضعافهم وتمهيداً للقضاء عليهم في المغرب الأدنى.».

كذلك: «رأى الخليفة الموحدي الجديد أبو عبد الله محمد الناصر لدين الله بن المنصور (٥٩٥ هـ - ٦١١ هـ / ١١٩٩ - ١٢١٤ م) أن استقرار نفوذ الموحدين في إفريقيا لن يستتب إلا إذا استولى على جزر البليار قاعدة بني غانية ومصدر المتاعب التي يواجهها الموحدون في إفريقيا. لهذا صمم الناصر على احتلالها كلها»[٢٢٩].

كان عبد الله بن غانية يسير على سياسة أبيه إسحاق في مسالمة الدول النصرانية القريبة لا سيما بيزا وجنوا، مما ساعد على رواج التجارة بين ميورقة وهذه الدول. فقد عقد عبد الله سنة ٥٩٤ هـ/١١٩٨ م معاهدة سلمية وتجارية لمدة عشرين عاماً مع نيقولا لاكانوترى سفير جنوا لدى ميورقة. كان

(٢٢٧) نفس المصدر والقسم والصفحة.
(٢٢٨) سقوط دولة الموحدين ص ٢٢٨
(٢٢٩) أحمد مختار العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٦٧

التجار النصارى يمدون ميورقة بالسفن والسلاح والذخائر مقابل الحبوب والمنتجات الأخرى لجزيرة ميورقة. ومع ذلك لم يكن في وسع عبد الله دائماً أن يمد أخاه يحيى بالسفن والجند لمواصلة قتال الموحدين في إفريقيا كانت ميورقة رغم ذلك تعتبر مركز بني غانية الرئيسي وموطن قوتهم الحقيقية.»(٢٣٠).

أعد الخليفة الناصر حملة كبيرة في ثغر دانية للإستيلاء على ميورقة. كانت الحملة تتكون من: «ألفي فارس ومائتي فارس. والرماة سبعمائة والرجالة خمسة عشر ألفاً غير غزاة القطع. وكان الأسطول ثلاثمائة جفن منها سبعون غراباً وثلاثون طريدة وخمسون مركباً كباراً وسائرها قوارب منوعة. وأما العدد والسلاح والمنجانيق والسلالم والمساحي والفؤوس والمعاول والرقائق والحبال فشيء لا يأخذه عدد. وكذلك الدروع والسيوف والرماح والبيضات والأتراس والدرق والقسي وصناديق النشاب وجملة وافرة من الطعام.»(٢٣١)

تولى قيادة هذه الحملة قائدان بأمر الخليفة الناصر. هما السيد أبو العلاء عم الخليفة الناصر والشيخ أبو سعيد بن أبي حفص(٢٣٢). كانت الحملة تتكون من قوات بحرية وأخرى برية. فتولى قيادة القوات البحرية حسب رواية المراكشي(٢٣٣) السيد أبو العلاء إدريس بن يوسف بن عبد المؤمن. وتولى قيادة القوات البرية الشيخ أبو سعيد عثمان بن أبي حفص.

سارت الحملة من ثغر دانية فنزلت في جزيرة يابسة. وصلى الموحدون فيها الجمعة. ثم «اقلعوا غدوة السبت الرابع والعشرين من ذي الحجة مكمل سنة ٥٩٩ هـ فأتوا ميورقة ونزلوا وتقرب العسكر من المدينة ودار الأسطول بالمرسى مع السيد أبي العلاء..وخرج إليهم عبد الله بمجموعة فنشبوا في القتال

(٢٣٠) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق ٢ ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨

(٢٣١) الحميري: الروض المعطار ص ١٨٩ ـ أحمد مختار العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٦٧ ـ ٣٦٨ ـ محمد عبد الله عنان: نفس المرجع ص ٣٥٩

(٢٣٢) ابن خلدون: العبر جـ ٦ ص ٢٤٧

(٢٣٣) المعجب ص ٣١٤

ودافعوا كل الدفاع، وآخر ذلك انهزم ثم صرع فقتل. وغلق باب المدينة فأحاطت بها الرماة وغزاة البحر فتغلبوا عليها، فدخلت ونهبت ولم يسلم إلا قصبتها. ودخل السيد أبو العلاء وأبو سعيد ورأس عبد الله معهما على قناة بيد رجل غزي كان قطعه. فنهيا الناس عن النهب وأمر بضرب عنق رجل فعل ذلك وخالف النهي وطيف برأسه وأمنا الناس ونودي بالأمن في الأذقة والقصبة. فخرج الناس وآمنوا وكتبا إلى الملك الناصر بالفتح(٢٣٤).

بينما يذكر المراكشي (٢٣٥) أن عبد الله بن غانية «قتله رجل من الأكراد يقال له عمر المقدم وذلك أنه حين نازله القوم خرج على باب من أبواب المدينة سكران فكبت به فرسه فضربه هذا المذكور بسيفه حتى مات. وقيل إنه قتله بسيف نفسه». ثم انتهب قائدا الحملة أموال ابن غانية وسبيا حرمه ودخلا بهم مدينة مراكش على الجمال في هيئة الأسارى. فأما النساء فدخل بهن ليلاً تجعلن في بعض الخانات إلى أن نفذ الأمر بالمن عليهن واطلاقهن وتزويج من تحتاج إلى التزويج منهن وتجهيزها بمال. وأما الرجال فلم يزالوا في الحبس إلى أن من عليهم بعد أن ضمنهم أكابرهم واتخذوا أجناداً فهم كذلك إلى اليوم. وبلغني أن المتولين لفتحها انتهبوا أموالاً عظيمة وذخائر نفيسة»(٢٣٦).

تذكر رواية أخرى أن الخليفة الناصر جهز حملة احتلال ميورقة من جزائر بني فرغنة. ففي ذلك يقول ابن أبي دينار(٢٣٧) خلال حديثه عن الخليفة الناصر: «وجاءته الأخبار أن الميورقي غلب على أكثر إفريقيا وأخذ

(٢٣٤) الحميري: الروض المعطار ص ١٨٩ ـ أحمد مختار العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٦٨ ـ محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق٢ ص ٢٥٩ ـ ٢٦٠

(٢٣٥) المصدر السابق ص ٣١٥ ـ مراجع الغناي: سقوط دولة الموحدين ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩

(٢٣٦) نفس المصدر والصفحة

(٢٣٧) المؤنس في أخبار افريقيا وتونس ص ١١٧ ـ وانظر محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق٢

المهدية وضيق على أهل تونس وألزمهم مائة ألف دينار وقد مرآنفا. فرحل من مراكش سنة ثمان وتسعين. ولما وصل إلى جزائر بني فرغنة أمر بإنشاء أساطيل وأخذ في تجهيز العساكر إلى ميورقة ففتحها وقتل صاحبها عبد الله بن إسحاق.»

عين السيد أبو العلاء قبل أن يعود إلى مراكش عبد الله بن طاع الله الكومي والياً على الجزائر الشرقية. ثم عزله الخليفة الناصر فجعله على قيادة الأسطول وعين بدلاً منه عمه السيد أبا زيد على الجزائر الشرقية. ثم وليها من بعده السيد عبد الله بن أبي حفص بن عبد المؤمن ثم أبو يحيى علي بن أبي عمران التينملي(٢٣٨).

ـ سقوط بني غانية:

أخذ الخليفة الناصر بعد ذلك يستعد لقتال ابن غانية في أفريقيا فاستشار في ذلك كبار رجال دولته. فأشاروا عليه بمسالمة ابن غانية ومداهنته إلا الشيخ عبد الواحد بن أبي حفص. فقد أشار عليه بالمسير إلى ابن غانية وقتاله. فأخذ الخليفة بهذا الرأي وجهز على الفور الجيش والأسطول معاً. فجعل على قيادة الأسطول أبا يحيى ابن زكريا الهزرجي وأمره بالإقلاع إلى إفريقيا. أما الجيش فقد قاده الخليفة بنفسه وسار من مراكش سنة ٦٠١ هـ/١٢٠٤ م وصحب معه الشيخ أبا محمد عبد الواحد بن أبي حفص(٢٣٩).

حين بلغ ذلك ابن غانية، رأى أن يسير لجمع الأنصار والحشود من طوائف العرب. فبعث ذخائره وأمواله إلى مدينة المهدية عند واليها علي بن

(٢٣٨) ابن خلدون: العبر جـ٢ ص ٢٤٧

(٢٣٩) ابن خلدون: نفس المصدر والجزء ص ٢٤٨ ـ الناصري: الاستقصا جـ٢ ص ١٩١ ـ ١٩٢ ـ محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق٢ ص ٢٦٣

الغازي وهو ابن عمه. ثم سار إلى القيروان وتغزاوة وقفصة وحامة مطماطمة وجبل بني دمر. كان ابن غانية خلال طريقه يجتمع بطوائف العرب ويستميلهم إلى جانبه ضد الموحدين. فاستجاب العرب له وأعطوه الرهائن على صدق نياتهم(٢٤٠).

وصل القائد أبو يحيى بالأسطول الموحدي إلى مدينة تونس فاقتحمها واستولى عليها. ثم قبض على جميع أنصار ابن غانية وقتلهم(٢٤١). بلغ ذلك الخليفة خلال طريقه فأمر القائد أبا يحيى أن يسير بالأسطول من تونس ويحاصر مدينة المهدية. ثم بعث الخليفة داود بن أبي داود مع جماعة من الموحدين والياً على تونس وأعمالها. سار الخليفة بعد ذلك بالجيش وراء يحيى بن غانية. فاسترد قفصة وصفاقس وقابس. فعين الولاة على هذه البلاد، لكنه لم يستطع اللحاق بابن غانية. فعاد بالجيش لحصار مدينة المهدية. ونصب عليها الآلات والمنجانيق والسلالم(٢٤٢).

بلغ الخليفة وهو على حصار المهدية أن ابن غانية معسكراً بقواته على مقربة من مدينة قابس. فأرسل لقتاله أربعة آلاف فارس من الموحدين بقيادة الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص. خشي ابن غانية لقاء هذا الجيش فرأى أن يسير إلى الصحراء. ولكن كبار قواده وخاصته شجعوه على الثبات واللقاء، فأخذ ابن غانية برأيهم وتقدم لخوض المعركة(٢٤٣).

نشبت المعركة في يوم ١٢ من شهر ربيع الأول سنة ٦٠٢ هـ/٢٨

---

(٢٤٠) الأندلسي: الحلل السندسية ص ٢٥٦ - ٢٥٧ - الباجي: خلاصة النقية ص ٥٧ - ٥٨ - الزركشي: تاريخ الدولتين ص ١٢

(٢٤١) ابن خلدون: نفس المصدر والصفحة
A. Bell: Les Benou Ghanya P. 128

(٢٤٢) ابن عذارى: البيان والمغرب ق٣ ص ٢١٩ - ٢٢٠ - الأندلسي: الحلل السندسية ص ٢٥٧ - ابن خلدون: العبر جـ٦ ص ١٩٥ - الناصري: الاستقصا جـ٢ ص ١٩٢

(٢٤٣) الأندلسي: نفس المصدر والصفحة.

أكتوبر ١٢٠٥ م. بالقرب من مدينة قابس في موضع يسمى تاجرا. فحلت الهزيمة بابن غانية. فقد قتل أكثر جنده وأنصاره وبعض قادته. كان من بينهم أخوه جابر وكاتبه علي بن اللمطي والفتح بن محمد. كما وقع بعض رجال ابن غانية أسرى بينما تمكن هو من الفرار مع قلة من خاصته. ثم مر على عياله وأهله فأخذهم معه. إذ وضعهم قبل القتال في مكان بعيد عن ميدان المعركة لئلا يقعوا في الأسر(٢٤٤)

استولى الموحدون على معسكر ابن غانية بما فيه من الغنائم والأموال والغطاء والوطاء تقدر الرواية هذه الغنائم جميع ما غصبه بنو غانية من أحواز طرابلس إلى انظار بجاية خلال عشرين سنة(٢٤٥) قيل أيضاً إنها كانت تحتوي على ثمانية عشر ألفاً من أحمال المال والمتاع والآلات. أنقذ الموحدون إثر انتصارهم هذا والي تونس السيد أبا زيد وجميع أصحابه الموحدين وأهله وهم على قيد الحياة. فقد قبض الموحدون على المكلف من قبل ابن غانية بحراسة السيد أبي زيد قبل أن يهم بقتله(٢٤٦).

عاد الموحدون بقيادة الشيخ أبي محمد عبد الواحد إلى الخليفة الناصر فوجدوه لا يزال على حصار المهدية دون أن يتمكن من الاستيلاء عليها. فقد كان والي المهدية يخرج بقواته بين الحين والآخر ويهاجم الموحدين فيلحق بهم الخسائر الجسيمة في الأرواح والمعدات دون أن ينالوا منه. لذلك أطلق عليه

(٢٤٤) الأندلسي: الحلل السندسية ص ٢٥٧ ـ الباجي: خلاصة النقية ص ٥٨ ـ ابن خلدون ـ العبر جـ٦ ص ٢٤٨ و٢٧٧ ـ محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق ٢ ص ٢٦٥
A. Bell: Les Benou Ghanya PP. 129 - 130, 206 - 207

(٢٤٥) ابن عذارى: البيان المغرب ق ٣ ص ٢٢٢.

(٢٤٦) ابن خلدون: نفس المصدر والجزء والصفحة ـ الأندلسي: نفس المصدر والصفحة ـ الباجي: نفس المصدر والصفحة ـ محمد عبد الله عنان: نفس المرجع والصفحة (نقلاً عن نفس المصادر والصفحات)
A. Bell: Opcit P. 131

الموحدون اسم الحاج الكافر وكان يعرف باسم الحاج(٢٤٧).

رأى الخليفة الناصر أن يضعف معنويات رجال ابن غانية المدافعين عن مدينة المهدية فأمر بعرض جميع الغنائم والأسلاب والآلات التي غنمها الموحدون من معسكر ابن غانية بعد هزيمته في موقعة تاجرا. قام الموحدون أيضاً بإشهار الأسرى من رجال ابن غانية. ثم اركبوا على جمل سام ذلك الرجل الذي كان مكلفاً بحراسة السيد أبي زيد، وجعلوه يطوف حول أسوار المهدية وهو يرفع بيده عالياً راية سوداء(٢٤٨).

لم يصدق المحصورون هزيمة ابن غانية. فألح الخليفة على قتالهم حتى استولى على المهدية صلحا ففي ذلك يقول الأندلسي(٢٤٩): «وكمل التبريز بالغنائم على ملاحظة من المحصورين بالمهدية وهم مع ذلك يكذبون بهزيمة يحيى. وألح الناصر في قتالهم وجمع المنجنيقات على جهة واحدة في السور حتى كثر الموت والجراحات فيهم. وتحققوا انهزام يحيى. فسقط في أيديهم وطلبوا الأمان فاسعفوا به. ونزل علي بن الغازي واتباعه وشيعته على أن يخلي سبيلهم ويسلموا البلد ويكونوا في أمان الموحدين إلى أن يصلوا إلى يحيى حيث كان. وكان ذلك في السابع والعشرين من جمادى الأولى...»

سار علي بن الغازي هو وصحبه من مدينة المهدية بأمان. وضرب أخبيته في مكان قريب يدعى قصر فراضة وبات فيه ليلة واحدة. ثم عاد في صباح اليوم التالي وقدم الولاء والطاعة للخليفة الناصر وقال له: «الآن أطعت بعد أن ضربت في حكم نفسي فاستحسن الناصر ذلك منه وأحسن إليه وأنزله عنده. ووافق ذلك وصول المملوك ناصح صاحب ديوان سبته بالهدايا العظيمة

(٢٤٧) الناصري: الاستقصا جـ٢ ص ١٩٢

(٢٤٨) الأندلسي: الحلل السندسية ص ٢٥٧ - ٢٥٨

(٢٤٩) نفس المصدر ص ٢٥٨ - وانظر محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق ٢ ص ٢٦٦
A. Bell: Les Benou - Ghanya P. 132

التي جمعها في المدة الطويلة. وكان فيها ثوبان نسجا بأنواع الجواهر وجعلت فيها أعلام من اليواقيت والأحجار النفيسة. فأمر الناصر بحمل جميع الهدية إلى علي بن الغازي. فمات ناصح على أثر ذلك كمداً»(٢٥٠)

أقام علي بن الغازي مع الخليفة الناصر ثم توجه بصحبته إلى مراكش. فبقي فيها إلى أن توجه الموحدون إلى الأندلس لغزو النصارى فاستشهد من الموحدين في موقعة العقاب(٢٥١).

أما الزركشي فيقول(٢٥٢): «لم يزل الناصر محاصراً للمهدية حتى فتحها يوم السبت السابع والعشرين لجمادى الأولى سنة اثنتين وستمائة بتسليم صاحبها علي بن الغازي ابن عم ابن غانية فقبل الناصر علياً بن الغازي وأكرمه ولم يزل معه إلى أن استشهد.»

أما رواية ابن أبي دينار فهي(٢٥٣): «وصل الناصر إلى أفريقيا فأطاعه كل من عصي عليه ما عدا المهدية لأن العامل بها من قبل الميورقي وكان شهماً صاحب دهاء. فحاصره بها ونصب عليها المنجانيق. فلما رأى العامل أن لا طاقة له بقتال الناصر ركن إلى الصلح فصالحه.»

ويقول ابن خلدون(٢٥٤): «افتتح الناصر المهدية ودخل إليها علي بن الغازي في دعوته فتقبله ورفع مكانه ووصله بهدية وافق وصولها برسمه إليه على يد واصل مولاه. وكان بها ثوبان منسوجان بالجواهر. فوصله بذلك كله.

(٢٥٠) الأندلسي: نفس المصدر ص ٢٥٨

(٢٥١) الأندلسي: نفس المصدر والصفحة ـ الحميري: الروض المعطار ص ١٣٨ ـ ابن خلدون: العبر جـ٦ ص ٢٤٨ ـ محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق٢ ص ٢٦٦ (نقلاً عن رحلة التيجاني ص ٣٥٨ ـ ٣٥٩، ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٥٣ ـ ١٥٤، ابن عذارى: البيان المغرب القسم الثالث ص ٢٢٠و٢٢٣).

(٢٥٢) تاريخ الدولتين ص ١٢

(٢٥٣) المؤنس في تاريخ افريقيا وتونس ص ١١٧

(٢٥٤) العبر جـ٦ ص ١٩٥ ـ ١٩٦

ولم يزل معه إلى أن استشهد مجاهداً.»

أما المراكشي فيقول(٢٥٥): «تجهز أمير المؤمنين أبو عبد الله في جيوش عظيمة وقصد بلاد إفريقيا... فما استعصى عليه بلد من بلادها خلا المهدية.... وكان يحيى بن غانية قد ولى فيها ابن عمه.... فلما طال عليه الحصار سلم البلد وخرج بنفسه يقصد ابن عمه. ثم بدا له أن يرجع إلى الموحدين. فأرسل إليهم فتلقوه أحسن لقاء ووصلوه من الصلات النفيسة بما لا قيمة له ولا يصل بمثله إلا الخلفاء. وبعد هذا نزع إليهم أخو يحيى بن غانية سير بن إسحاق بن محمد. فأكرموا نزله وأقطعوه الاقطاع الواسعة بعد أن ملأوا يديه أموالاً.»

تضع رواية أُخرى توحيد سير بن إسحاق في سنة ٦٠٦ هـ أو سنة ٦٠٧ هـ/١٢٠٩ أو ١٢١٠ م. فتذكر أن سير ورد في هذا التاريخ على تونس فقدم الولاء والطاعة للوالي الشيخ عبد الواحد بن أبي حفص. ثم سار إلى مراكش فقبله الخليفة وأكرمه(٢٥٦).

دخل الخليفة الناصر مدينة المهدية في شهر جمادى الأولى سنة ٦٠٢ هـ/يناير ١٢٠٦ م فصفح عن جميع من كان فيها من المقاتلين وغيرهم. ثم أمر برم سورها وتنظيم شؤونها. وعين والياً عليها محمداً بن يغمور الهرغي أو الهنتاني حسب رواية أُخرى. وعين على طرابلس عبد الله بن إبراهيم بن جامع. ثم غادر المهدية في جمادى الأخرى سنة ٦٠٢ هـ/فبراير ١٢٠٦ م فنزل في مدينة تونس وأقام فيها أكثر من سنة عمل خلالها على تنظيم بلاد أفريقيا ومطاردة ابن غانية(٢٥٧).

---

(٢٥٥) المعجب ص ٣١٧ - ٣١٨

(٢٥٦) ابن عذارى: البيان المغرب ق ٣ ص ٢٣٣ - ابن خلدون: نفس المصدر والجزء ص ١٩٦

(٢٥٧) ابن خلدون: العبر جـ ٦ ص ٢٤٨ - الأندلسي: الحلل السندسية ص ٢٥٨ - ٢٥٩ - الباجي: خلاصة النقية ص ٥٨ - الناصري: الاستقصا جـ ٢ ص ١٩٢
A. Bell: Les Benou Ghanya PP. 132 - 133

عاد ابن غانية بقواته خلال إقامة الخليفة الناصر بتونس فاستولى على بعض البلاد. فبعث إليه الخليفة جيشاً بقيادة أخيه السيد أبي إسحاق. لكن لم تنشب معارك بين الطرفين، فقد تراجع ابن غانية بقواته، وظل السيد أبو. إسحاق يطارده إلى ما وراء طرابلس. فأشرف على أرض سرت وبرقة وسويقة بني،مذكور وأجبره على التوغل إلى صحراء برقة. ثم عاد السيد أبو إسحاق فاستأصل أعوان ابن غانية من بني دمر ومطماطمة وأهل جبال نفوسة وكافة بلاد الجريد(٢٥٨).

قرر الخليفة الناصر قبل أن يعود إلى مراكش أن يعين على أفريقيا أحد كبار القادة الشيوخ الموثوق بهم وبخبرتهم العسكرية ليقوم بحماية البلاد وتأمينها من غزوات ابن غانية فاستقر رأيه على تعيين الشيخ أبي محمد بن عبد الواحد بن أبي حفص. وافق الشيخ أبو محمد ـ بعد تردد وتمنع ـ وفق شروط فرضها بنفسه. وهي أن لا يستمر على ولايته إفريقية أكثر من ثلاث سنوات وهي مدة كافية في نظر الشيخ للقضاء على ابن غانية، فيرسل الخليفة بعد ذلك والياً غيره. وأن يختار بنفسه الجند الذين سيبقون معه ويعملون تحت قيادته. وأن لا يسأله الخليفة عن أعماله فيولي على نواحي إفريقية من يشاء ويعزل من يشاء(٢٥٩).

سار الخليفة الناصر من تونس إلى مراكش في شوال سنة ٦٠٣ هـ/مايو ١٢٠٧ م. فاعترض موكبه أهل تونس وأعربوا عن خوفهم من انتقام ابن غانية. فأبلغ الخليفة أعيانهم بأنه جعل عليهم والياً من أكفأ رجاله رغم

(٢٥٨) ابن عذارى: البيان المغرب ق ٣ ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤ ـ ابن خلدون: نفس المصدر والجزء ص ٢٤٨ و ٢٧٧ ـ الزركشي: تاريخ الدولتين ص ١٢ ـ A. Bell. Opcit: PP. 133 - 134

(٢٥٩) الأندلسي: الحلل السندسية ص ٢٥٩ ـ ٢٦٠ ـ الباجي: خلاصة النقية ص ٥٨ ـ الزركشي: تاريخ الدولتين ص ١٢ ـ ١٣ ـ الناصري: الاستقصا جـ ٢ ص ١٩٢ ـ ١٩٣ ـ محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع ٣ ق ٢ ص ٢٧٠
A. Bell: Les Benou Ghanya PP. 209 - 211

الحاجة إليه في مراكش. واستأنف مسيره وسار معه الشيخ أبو محمد حتى مدينة باجه. ثم عاد إلى تونس وجلس للناس في القصبة وأخذ يتودد إليهم ويهدىء من روعهم(٢٦٠).

انتهز ابن غانية عودة الخليفة الناصر إلى مراكش. فعاد بقواته من الصحراء وأخذ يجمع الأنصار حوله من الأعراب وغيرهم. فانضم إليه عرب بني هلال ورياح والزراودة بزعامة شيخهم محمد بن مسعود. بلغ ذلك الشيخ أبا محمد، فسار بقواته من تونس والتقى مع ابن غانية بالقرب من شيرو بنواحي تبسه. فنشبت بينهما موقعة في شهر ربيع الأول سنة ٦٠٤ هـ/أكتوبر ١٢٠٧ م. استمرت طوال النهار ثم أسفرت عن هزيمة ابن غانية وفراره جريحاً في الصحراء(٢٦١).

استولى الشيخ أبو محمد على معسكر ابن غانية وأنصاره من العرب بما فيه من المتاع والأموال. ثم عاد إلى تونس وبعث إلى الخليفة الناصر بمراكش يخبره بالنصر ويذكره بوعده في إعفائه من الولاية. لكن الخليفة الناصر رأى أن يظل الشيخ أبو محمد والياً على إفريقيا. فهو أقدر من يستطيع القضاء على ابن غانية. لذلك بعث يشكره ويطلب منه الاستمرار في الولاية «وبعث إليه بالمال والخيل والكسي للإنفاق والعطاء. كان مبلغها مائة ألف دينار واثنان وألف وثمانمائة كسوة وثلاثمائة سيف ومائة فرس. غير ما كان أنفذ إليه من سبتة وبجاية ووعده بالزيادة»(٢٦٢).

---

(٢٦٠) الأندلسي: نفس المصدر ص ٢٦٠ - الباجي: نفس المصدر والصفحة - الناصري: نفس المصدر والجزء ص ١٩٣ - محمد عبد الله عنان: نفس المرجع والصفحة
A. Bell: Opcit PP. 211 - 212

(٢٦١) الزركشي: تاريخ الدولتين ص ١٣ - ١٤ - الباجي: خلاصة النقية ص ٥٨ - ٥٩ - محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع ٣ ق ٢ ص ٢٧٢ - ٢٧٣
A. Bell: Les Benou Ghanya PP. 142 - 143

(٢٦٢) ابن خلدون: العبر جـ ٦ ص ٢٧٨ - وانظر الباجي: نفس المصدر ص ٥٩ - A. Bell: Opcit PP. 143 - 144

نقل ابن غانية غزواته إلى بلاد المغرب الأوسط بعد الهزيمة. فقد أدرك صعوبة الانتصار على الشيخ أبي محمد بن أبي حفص والي أفريقيا. فسار بقواته وبأنصاره من العرب وأخذ يعبث بالبلاد ويقتل الحاميات الموحدية ويستولي على الأسلاب والغنائم حتى بلغ مدينة سجلماسة فاستمال قبائل زناتة في تلك الجهات(٢٦٣).

كان والي تلمسان السيد أبو عمران موسى بن يوسف بن عبد المؤمن يقوم خلال ذلك بالطواف على قبائل زناتة لجمع الجباية منهم. فرأى أن يسير لقتال ابن غانية ويمنعه من التقدم. بلغ ذلك والي أفريقيا الشيخ أبا محمد فخشي أن تقع الهزيمة على الموحدين. لذلك طلب من السيد أبي عمران أن يتجنب لقاء ابن غانية. فهو أكثر منه خبرة بابن غانية ويقف له بالمرصاد. لكن السيد أبا عمران لم يأخذ بنصيحة الشيخ أبي محمد وسار إلى تاهرت. فلما كان صباح اليوم التالي شن ابن غانية فجأة هجوماً خاطفاً على السيد أبي عمران في تاهرت فأوقع به الهزيمة. وسقط السيد أبو عمران ومعظم جنده قتلى. فاستولى ابن غانية وأنصاره العرب وزناتة على مدينة تاهرت سنة ٦٠٥ هـ/١٢٠٨ م ثم استباحوها فكانت آخر العهد بها(٢٦٤).

تذكر رواية أخرى أن الخليفة الناصر بعث أبا عمران والياً على تلمسان فسار السيد أبو عمران إلى ولايته وأخذ يستعد لقتال ابن غانية. فأبلغت قبيلة زناتة المستوطنة هناك ابن غانية وأطلعته على عورات عسكر الموحدين. فسار ابن غانية وفاجـا السيد أبا عمران بالهجوم فأوقع به الهزيمة وقضى على ساقة جيشه. فاستشهد السيد أبو عمران مع خاصته ووقع في الأسر بعض بنيه، والكاتب أبو الحسن بن عياش وبعض طلبة تلمسان. ثم استولى ابن غانية على كل الغنائم والاسلاب وأخذ الأعراب يعيثون فساداً في تلك الجهات.

(٢٦٣) ابن خلدون: نفس المصدر والجزء ص ١٩٦

(٢٦٤) ابن خلدون: نفس المصدر والجزء ص ١٩٦، ٢٤٩، ٢٧٨ ـ A. Bell: Opcit PP. 148 - 149

فارتاع أهل تلمسان وأغلقوا الأبواب(٢٦٥).

خشي الموحدون بمراكش أن يستولي ابن غانية على مدينة تلمسان مما يهدد بلاد المغرب الأقصى. فأسرع والي فاس السيد أبو زكريا إلى مدينة تلمسان فدخلها بقواته وثقفها وسكن اضطرابها. ثم وصل جيش موحدي آخر بقيادة الوزير أبي زيد بن يوجان، وهو الذي أسند إليه الخليفة الناصر ولاية تلمسان(٢٦٦)

رأى ابن غانية عدم لقاء هذين الجيشين فتراجع بقواته وأخذ في العودة. لكن والي افريقيا الشيخ أبا محمد كان يرقب تحركات ابن غانية، فاعترض طريق عودته وألحق به الهزيمة. ففر ابن غانية إلى جهات طرابلس واستنقذ الشيخ أبو محمد جميع الأسرى الموحدين، واسترد جميع الغنائم التي جمعها ابن غانية في غزواته السابقة(٢٦٧).

عقد ابن غانية في مدينة طرابلس اجتماعاً مع فلول قواته وأنصاره من العرب، للتشاور في قتال الموحدين. فاجمعوا على قتال والي أفريقيا الشيخ أبي محمد بن أبي حفص لاستخلاص البلاد منه. وعقدوا عزمهم على الثبات أو النصر. ثم انطلقوا يستألفون الاعراب من كل ناحية فاجتمع إليهم أمم كثيرة. كان فيهم قبائل رياح وزغب والشريد وعوف وذياب ونعاث. ثم احتفلت هذه الجموع بالاحتشاد وساروا إلى أفريقيا، فجعلوا الظعائن بينهم اصراراً على النصر أو الموت(٢٦٨).

بلغ ذلك الشيخ أبا محمد فسار إليهم بقواته وضرب أخبيته وفساطيطه

(٢٦٥) ابن عذارى: البيان المغرب ق ٣ ص ٢٢٩

(٢٦٦) ابن عذارى: نفس المصدر ص ٢٢٩ - ٢٣٠ - ابن خلدون: العبر جـ٦ ص ٢٤٩

(٢٦٧) ابن خلدون: نفس المصدر والجزء ص ١٩٦ و ٢٤٩و٢٧٨ - ٢٧٩

(٢٦٨) ابن خلدون: نفس المصدر والجزء ص ١٩٦ و١٩٧ - A. Bell: Les Benou Ghanya PP. 150 - 151

عند جبل نفوسه ليحول دون تقدمهم، واستعداداً للقتال وعدم التراجع. فنشب القتال بين الطرفين في سنة ٦٠٦ هـ/١٢٠٩ - ١٢١٠ م. فاستمر طوال النهار. وانحاز للموحدين خلال القتال طوائف من بني عوف وبني سليم فحلت الهزيمة بابن غانية وأنصاره ثم لاذ بالفرار مع بعض رجاله عند دخول الليل. فاستولى الموحدون على معسكر ابن غانية بما فيه من المتاع والسلاح، بلغت أحمالها ثمانية عشر ألفاً، واستولوا على ظعائن العرب وغنائمهم. هلك في الموقعة عدد كبير من رجال ابن غانية وقادته وشيوخ أنصاره العرب. فكان من بينهم محمد بن مسعود شيخ الزراوده وابن عمه حركات ابن أبي الشيخ وشيخ بني قرة وشيخ مغراوة ومحمد بن الغازي ابن غانية، وغيرهم كثير من أنجاد بني رياح وبني هلال(٢٦٩).

تركت هذه الهزيمة أثراً سيئاً على نفسية ابن غانية وقوة عزيمته. ففي ذلك يقول ابن خلدون(٢٧٠): «انصرف ابن غانية مهيض الجناح مغلول الحد عفوفاً باليأس من جميع جهاته. وانقلب أبو محمد والموحدون أعزة ظاهرين واستفحل أمر أبي محمد بإفريقيا وحسم عامة الفساد».

انتهز أهل جبل نفوسة هزيمة ابن غانية فثاروا على ابن عصفور وقتلوا ولديه. فهو كاتب ابن غانية وعامله على جباية الأموال(٢٧١). بلغ ذلك محمد بن عبد السلام والي الموحدين على طرابلس، فسار بقواته وأعاد جبل نفوسة إلى طاعة الموحدين. ثم اقتحم قصراً لابن غانية، وجد فيه كمية وفيرة من الذخائر والمتاع والأموال(٢٧٢).

أخذ الموحدون في مطاردة أنصار ابن غانية واغتيال بعض أشياخهم.

---

(٢٦٩) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق٢ ص ٢٧٤ - ٢٧٥ - A. Bell: Les Benou Ghanya PP. 151 - 152

(٢٧٠) العبر جـ٦ ص ٢٧٩

(٢٧١) نفس المصدر والجزء ص ١٩٦ - A. Bell: Les Benou Ghanya P. 152

(٢٧٢) ابن عذارى: البيان المغرب ق٣ ص ٢٣٥

فقد بعث والي تلمسان الوزير أبو زيد بن يوجان أحد رجاله لقتل ابن عطية الزناتي شيخ قبيلة زناتة «فاغتاله في وطنه وأتاه من مأمنه»(٢٧٣).

سار والي إفريقيا الشيخ أبو محمد بقواته، فطارد قبائل العرب من أنصار ابن غانية وأنزل بهم الهزائم وشردهم. ثم استاق أشياخهم بأموالهم وأهلهم إلى تونس، فجعلهم عنده رهينة ليحسم داءهم، ويحول دون مساعدتهم لابن غانية. فصلحت بذلك أحوال أفريقيا واستقرت أُمورها طوال ولاية الشيخ أبي محمد(٢٧٤).

سار ابن غانية بعد هزيمته في جبل نفوسة إلى الصحراء. ثم أخذ يجمع الأنصار حوله للاستيلاء على البلاد وانتزاع ودان من قراقوش. ففي سنة ٦٠٩ هـ/١٢١٢ م سار ابن غانية إلى ودان الواقعة جنوبي طرابلس، وصحب معه عرب ذياب من بني سليم كي يأخذوا بثأرهم. ذلك أن قراقوش استولى على مدينة قابس بمخادعة أهلها سنة ٥٨٦ هـ/١١٩٠ م. ثم قتل سبعين رجلاً من أشياخ ذياب والكعوب من بني سليم بقصر العروسين في مدينة قابس(٢٧٥).

عُني البعض بذلك فقال: «استقر قراقوش بعد ذلك بودان ـ جنوب طرابلس ـ حتى وصله الميورقي في جمع من فرسان ذياب من بني سليم الذين كانوا يتحرقون إلى الانتقام منه ثأراً لآبائهم الذين قتلهم بقابس. فحاصروه حتى فني طعامه. فاستسلم لهم وشرط أن يقتلوه قبل ولده فأجابوه لذلك وصلبه الميورقي بظاهر ودان وذلك سنة ٦٠٩ هـ. قال التيجاني: «فلما خرج هو وولده إليهم قال له الولد، يا أبت إلى أين يروحوا بنا؟ فقال: الى حيث رحنا بآبائهم(٢٧٦)».

(٢٧٣) ابن عذارى: نفس المصدر ص ٢٣٤

(٢٧٤) ابن عذارى: نفس المصدر والصفحة ـ ابن خلدون: العبر جـ٦ ص ١٩٦

(٢٧٥) ابن خلدون: نفس المصدر والجزء ص ١٩٣

(٢٧٦) محمد المرزوقي: قابس ص ١٨٨ ـ يذكر ابن خلدون أن ابن غانية اقتحم ودان عنوة وقتل قراقوش وولده (انظر نفس المصدر والجزء والصفحة).

لم يعاود ابن غانية بعد ذلك غزو أفريقيا. فقد ظل نحو عشر سنوات يرقب أحوال الموحدين ويستطلع أخبارهم، دون أن ينال الموحدون منه. فلما توفي الشيخ أبو محمد بن أبي حفص والي أفريقيا سنة ٦٠٨ هـ/١٢٢١ م، عاود ابن غانية غزو إفريقية والاستيلاء على البلاد ففرض سيطرته واستفحل خطره(٢٧٧).

رأى الوالي الموحدي الجديد السيد أبو العلا إدريس استحالة القضاء على ابن غانية إلا بتقسيم الجيش إلى عدة فرق. حتى تقوم كل فرقة بتأمين ناحية من البلاد، فتتعاون جميعها على حصار ابن غانية ومطاردته واعتراض طريقه تمهيداً للقضاء عليه. ثم سار السيد أبو العلا بناء على ذلك إلى مدينة قابس سنة ٦٢١ هـ/١٢٢٤ م، فنزل بقواته وأقام بقصر العروسين. ثم بعث ابنه أبا زيد ببعض قواته إلى الحمة درج وغدامس. ثم بعث عسكراً آخر إلى ودان لقتال ابن غانية وحصاره. فاعترض بعض العرب من أنصار ابن غانية طريق هذا العسكر، مما أتاح الفرصة لابن غانية للفرار إلى الزاب ومنها لجأ إلى بسكرة(٢٧٨).

خشي السيد أبو العلاء أن يهاجم ابن غانية تونس، فعاد من قابس بقواته واحتل تونس. بينما سار ابنه السيد أبو زيد وراء ابن غانية، فاقتحم عليه مدينة بسكرة واستولى عليها أما ابن غانية فقد استطاع الفرار، ثم جمع حوله الأنصار من العرب والبربر وسار للاستيلاء على تونس. بلغ ذلك السيد أبا زيد فأسرع اللحاق بابن غانية واصطحب معه قبائل هوارة. فوجد ابن غانية لا يزال بظاهر تونس، ثم اشتبك معه في موقعة سنة ٦٢١ هـ/١٢٢٤ م، فانتهت بهزيمة ابن غانية ومقتل أكثر جنده وأنصاره. واستولى الموحدون على الغنائم. ومما هو جدير بالذكر هو بلاء قبيلة هوارة في

(٢٧٧) الزركشي: تاريخ الدولتين ص ١٤

(٢٧٨) ابن خلدون: العبر جـ٦ ص ١٩٦ - ١٩٧ - A. Bell: Les Benou Ghanya PP. 165 - 166

القتال إلى جانب الموحدين فذاع صيت أميرها حناش(٢٧٩).

تجنّب ابن غانية على أثر ذلك لقاء الموحدين في إفريقيا، فأخذ يغزوهم بلاد المغرب الأوسط. ففي أواخر سنة ٦٢٣ هـ/١٢٢٦ م هاجم قسنطينة دون أن يتمكن من الاستيلاء عليها فقام في أوائل العام التالي بغزو مدينة بجاية فاقتحمها عنوة. ثم أخذ يغزو الجهات القريبة منها. فغزا تدلس ومتيجة. ثم استمر في غزوته حتى بلغ مضارب قبيلة مغراوة فقام بالثأر منها وألحق بها الهزيمة وقتل شيخها منديل بن عبد الرحمن ثم صلب شلوه على سور الجزائر(٢٨٠).

خشي الموحدون أن يستولي ابن غانية على إفريقيا. ففي أوائل العام المذكور توفي والي إفريقيا السيد أبو العلاء فخلفه في الولاية ابنه السيد أبو زيد، لكنه أساء السيرة وكرهته الرعية. فعزله الخليفة في شهر ربيع الثاني سنة ٦٢٣ هـ/يونية ١٢٢٦ م وبعث مكانه على ولاية إفريقيا أبا محمد عبد الله بن الشيخ عبد الواحد والي إفريقيا السابق. استقر أبو محمد عبد الله في مدينة تونس، ثم عيّن أخاه أبا زكريا يحيى والياً على قابس والحمة، وعيّن أخاه الآخر ابراهيم على توزر وقفطة وبلاد قسطيلة(٢٨١)

رأى والي إفريقيا الجديد أبو محمد عبد الله أن يسير لقتال ابن غانية والقضاء على أنصاره فسار في العام التالي إلى آبة وهاجم بعض قبائل هوارة المنحازة إلى ابن غانية، فقبض على شيوخهم وأرسلهم مقيدين إلى المهدية. ثم سار لاسترداد البلاد من ابن غانية، فاسترد مدينة بجاية وأصلح أحوالها، واسترد مليانة ومتيجة. ثم استمر في مطاردة ابن غانية حتى سجلماسة،

---

(٢٧٩) ابن خلدون: نفس المصدر والجزء ص ١٩٧ ـ الباجي: خلاصة النقية ص ٦٠ ـ الزركشي: تاريخ الدولتين ص ١٤ ـ A. Bell: Opcit PP. 166 - 167

(٢٨٠) ابن خلدون: العبر جـ ٦ ص ١٩٧ ـ A. Bell: Les Benou Ghanya PP. 173 - 174

(٢٨١) الباجي: خلاصة النقية ص ٦٠ ـ الناصري: الاستقصا جـ ٢ ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤ ـ محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع ٣ ق ٢ ص ٣٧٥ ـ ٣٧٦ ـ A. Bell: Opcit PP. 171 - 172

فتوقف عندئذ عن المطاردة وعاد إلى تونس(٢٨٢).

نشب خلاف بين والي أفريقيا أبي محمد عبد الله وأخيه أبي زكريا يحيى والي قابس والحمة فانحاز الجند إلى أبي زكريا يحيى وتولى أفريقيا بدلاً من أخيه أبي محمد عبد الله(٢٨٣). انتهز ابن غانية فرصة الخلاف بين الأخوين، فسار بقواته واستولى على جهات وادي شلف ثم أخذ يزحف نحو الشمال للاستيلاء على البلاد. بلغ ذلك والي أفريقيا الجديد أبا زكريا يحيى، فسار بقواته من تونس وأخذ يطارد ابن غانية حتى شرده إلى الصحراء(٢٨٤).

لم يستطع ابن غانية بعد ذلك قتال الموحدين والتغلب عليهم. فقد استمر أبو زكريا يحيى يترقبه ويضيّق عليه فيعترض طريقه ويشرده إلى الصحراء. ثم تخلى الأنصار عن ابن غانية وسئم جنده القتال فأخلى سبيلهم، ولم يبق حوله سوى أهله وخاصته. ظل ابن غانية رغم ذلك على عدائه للموحدين، فكان يقوم بغزوات انتقامية بين الحين والآخر، ويجوب البلاد من سجلماسة في المغرب الأقصى حتى العقبة الكبرى من تخوم الديار المصرية(٢٨٥).

توفي يحيى بن غانية سنة إحدى وثلاثين وستمائة. وقيل ثلاث وثلاثين وستمائة بعد خمسين سنة من إمارته. فدفن بوادي الرجوان وقيل بصحراء باريس من بلاد الزاب. وبوفاته انقرض أمر الملثمين من مسوفة ولمتونة من جميع بلاد إفريقيا والمغرب والأندلس. وبمهلكه ذهب ملك صنهاجة من الأرض بذهاب ملكه وانقطاع أمره(٢٨٦).

---

(٢٨٢) الباجي: نفس المصدر والصفحة ـ محمد عبد الله عنان: نفس المرجع ص ٣٧٦ (نقلاً عن ابن خلدون: العبر جـ٦ ص ١٩٧).
(٢٨٣) ابن عذارى: البيان المغرب ق٣ ص ٢٧٥ ـ الزركشي: تاريخ الدولتين ص ١٧ ـ ١٩.
(٢٨٤) الباجي: خلاصة النقية ص ٦١
(٢٨٥) ابن خلدون: العبر جـ٦ ص ١٩٧
(٢٨٦) ابن خلدون: نفس المصدر والجزء والصفحة ـ الباجي: خلاصة النقية ص ٦١.

يستطرد ابن خلدون[٢٨٧] في الحديث عن وفاة ابن غانية فيقول: «وقد خلف بنات بعثهن زعموا إلى الأمير أبي زكريا لعهده بذلك إلى علجة جابر. فوضعن في يده وبلغه وفاة أبيهن وحسن ظنه في كفالته إياهن. فأحسن الأمير أبو زكريا كفالتهن وبنى لهن بحضرته داراً لصونهن معروفة لهذا العهد بقصر البنات. وأقمن تحت حراسته وفي سعة من رزقه موصولات لوصاة أبيهن بذلك منهن وحفظهن لوصاته. يقال إن ابن عم لهن خطب إحداهن. فبعث إليها الأمير أبو زكريا فقال لها هذا ابن عمك وأحق بك. فقالت لو كان ابن عمنا ما كفلنا الأجانب إلى أن هلكن عوانس بعد أن متعن من العمر بحظ.

يقول ابن خلدون[٢٨٨] أيضاً: أخبرني والدي رحمه الله أنه أدرك واحدة منهن أيام حياته في سني العشر والسبعمائة تناهز التسعين من السنين. قال: ولقيتها وكانت من أشرف النساء نفساً وأسراهن خلقاً وأزكاهن حالاً. والله وارث الأرض ومن عليها.

---

(٢٨٧) نفس المصدر والجزء والصفحة ـ الباجي: نفس المصدر والصفحة.

(٢٨٨) نفس المصدر والجزء والصفحة.

الفصل الثالث

علاقات الموحدين السياسية بالدول الإسلامية التي قامت بالأندلس في أواخر دولتهم

قام في العقد الثالث من القرن السابع الهجري/العقد الثالث من القرن الثالث عشر الميلادي بعض الزعماء الأندلسيين بالثورات على الموحدين في الأندلس. فأقام هؤلاء الثوّار دولاً مستقلة لهم. فقد وجدوا من أهل الأندلس كل عون وتأييد. ثم أعلن بعض هؤلاء الزعماء ولاءهم للعباسيين مرة وللحفصيين مرة أُخرى وللموحدين مرة ثالثة كي يضفوا على حكمهم الصفة الشرعية.

أ ـ علاقة الموحدين السياسية بابن هود

كان محمد بن هود أول من ثار على الموحدين وأسّس دولة في الأندلس. فهو سليل أسرة هود أصحاب الثغر الأعلى الأندلسي في عهد ملوك الطوائف. فنسبه محمد بن يوسف بن محمد بن عبد العليم بن أحمد المستعين بالله بن يوسف المؤتمن بن أبي جعفر المقتدر بالله بن أبي أيوب سليمان بن محمد بن هود. توفي جده أبو أيوب سليمان صاحب الثغر الأعلى الأندلسي سنة ٤٤١ هـ. فاقتسم أبناؤه الخمسة مملكته. لكن ابنه أبا جعفر المقتدر استولى على جميع أملاك إخوته فاصبح يحكم الثغر الأعلى كله(٢٨٩).

بقي بني هود فترة طويلة على الثغر الأعلى الأندلسي إلى أن استولى

(٢٨٩) ابن الآبار: الحلة السيراء ج ٢ ص ٢٤٥ ـ ٢٤٨ وانظر حاشية رقم ١ ص ٢٤٥.

المرابطون على الثغر الأعلى الأندلسي سنة ٥٠٣ هـ/١١١٠ م من عماد الدولة ابن أبي جعفر بن هود. ثم انتهز ابنه أبو جعفر سيف الدولة فرصة ثورة الأندلسيين على المرابطين سنة ٥٣٩ هـ/١١٤٥ م فقام هو الآخر بثورة على المرابطين في الثغور الجوفية. كما ساعد الثوار الأندلسيين على المرابطين في قرطبة وجيان وغرناطة. واتّسع نفوذه حتى أصبح أمير شرقي الأندلس في أواخر حياته. ثم استشهد سنة ٥٤٠ هـ/١١٤٦ م في موقعة البسيط ضد النصارى المغيرين(٢٩٠).

لم تشترك أُسرة بني هود بعد هذا التاريخ في الأعمال السياسية أو العسكرية خلال فترة طويلة من عصر الموحدين. فلم يشتهر منهم أحد إلا هذا محمد بن هود الذي قام بالثورة على الموحدين سنة ٦٢٥ هـ/١١٢٨ م. فقد ذاع صيته منذ سنة ٦١٤ هـ/١٢١٧ م، حين كان قائداً صغيراً للموحدين على بعض جندهم. فسار في التاريخ المذكور برجاله وتسلّق حصن شنفيرة ليلاً. فاستولى عليه عنوة من حاميته النصرانية ومن هذه الوقيعة اشتهر ابن هود عند أهل شرق الأندلس وصاروا يقولون: هو الذي استرجع شنفيرة(٢٩١).

هناك عدة عوامل ساعدت ابن هود على نجاح ثورته على الموحدين. فمن ذلك سخط الأندلسيين وكراهيتهم للخلفاء الموحدين في أواخر دولتهم، بسبب نزاع هؤلاء الخلفاء على عرش الخلافة بمراكش وبالتالي استعانتهم بالممالك النصرانية ضد بعضهم البعض مقابل التنازل للنصارى عن بعض البلاد والحصون الأندلسية(٢٩٢).

اشتد فزع الأندلسيين وخوفهم من عواقب هذه الأحوال الجديدة.

(٢٩٠) ابن الآبار: نفس المصدر والجزء ص ٢٤٨ - ٢٥٢.

(٢٩١) الحميري: الروض المعطار ص ١١٦.

(٢٩٢) ابن خلدون: العبر ج ٦ ص ٢٥٢ - الناصري: الاستقصا ج ٢ ص ٢٠٦ - ٢٠٧ و ٢١١ - ٢١٤ - ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٦٣ - ١٦٤ و ١٦٧.

فكثرت الأراجيف وانتشرت التنبؤات بين الناس عن قرب ظهور مخلص من أصناف الجند اسمه محمد واسم أبيه يوسف يتم على يديه إنقاذهم وحمايتهم. فأحسن محمد بن يوسف بن هود استغلال هذه التنبؤات. وقبض الموحدون بسبب هذه النبوءة على كثير ممن اتفق أن يكون اسمهم محمد واسم أبيهم يوسف. فقتلوا رجلين من أهل جيان بسبب ذلك(٢٩٣).

ذكر الحميري بعض أرباب ثورة ابن هود فقال(٢٩٤): «دعا لنفسه محمد بن هود سنة ٦٢٥ هـ... ولم يكن إذ ذاك أحد من أكابر الأندلسيين يطمع في ثيادة ولا يحدث نفسه بها... لانتظام البرين على طاعة الدولة الممهدة القواعد ورجوع أُمورها إلى إمام واحد حتى اتفقت ثيارة العادل بمرسية ثم ثيارة البياسي ونكبته. ثم مبايعة أبي العلاء بـإشبيلية ففتحواْ على دولتهم باباً رحله منه غيرهم. فأوقع الله في خاطر ابن هود هذا أنـه يملك الأندلس وتحدث بذلك مع من يثق به».

نذكر رواية أُخرى أن أحد المنجمين التقى بمحمد بن يوسف بن هود فأمعن النظر فيه وقال له: «أنت سلطان الأندلس، فانظر لنفسك واطلب كـامن سعدك، وأنـا أدلّك عـلى من يقـوم بـأمـرك، فـانهض إلى المقـدم الفشتي(٢٩٥).

كان الفشتي رجلاً صعلوكاً قاطعاً للطرق. يعمل تحت إمرته مجموعة من الرجال الشجعان. فسار إليه ابن هود وطلب منه العون والمساعدة لتحقيق مراده. فوافق الفشتي على أن يوليه قيادة أساطيل الأندلس وقال له: «نستفتح الأمر بمغادرة إلى أرض العدو باسمك وعلى سعدك». ثم سار ابن هود وسار

---

(٢٩٣) ابن عذارى: البيان المغرب ق٣ ص٢٥٦ - ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص٢٧٨ - الإحاطة في أخبار غرناطة ج ٢ ص ١٢٨.
(٢٩٤) الروض المعطار ص ١١٨.
(٢٩٥) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ٢٧٩.

معه الفشتي بأصحابه فقاما بغزو بعض الحصون النصرانية فأحرزا الغنائم والأسلاب(٢٩٦).

ذاع صيت ابن هود فأخذ الناس وبعض الجند ينضمون إليه، فأحسن ابن هود استقبالهم ورحّب بهم. ثم سار بهم وبقواته إلى حصن الصخور - يعرف بالصخيرات أيضاً - وهو حصن منيع يقع على نهر شقورة بالقرب من مرسية - فدعا لنفسه في شهر رجب سنة ٦٢٥ هـ/يونية ١٢٢٨ م وتلقّى البيعة من أنصاره ورجاله بالإمارة وأخبرهم أنه سيملك الأندلس ويرد الدعوة العباسية(٢٩٧).

أخذ ابن هود بعد ذلك يستعد لقتال الموحدين واستخلاص البلاد منهم. فرأى أن يستولي أولاً على مدينة مرسية فسار واستولى عليها وقبض على واليها الموحدي السيد أبي العباس ابن أبي عمران بمساعدة قاضي مرسية أبي الحسن القسطلي. خطب ابن هود في مدينة مرسية أول جمعة للمستنصر بالله العباسي ثم لنفسه باسم المتوكل على الله أمير المؤمنين(٢٩٨).

تذكر رواية أُخرى أن السيد أبا العباس بن أبي عمران والي مرسية الموحدي قد سار بقواته لقتال ابن هود في الصخيرات، فهزمه ابن هود وقبض عليه ثم سار ودخل مرسية رافعاً راية عباسية سوداء. فبويع في رمضان سنة ٦٢٥ هـ/أغسطس ١٢٢٨ م. وتسمّى بأمير المسلمين مقلّداً بذلك أُمراء المرابطين، فقطع الخطبة للموحدين وخطب للخليفة العباسي المستنصر بالله ونشر الرايات السود(٢٩٩). فقال بعض الشعراء هذين البيتين:

---

(٢٩٦) ابن الخطيب: نفس المصدر والصفحة - أحمد مختار العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٧١.

(٢٩٧) ابن الخطيب: الإحاطة ج ٢ ص ١٢٨ - ١٢٩ - محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع ٣ ق ٢ ص ٣٩٠ - ٣٩١ S. p. scott: Moorish Empire V.II p. 348

(٢٩٨) الحميري: الروض المعطار ص ١١٩ - ابن الآبار: الحلة السيراء ج ٢ ص ٣٠٨ - ٣٠٩

(٢٩٩) محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع ٣ ق ٢ ص ٣٩١.

وكـان مـن أعـقـابـه الأمـير محـمـد بـن يـوسـف الأخـير
وكـان باسـلاً شـديـد البـأس وبـايـع المستنصـر العبـاسي[٣٠٠]

قال أيضاً: الشاعر أبو ابراهيم بن سهل الإسرائيلي:

أعـلامـه السـود أعـلام بسؤدده كأنها فوق خـد الملك خيلان[٣٠١]

أدرك الموحدون خطورة ذلك فكلّفوا ولاتهم بالأندلس بالقضاء على ابن هود. فسار والي بلنسية السيد أبو زيد عبد الرحمن بـن أبي حفص بقواته لقتال ابن هود. لكن حلّت به الهزيمة وعاد إلى شاطبة. ثم بعث منها إلى الخليفة المأمون يعلمه بالهزيمة، ويطلب منه النجدة والعون. فقد كان المأمون آنذاك في مدينة إشبيلية ولم يعبر بعد البحر إلى المغرب[٣٠٢].

سار الخليفة المأمون بقواته من مدينة إشبيلية، والتقى في موقعة مع ابن هود خارج مرسية. فانهزم المأمون لابن هود أشنع انهزام وكتب إلى أهل إشبيلية يشرح الأحوال لهم فيها والأعلام، وامتدحت المأمون أبا العلاء جماعة من الشعراء. فقابلهم في جزل العطاء على هذه الهزيمة... ولم تزل الشعراء تمدحه في كل وقت، فيقابلهم بالبذل لا بالمقت[٣٠٣].

أما محمد عبد الله عنان فيقول[٣٠٤]: «ولما ذاع أمر ابن هود ووقف السيد أبو العلاء بإشبيلية - وكان يومئذ قد غدا الخليفة المأمون - على ما حدث في الشرق من هزيمة الموحدين وضياع مرسية ووصله صريخ السيد أبي زيد، أهمه ذلك وكان على وشك العبور إلى العدوة فآثر أن يبادر إلى الشرق لحسم الأمر قبل استفحاله. فغـادر إشبيلية وسار في بعض قواته صوب مرسية. وهنا

(٣٠٠) الناصري: الاستقصا ج ٢ ص ٢١٠.
(٣٠١) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب ص ٢٧٠ - ٢٧١.
(٣٠٢) ابن خلدون: العبر ج ٢ ص ١٦٨ - الناصري: نفس المصدر والجزء والصفحة.
(٣٠٣) ابن عذارى: البيان المغرب ق ٣ ص ٢٥٨ و ٢٦٠.
(٣٠٤) دولة الإسلام ع ٣ ق ٢ ص ٣٩٢.

تختلف الرواية حول ما حدث بينه وبين ابن هود. فهناك قول بأنه اشتبك مع ابن هود على مقربة من مرسية في معركة هزم فيها ابن هود وارتد إلى مرسية فامتنع بها. وذلك في أواخر سنة ٦٢٥ هـ وعاد المأمون ظافراً إلى إشبيلية فامتدحه الشعراء وأجزل لهم العطاء.

يستمر محمد عبد الله عنان(٣٠٥) في الحديث يقول: «ويزيد ابن الخطيب هذه الرواية تفصيلاً فيقول إن المأمون تحرّك في جيش إشبيلية باستدعاء أخيه السيد أبي زيد والي بلنسية. فتحرّك المأمون إليه واحتل غرناطة في رمضان من عام خمسة وعشرين وستمائة وأنفذ منها كتابه إليه يشجّعه ويعلمه بنفوذه إليه. وانضم إليه جيش غرناطة وما والاها. ثم سار نحو الشرق فبرز ابن هود إلى لقائه. فكان اللقاء بخارج لورقة فانهزم ابن هود وفرّ إلى مرسية وعساكر الموحدين في عقبه. وفي رواية أُخرى أنه لم يقع قتال ولكن المأمون حاصر مرسية حيناً فامتنعت عليه فكرّ راجعاً إلى إشبيلية وذلك في أوائل سنة ٦٢٦ هـ/١٢٢٩ م».

عاد الخليفة المأمون إلى إشبيلية. فصرف نظره عن الاهتمام بشؤون الأندلس، أو حتى التفكير بالقضاء على ابن هود. فقد بلغه أن شيوخ الموحدين بمراكش نكثوا بيعته وبايعوا يحيى بن الناصر بالخلافة. فاستشاط غضباً وأخذ يتهيّأ للعبور إلى المغرب من أجل القضاء على خصمه والانتقام من شيوخ الموحدين(٣٠٦) لذلك عقد الخليفة المأمون قبيل عبوره إلى المغرب معاهدة مع ملك قشتالة، واستعان بفرقة من الفرسان النصارى عددها خمسمائة فارس ثم عبر البحر، فترتّب على ذلك انتهاء الحكم الموحدي في بلاد الأندلس(٣٠٧).

(٣٠٥) نفس المرجع والصفحة.

(٣٠٦) ابن عذارى: البيان المغرب ق ٣ ص ٢٦٠ و ٢٦٤ و ٢٦٩ - الناصري: الاستقصا ج ٢ ص ٢٠٨ - ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة ج ٢ ص ١٣٠.

(٣٠٧) J. F. O'callaghan: A History of medieval spain p. 339

ـ طاعة الأندلس لابن هود:

أخذ ابن هود ـ قبل أن يعبر الخليفة المأمون البحر إلى المغرب ـ يسير بقواته للاستيلاء على بلاد الأندلس من الموحدين فخشي السيد أبو زيد والي بلنسية لقاء ابن هود وعاد بقواته من شاطبة إلى ولايته بلنسية. فقام على الفور الرئيسان أبو زكريا وأبو عبد الله أبناء الرئيس أبي سلطان عزيز واليا جزيرة شقر ومدينة شاطبة وأعلنا ولاءهما وطاعتهما لابن هود(٣٠٨).

أعلنت أيضاً مدينة جيان الولاء والطاعة لابن هود. كان والي جيان آنذاك أبو علي عمر بن عيسى بن الشيخ أبي حفص فأعلن هو الآخر الطاعة والولاء لابن هود. ذلك أن الخليفة أبا العلاء المأمون تنازل عن مدينة جيان للنصارى وكتب لواليها أبي علي بتسليمها إليهم. فتورّع أبو علي أن يفعل ذلك وجمع أهل البلد. فقال لهم: شأنكم وبلدكم فإني لا أخرجه من يدكم لأحد من أعداء الملّة ولا من أعدائكم. فأخبروه أن إرادتهم مبايعة ابن هود. فبعايه معهم ثم ارتحل إليه بنفسه فأعظم قدره. ولم يزل عنده تحت بر وإكرام إلى أن ركب البحر إلى إفريقيا(٣٠٩).

أعلنت كذلك مدينة إشبيلية الولاء والطاعة لابن هود. فقد انتهز أهلها مسير الخليفة المأمون بقواته إلى الجزيرة الخضراء واجتمعوا بموضع يعرف بالنخيل فتكاثر القال والقيل إلى أن خلعوا طاعة الدولة الموحدية والتزموا طاعة الدولة الهودية. ثم كتب أبو بكر بن البناء كتاباً بعثه إلى ابن هود. فأرسل أبو الحسن عضد الدولة أخو ابن هود جواب الكتاب إلى أهل إشبيلية ضمّنه الشكر والتهنئة لاجتماعهم على الطاعة ودخولهم في حزب الجماعة وعلى قيامهم بالدعوة العباسية وخلعهم الدعوة الموحدية(٣١٠). ثم عيّن ابن هود

(٣٠٨) ابن خلدون: العبر ج ٤ ص ١٦٨ ـ ١٦٩ ـ ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ٢٨٠ ـ الناصري: نفس المصدر والصفحة.

(٣٠٩) الأندلسي: الحلل السندسية ص ٢٦١.

(٣١٠) ابن عذارى: البيان المغرب ق ٣ ص ٢٧٠ ـ وانظر الناصري: الاستقصا ج ٢ ص ٢١٠

على مدينة إشبيلية أخاه أبا النجا سالم الملقّب بعماد الدولة(٣١١).

شار ابن هود بقواته وراء الخليفة المأمون. فلقيه في جزيرة طريف يهمّ بالعبور إلى المغرب فنشب بينهما موقعة في ٦ رمضان سنة ٦٢٦ هـ/ ٣١ يوليو ١٢٢٩ م عرفت بموقعة طريف فأسفرت الموقعة عن هزيمة الخليفة المأمون وعبوره البحر إلى المغرب. فاستولى ابن هود على جبل الفتح والجزيرة الخضراء(٣١٢).

أعلنت على أثر ذلك معظم قواعد الأندلس الولاء والطاعة لابن هود. فدخلت في طاعته مدينة ماردة وبطليوس فعيّن عليها ولاة من قبله(٣١٣). ثم قام أهل قرطبة على الموحدين فقتلوا واليهم الموحدي السيد أبا الربيع وبايعوا ابن هود(٣١٤). كما أعلنت مدينة دانية الولاء والطاعة لابن هود. فعيّن عليها أبا الحسين يحيى بن أحمد. ثم عيّن على مدينة مرسية أبا بكر عزيز ابن عبد الملك بن خطاب(٣١٥).

أعلنت كذلك مدينة المرية الولاء والطاعة لابن هود. فجعل على ولايتها أبا عبد الله بن الرميمي. ثم أعلنت مدينة مالقة الولاء والطاعة لابن هود، فعيّن عليها أبا عبد الله بن زنون. ثم دخلت مدينة غرناطة في طاعة ابن هود، فأسند ولايتها إلى أبي يحيى عقبة بن يحيى الزجولي(٣١٦).

هكذا دخلت معظم قواعد ومدن الأندلس في طاعة ابن هود. فلم يبق

(٣١١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ٢٨٠ والإحاطة ج ٢ ص ١٣١ - ابن خلدون: العبر ج ٤ ص ١٦٩.

(٣١٢) مؤنس في تحقيقه لكتاب ابن الآبار: الحلة السيراء ج ٢ ص ٣٠٣ حاشية رقم ١ - S. p. scott: Moorish Empire V.II p. 348

(٣١٣) ابن خلدون: العبر ج ٤ ص ١٢٩ - ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ٢٧٧ و ٢٧٩ - ٢٨٠ - الإحاطة ج ٢ ص ١٢٩ - ١٣٠ - يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس ص ٤٠٨.

(٣١٤) ابن عذارى: البيان المغرب ق ٣ ص ٢٧٤.

(٣١٥) ابن الآبار: الحلة السيراء ج ٢ ص ٣٠٣ و ٣٠٨.

(٣١٦) ابن الخطيب: الإحاطة ج ٢ ص ١٢٩.

للموحدين سلطان على الأندلس. أما بقايا جند الموحدين فقد اعتدى عليهم أهل الأندلس بالقتل وأجلوهم واستأصلوهم إلا من ستره الله منهم وأخفاه في ذلك الزمان(٣١٧). يقول الناصري(٣١٨): «خرجت بلاد الأندلس كلها من ملك الموحدين، ونفاهم عنها ابن هود الثائر بها وقتلتهم العامة في كل وجه». كذلك يقول ابن الخطيب(٣١٩) خلال حديثه عن ابن هود: «فتح الجزيرة الخضراء عنوة، وقد كان انضم إليهم بقايا المغربيين، فأجازهم إلى المغرب وصحّ له تملّك الأندلس وإطاعته سبتة وملك رباط الفتح بسلا أياماً».

قبض أهل مدينة إشبيلية في سنة ٦٢٧ هـ/ ١٢٣٠ م على عبد الله بن محمد بن وزير وعلى أخيه عبد الرحمن بن محمد بن وزير، وهما من ولاة الموحدين وقوادهم في غربي الأندلس. فقتلهما ابن هود(٣٢٠).

أصبح ابن هود يملك بلاد الأندلس كلها ما عدا مدينة بلنسية ومدينة لبلة. فقد استبد أبو جميل زيان بمدينة بلنسية. فأرسل الفقيه أبو بكر عزيز بن خطاب ـ والي مرسية من قبل ابن هود ـ كتاباً إلى أبي عبد الله بن قاسم خطيب بلنسية. طلب منه حض أبا جميل زيان بن مردنيش على الدخول في طاعة أمير المسلمين ابن هود حقناً لدماء المسلمين ورغبة في الاتحاد في وجه أعداء الدين. فيكتسب بذلك أبو جميل زيان محبة أهل الأندلس والمسلمين أجمع(٣٢١).

---

(٣١٧) ابن عذارى: البيان المغرب ق ٣ ص ٢٦٩.

(٣١٨) الاستقصا ج ٢ ص ٢١٤.

(٣١٩) أعمال الأعلام ص ٢٨٠.

(٣٢٠) ابن الآبار: الحلة السيراء ج ٢ ص ٢٩٥ ـ ٢٩٦.

(٣٢١) محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع ٣ ق ٢ ص ٣٩٥.
يدعو بعض الفقهاء والمفكرين الأندلسيين أيضاً إلى وحدة الأندلس في عهد ملوك الطوائف للوقوف صفاً واحداً أمام النصارى. فمهدوا بذلك السبيل للاستعانة بالمرابطين (انظر حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين ص ٢٦١ و ٢٦٦).

يبدو أن ابن محفوظ صاحب لبلة قد رفض هو الآخر إعلان الولاء والطاعة لابن هود، فاستمر على ولائه للموحدين. لذلك سار ابن هود بقواته وحاصر ابن محفوظ في مدينة لبلة وضيّق على أهلها وأرهقهم، لكنه لم يستطع الاستيلاء عليها. فقد وصل ملك قشتالة بقواته لنجدة ابن محفوظ، فتراجع ابن هود عن حصار لبلة وعاد بقواته(٣٢٢).

- طاعة بعض بلاد المغرب لابن هود:

أعلنت بعض بلاد المغرب والقبائل الولاء والطاعة لابن هود. ففي شهر شوال سنة ٦٢٩ هـ/أغسطس ١٢٣٢ م ثار والي سبتة الموحدي السيد أبو موسى عمران على أخيه الخليفة المأمون بمراكش. فسار إليه الخليفة المأمون بقواته وضرب حصاراً شديداً على سبتة استمر زهاء ثلاثة أشهر دون أن يتمكن من الاستيلاء عليها. فقد طلب السيد أبو موسى عمران النجدة والمؤن من ابن هود. فكانت سفن ابن هود تحمل إليه من الأندلس الأقوات والمعدّات مما ساعده على الصمود ومقاومة الحصار. ثم بلغ الخليفة المأمون أثناء ذلك استيلاء خصمه الخليفة المعتصم على مدينة مراكش. فترك حصار سبتة وعاد بقواته(٣٢٣).

سار على أثر ذلك السيد أبو موسى عمران إلى الأندلس. فبايع ابن هود وقدم له فروض الولاء والطاعة ثم تنازل له عن مدينة سبتة. فشكره ابن هود وعوّضه عنها بأن جعله والياً على مدينة المرية(٣٢٤).

وفى ابن هود بعهده لقائده الفشتي فولّاه أسطول إشبيلية مضافاً إلى

(٣٢٢) ابن عذارى: البيان المغرب ق ٣ ص ٢٦٩.

(٣٢٣) ابن خلدون: العبر ج ٦ ص ٢٥٣ - ٢٥٤ - ابن الخطيب: الإحاطة ج ١ ص ٤١٧ - الناصري: الاستقصا ج ٢ ص ٢١٤ - ٢١٥ - B. Meakin: The moorish Empire p. 86

(٣٢٤) ابن خلدون: نفس المصدر والجزء والصفحة - الناصري: نفس المصدر والجزء ص ٢١٥.

أسطول سبتة فبقي الفشتي والياً على سبتة وقيادة أساطيلها لابن هود إلى أن خلعه أهل سبتة. ففي ذلك يقول ابن الخطيب(٣٢٥): «ووفى للفشتي بعهده فولّاه أُسطول إشبيلية ثم أسطول سبتة مضافاً إلى إمرتها وما يرجع إليها. وثار به أهلها بعدها وخلعوه وفرّ أمامهم في البحر وخفي أثره إلى أن تحقق استقراره أسيراً في البحر بغرب الأندلس».

أعلنت كذلك مدينة رباط الفتح بسلا الطاعة والولاء لابن هود(٣٢٦). ثم أرسل عرب الخلط في المغرب ومراكش وفداً إلى الأندلس برئاسة عمر بن وقاريط. فبايع ابن هود-وقدّم له فروض الولاء والطاعة. وطلب منه العون والمساعدة على قتال الخليفة الرشيد بمراكش(٣٢٧).

ـ كتاب الخليفة العباسي:

وفي نفس العام ٦٢٩ هـ/١٢٣٢ م أو في سنة ٦٣١ هـ/١٢٣٤ م، وصل إلى الأندلس أبو علي حسن بن علي بن حسن بن الحسين الكردي الملقب بالكمال قادماً من بغداد رسولاً من قبل الخليفة المستنصر بالله العباسي. فكان يحمل كتاب تقليد ابن هود ولاية الأندلس. ولقّبه المتوكل أمير المسلمين والراية السوداء، والخلعة والهدية. كان ابن هود وقتئذ في مدينة غرناطة. فقرأ كتاب الخليفة العباسي على الناس أثناء صلاة الاستسقاء. وابن هود في زيّه الأسود، والراية السوداء بين يديه، فما أن انتهى الخطيب من قراءة الكتاب حتى جادت السماء بالمطر والغيث. فكان يوماً مشهوداً(٣٢٨).

ومما جاء في الكتاب ما يلي: «والحمد لله الذي اختار محمداً ﷺ من أطيب قريش عنصراً وأروقه، وأزكاها أصلاً وجرثومة، وأكرمها خؤولة

(٣٢٥) أعمال الأعلام ص ٢٧٩ والإحاطة ج ٢ ص ١٢٩.

(٣٢٦) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ٢٨٠.

(٣٢٧) ابن خلدون: المصدر السابق ج ٦ ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥ ـ الناصري: المصدر السابق ج ٢ ص ٢١٩.

(٣٢٨) محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع ٣ ق ٢ ص ٤١١ ـ ٤١٢.

وعمومة... فصلى الله عليه وعلى آله الذين رفعوا منار أوامره المتّبعة... وعلى عمه ابن عبد المطّلب خير الأعمام وكافل الأيامى والأيتام، وصاحب زمزم والمقام، والمخصوص بسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام... ومن قال في حقه سيد الأنام محمد خاتم النبيين عليه أفضل الصلاة والسلام: «يا عم فيكم النبوءة والخلافة لا ينازعكم فيها منازع إلا أكبّه الله لوجهه. ولا يزال الأمر في ولدك حتى يسلموه إلى عيسى بن مريم». ثم جاء في الكتاب أن الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور المستنصر بالله أمير المؤمنين قد قلّد محمداً بن يوسف بن هود أمر جزيرة الأندلس، وما يجري معها من الولايات والبلاد، ويسوغه ما يفتتحه من ممالك أهل الشرك والعناد، تقليداً صحيحاً شرعياً، وتسويفاً صريحاً أمامياً. ثم جاء في الكتاب أن الخليفة العباسي أمر ابن هود بتقوى الله، واتخاذ القرآن دستوراً، والعمل بسنّة النبي محمد ﷺ، ومجالسة العلماء والفقهاء، وإقامة العدل بين الناس، ثم أمره أن يعتمد في مجاهدة الكفّار الملاعين، وأحزاب الشيطان المشركين، ما أمر الله به في قوله عزوجل: ﴿يا أيّها النبي جاهد الكفّار والمنافقين وأغلظ عليهم﴾، وقوله: ﴿يا أيّها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفّار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين﴾، وقوله تعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين﴾. أما ألقاب ابن هود التي وردت في الكتاب فهي: «الأمير الأصفهصلار الكبير، الأجل المرابط الثاغر الغازي، مجاهد الدين مجد الإسلام، جمال الأنام، نجم الدولة، عز الملة، معين الأمة، فخر الملوك، قامع المشركين، قاهر الخوارج والمتمردين، زعيم الجيوش، شرف الأمراء، تاج الخواص(٣٢٩)».

---

(٣٢٩) انظر نص الكتاب عند ابن الخطيب: أعمال الأعلام. ص ٢٨٠ ـ ٢٨٦ ـ كما وردت بعض فقراته عند ابن عذارى: البيان المغرب ق ٣ ص ٢٧٧ ـ ٢٧٨ ـ وعند محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع ٣ ق ٢ ص ٤١٢ ـ ٤١٣.

أضاف هذا الكتاب الصفة الشرعية على حكم ابن هود لبلاد الأندلس. فقد بعث ابن هود إلى جميع ولاته بالأندلس، يعلمهم بكتاب الخليفة العباسي، وطلب منهم بأن يكتب عنه إلى البلاد بجميع ألقابه التي ورد ذكرها في الكتاب(٣٣٠). ثم قلّد ابنه أبا بكر محمداً ولاية العهد ولقّبه الواثق بالله. وأخذ له البيعة على أهل الأندلس(٣٣١).

اتخذ ابن هود في كتبه علامة «توكلت على الله الواحد القهّار» واتخذ إخوته العلامات والألقاب أيضاً، واتخذ أخوه الأمير أبو النجا سالم علامة «وثقت بالله» وتلقّب بعماد الدولة. وتلقّب أخوه الأمير أبو الحسن بعضد الدولة، وتلقّب أخوه الثالث الأمير أبو إسحاق بشرف الدولة فكلهم كان يكتب عنهم من الأمير فلان بألقابهم وعلاماتهم يعرفون بها عند رعيتهم(٣٣٢).

كان محمد بن يوسف بن نصر قد ثار على ابن هود سنة ٦٢٩ هـ/١٢٣٢ م فاستقل في مدينة جيان وأرجونة، ودعا للأمير أبي زكريا الحفصي أمير إفريقيا فلما ورد كتاب الخليفة العباسي بتقليد ابن هود ولاية الأندلس، قطع محمد بن نصر الخطبة للأمير أبي زكريا الحفصي، وعاد لطاعة ابن هود والدعاء له بعد الخليفة العباسي(٣٣٣)

ـ علاقة ابن هود بالنصارى:

لم يتوان المتوكل بن هود في أول أمره بصفته أمير الأندلس الشرعي عن توفير الأمن والأمان لرعيّته، وقتال الممالك النصرانية لمنعها من الاستيلاء على

(٣٣٠) ابن الخطيب: نفس المصدر ص ٢٨٠، والإحاطة ج ٢ ص ١٣١ ـ ١٣٢.
(٣٣١) ابن عذارى: نفس المصدر ص ٢٧٨ ـ ابن الخطيب الإحاطة ج ٢ ص ١٣٢ ـ ابن خلدون العبر ج ٤ ص ١٦٩.
(٣٣٢) ابن عذارى: نفس المصدر ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨، ابن الخطيب: الإحاطة ج ٢ ص ١٣١.
(٣٣٣) ابن خلدون: نفس المصدر والجزء ص ١٧٠.

بلاد الأندلس. فحين بلغه غزو النصارى مدينة وادي آش، خرج بقواته مسرعاً من مدينة مرسية ولكنه وجد النصارى قد عادوا لبلادهم فلحقهم على ثمانين ميلاً، وأتى على آخرهم ولم ينج منهم أحد(٣٣٤).

ثم حاول أن يرد عدوان ألفونسو التاسع ملك ليون، ليحول دون سقوط البلاد في يده ففي سنة ٦٢٧ هـ/١٢٣٠ م، سار ملك ليون بقواته فغزا بلاد الأندلس، وضرب الحصار على مدينة ماردة. فلما سمع ابن هود بذلك أسرع بقواته لنجدتها، لذلك ترك ملك ليون حصار ماردة، وتقدّم بقواته للقاء ابن هود، فنشبت بينهما معركة عند حصن الحنش بالقرب من ماردة. فحلّت الهزيمة بابن هود رغم بلائه في القتال. فقد اخترق صفوف النصارى ثم لما كرّ إلى ساقته وجد الناس منهزمين عنه لما غاب عنهم، فاستولت عليه هزيمة شنيعة. عاد ملك ليون بعد الموقعة منتصراً فاستولى على مدينة ماردة وعلى مدينة بطليوس(٣٣٥).

أخذ ملك قشتالة هو الآخر يسير بقواته للاستيلاء على بلاد الأندلس. فسار واستولى على آندوجر بعد أن ألحق بأهلها الهزيمة(٣٣٦). ثم سار وحاصر مدينة أبدة زهاء ستة أشهر، فلم يحاول ابن هود نجدتها خوفاً من أن تلحق به هزيمة كالسابقة فاضطرت المدينة إلى التسليم مقابل تأمين أهلها على أنفسهم وأموالهم ثم المسير منها إلى الأراضي الإسلامية(٣٣٧).

تم استيلاء ملك قشتالة فرناندو الثالث على مدينة أبدة بمساعدة الفرق

---

(٣٣٤) ابن الخطيب: الإحاطة ج ٢ ص ١٣١.

(٣٣٥) ابن الخطيب: نفس المصدر ص ١٣٠ - ابن الآبار: الحلة السيراء ج ٢ ص ٢٩٦ - محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع ٣ ق ٢ ص ٣٩٩ - ٤٠٠ S. p. scott: Moorish empire V.II p. 348 - J. F. O'callaghan A History of medieval spain p. 339

(٣٣٦) ابن عذارى: البيان المغرب ق ٣ ص ٢٦٦ - ٢٦٧ - J. F. O'callaghan: opcit: p. 344

(٣٣٧) محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع ٣ ق ٢ ص ٤٠١ - ٤٠٢.

العسكرية والأساقفة من رجال الدين في سنة ٥٣٠ هـ/١٢٣٣ م. ثم سار بقواته فحاصر أرجونة وجيان ولكنه لم يستطع الاستيلاء عليهما. فبعث بعض رجاله بالقوات إلى منطقة الاسترامادورة في غربي الأندلس. فاستولوا على ترجالة ومدلين وشنتقروس وحصن الحنش خلال سنتي ٦٣٠ - ٦٣٢ هـ/١٢٣٣ - ١٢٣٥ م. كذلك أخذ ملك البرتغال سانشو الثالث يسير بقواته للاستيلاء على بعض بلاد الأندلس. فاستولى في سنة ٦٢٩ هـ/١٢٣٢ م على مورة وشربة وغيرهما من الحصون الواقعة جنوبي باجة(٣٣٨).

ثم رأى ابن هود أن يصرف النصارى عن غزو الأندلس بالصلح والمهادنة فهو لا قبل له بلقاء النصارى والتغلّب عليهم. ففي سنة ٦٣٠ هـ/١٢٣٣ م أرسل إلى ملك قشتالة يعرض عليه الصلح والكف عن غزو الأندلس مقابل ألف دينار كل يوم فوافق الملك(٣٣٩).

انتهز ملك قشتالة فرصة قتال ابن نصر لابن هود ومنافستهما على الانفراد بحكم الأندلس. فبعث إلى ابن هود سنة ٦٣٢ هـ/١٢٣٥ م يطلب تجديد شروط الصلح المعقود بينهما. فأحسن ابن هود استقبال سفير ملك قشتالة ثم وافق على شروط الملك وعقد مع السفير معاهدة صلح جديدة مدتها أربعة أعوام يدفع خلالها ابن هود جزية مقدارها أربعمائة ألف دينار(٣٤٠).

تذكر رواية أخرى أن مدة الصلح ثلاث سنوات ومقدار الجزية مائة

---

(٣٣٨) J. F. O'callaghan: A History of medieval spain p. 344

(٣٣٩) ابن عذارى: المصدر السابق ص ٢٨٨ - ابن خلدون: العبر ج ٤ ص ١٦٩ - ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٨٣ - Ibid - s.p. scott: A History of moorish Empire V.II p. 359

(٣٤٠) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٨٣ - S.p. scott: opcit p. 360

ألف وثلاثون ألف دينار. فدفع ابن هود منها مقدماً خمسين ألف دينار وتعهّد بدفع الباقي على أقساط خلال مدة الصلح. وكان من شروط هذا الصلح أن يتنازل ابن هود لملك قشتالة عن بعض حصون الأندلس بلغت ثلاثين حصناً. بينما لم يتعهد ملك قشتالة بموجب هذا الصلح سوى بالكف عن غزو الأندلس والتخلّي عن معاونة ابن نصر. ثم مساعدة ابن هود على احتلال قرطبة(٣٤١).

ألزم ابن هود رعيّته ببقية المال الذي تعهّد بدفعه لملك قشتالة بموجب المعاهدة، فقسّطه على البلاد وأمر ولاته بجمعه. لكن ملك قشتالة خرق شروط الصلح. فقد سار في العام التالي ٦٣٣ هـ/١٢٣٦ م واستولى على مدينة قرطبة. فسار ابن هود بقواته لنجدة المدينة، لكنه توقف فجأة على بعد منها ولم يحرّك ساكناً ثم عاد من حيث أتى(٣٤٢).

أصدر ابن هود كتاباً إلى ولاته بعد سقوط قرطبة بعام واحد، حثّهم فيه على الرفق بالرعيّة، واختيار العمال ذوي الصفات الحسنة والالتزام بحدود الله. فكان مما جاء في الكتاب: «أما بعد حمداً لله الذي أوضح للحق سبيلا، ومد ظل رحمته على الخلق ظليلا، وجعل العدل بحفظ نظام الإسلام كفيلاً... ورضوان الله يتولى على سيدنا ومولانا الإمام المستظهر بالله أبو جعفر المنصور أمير المؤمنين... فأول ما نوصيكم به وأنفسنا تقوى الله العظيم، وخشيته في كل حال ومراقبة أمره ونهيه.... والوقوف عند حدود الله التي حدها وأرصدها... ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه... والأخذ بالرفق... وتوخّي الحق الذي هو أوضح انبلاجاً من فلق الصباح والحلم والأناة.... والله الله في الدماء، فإنها أول ما يقضي بين الناس يوم القيامة.... ومما نأمركم به أن تبحثوا عن العمال ولا تشغلوا منهم إلا الحسن الطريقة المرضي الأعمال. ومن لم يكن منهم جارياً على القوانين

(٣٤١) محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق٢ ص ٤١٦ - ٤١٧ - J. F. O'callaghan: A History of medieval spain p. 344

(٣٤٢) ابن عذارى: البيان المغرب ق ٣ ص ٣٢٢ - ٣٢٣ - J. F. O'callaghan: opcit pp. 344 - 345

المرعية ناصحاً لبيت المال رفيقاً بالرعية، فليعوض منه غيره. . . وإذا وصلكم كتابنا هذا، فقصوه على الناس مفصلاً ومجملاً وأظهروا لهم مضامينه قولاً وعملاً. . . والسلام وكتب في الرابع والعشرين لجمادى الأولى عام أربعة وثلاثين وستمائة(٣٤٣)».

توفي ابن هود في مدينة المرية سنة ٦٣٥ هـ/١٢٣٧ م واختلفت المصادر في سبب وفاته فاتهمت واليه على المرية أبا عبد الله الرميمي بقتله(٣٤٤). ثم خلف ابن هود في الحكم ابنه الواثق بالله أبو بكر محمد بن محمد بن يوسف بن هود. لكنه خلع مدة ثم عاد مرة أخرى أواخر سنة ٦٣٧ هـ/١٢٣٩ م. قطع الواثق بالله بن هود الدعوة للعباسيين وخطب للحفصيين بإفريقيا(٣٤٥).

سار الأمير ألفونسو بن فرناندو الثالث ملك قشتالة للاستيلاء على مدينة مرسية. فلم يستطع الواثق بن هود مقاومته ولا حاول لقاءه في معركة. إنما بادر فأعلن الولاء والطاعة لملك قشتالة واعترف أنه يحكم مرسية بصفته تابعاً لملك قشتالة. فتراجع الأمير الفونسو عن قتاله وسار عنه بقواته إلى مدينة لقنت(٣٤٦).

ب ـ علاقة الموحدين السياسية بأبي جميل زيان

ـ أصله وثورته:

هو الأمير أبو جميل زيان بن أبي الحملات مدافع بن الرئيس بن يوسف بن سعد بن مردنيش. فجدّه هو يوسف بن سعد بن مردنيش أخو محمد بن سعد بن مردنيش أمير شرقي الأندلس في أواخر عهد المرابطين وأوائل عهد

(٣٤٣) انظر نص الكتاب عند ابن عذارى: نفس المصدر ص ٣٣٣ ـ ٣٣٥.

(٣٤٤) ابن الخطيب: الإحاطة ج ٢ ص ١٣٢ ـ محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع ٣ ق ٢ ص ٤٢٧ J. F. O'callaghan: A History of medieval spain p. 345

(٣٤٥) ابن عذارى: البيان المغرب ق ٣ ص ٣٣٧ ـ ٣٣٨ و ٣٤٤ و ٣٥٤.

(٣٤٦) R. Altamira: A history of spain p. 173

الموحدين بالأندلس ثم استخدم الموحدون أبناء آل مردنيش ـ بعد احتلال شرقي الأندلس ـ في شغل الولايات وقيادة الأساطيل فأسندوا ولاية شرقي الأندلس إلى الرئيس أبي الحجاج يوسف طوال حياته إلى أن توفي في سنة ٥٨٢ هـ/١١٨٦ م(٣٤٧).

خلف أبو الحجاج يوسف جملة من الأبناء والرؤساء. فمنهم أبو الحملات مدافع وأبو الظفر غالب وأبو الحارث سبع وأبو سلطان عزيز وأبو ساكن عامر وأبو محمد طلحة، هؤلاء رأسوا وشهروا بالبلاد الشرقية في أخريات دولة الموحدين. فلما انشقت العصا من لدن وفاة المستنصر خاضوا في الفتنة مع الخائضين واستقرت الرياسة في أبي جميل زيان بن أبي الحملات مدافع بن الرئيس يوسف بن سعد. وكان مدافع قد استشهد شاباً وفي حياة أخيه أبي السلطان عزيز بن سعد صاحب جزيرة شقر(٣٤٨).

ثار أبو جميل زيان ببلدة أبدة واعتصم بها فخشي والي بلنسية الموحدي السيد أبو زيد عبد الرحمن عواقب الانتفاض على الموحدين فسار إلى ملك أرغونة مستنجداً. فانتهز الفرصة أبو جميل زيان واحتل بلنسية ردعاً للعباسيين. ففي ذلك يقول ابن الخطيب(٣٤٩): «لما أزمع السيد أبو زيد عبد الرحمن بن يعقوب الخروج عن بلنسية والاعتصام ببعض معاقلها ليكون أقدر على ضبط أمره، وامتنعت عليه وألجأه الاضطرار إلى اللحاق بصاحب أرغون، بادر الرئيس أبو جميل ببلنسية من مستقره يومئذ بمدينة أبدة فدخلها يوم الإثنين السادس والعشرين من صفر سنة ٦٢٦ هـ، وسكن القصر وأخذ البيعة لنفسه أول ربيع الأول من السنة داعياً للعباسي ببغداد».

---

(٣٤٧) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ٢٧٢ ـ محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق ٢ ص ٣٩٣ ـ ٣٩٤.

(٣٤٨) ابن الخطيب: نفس المصدر والصفحة.

(٣٤٩) أعمال الأعلام ص ٢٧٢.

بينما يقول محمد عبد الله عنان[٣٥٠]: «كان أبو جميل زيان وقتئذ وزير السيد أبي زيد والي بلنسية وكبير بطانته ومدبر أمره». وفي رواية أخرى أنه كان قائد الأعنة المتولي أمر الدفاع عن بلنسية، فلما ارتد السيد أبو زيد منهزماً أمام ابن هود كما تقدم اضطربت الثورة في بلنسية والتف البلنسيون حول عميد بيت إمارتهم القديم أبي جميل زيان ونادوا برياسته. فوقعت الوحشة بينه وبين السيد أبي زيد. فغادر بلنسية إلى حصن أنده القريب وامتنع به واشتد الهياج وتفاقم الأمر في المدينة. فخشي السيد سوء العاقبة وغادر بلنسية بدوره في أهله وولده وأمواله. وذلك في أوائل شهر صفر سنة ٦٢٦ واعتصم ببعض الحصون القريبة وعندئذ بادر الرئيس أبو جميل زيان بالقدوم إلى بلنسية من مقره بحصن أنده. فدخلها في اليوم السادس والعشرين من شهر صفر سنة ٦٢٦ هـ/يناير ١٢٢٩ م ونزل بالقصر وعقد البيعة لنفسه وذلك في أول شهر ربيع الأول ودعا للخليفة المستنصر العباسي.

كان تخاذل والي بلنسية الموحدي السيد أبي زيد أحد أسباب ثورة أبي جميل زيان على الموحدين ففي ذلك يقول حسين مؤنس[٣٥١]: «كان يحكم بلنسية من أواسط سنة ٦٢٠ هـ/أواسط سنة ١٢٢٤ م أمير موحدي هو أبو زيد عبد الرحمن بن أبي عبد الله محمد بن أبي حفص بن عبد المؤمن وكان فرناندو الثالث ملك قشتالة إذ ذاك يعتبر بلنسية جزءاً من كورة طليطلة ومن ثم فهي من حق مملكة قشتالة. ولهذا فقد تصدّى للهجوم عليها وأحسّ أبو زيد عبد الرحمن بضعفه أمام ملك قشتالة. فدخل في طاعته على أن يحتفظ بالناحية في مقابل جزية سنوية يؤديها».

ويقول أيضاً حسين مؤنس[٣٥٢]: «وفي نفس الوقت كان خايمة الأول

---

(٣٥٠) دولة الإسلام ع٣ ق٢ ص ٣٩٤ - ٣٩٥.
(٣٥١) في تحقيقه لكتاب ابن الآبار: الحلة السيراء ج ٢ حاشية ص ٣٠٤.
(٣٥٢) نفس المصدر والجزء والحاشية والصفحة.

ملك أرغون يطمع في بلنسية ويعتبرها منطقة امتداد مملكته وحصل من البابا هـونوريوس الثالث على اعتراف بحقه في ذلك... ثم تقدم خايمة يحاصر بلنسية ومع أنه لم يسر معه إلى هذا الحصار من فرسان مملكته إلا القليل إلا أن أبا زيد عبد الرحمن خاف منه واتفق معه على أن يقدم له خمس خراج بلنسية ومرسية جزية سنوية... وكان هذا من أكبر أسباب قيام محمد بن يوسف بن هود في مرسية.... وثار على أبي زيد عبد الرحمن في بلنسية حفيد لمحمد بن سعد بن مردنيش يسمى أبو جميل زيان بن مدافع الجذامي وطرده منها».

أخذ أبو جميل زيان يسير بقواته للاستيلاء على بعض الجهات والقواعد القريبة، فاستولى على مدينة دانية وأسند ولايتها إلى ابن عمه أبي عبد الله محمد بن سبيع بن يوسف بن سعد بن محمد بن سعد الجذامي لكن ابن عمه هذ استبد بمدينة دانية وقام فيها عليه، ثم هرب وأسلمها(٣٥٣).

كذلك استولى أبو جميل زيان على حصن قربنيرة في شهر رجب سنة ٦٢٦ هـ/يونية ١٢٢٩ م ثم دخلت في طاعته جنجالة كما اعترف بطاعته أبناء عمومته المنتزين بجزيرة شقر وشاطبة السيدان أبو زكريا وأبو عبد الله إبنا الرئيس أبي سلطان عزيز بن الحاج بن سعد. لكنهما ما لبثا أن خلعا طاعة ابن عمهما أبي جميل زيان وبايعا ابن هود(٣٥٤).

يقول محمد عبد الله عنان(٣٥٥): «اضطربت الفتنة بين زيان وابن هود وزحف ابن هود على بلنسية. فخرج زيان للقائه فكانت عليه الهزيمة وتبعه ابن هود إلى بلنسية فامتنعت عليه وشغل ابن هود عندئذ بحوادث ومشاريع

(٣٥٣) ابن الآبار: الحلة السيراء ج ٢ ص ٣٦٧.
(٣٥٤) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ٢٧٢ و ٢٨٠.
(٣٥٥) دولة الإسلام ع ٣ ق ٢ ص ٣٩٥.

أخرى. وهكذا عمت الثورة أو الفتنة شرقي الأندلس وسرى الاضطراب إلى سائر أنحائه.

ـ محاولة السيد أبي زيد استرداد بلنسية:

سار السيدأبو زيد والي بلنسية الموحدي إلى ملك أرغونة كي يستعين به على استرداد ولايته بلنسية، فأحسن ملك أرغونة استقبال السيد أبا زيد واجتمع معه في قلعة أيوب في ٣ جمادى الثانية ٦٢٧ هـ/٢٠ إبريل ١٢٢٩ م. تم الاتفاق في هذا الاجتماع أن يساعد ملك أرغونة السيد أبا زيد على استرداد بلنسية ومرسية بشرط أن يعطيه أبو زيد ربع غلات كل ما يستولي عليه ذلك. قدم السيد أبو زيد للملك خايمة ضماناً على هذا الاتفاق. فتنازل له عن حصون بنشكلة ومرلة وكولة والبونت وشارقة وشيرب بينها سلّم الملك خايمة قلعتي الديموس وحبيب للسيد أبي زيد بصفة رهن وضمان(٣٥٦).

سار السيد أبو زيد بالقوات النصرانية لاسترداد مدينتي بلنسية ومرسية ثم لقتال أبي جميل زيان. لكنه وجد أن الأمور في الأندلس قد تطورت بسرعة في غير صالح الموحدين وأدرك استحالة تنفيذ اتفاقه مع ملـك أرغونة. فعاد وشرح للملك أحوال البلاد وعرض عليـه أن يقبله تابعـاً له عـلى بعض الحصون. فوافق الملك وعيّنه على حصن شيرب. كان ابن الآبار آنذاك يعمل كاتباً للسيد أبي زيد منذ أن كان والياً على بلنسية. فلما أقام السيد أبو زيد عند ملك أرغونة تخلّى عنه ابن الآبار وعاد إلى بلنسية فعمل كاتباً لأبي جميل زيان(٣٥٧).

---

(٣٥٦) حسين مؤنس في تحقيقه لكتاب ابن الآبار: الحلة السيراء ج ٢ ص ٣٠٥ ـ محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع ٣ ق ٢ ص ٣٩٧ ـ ٣٩٨.

(٣٥٧) حسين مؤنس: نفس المرجع ج ١ ص ٣٠ ـ ٣١ وج ٢ ص ٣٠٥ ـ محمد عبدالله عنان: نفس المرجع والصفحة.

تذكر بعض الروايات أن السيد أبا زيد اعتنق النصرانية بعد لجوئه إلى ملك أرغونة ففي ذلك يقول ابن خلدون(٣٥٨): «لحق السيد أبو زيد بطاغية برشلونة ودخل في دين النصرانية أعاذنا الله من ذلك» فيعلق حسين مؤنس على ذلك بقوله(٣٥٩): «يذهب بعض المؤرخين إلى أنه دخل في النصرانية وهو أمر نستبعده لأن مفارقة الدين في سن مثل هذه أمر غير يسير، خاصة من أمير موحدي مهما كان طبعه ورأينا فيه».

بينما يقول محمد عبد الله عنان(٣٦٠): «سقط السيد أبو زيد سقطته المؤسية ذلك أنه لم يكتف بهذا الانضواء المطلق تحت نير الملك النصراني ولكنه هوى إلى الدرك الأسفل. فاعتنق دين النصرانية. وهو سليل بني عبد المؤمن أئمة التوحيد وأقطابه ونبذ اسمه المسلم واختار اسماً نصرانياً هو بثنتي أو بالعربية بيجنت. وتزوج فيما بعد من سيدة نصرانية من أهل سرقسطة. وكان يسمى في الوثائق النصرانية بثنتي ملك بلنسية وحفيد أمير المؤمنين. ولم تقدم إلينا الرواية النصرانية تاريخ تنصر السيد أبي زيد ولكنها تقدم إلينا ما يفيد أنه كان يضمر هذه النية منذ عهد بعيد. أعني منذ أيام أن كان في بلنسية والياً عليها. وتقول لنا إن السيد طرد من بلنسية لما علم من أنه يبعث رسله السريين إلى البابا وإلى ملك أراجون يعرض اعتناقه للنصرانية ولما كان يبدو من إمارات استحسانه لهذا الدين».

أما ابن عذارى فيقول(٣٦١): «ومن الاتفاق الغريب أن نصرانيين وصلاه قبل ذلك بأمد قريب أعني للسيد أبي زيد. فقالا له: نراك تصل إلينا

(٣٥٨) العبر ج ٤ ص ١٦٧.
(٣٥٩) نفس المرجع ج ١ ص ٣٠.
(٣٦٠) دولة الإسلام ع ٣ ق ٢ ص ٣٩٨.
(٣٦١) البيان المغرب ق ٣ ص ٢٧٠.

وتدخل في ديننا فكره ما قالاه وقتلهما صبراً. فلم يكن بعد ذلك إلا قليلاً ولحق بالنصارى مرتداً وفارق أهله وولده واستوطن بينهم. ثم سقط من أعينهم. فرفضوه وأطرحوه. ولم يعش بعد ذلك إلا يسيراً».

ـ سقوط بلنسية:

رأى ملك أرغونة خايمة الأول أن ينتهز فرصة لجوء السيد أبي زيد إليه فيسير للاستيلاء على بلنسية وحصونها. ففي سنة ٦٣٠ هـ ٦٣١ هـ/١٢٣٣ م سار ملك أرغونة بقواته واستولى على أره ومرله. ثم استولى في شوال ٦٣٠ هـ/يوليو ١٢٣٣ م على بريانة بعد حصار من البر والبحر. ثم عاد فأخضع بنشكلة وبولبش وقسطليون وبريول وكويقاس وبن رومان والقلوطن وبيلانورنس. ثم وصلت غاراته إلى ضفاف نهر شقر وناحية البلاط. وعاد في العام التالي فاستولى على مصارة بلنسية وعلى حصني مكارة ومشروس(٣٦٢).

لم يستطع الأمير زيان منع ملك أرغونة من الاستيلاء على هذه الحصون. لكنه خشي أن يستولي الملك على حصن أنيشة المشرف على مرج بلنسية فقام بهدمه لكن ملك أرغونة أدرك معنى هدم الحصن لذلك أصر على احتلال موقعه وسار بقواته ومعه السيد أبو زيد المتنصر فتصدى المسلمون لقتال الملك فحلّت بهم الهزيمة واحتل الملك مكان الحصن وبنى عليه حصناً جديداً وضع فيه حامية نصرانية بقيادة خاله دون برناندو دي أنتنزا(٣٦٣).

أخذت الحامية النصرانية تهاجم المسلمين وتغزو بلنسية فخرج أبو جميل زيان بقواته ومعه أهل بلنسية واشتبك مع الحامية النصرانية في موقعة بالقرب من أنيشة. فانتهت بهزيمة فادحة للمسلمين. فقد استشهد فيُها عدد كبير من

---

(٣٦٢) حسين مؤنس: في تحقيقه لكتاب ابن الآبار: الحلة السيراء ج ١ ص ٣٣ ـ ٣٤.
(٣٦٣) محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع ٣ ق ٢ ص ٤٤٠ ـ ٤٤٢.

الفقهاء والعلماء علاوة على آلاف المسلمين وأصبح سقوط بلنسية أمراً مقضياً(٣٦٤).

سار ملك أرغونة بقواته للاستيلاء على بلنسية، فسار معه فرسان من قطالونية ومن جنوبي فرنسا بقيادة أسقف أربونة كما سار معه فرسان من نيرة وقشتالة. حاصر ملك أرغونة مدينة بلنسية فاستنجد أبو جميل زيان بالأمير أبي زكريا الحفصي في تونس. فبعث إليه أسطولاً لكن لم يتمكن رجاله من النزول إلى البر، ولم يستطيعوا الاستيلاء على بنشكلة بسبب الحصار المحكم. فعاد الأسطول من حيث أتى. ثم استسلمت بلنسية في ١٧ صفر سنة ٦٣٦ هـ/سبتمبر ١٢٣٨ م على أن يخرج واليها أبو جميل زيان بأهله وولده ومن يريد الخروج معه من المسلمين إلى دانية. فخرج نحو خمسين ألف مسلم(٣٦٥).

- الدعوة للحفصيين:

سار أبو جميل زيان بأهله وولده إلى جزيرة شقر فنزل فيها واتخذها مركز حكمه. ثم قطع الخطبة للعباسيين وخطب للحفصيين في إفريقيا. فقد أخذ من أهل جزيرة شقر البيعة للأمير أبي زكريا الحفصي وبعثها إليه مع كاتبه أبي محمد عبد الله بن الآبار(٣٦٦).

لم يبق أبو جميل زيان في جزيرة شقر سوى فترة قصيرة. فقد سار إليه أحد قواد ملك أرغونة فأخرجه منها واستولى عليها. سار أبو جميل زيان بعد

(٣٦٤) محمد عبدالله عنان: نفس المرجع والصفحة - الحميري: الروض المعطار ص ٣٢ - ٣٣ - J. F. O'callaghan: A History of medieval spain p. 347

(٣٦٥) حسين مؤنس في تحقيقه لكتاب ابن الآبار: الحلة السيراء ج ٢ ص ٣٠٥ -٣٠٦ - محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق ٢ ص ٤٤٤ - ٤٥١.

(٣٦٦) ابن خلدون: العبر ج ٤ ص ١٦٧ وج ٦ ص ٢٨٥.

ذلك إلى مدينة دانية فاتخذها مركز حكمه وأخذ بيعة أهلها للأمير أبي زكريا الحفصي بإفريقيا(٣٦٧).

فرض أبو جميل زيان طاعته على مدينة مرسية. فقد سار إليها بقواته في سنة ٦٣٦ هـ/١٢٣٩ م واستولى عليها بمساعدة أهلها، وقبض على حاكمها أبي بكر عزيز بن عبد الملك بن خطاب وقتله صبراً. ثم أخذ أبو جميل زيان بيعة أهل مرسية للحفصيين بإفريقيا، وبعثها بوفد إلى الأمير أبي زكريا الحفصي(٣٦٨).

بعث الأمير أبو زكريا الحفصي في العام التالي ٦٣٧ هـ/١٢٤٠ م مرسوماً إلى أبي جميل زيان بتقليده ولاية بلاد شرقي الأندلس. فوصل المرسوم إلى أبي جميل زيان. لكن أبا جميل زيان لم يستمر على ولاية شرقي الأندلس بعد ذلك سوى فترة قصيرة. فقد خلعه أواخر العام المذكور الواثق بالله محمد بن هود ثم سار الواثق بالله محمد بن هود على سياسة إعلان الولاء والطاعة للحفصيين في إفريقيا. فخطب لهم على منابره(٣٦٩).

سار الأمير ألفونسو بن فرناندو الثالث ملك قشتالة للاستيلاء على مدينة مرسية. فلم يستطع الواثق بالله بن هود مقاومته ولا حاول لقاءه في معركة. إنما بادر فأعلن الولاء والطاعة لملك قشتالة واعترف أنه يحكم مرسية بصفته

(٣٦٧) ابن خلدون: نفس المصدر ج ٦ ص ٢٨٥ ـ محمد عبدالله عنان: المرجع السابق ص ٤٥٦ ـ ٤٥٧.

(٣٦٨) ابن خلدون: العبر ج ٤ ص ١٦٩ ـ ١٧٠ وج ٦ ص ٢٨٥ ـ مجهول: الذخيرة السنية ص ٥٩ ـ ابن الآبار: الحلة السيراء ج ٢ ص ٣١٠ ـ ابن عذارى: البيان المغرب ق ٣ ص ٣٣٧ و ٣٥٤ ـ محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع ٣ ق ٢ ص ٤٥٧ ـ ٤٥٨.

(٣٦٩) ابن عذارى: نفس المصدر والصفحة ـ وانظر ابن خلدون: نفس المصدر ج ٦ ص ٢٨٥.

تابعاً لملك قشتالة. فتراجع الأمير ألفونسو عن قتاله وسار عنه بقواته إلى مدينة لقنت[٣٧٠].

جـ ـ علاقة الموحدين السياسية بابن نصر

ـ أصله وثورته:

هو محمد بن يوسف بن أحمد بن خميس بن نصر بن قيس الخزرجي الأنصاري. فينسب إلى سعد بن عبادة سيد الخزرج وأصله من أرجونة واشتهرت أسرته بقيادة الجند. كان محمد بن يوسف في أواخر عهد الموحدين يعرف بالشيخ ويلقب بأبي دبوس. كذلك أخوه اسماعيل يعرف بالشيخ. فقد كان لأسرتهم وجاهة في ناحية أرجونة الواقعة على مقربة من نهر الوادي وهي من أعمال ولاية جيان[٣٧١].

يقول الحميري[٣٧٢]: «أرجونة مدينة أو قلعة بالأندلس. إليها ينسب محمد بن يوسف بن الأحمر الأرجوني من متأخري سلاطين الأندلس».

كان أهل الأندلس في حالة فزع ورعب لتخلي الموحدين عنهم ولعجزهم عن رد غزوات النصارى. فبلغ اضطرابهم حداً جعلهم يعتقدون بالتنبؤات والأراجيف التي تردد القول عن قرب ظهور رجل من أصناف الجند اسمه محمد واسم أبيه يوسف يتم على يديه إنقاذ أهل الأندلس وحمايتهم. فكانت

---

(٣٧٠) R. Altamira: A history of spain p. 173

(٣٧١) المقري: أزهار الرياض ج ١ ص١٦٧ ـ ابن الخطيب: الإحاطة ج ٢ ص ٩٤ ـ محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق ٢ ص ٤١٤ ـ ٤١٥ (ونقلاً عن ابن عذارى: البيان المغرب القسم الثالث ص ٢٧٩، ابن خلدون: العبر ج ٤ ص ١٧٠).

(٣٧٢) الروض المعطار ص ١٢.

هذه النبوءة هي العلة المحركة لمحمد بن يوسف بن نصر ابن الأحمر. وجرى على الناس بسبب ذلك في زمن الموحدين امتحان شقي به قوم ممن وافق هذا الاسم أسماءهم أو أسماء أبائهم. وقتل بسبب ذلك شخصان من أهل جيان(٣٧٣).

يقول ابن سعيد(٣٧٤) في خبر قيام ابن نصر: «والضابط فيما يقال في شأن أهل الأندلس في السلطان أنهم أذا وجدوا فارساً يبرع الفرسان أو جواداً يبرع الأجواد تهافتوا في نصرته ونصبوه ملكاً من غير تدبير في عاقبة الأمر إلام يؤول؟!. وبعد أن يكون الملك في مملكة قد توورثت وتدوولت. ويكون في تلك المملكة قائد من قوادها قد شهرت عنه وقائع في العدو وظهر منه كرم نفس للأجناد ومراعاة قدموه ملكاً في حصن من الحصون.... ولم يزالوا في جهاد وإتلاف نفس حتى يظفر صاحبهم بطلبته، وأهل المشرق أصوب رأياً منهم في مراعاة نظام الملك والمحافظة على نصابه لئلا يدخل الخلل الذي يقضي باختلال القواعد وفساد التربية وحل الأوضاع. ونحن نمثل في ذلك بما شاهدناه لما كانت هذه الفتنة الأخيرة بالأندلس تمخضت عن رجل من حصن يقال له أرجونة ويعرف الرجل بابن الأحمر. كان يكثر مغاورة العدو من حصنه وظهرت له مخايل وشواهد على الشجاعة إلى أن طار اسمه في الأندلس دال ذلك إلى أن قدمه أهل حصنه على أنفسهم.

هناك سبب آخر دفع ابن نصر على القيام بالثورة وتأسيس دولة له. وهو عجز محمد بن هود عن حماية بلاد وسط وغربي الأندلس من النصارى وهزيمته أمامهم. ففي ذلك يقول ابن خلدون(٣٧٥): «انحجز ابن هود على الغربية لبعدها عنه وفقده للعصابة المتناولة لها. وإن لم تكن صنعته في الملك

(٣٧٣) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ٢٧٨.
(٣٧٤) في المقري: نفح الطيب ج ٢ ص ٩٧ ـ ٩٨ طبعة دار المأمون سنة ١٩٣٦ م.
(٣٧٥) العبر ج ٧ ص ١٩٠.

مستحكمة وتكالب الطاغية على الأندلس من كل جهة وكثر اختلاف المسلمين منهم وشغل بني عبد المؤمن بما دهمهم في المغرب من شأن بني مرين من زناتة. فتكافى محمد بن يوسف بن الأحمر أمر الغربية وثار بحصنه أرجونة. وكان شجاعاً ثبتاً في الحروب. فتلقف الكرة من يد ابن هود يجاذبه الحبل ويقارعه على عمالات الأندلس واحدة بعد الأخرى».

ـ الدعوة للعباسيين والحفصيين:

أعلن ابن نصر ثورته في سنة ٦٢٩ هـ/١٢٣٢ م في حصن أرجونة حيث موطن أسرته استعان ابن نصر في ثورته بأقربائه من بني نصر وبأصهاره من بني أشقيلولة. فأعلنت بعض البلاد الولاء والطاعة لابن نصر ودخلت في طاعته وادي آش وبسطة وشريش وجيان وقرطبة وقرمونة. تسمى ابن نصر على إثر ذلك بأمير المسلمين وخطب للعباسيين منافساً في ذلك ابن هود قيل أيضاً بأن ابن نصر خطب أول مرة للأمير أبي زكريا الحفصي في إفريقيا(٣٧٦).

أدرك ابن هود مدى خطورة قيام ابن نصر ودخول بعض البلاد في طاعته فقد اعتبره خارجاً عنه من ناحية، ومزاحماً له في حكم الأندلس من ناحية أخرى. فنشبت بينهما الحروب وحلّت الهزيمة بابن هود ثلاث مرات. يقول ابن الخطيب(٣٧٧): «وجرت على ابن هود هزائم شهيرة ووقائع مذكورة. أوقع به السلطان أبو عبد الله بن نصر ثلاث مرات آخرهن سنة ٦٣٣ أو ٦٣٤».

ـ اتساع دولته:

اتسعت دولة ابن نصر على أثر وفاة ابن هود سنة ٦٣٥ هـ/١٢٣٨ م

(٣٧٦) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص١٨٢ ـ ابن الخطيب: الإحاطة ص ٩٤ ـ ٩٥ ـ محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق٢ ص٤١٤ ـ ٤١٥ (نقلاً عن ابن عذارى: البيان المغرب القسم الثالث ص ٢٧٩، ابن خلدون: العبر ج ٤ ص ١٧٠).

(٣٧٧) أعمال الأعلام ص ٢٧٩.

فقد ثار أهل غرناطة بزعامة ابن أبي خالد على عقبة بن يحيى المغيلي واليهم من قبل ابن هود. وبعثوا بيعتهم إلى ابن نصر مع رجلين من كبار أعيانها هما أبو بكر الكاتب وأبو جعفر التيزولي. ثم استدعى أهل غرناطة ابن نصر إليهم، فسار بقواته ودخل غرناطة عند المساء أواخر رمضان من سنة ٦٣٥ هـ/مارس ١٢٣٨ م. فنزل قصر باديس باريس والشموع بين يديه واتخذ غرناطة عاصمة دولته(٣٧٨).

سار ابن نصر بقواته في نفس العام المذكور. فاستولى على مدينة المرية من صاحبها أبي عبد الله محمد بن الرميمي. وفي العام التالي ٦٣٦ هـ/ ١٢٣٩ م أعلنت مدينة مالقة الولاء والطاعة لابن نصر(٣٧٩).

قطع ابن نصر الخطبة للعباسيين في سنة ٦٣٦ هـ/١٢٣٩ م، وقيل في سنة ٦٣٧ هـ/ ١٢٤٠ م وخطب للموحدين في مراكش. فقد أخذ البيعة من جميع البلاد التي تحت طاعته وبعثها إلى الخليفة الموحدي الرشيد. فاستحسن الخليفة الرشيد فعله وشكره ثم كتب ابن نصر اسم الخليفة الموحدي في الكتب ونقشه على السكة(٣٨٠).

ـ الاستقلال بالدولة ومهادنة النصارى:

توفي الخليفة الرشيد في سنة ٦٤٠ هـ/١٢٤٣ م. فقطع ابن نصر الخطبة للموحدين وخطب للحفصيين في أفريقيا. فقد بعث بيعته مع أبي بكر بن عياش وأبي جعفر التيزولي إلى الأمير أبي زكريا الحفصي. فشكره الأمير أبو

(٣٧٨) ابن الخطيب: الإحاطة ج ٢ ص ٩٨ ـ ٩٩ ـ محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع ٣ ق ٢ ص ٤٣٠.

(٣٧٩) ابن الخطيب: الإحاطة ج ٢ ص ٤١٩ وأعمال الأعلام ص ٢٨٦ ـ محمد عبدالله عنان: نفس المرجع والصفحة.

(٣٨٠) مجهول: الذخيرة السنية ص ٦٠ ـ ابن خلدون: العبر ج ٤ ص ١٧٠ وج ٦ ص ٢٥٦ ـ الناصري: الاستقصا ج ٢ ص ٢٢٠ ـ محمد عبدالله عنان: نفس المرجع ص ٤٣١.

زكريا الحفصي وبعث إليه مالاً يستعين به في الجهاد[٣٨١].

استمر ابن نصر يدعو للحفصيين في إفريقيا حتى سنة ٦٢٧ هـ/١٢٤٩ م. فقد توفي في هذا العام الأمير أبو زكريا الحفصي. فقطع ابن نصر الخطبة للحفصيين وتسمى بأمير المسلمين[٣٨٢]. وربما اتخذ لقب الغالب بالله في هذا العام أيضاً. ثم قلد ابنه أبا سعيد فرج ولاية عهده. لكن ولي العهد توفي بعد فترة قصيرة. فعقد ابن نصر ولاية عهده لابنه الثاني محمد الملقب بالفقيه[٣٨٣].

لم يستطع ابن نصر الوقوف في وجه النصارى أو رد غزواتهم المتواصلة على بلاد الأندلس فأدرك استحالة التغلب عليهم ورأى أن يعقد معهم معاهدة صلح[٣٨٤] ففي سنة ٦٤٣ هـ/١٢٤٦ م عقد ابن نصر مع ملك قشتالة فرناندو الثالث معاهدة صلح مدتها عشرون سنة. فنصّت المعاهدة أن يتنازل ابن نصر لملك قشتالة عن مدينة جيان وأحوازها وعن بعض الحصون والمعاقل. وأن يعترف ابن نصر بالولاء والطاعة لملك قشتالة وأن يدفع مائة وخمسين ألف دينار وأن يعاونه في حروبه ضد أعدائه وأن يشهد اجتماع الكورتيس، وهو مجلس قشتالة النيابي بصفته من الأمراء التابعين للملك[٣٨٥].

---

(٣٨١) ابن الخطيب: الإحاطة ج ٢ ص ٩٥ و ٩٧ - محمد عبدالله عنان: نفس المرجع ص ٤٣٢.
(٣٨٢) ابن خلدون: المصدر السابق ج ٧ ص ١٩٠ - بروفنسال: نخب تاريخية ص ٥٣.
(٣٨٣) الناصري: الاستقصا ج ٣ ص ٣٨ - ابن الخطيب: اللمحة البدرية ص ٣٦ والإحاطة ج ٢ ص ٩٩ - محمد عبدالله عنان: نفس المرجع ص ٤٣٣.
(٣٨٤) يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس ص ٤٢٩ - ٤٣٠ و ٤٣٤.
(٣٨٥) محمد عبدالله عنان: المرجع السابق ص ٤٣٢ - ٤٣٣ - R. Altamira: A History of spain p.

الباب الثاني

علاقة الموحدين السياسية
بالممالك النصرانية الإسبانية

الفصل الأول

علاقة الموحدين السياسية بمملكة قشتالة

ـ اتفاق النصارى على تقسيم الأندلس:

اجتمع ملك قشتالة الفونسو السابع بملك أرغونة رامون برنجير الرابع في مدينة تطيلة في شهر جمادى الثانية من سنة ٥٤٥ هـ/يناير ١١٥١ م. . . فعقد الملكان بينهما اتفاقية عرفت باسم اتفاقية تطيلة، اتفقا فيها على تقسيم الأندلس بينهما، وتحديد مناطق غزواتها القادمة. فحصل ملك أرغونة بموجب هذه المعاهدة على حق غزو شرقي الأندلس، لكنه تعهد أن يحكم مدينتي بلنسية ومرسية بصفته تابعاً لملك قشتالة. . . ثم تعهد كل من الملكين باحترام حقوق الآخر والتعاون معاً على قتال المسلمين(١).

سار ألفونسو السابع ملك قشتالة بقواته ومعه ابن مردنيش سنة ٥٥٢ هـ/١١٥٧ م لنجدة نصارى المرية، لكنه عجز وعاد إلى بلاده يائساً حسيراً وتوفي في الطريق خلال عودته في شهر شوال ٥٥٢ هـ/أغسطس ١١٥٧ م. . . أوصى ملك قشتالة قبل وفاته بتقسيم مملكته بين ولديه سانشو وفرناندو على أن يحكم الولد الأكبر سانشو مملكة قشتالة فعرف بسانشو الثالث. . . أما ابنه الأصغر فكان نصيبه مملكة ليون فعرف بفرناندو الثاني(٢).

(١) J. F. O'callaghan: A history of mediev spain p. 232

(٢) G.F.O'callaghan: Opcit pp. 232-233,235-E. Barker and G. clark: the european inheritance (3 .Vels) exford 1950. Vip. 399

سار سانشو الثالث على سياسة أبيه... ففي سنة ٥٥٣ هـ/١١٥٨ م جدد مع رامون برنجير الرابع ملك أرغونة اتفاقية تطيلة الخاصة بتقسيم الأندلس بينهما(٣).

أخذ الموحدون من جانبهم يواصلون غزو مملكة قشتالة... فتركزت غزواتهم على قلعة رياح لاستردادها.. . فقد استولى عليها ملك قشتالة ألفونسو السابع خلال اضطراب الأندلس على المرابطين في أواخر دولتهم... ثم عهد بالدفاع عنها إلى فرسان الداوية... عاود الموحدون غزو قلعة رياح سنة ٥٥٣ هـ/١١٥٨ م فلم يستطع فرسان الداوية إنقاذها من السقوط إلّابشق الأنفس.. ثم سلموها إلى سانشو الثالث كي يتولى حمايتها.. وكان في مدينة طليطلة آنذاك راهب ورع يسمى رايموندو أو رامون رئيس دير فتيرو ومعه راهب من الفرسان اسمه ديجو بلا سكيث.. فسأل الراهبان الملك سانشو أن يعهد إليهما بحماية قلعة رياح، فاستجاب الملك لهما وأيّدهما يوحنا مطران طليطلة(٤).

أخذ الراهب رامون يلقي الخطب والعظات لجمع المتطوعين.. فوعد بالغفران كل من يهب للدفاع عن قلعة رياح، فاستجاب له آلاف المتطوعين من الفرسان والمشاة كما قدم له البعض الآخر السلاح والمؤن والخيل.. ثم سار الراهب رامون بهؤلاء المتطوعين إلى قلعة رياح فتمكن من حمايتها وصد غزوات الموحدين. ثم نظّم فرسان القلعة في جمعية هدفها الدفاع عن النصرانية.. فتطوّرت هذه الجمعية بسرعة وعرفت باسم فرسان قلعة رياح.. وبارك هذه الجمعية البابا إسكندر الثالث سنة ٥٥٩ هـ/١١٦٤ م(٥).

---

(٣) J. F. O'callaghan: opcit p. 235

(٤) محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق ٢ ص ٥١٩.

(٥) J. F. O'callaghan: opcit pp. 237 - 238 E. Barker and G. Clark: opcit p. 411 - E. prestage: chivalry p. 125

- استعدادات الموحدين لغزو النصارى:

قام الخليفة عبد المؤمن ببعض الأعمال استعداداً لغزو النصارى.. ففي سنة ٥٥٥ هـ/ ١١٦٠ م أمر ولديه وولاته على الأندلس ببناء مدينة في جبل طارق.. فتم بناؤها في بضعة شهور.. ثم عبر الخليفة عبد المؤمن البحر إلى هذه المدينة فأقام بها نحو شهرين، استقبل خلالهما وفود أهل الأندلس واستطلع أحوال النصارى ثم عاد إلى مراكش.. كان الهدف من بناء هذه المدينة أن تكون «منزلاً للأمير عند إجازة العساكر المنصورة ومحلاً ريثما تتقدم الرايات المظفرة والأعلام المنشورة إلى بلاد الروم[٦]».

يرى بعض المؤرخين: «أن العمل العسكري الهام الذي توّج أعمال عبد المؤمن وخلّد ذكراه هو تلك المدينة البحرية الحصينة التي بناها على سفح جبل طارق سنة ٥٥٥ هـ/ ١١٦٠ م وسماها مدينة الفتح لتكون قاعدة عسكرية كبرى لتجمعات جيوشه القادمة من المغرب.. ومنذ ذلك الوقت صار جبل طارق يعرف أيضاً بجبل الفتح[٧]».

أخذ عبد المؤمن بعد عودته إلى مراكش يستعد لغزو النصارى فأمر بإنشاء الأساطيل.. ففي ذلك يقول ابن صاحب الصلاة[٨]: «إن أمير المؤمنين رضي الله عنه نظر لله تعالى وجدّد عزمه وحزمه وصفى سرّه لربه في بعده وفي قربه في غزو الروم بجزيرة الأندلس وأضمر غزوة عظمى براً وبحراً ليلقى الله بها يوم القيامة بالفوز لديه والرجا. فأمر بإنشاء القطائع في سواحل العدوة والأندلس. فصنع منها زهاء مائتي قطعة أعد منها في مرسي المعمورة بحلق البحر على وادي سبو بمقربة سلا مائة وعشرين قطعة وقفت عليها وعددتها بالمرسي المذكور وأعد باقي العدد الذي ذكرته في أريـاف العدوة والأندلس.

(٦) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص ١٣٨، ١٤٧ - ١٧١.
(٧) أحمد مختار العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٤١.
(٨) المن بالإمامة ص ٢١٣ - ٢١٤.

ويقول الناصري[٩]: «لما تمهد لعبد المؤمن ملك المغربين وإفريقيا والأندلس.. فأمر رحمه الله في هذه السنة التي هي سنة سبع وخمسين وخمسمائة بإنشاء الأساطيل في جميع سواحل ممالكه.. فأنشأ له منها أربعمائة قطعة.. فمنها بحلق المعمورة وهي التي تسمى اليوم المهدية مائة وعشرون قطعة.. ومنها بطنجة وسبتة وبادس ومراسي الريف مائة قطعة ومنها ببلاد أفريقيا ووهران ومرسي هنين مائة قطعة ومنها ببلاد الأندلس ثمانون قطعة».

عني عبد المؤمن أيضاً بجمع المؤن والعلوفة واستجلاب الخيل والسلاح.. ثم توزيعها على الجند.. ففي ذلك يقول ابن صاحب الصلاة[١٠]: «وأعد من القمح والشعير للعلوفات والمواساة للعساكر على وادي سبو بالمعمورة المذكورة ما عاينته مكدساً كأمثال الجبال بما لم يتقدم لملك قبله ولا سمعنا به في جيل من الأجيال... ونظر رضي الله عنه في استجلاب الخيل له من جميع طاعاته بالعدوة وافريقيا وانتخاب الأسلحة من السيوف المحلاة والرماح الطوال على أجمل الهيئات والسروج والبيضات والترسة إلى غير ذلك من الثياب والكسا والعمائم والبرانس ما استغربته الأذهان ولا تقدم بمثله زمان.. وقسم ذلك كله على الموحدين أعانهم الله على أشياخهم وعامتهم وعلى العرب أجمعين بجميع قبائلهم الحاضرين وعلى الأجناد المرسومين».

أما الناصري فيقول[١١]: «ونظر في استجلاب الخيل للجهاد والاستكثار من أنواع السلاح والعدد.. وأمر بضرب السهام في جميع عمله.. فكان يضرب له منها في كل يوم نحو عشرة قناطير جدية.. فجمع له من ذلك ما لا يحصى كثرة.. وفي خلال هذا وفدت عليه قبيلة كومية».

---

(٩) الاستقصا ج ٢ ص ١٢٨

(١٠) المصدر السابق ص ٢١٤ - ٢١٥.

(١١) المصدر السابق ج ٢ ص ١٢٨.

سار الخليفة عبد المؤمن بجيوشه من مراكش في ١٥ ربيع الأول سنة ٥٥٨ هـ/١٩ فبراير ١١٦٣ م.. فنزل في رباط الفتح منتظراً لاستيفاء المتأخر من العساكر إلى المتقدم ووفاء عدة الفتي المعتذر المتلوم واكتفاء الشيخ الطائع المجاهد المنهزم. فتلاحقوا واستوفوا بجمعهم وتسابقوا مبادرين بحسن الطوع الذي بين ضلوعهم ونزلوا.. بمحلاتهم خارج سلا بالفحص المتصل بغبولة.. فضاقت عنهم الأرض فاتصلوا حتى إلى أرض بندغشل في عدد أزيد من مائة ألف فارس ومائة ألف راجل قد عم جميعهم الإحسان وتمم لهم الأنعام[١٢].

يقول أيضاً الناصري[١٣]: «لما دخلت سنة ثمان وخمسين وخمسمائة خرج أمير المؤمنين عبد المؤمن من مراكش قاصداً الأندلس برسم الجهاد.. وكان خروجه يوم الخميس خامس ربيع الأول من السنة المذكورة فوصل إلى رباط سلا فكتب إلى جميع بلاد المغرب والقبلة وأفريقيا والسوس وغير ذلك يستنفرهم إلى الجهاد. فأجابه خلق كثير واجتمع له من عساكر الموحدين والمرتزقة ومن قبائل العرب والبربر وزناتة أزيد من ثلاثمائة ألف فارس.. ومن جيوش المتطوعة ثمانون ألف فارس ومائة ألف راجل.. فضاقت بهم الأرض وانتشرت المحلات والعساكر في أرض سلا من غبولة إلى عين خميس إلى حلق المعمورة».

عقد الخليفة عبد المؤمن قبل أن يستأنف مسيره إلى الأندلس مجلساً حربياً، مع كبار قادته والأشياخ وقال لهم: «أشيروا علينا كيف تكون هذه الغزوة إلى بلاد الروم فقد عزمنا عليها براً وبحراً.. فقال القائد الأندلسي أبو محمد سيدراي بن وزير القيسي: نقسم العساكر على روم جزيرة الأندلس إلى أربع جهات تكون جهة ابن الرنك بقلمرية أولاً وجهة الببوج بالسبطاط ثانية وجهة أذفونش بطليطلة ثالثة وجهة برشلونة رابعة.. فقال له الخليفة أحسنت

(١٢) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة: ص ٢١٧ ـ ٢١٨.
(١٣) نفس المصدر والصفحة.

يا أبا محمد، ثم قام جميع الأشياخ وبايعوا الخليفة على تلك الخطة(١٤).

لم تتم هذه الغزوة فقد مرض الخليفة فجأة وأخذ المرض يزداد عليه حتى توفي في ليلة الجمعة ١٠ من جمادى الآخرة سنة ٥٥٨ هـ/١٥ مايو ١١٦٣ م . . . فحمل جثمانه إلى تينمل حيث دفن بجانب قبر المهدي . . وأمر ولي عهده أبو يعقوب يوسف بتسريح الجيوش وتأجيل الغزوة . . فقد ظهر انقسام وخلاف بين أسرة عبد المؤمن ورفض بعضهم بيعة السيد أبي يعقوب يوسف بالخلافة . . فتسمى بالأمير ولم يتسم بالخليفة إلا في ٨ ربيع الأولى ٥٦٣ هـ(١٥).

كانت مملكة قشتالة لا تزال في حالة حرب أهلية . . فقد توفي الملك سانشو الثالث بعد عام واحد فقط من حكمه أي في سنة ٥٥٣ هـ/١١٥٨ م . . فخلفه ولده الطفل ألفونسو وهو في عامه الثاني تحت وصاية مؤدبه جوتيرو فرنانديث زعيم أسرة كاسترو النبيلة . . لذلك ثارت أسرة لارا الأرستقراطية تطالب بالوصاية على الملك الطفل . . فرفضت أسرة كاسترو مما أدّى إلى نشوب حرب بين الأسرتين عمّت معظم أنحاء قشتالة(١٦).

تدخل فرناندو الثاني ملك ليون في الحرب الأهلية . . فقد استجاب لنجدة أسرة كاسترو وسار بقواته، لكنه كان يتطلع إلى تحقيق مصالحه الخاصة بالوصاية على ابن أخيه الطفل وضم مملكة قشتالة لحكمه . . لذلك بقي بقواته تسع سنوات في طليطلة لكنه فشل في فرض سيطرته على أنحاء قشتالة . . ثم تدخل رجال الدين بين الخصوم لوضع نهاية للحرب الأهلية . . فاتفقوا سنة

(١٤) أحمد مختار العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٤٤ ـ ٣٤٥.

(١٥) مراجع الغناي: قيام دولة الموحدين ص ١٣٧.

(١٦) محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع ٣ ق ١ ص ٥١٥ ـ ٥١٦ ـ R. Altamira: A history of spain p. 163

٥٦٤ هـ/١١٦٩ م على أن يتولى الكونت نونيز دي لارا الوصاية على الملك الطفل لحين بلوغه سن الرشد. وانسحب ملك ليون بقواته على أثر ذلك دون أن يحقق لنفسه فائدة تذكر(١٧).

لم يحاول الموحدون الإفادة من أحوال مملكة قشتالة وانتهاز الحرب الأهلية. فقد كان ابن مردنيش يستحوذ على اهتمام الموحدين ويبدد كل جهودهم.. تذكر بعض الروايات أن «فرناندة رايس النصراني صاحب ترجالة، الشهير النسب والشهامة عند النصارى... صهر أنفونش السيلطين صاحب طليطلة» قدم بإخوته على الموحدين بإشبيلية سنة ٥٦٣ هـ/١١٦٨ م راغباً أن يكون خديماً لأمير المؤمنين بن أمير المؤمنين - أيّدهم الله - منابذاً لشيعته الكافرين.. فاستأذن له الموحدون الذين بإشبيلية حضرة أمير المؤمنين بمراكش.. فأذن له بالوصول.. فمشى إليها بأصحابه وإخوته الواصلين معه(١٨).

أقام فرناندة في مراكش خمسة أشهر تحت إحسان من الأمر العالي وامتنان وعطاء جزيل وإسكان كفيل وألف قلبه بالإنعام الحفيل حتى كاد أن يسلم. وعاهد الله في نصح الأمر بالخدمة المجدة واستسلم عن نفسه ثغور بلاد الموحدين وأن يكون ردءاً لهم حليفاً للمسلمين.. فانصرف تحت هذا الإحسان والصلح التام منه بالإيمان وأمر له الأمر العالي - أدامه الله وخلّده - بمواساته ومواساة إخوته وأصحابه مع الموحدين - أعزّهم الله - في كل شهر فكان ذلك(١٩).

سار «القمط نونة ظئر أذفونش الصغير ابن السيلطين» بقواته من مدينة طليطلة في سنة ٥٦٥ هـ/١١٧٠ م.. فأغار على فحص رندة وجبالها وفحص

---

(١٧) محمد عبدالله عنان: نفس المرجع السابق ص ٥١٦ - ٥١٧ - J. F. O'callaghan: A history of medieval spain pp. 235 - 236

(١٨) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص ٣٦٨ - ٣٦٩.

(١٩) ابن صاحب الصلاة: نفس المصدر ص ٣٦٩ - ٣٧٠ - ابن عذارى: البيان المغرب ص ٧٨.

الجزيرة الخضراء وجبالها أيضاً ووصل إلى البحر وقتل المسلمين في تلك الأقطار والأنظار وأسرهم فيها واكتسح سائمتهم[٢٠].

أدرك الموحدون خطورة هذه الغزوة دون أن تجد مقاومة تذكر. . فبعث الخليفة أبو يعقوب يوسف جيشاً إلى الأندلس لفرض هيبة الموحدين. . كان الجيش يتألف من عشرين ألف جندي بقيادة السيد أبي حفص عمر. . فقام بغزو مدينة طليطلة دون أن تفصّل الرواية حوادث هذه الغزوة[٢١].

ـ غزوة وبذة وسقوط قونقة:

كان الخليفة أبو يعقوب يوسف يستعد لغزو النصارى منذ سنة ٥٦٤ هـ/١١٦٨ م. . فقد استجاب إليه عرب أفريقيا والزاب وساروا إلى مراكش بأهلهم وخيلهم. . أحسن الخليفة استقبال هؤلاء العرب فوزّع عليهم وعلى الجند الموحدين الأكسية والأعطيات والسلاح. . فتوفر للخليفة جيش كبير بلغ عدد الفرسان عشرين ألف فارس. . لكن المرض عاقه عن المسير فوراً إلى الأندلس. . فلم يعبر إلا في شهر رمضان سنة ٥٦٦ هـ/١١٧١ م ونزل في مدينة إشبيلية. . ثم بقي مدة عام كامل يتنقل بالجيش بين إشبيلية وقرطبة. . لكنه قام خلال ذلك بالإشراف على أعمال البناء في مدينة إشبيلية ثم تلقّى بيعة أهل شرقي الأندلس[٢٢].

أشار قادة وأعيان شرقي الأندلس على الخليفة بغزو مدينة وبذة. . فأخذ الخليفة برأيهم. . وسار بالجيش من مدينة إشبيلية في شهر شوال سنة ٥٦٧ هـ/يونية ١١٧٢ م فاستولى خلال طريقه على حصن بلج بالأمان وسمح لحاميته النصرانية بالعودة إلى بلادهم. ثم عيّن أحد القادة على الحصن واستأنف مسيره. . فاستولى على حصن الكرسي بالأمان أيضاً. . فقد عرضت

(٢٠) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص ٣٩٧.

(٢١) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٣٨ ـ الناصري: الاستقصا ج ٢ ص ١٣٣ ـ ١٣٤.

(٢٢) ابن صاحب الصلاة: المصدر السابق ص ٤٠٩ ـ ٤٨٧.

حاميته النصرانية النزول عنه بلا قتال.. فعيّن الخليفة على الحصن قائداً آخر واستأنف زحفه نحو مدينة وبذة الواقعة وراء أعالي وادي أنة[٢٣].

بعث الخليفة مقدمة من الجيش تتألف من اثني عشر ألف فارس من الموحدين والعرب بقيادة أخيه السيد أبي حفص.. فاستولى خلال طريقه على أحد حصون النصارى وأسر سكانه ثم هدمه حتى «أضحى قفراً يباساً» ثم اقترب في اليوم التالي من مدينة وبذة فخرج النصارى لقتاله ثم اضطروا للعودة إلى المدينة والتحصّن بها. فنزل السيد أبو حفص بقواته في الجبل المطل على المدينة[٢٤].

وصل الخليفة ببقية الجيش في اليوم التالي، فاستعرض الجيش وقسّمه إلى وحدات جعل كلاًّ منها تحت إمرة قائد.. ثم قسّم القبائل وأمر كل قبيل بحصار إحدى جهات المدينة.. وأمر الخليفة في فجر اليوم التالي بضرب الطبول إيذاناً بالهجوم فخرج النصارى لرد الموحدين فحلّت بهم الهزيمة واستولى الموحدون على أرباض المدينة[٢٥].

لم يستطع الموحدون الاستيلاء على أسوار المدينة.. فقاموا بقطع المياه عنها واستولوا على الحقول والمزارع المحيطة بها.. ثم أخرج الخليفة ربع الجيش لحصد الزرع وجمع العلوفات لتخزينها استعداداً لمواصلة الحصار.. وأمر ببناء السلالم والأبراج.. لذلك قدم على الموحدين في اليوم التالي أحد نصارى المدينة يعرض النزول عنها بالأمان فصرفه الموحدون بدون جواب.. ثم عاد النصراني في عشيّة اليوم نفسه يعرض تسليم المدينة مقابل الأمان.. فصرفه الموحدون ثانية بلا جواب[٢٦].

(٢٣) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص٤٨٧ - ٤٩٠ - ابن عذارى: البيان المغرب ق٣ ص ٩٦ - محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق ٢ ص ٧٥.

(٢٤) ابن صاحب الصلاة: نفس المصدر ص ٤٩٢.

(٢٥) محمد عبدالله عنان: المرجع السابق ص ٧٦ - ٧٧.

(٢٦) مراجع الغناي: سقوط دولة الموحدين ص ١١٦.

استمر حصار الموحدين للمدينة نحو أسبوعين دون أن يتمكنوا من الاستيلاء عليها.. ثم هبت رياح عاصفة في بعض الليالي ألحقت خسائر فادحة بمعسكر الموحدين... فقد قلبت القدور وقلعت الأخبية. وتبع ذلك رعد وبرق وهطول مطر إلى ظهر اليوم التالي... فانتهز النصارى الفرصة فخرجوا من مدينتهم وأنزلوا هزيمة بعسكر هسكورة.. لذلك أمر الخليفة بضرب العسكر المنهزم بالسياط.. ثم عاود الموحدون بعد انقشاع الغيمة إلى حصار المدينة وغزوها إلا أنهم فشلوا في الاستيلاء عليها(٢٧).

بعث الموحدون بعد ذلك عبد الرحمن بن أبي مروان بن سعيد الغرناطي إلى العلج ولد مريق... الذي كان يملك مدينة وبذة وقال له: كنت رغيب في الأمان فانزل على ما رغبت... فكان جوابه أن قال: ليس عندي ثياب تصلح للباس فألقى بها ملككم!.. ففهم منه الخداع.. أعاد الرجوع إلى العلج المذكور وقال له: إنما جئتك لصحبة كانت بيني وبين أبيك فأنا الذي أخرجته من سجن يحيى بن غانية وأريد أن أخرجك مما أنت فيه.. قال له: لست أمشي معك فإن النصارى والأمير أذفونش الصغير قد خاطبوني باجتماعهم واحتشادهم ووصولهم إلي وليرفعوكم أو يقابلوكم(٢٨).

عقد الخليفة أبو يعقوب يوسف على أثر ذلك مجلساً حضره إخوته السادة والأشياخ من الموحدين والعرب وزعماء الأندلس.. فتقرر في المجلس رفع الحصار والعودة إلى إشبيلية.. فأحرقت آلات الحصار في مساء نفس اليوم... وبدأ الرحيل بالعودة في فجر اليوم التالي بدون نظام مما أدّى إلى اضطراب الجيش. فانتهز الفرصة أهل وبذة فخرجوا وهاجموا الموحدين خلال الانسحاب.. لذلك أوكل الخليفة مسؤولية حماية الجيش إلى فرقة كبيرة بقيادة

---

(٢٧) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص ٤٩٨ - ٥٠١ - ابن عذارى: البيان المغرب ق ٣ ص ٢٩٦ - محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع ٣ ق ٢ ص ٧٧ - ٧٨.

(٢٨) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص ٥٠١ - ٥٠٢.

بعض إخوته وبعض القادة الأندلسيين.. مما أدّى إلى انسحاب الجيش بسلام عن طريق مدينة قونقة(٢٩).

هكذا فشلت غزوة وبذة رغم ضخامة عدد الجيش.. فهو يربو في بعض الروايات على مائة ألف مقاتل فيهم عشرون ألف فارس.. ربما يعود ذلك إلى افتقار القيادة الموحدية إلى خطة محكمة واتخاذها القرارات الارتجالية.. بالإضافة إلى أن الغزوة تمت بناء على اقتراح أعيان وقادة شرقي الأندلس.. كما أن الخليفة أضاع وقتاً وجهداً في استيلائه على حصني يلح والكرسي خلال طريقه.. هناك أمر آخر يبعث الحيرة والتساؤل وهو رفض الخليفة عروض أهل وبذة بالتنازل عن المدينة مقابل الأمان.. وكان الخليفة خلال القتال مشغولاً بمناقشة مسائل فكرية مع الطلبة.. ثم تعرض الجيش خلال الحصار لنقص المؤن والعلوفات(٣٠).

يقول ابن صاحب الصلاة(٣١): «كف الله أيدي المسلمين عند الغلبة على المدينة ووصلوا إلى السور ووقفوا عنده وقوف العاجز المقصر قد توركوا للراحة من الفضل والكسل، بما فهموا أن المراد تعجيز الحال في ذلك النضال.. وأما الرماة فرأيت الشيخ المقدم عليهم محمد بن تيفون يمنعهم من رمي النصارى بالسهام فلم تقع الآلات ولا الرماح ولا الدروع السابغات ولا البيضات».

هناك رواية أخرى عن حملة وبذة.. يقول المراكشي(٣٢): «خرج أمير المؤمنين أبو يعقوب من إشبيلية قاصداً بلاد الأذفونش.. فنزل على مدينة له عظيمة تسمى وبذة.. وذلك أنه بلغه أن أعيان دولة الأذفونش ووجوه أجناده

(٢٩) مراجع الغناي: سقوط دولة الموحدين ص ١١٨.
(٣٠) مراجع الغناي: نفس المصدر ص ١١٨ - ١٢١ - محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق٢ ص ٨٤ - ٨٥.
(٣١) المن بالإمامة ص ٤٩٧.
(٣٢) المعجب ص ٢٥٠ - ٢٥١ - الناصري: الاستقصا جـ٢ ص ١٣٤ - ١٣٥.

في تلك المدينة.. فأقام محاصراً له أشهراً إلى أن اشتد عليهم الحصار وأرادوا تسليم البلد.. أخبرني جماعة يكثر عددهم ممن أدركت من شيوخ أهل الأمر.. أن أهل هذه المدينة لما برح بهم العطش أرسلوا إلى أمير المؤمنين يطلبون الأمان على أنفسهم على أن يخرجوا له عن المدينة.. فأبى ذلك عليهم وأطمعه فيهم ما نقل إليه من شدة عطشهم وكثرة من يموت منهم.. فلما يئسوا مما عنده سمع لهم في بعض الليالي لغط عظيم وجلبة أصوات.. وذلك أنهم أخرجوا أناجيلهم واجتمع قسيسوهم ورهبانهم يدعون ويؤمن باقيهم.. فجاء مطر عظيم كأفواه القرب.. ملأ ما كان عندهم من الصهاريج وشربوا وارتووا وتقووا على المسلمين.. فانصرف عنهم أمير المؤمنين راجعاً إلى إشبيلية بعد أن هادن الأذفنش ـ لعنه الله ـ مدة سبع سنين.

تذكر رواية أخرى أن ملك قشتالة ألفونسو الثامن سار بقواته ومعه القمط نونو دي لارا وراء الموحدين أثناء انسحابهم. فاكتشف الموحدون ذلك وأسرعوا بعبور وادي شفر.. ثم سارت كتائب من الموحدين واشتبكت مع النصارى في موقعة استمرت حتى عشية اليوم فلم يحرز أحدهما نصراً على الآخر.. لذلك أقلع النصارى في اليوم التالي من محلتهم وعادوا إلى بلادهم. فاستأنف الموحدون انسحابهم.. لكنهم تعرضوا لبعض المتاعب.. فقد ضل الأدلّاء الطريق وقلّت المؤن والعلوفة وهلك بعض الموحدين في الطريق فلم يصل الخليفة إشبيلية إلا في الثامن من ربيع الأول سنة ثماني وستين وخمسمائة(٣٣).

بعث الخليفة أربعة آلاف فارس من الموحدين والأجناد الأندلسيين والعرب بقيادة أبي يعقوب يوسف بن أبي عبد الملك بن تيجيت وأبي محمد

(٣٣) مراجع الغناي: سقوط دولة الموحدين ص ١٢٣ ـ محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع ٣ ق ٢ ص ٨٠ ـ ٨٤ وردت غزوة وبذة هذه عند ابن الأثير مختصرة جداً ويرسمها وبذي (الكامل جـ ١١ ص ١٥٧) ـ كذلك وردت عند ابن خلدون: العبر جـ ٦ ص ٢٤٠.

عبد الله بن أبي إسحاق بن جامع لغزو مملكة قشتالة.. فقاما بغزو أحواز مدينة طلبيرة وعادوا بالغنائم والسبي والأسرى.. ثم بعث الخليفة جنداً آخر غزوا أنظار طليطلة وما يليها... فعادوا بالغنائم والسبي والأسرى(٣٤).

يبدو أن مملكة قشتالة قد ضاقت من هاتين الغزوتين وخشيت أن تتبعهما غزوات أخرى.. فبعث «القومس نونة صاحب طليطلة ظئر أذفونش الصغير» سفراءه إلى إشبيلية يطلب عقد الصلح مع الموحدين.. وبقي سفراؤه شهرين في إشبيلية ثم وافق الخليفة على عقد الصلح رغبة منه في التفرغ لاصلاح الثغور وإسكان الأماكن القفرة من الأندلس.. كان ذلك أواخر سنة ٥٦٨ هـ/١١٧٣ م(٣٥).

بقي الخليفة أبو يعقوب يوسف في الأندلس زهاء خمس سنوات أنفقها في البناء والتعمير.. ثم غادر مدينة إشبيلية في شهر شعبان سنة ٥٧١ هـ/فبراير ١١٧٦ م. فعبر البحر بقواته إلى المغرب عائداً إلى مراكش. لكنه عيّن قبل عودته أخاه السيد أبا الحسن على قرطبة، وعيّن أخاه السيد أبا علي على مدينة إشبيلية(٣٦).

يبدو أن أحوال مملكة قشتالة آنذاك قد فرضت عليها السعي لدى الموحدين لعقد معاهدة الصلح المذكورة.. فقد كان ألفونسو الثامن ملك قشتالة في حالة حرب مع سانشو السادس ملك نبرة.. يسعى كل منهما للاستيلاء على بعض البلاد والحصون الواقعة على الحدود بينهما... ثم توسط ملك إنجلترا بين الطرفين سنة ٥٧١ هـ/١١٧٦ م. فقبل ملك قشتالة الوساطة واستجاب مؤقتاً لعقد معاهدة صلح مع ملك نبرة(٣٧).

(٣٤) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص ٥٢٥ ـ ٥٢٦.

(٣٥) ابن صاحب الصلاة: نفس المصدر ص ٥٢٦ ـ ٥٢٧ ـ مراجع الغناي: سقوط دولة الموحدين ص ١٢٥ ـ محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق٢ ص ٩٠.

(٣٦) ابن خلدون: العبر جـ٦ ص ٢٤٠ ـ الناصري: الاستقصا جـ٢ ص ١٣٥.

(٣٧) نيفل باربر: سفارة جون ملك إنجلترا إلى محمد الناصر ملك المغرب... ترجمة محمد بن تاويت ص ١٦٧ ـ J. F. O'callaghan; A history of medieval. spain P. 239.

انتهز ملك قشتالة عقد هذه المعاهدة مع ملك نبرة وانتهز عودة الخليفة إلى يعقوب يوسف بالجيش إلى مراكش. . فسار بقواته للاستيلاء على مدينة قونقة الواقعة شرقي مدينة وبذة. . وقام بحصارها على الفور في شهر شعبان سنة ٥٧٢ هـ/يناير ١١٧٧ م. كانت مدينة قونقة منيعة الأسوار حصينة البنيان، لكن أهلها «من ضعف المرض والطاعون لا يقدرون على الحركة(٣٨)».

استمر حصار مدينة قونقة زهاء تسعة أشهر. . ثم حاول الموحدون إنقاذها، لكن ألفونسو الثاني ملك أرغونة هرع بقواته لمساعدة ملك قشتالة، فاعترض طريق النجدة الموحدية وحال دون وصولها إلى المدينة المحاصرة. . لذلك اضطرت مدينة قونقة أخيراً إلى التسليم تحت ضغط الجوع والعطش في شهر ربيع الثاني سنة ٥٧٣ هـ/سبتمبر ١١٧٧ م. . فدخلها النصارى وحوّل ملك قشتالة مسجدها الجامع إلى أسقفية(٣٩).

تذكر الرواية العربية أن الخليفة أبا يعقوب يوسف حين بلغه حصار قونقة أمر ولاته في الأندلس المسير لغزو جهات طليطلة وطلبيرة حتى يترك ملك قشتالة حصار قونقة ويسير للقائهم. . لذلك سار والي قرطبة السيد أبو الحسن بقواته فغزا «جهات طليطلة وانصرف غانماً سالماً». . كما سار في نفس الوقت والي إشبيلية السيد أبو علي بأربعة آلاف فارس وأربعة آلاف راجل. . فغزا جهات طلبيرة واستولى على أحد حصونها وقتل حاميته النصرانية وسبى الصبيان والنساء ثم انصرف عائداً إلى إشبيلية(٤٠).

(٣٨) ابن عذارى: البيان المغرب ق ٣ ص ١١٠ ـ ١١١.
(٣٩) يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس ص ٣٢١ ـ محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع ٣ ق ٢ ص ٩٥ ـ ٩٧. J. F. O'callaghan: Opcit PP. 239 - 240.
(٤٠) ابن عذارى: البيان المغرب ق ٣ ص ١١٠ ـ ١١١.

تقع مسؤولية سقوط قونقة على الموحدين فهي عاصمة الثغر ومن أمنع المدن والحصون... ولكن الموحدين لم يهتموا بها.. فالخليفة أبو يعقوب يوسف دخلها بجيشه خلال انسحابه من غزوة وبذة ثم سار عنها دون أن يضع فيها حامية موحدية وكل ما فعله هو توزيع الصدقات على أهلها العزّل. ففي ذلك يقول ابن صاحب الصلاة(٤١): «وكنت في جملة من حضر في هذا الركب العظيم. فمشى أمير المؤمنين حتى دخل المدينة المذكورة وقصبتها الشهيقة المنيعة الرفيعة المتصل علوها بالجو. وقد أحدق بها من جهة الغرب وادي شوفر المذكور باجراف وحافات لا يمكن منها الوصول... ومن شرقها واد آخر على مثاله في المنعة... يصبان الماء. في بحيرة عظيمة لشربهم وهي لصق السور ويدخل إلى المدينة على قنطرة عظيمة.. في جانبيها برجان عظيمان مانعان على الواديين في حكم المدينة المذكورة. ومن جهة الجوف من المدينة حفير قد حفر في الحجر الصلد في عمقه نحو قامتين عليه ستارة منيعة. وفي الحفير أدراج قد حفرت تحت الأرض ينزل فيها إلى الوادي لشرب الماء ولطحين القوت في الأرض التي على الوادي.. وعلى الستارة التي على الحفير برج عظيم من بناء الأوائل وفي أسفل الأدراج عند الماء في الوادي باب مصفح بالحديد متملك من القصبة المذكورة وليس لهذه المدينة موضع يقاتل منه إلا من جهة الحفير المذكور.. وفي هذه البحيرة هي كرومهم وشجرهم من الجوز وغير ذلك والجوز أكثرها تحت حماية المدينة ذلك كله ومزارعها وأرضها متسعة في البطاح والأرض والفساح.. وعندما وصل أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين إلى المدينة والقصبة التي ذكرتها خرج أهلها الضعفاء الغرباء إليه بجميعهم وعيالاتهم وبنيهم كبارهم وصغارهم إليه.. وكان العدو قد حصرهم قبل ذلك بخمسة أشهر إلى أن سمع بحركة العساكر المؤيدة.. فقلع عنهم وتركهم وكأنهم قد نشروا من كفن وخرجوا من

(٤١) المن بالإمامة ص ٥٠٤ ـ ٥٠٦.

جدث.. فسلموا على أمير المؤمنين وسألهم عن حالهم ودعا لهم ووعدهم بخير ونظر جميل ونصر كفيل ومير.. وأمر في الحين للحافظ الناصح الأمين أبي موسى عيسى بن مخلوف الجدميوي أن يكتب أسماء جميع من فيها من الرجال والنساء والصبيان والأطفال ويحصي عددهم.. فأحصاهم وكان عددهم سبعمائة نسمة بين رجل مقاتل وامرأة وصبي وطفل.. فأمر للفارس منهم باثني عشر مثقالاً وللراجل بثمانية مثاقيل وللمرأة بأربعة مثاقيل وللطفل بأربعة مثاقيل... وأعطاهم سبعين بقرة لم يكن عنده في المحلة سواها وكثيراً من الرماح والقسي والسهام والترسة والأسلحة.. وفرض لهم على العساكر مداً غير ربع من زرع قمح أو شعير صدقة عليهم.. فبادر الناس إلى ذلك فاجتمع لهم زرع وضرع. وكذلك وجوه الموحدين أعزهم الله ووجوه الناس بادروا إلى الصدقة عليهم. فأعطاهم الشيخ المرحوم أبو عبد الله بن الشيخ المرحوم أبي ابراهيم وقر حمل من قمح.. وكذلك الحافظ أبو يعقوب يوسف ابن أبي عبد الله بن تيجيت.. وأما الوزير إدريس بن أبي إسحاق فاشترى لهم زرعاً بمائة دينار وكذلك ابنه يحيى اشترى لهم زرعاً بمائة دينار.. وتتابعت لهم من أعيان الناس الصدقات والعطيات والهبات وانصرف أمير المؤمنين تلك العشية بعد هذا النظر والعطية.

ـ تبادل الغزو:

ترتب على سقوط مدينة قونقة امتداد حدود مملكة قشتالة ناحية شرقي الأندلس كما شجعت ملك أرغونة على غزو الأندلس.. لذلك رأى ملك قشتالة ألفونسو الثامن أن يعقد معاهدة مع ملك أرغونة ألفونسو الثاني منعاً لنشوب الخلاف والتنافس بينهما في غزو الأندلس. فعقد الملكان بينهما معاهدة في شهر شوال سنة ٥٧٤ هـ/مارس ١١٧٩ م عرفت باسم معاهدة كاسولا.. نصّت على تقسيم الأندلس بين الملكين فتم بموجبها الاعتراف بحق مملكة أرغونة في الاستيلاء على الأراضي الإسلامية الواقعة في شرقي الأندلس من

مدينة بلنسية شمالاً حتى بلدة بيرة جنوباً. أما مملكة قشتالة فمن حقها الاستيلاء على جميع الأراضي الواقعة وراء هذه البلاد. ونصّت المعاهدة أيضاً على تعاون الملكين ضد الخصوم والأعداء(٤٢).

أخذ ملك قشتالة يقوم بغزوات متواصلة على الأندلس تمهيداً للاستيلاء على مدينتي قرطبة وإشبيلية.. فقام الولاة الموحدون بتثقيف المدن وشحنها بالمقاتلين، وضبط الأحواز بالرجال.. ثم عاود ملك قشتالة غزو الأندلس.. فسار بقواته سنة ٥٧٨ هـ/١١٨٢ - ١١٨٣ م وهاجم مدينة قرطبة ونزل بقواته في ظاهرها.. لكنه أدرك صعوبة الاستيلاء على قرطبة فأقلع عنها وقام بغزو مالقة وغرناطة.. ثم أوقع بالموحدين في حصن قرمونة فأخذ فرسانه يتجولون بلا خوف يقتلون ويأسرون وينهبون كل ما يصادفهم(٤٣).

سار ملك قشتالة بعد ذلك إلى مدينة إستجة.. فهاجمها ونقب سورها وكاد أن يتغلب عليها لولا بسالة واليها أبي محمد بن طاع الله الكومي.. ثم أقلع عن إستجة وسار إلى مدينة رندة فاستولى على أحد الحصون.. بخيانة اليهود وأسر جميع سكان الحصن البالغ عددهم ألف وأربعمائة ما بين رجل وامرأة.. ثم أحرق الملك زرع رندة والجزيرة الخضراء واستولى على الغنائم «من كل قطر وجهة ما لا يحيط به الوصف(٤٤)».

استولى ملك قشتالة في غزوته هذه على حصن المنار أيضاً.. ثم استولى على حصن شنتفيلة رغم مناعته وارتفاعه. فأعجب الملك به «وقال للأقماطة حين أخذ شنتفيلة الآن أخذ قرطبة وإشبيلية». كما أسر الملك جميع أهل حصن شنتفيلة من الرجال والنساء وعددهم سبعمائة.. لكن فداهم أهل إشبيلية بألفين وسبعمائة دينار وخمسة وسبعين ديناراً ذهباً.. دفع منها ابن زهر من

(٤٢) G.f.O'callaghan: A history of medieval spain p. 240-R. Altamira: A history of spain p. 167

(٤٣) ابن عذارى: البيان المغرب ق ٣ ص ١١٨.

(٤٤) ابن عذارى: نفس المصدر ص ١١٨ - ١١٩.

ماله الخاص مائة دينار عيناً.. بينما تم جمع بقية المال من الناس بالمسجد الجامع(٤٥).

قضى ملك قشتالة في غزوته هذه خمسة وأربعين يوماً ثم أخذ يستعد للعودة إلى بلاده.. فملأ حصن شنتفيلة بالأقوات وترك فيه حامية من قواته تتألف من خمسمائة فارس وألف راجل.. ثم أخذ هؤلاء النصارى يسيرون من حصن شنتفيلة بعد عودة ملكهم إلى بلاده.. فيغزون البلاد ويقتلون العباد.. لذلك استنفر السيد أبو إسحاق صاحب إشبيلية جميع الأجناد والحشود في الأندلس.. ثم سار بهم لاسترداد حصن شنتفيلة... وكان أهل قرمونة خلال ذلك قد أوقعوا ببعض نصارى الحصن فقتلوا سبعين فارساً وأسروا الباقي ثم ساقوهم مكبلين إلى السيد أبي إسحاق فقتلهم خلال طريقه لاسترداد الحصن(٤٦).

حاصر السيد أبو إسحاق الحصن ستة وأربعين يوماً فضيّق على النصارى من جميع الجهات حتى نفدت الأقوات والعلوفة دون أن يتمكن من استرداده.. ثم بلغ ذلك ملك قشتالة فسار بقواته لنجدة الحصن.. مما أدّى إلى إقلاع السيد أبي إسحاق عن حصار الحصن والعودة إلى إشبيلية.. فوصل الملك بعد أربعة أيام من إقلاع السيد أبي إسحاق.. فوجد خمسين فارساً في الحصن من فرسانه الخمسمائة وستمائة راجل من مشاته الألف.. فقد سقط الباقي قتيلاً خلال المعارك والحصار.. لذلك تخلى الملك عن الحصن وعاد بقواته إلى بلاده(٤٧).

وردت هذه الغزوة مختصرة في بعض المصادر.. يقول ابن خلدون(٤٨): «بلغ الخبر أن أذفونش بن شانجة نازل قرطبة وشن الغارات على جهات

(٤٥) ابن عذارى: نفس المصدر ق ٣ ص ١١٨ ـ ١١٩.
(٤٦) ابن عذارى: نفس المصدر ص ١١٩ ـ ١٢٠.
(٤٧) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع ٣ ق ٢ ص ١٠٣ ـ ١٠٤.
(٤٨) العبر جـ ٦ ص ٢٤١ ـ الناصري: الاستقصا جـ ٢ ص ١٣٧.

مالقة ورندة وغرناطة ثم نزل إستجة وتغلب على حصن شنتفيلة وأسكن بها النصارى وانصرف.. فاستنفر السيد أبو إسحاق سائر الناس للغزو ونازل الحصن نحواً من أربعين يوماً.. ثم بلغه خروج الأذفونش من طليطلة بمدده فانكف راجعاً».

انتهز الوالي أبو عبد الله بن وانودين عودة ملك قشتالة إلى بلاده.. فسار بقواته في جمادى الآخرة سنة ٥٧٨ هـ/سبتمبر ١١٨٢ م لغزو مملكة قشتالة.. وسلك طريقاً بعيداً عن طريق عودة الملك.. ثم نجح في عبور نهر التاجة دون أن يعلم الملك، ودون أن يكتشف النصارى ذلك.. فقد كان الجو ساعتئذ ملبداً بالغيوم.. فالتقى الموحدون فجأة بسرية نصرانية تتألف من عشرين فارساً.. وألقوا القبض عليهم.. بينما تمكّن أحدهم من الفرار وأخبر النصارى بذلك.. فارتاعوا ودهشوا.. فقد كانوا منذ سبعين سنة لم يروا مسلماً في تلك الأرض إلا من كان مأسوراً عندهم(٤٩).

استمر الموحدون في زحفهم حتى بلغوا جهات طلبيرة فغنموا وأسروا ثم أخذوا في العودة.. لكن النصارى في هذه الجهات جمعوا قواتهم وساروا وراء الموحدين لقتالهم. فنشبت بين الطرفين موقعة على بعد ثمانية أميال من طلبيرة.. فحلت هزيمة فادحة بالنصارى.. فقد قتل منهم أكثر من عشرة آلاف فارس وراجل واستولى الموحدون على عتادهم ودوابهم. وعادوا إلى إشبيلية ظافرين ثم بعث ابن وانودين بالخبر إلى الخليفة.. فانبسط الخليفة ولكنه غضب على ولده السيد أبي إسحاق لعدم اشتراكه في هذه الغزوة وعاقب كل من تخلف من الأجناد بأن حرمهم من العطاء(٥٠).

وردت هذه الغزوة مختصرة جداً في بعض المصادر.. يقول ابن خلدون(٥١): «خرج محمد بن يوسف بن وانودين من إشبيلية في جموع

(٤٩) ابن عذارى: البيان المغرب ق ٣ ص ١٢٣.
(٥٠) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع ٣ ق ٢ ص ١٠٤ ـ ١٠٥.
(٥١) العبر جـ ٦ ص ٢٤١ ـ الناصري: الاستقصا جـ ٢ ص ١٣٧.

الموحدين ونازل طلبيرة وبرز إليه أهلها فأوقع بهم وانصرف بالغنائم».

ـ موقعة الأرك:

لا تذكر المصادر غزوات أو حروب نشبت بين الموحدين ومملكة قشتالة خلال السنوات الخمس القادمة.. فكان الموحدون بقيادة الخليفة يعقوب المنصور مشغولين بقتال ابن غانية في أفريقيا.. أما ملك قشتالة فقد أخذ يمارس سلطاته على مملكتي ليون والبرتغال.. ففي أوائل سنة ٥٨١ هـ/أواخر ١١٨٥ م توفي ملك البرتغال ألفونسو هنريكيز وخلفه ابنه الشاب سانشو الأول.. ثم توفي ملك ليون فرناندو الثاني سنة ٥٨٤ هـ/١١٨٨ م وخلفه ابنه ألفونسو التاسع ذو السابعة عشرة من عمره.. لذلك رأى ملك قشتالة أنه أعظم الملوك النصارى وأن الفرصة مواتية لمباشرة السلطة عليهم.. لكن ملك ليون وملك البرتغال رفضا الإذعان لملك قشتالة.. فقاوما أطماعه بالقوة المسلحة وحافظا على استقلالهما(٥٢).

ساءت العلاقة أيضاً بين ملك قشتالة وبين ملك أرغونة وملك نبرة.. ففي سنة ٥٨٥ هـ/١١٨٩ م قام ملك قشتالة وملك أرغونة بغزو مملكة نبرة لاقتسامها بينهما تنفيذاً لاتفاقية كاسولا المعقودة بينهما سنة ٥٧٤ هـ/١١٧٩ م.. لكن ملك أرغونة فشل في غزو نبرة وعاد مدحوراً بينما نجح ملك قشتالة.. فخشي ملك أرغونة نتائج انتصار ملك قشتالة وتوسيع حدود مملكته... لذلك عقد معاهدة في العام التالي ٥٨٦ هـ/١١٩٠ م مع سانشو السادس ملك نبرة ضد ملك قشتالة(٥٣).

اتفق في العام التالي ٥٨٧ هـ/١١٩١ م ملك أرغونة وملك البرتغال وملك ليون على الاتحاد معاً ضد ملك قشتالة.. وتعاهدوا أن لا يعقد أحدهم

(٥٢) J. F. O'callaghan: A history of medieval spain PP 241 - 242.

(٥٣) J. F. O'callaghan: Opcit PP. 242 - 243.

سلاماً منفرداً مع ملك قشتالة . . ثم أدرك البابا كاليستين الثالث خطورة هذه العلاقة بين الممالك النصرانية فأرسل مبعوثيه إلى إسبانيا لتسوية الخلافات والعمل على توحيد الملوك النصارى ضد المسلمين فاستجاب لذلك ملك ليون وملك قشتالة فقام السلام بينهما سنة ٥٩٠ هـ/١١٩٤ م ولكن الخلافات كانت أعمق من أن يحقق مثل هذا السلام الغرض المنشود. . فبقيت العلاقة بين الممالك النصرانية سيئة. . وسيتلقّى ملك قشتالة وحده هزيمة قاسية في الأرك(٥٤).

يلاحظ في مجرى الحوادث التالية أن ملك قشتالة الفونسو الثامن كان يضع مصلحة بلاده الخاصة فوق كل اعتبار فلا يتقيد باتفاقية سلام أو معاهدة صلح. . فقد كان لا يتردد في عقد اتفاقية صلح مع الموحدين إذا رأى في ذلك مصلحة لبلاده وحماية لها من الغزو. . وكان لا يتردد في نقض معاهدة الصلح إذا رأى أن الفرصة مواتية لغزو الأندلس والاستيلاء على البلاد.

أخذت مملكة قشتالة منذ سنة ٥٨٥ هـ/١١٨٩ م تقوم بغزوات مكثّفة متواصلة على الأندلس رغم سوء علاقاتها بالممالك النصرانية الأخرى. . فقامت خلال السنة المذكورة بثلاث غزوات متتالية. . كانت الغزوة الأولى والثانية بقيادة مطران طليطلة وقادة جمعية فرسان قلعة رياح. . أما الغزوة الثالثة فكانت بقيادة ملك قشتالة نفسه. . بلغ النصارى في غزواتهم أحواز قرطبة وشرف إشبيلية. . وأنزلوا الهزائم بالحاميات الموحدية وقتلوا كل من اعترض طريقهم وانتسفوا الزرع والضرع. . فلم يجرؤ السيد أبو حفص على الخروج من إشبيلية لقتالهم وردهم. واستولى النصارى خلال هذه الغزوات على بعض الحصون فقتلوا الرجال وسبوا النساء والأبناء. . لذلك دب الخوف والفزع في أهل بعض النواحي فهربوا قبل أن يصل إليهم النصارى(٥٥).

---

(٥٤) J. F. O'callaghan: Opcit P. 243.

(٥٥) ابن عذارى: البيان المغرب ق ٣ ص ١٧٥ - ١٧٦.

عبر الخليفة المنصور بجيوشه إلى الأندلس في شهر المحرم سنة ٥٨٦ هـ/مارس ١١٩٠ م.. وسار شمالاً إلى مدينة قرطبة.. لذلك خشي ألفونسو ملك قشتالة أن يسير الخليفة الموحدي لقتاله فبعث السفراء إلى قرطبة يعرض على الخليفة عقد معاهدة صلح.. واستجاب الخليفة المنصور فعقد مع سفراء ملك قشتالة معاهدة صلح مدتها خمس سنوات(٥٦).

قام الخليفة المنصور باسترداد مدينتي شلب وقصر أبي دانس من مملكة البرتغال. ثم عبر البحر إلى المغرب عائداً بالجيش إلى مراكش أواخر سنة ٥٨٧ هـ/١١٩١ م.. فانتهز الفرصة ملك قشتالة.. فنقض معاهدة الصلح وأخذ يقوم بغزو الأندلس وقام مرتين مطران طليطلة بغزو الأندلس، فبلغت إحدى غزوات النصارى أحواز إستجة وجنوبي الأندلس. كان النصارى خلال غزواتهم يدمرون كل ما يصادفهم بالسيف والنار.. فانتسفوا الزرع وعاثوا بالضياع وقتلوا الرجال وسبوا النساء.. فيعلق على ذلك يوسف أشباخ(٥٧) بقوله: «هكذا كفّر المسلمون الأبرياء في الأندلس عن فظائع الموحدين». لا أدري أي فظائع يقصد؟!.

إتّبع ملك قشتالة سياسة ذات شقين.. فكان يبعث سفيره يوسف بن الفخار اليهودي إلى مدينة مراكش ليثبت التزام ملك قشتالة بمعاهدة الصلح المعقودة بين الموحدين بينما كان النصارى في نفس الوقت يقومون بغزو الأندلس بقيادة مطران طليطلة.. كذلك فعل نفس الشيء في العام التالي ٥٨٨ هـ/١١٩٢ م. فقد وصلت أرسال ملوك الروم في تجديد عهد المسلمين والمهادنة. فاشتطوا في شروطهم وابتغوا الزيادة على عوائدهم في عقد ربوطهم.. وأنف المنصور لقولهم وخلا بأهل العزم والمشورة في أحوالهم وحملهم على الصريمة في العزم على غزو بلادهم في عقر دارهم.. وأزعج من

(٥٦) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع ٣ ق ٢ ص ١٧٦.
(٥٧) تاريخ الأندلس ص ٣٣١ - ٣٣٢.

كان بمراكش من أرسال الروم دون غرض مقضى لهم وانحفز النظر في أسباب الحركة(٥٨).

عاود ملك قشتالة في العام التالي ٥٨٩ هـ/١١٩٣ م.. فبعث سفراءه إلى مراكش يطلب عقد الصلح أو تجديده.. بينما كان جيشه خلال ذلك يقوم بغزو الأندلس بقيادة مطران طليطلة مارتن لوبث. وبلغت الغزوة أحواز إشبيلية فعاثت بالبلاد واستولت على الغنائم والسبي. لذلك بعث ولاة الأندلس يخبرون الخليفة المنصور ويسألونه النجدة.. كان الخليفة آنذاك يستعد لمنازلة ابن غانية في افريقيا.. فلما بلغه غزو النصارى صرف نظره عن غزو ابن غانية ورأى أن يسير لغزو النصارى(٥٩).

تذكر بعض المصادر أن ملك قشتالة واصل غزو الأندلس فبلغ في إحدى غزواته الجزيرة الخضراء.. وبعث إلى الخليفة يعقوب المنصور سفيراً يتهدد ويتوعد ويطلب التنازل له عن بعض الحصون الأندلسية المتاخمة لمملكة قشتالة.. ثم بعث إلى الخليفة أيضاً كتاباً يتحداه ويسأله الحضور للاقتتال.. لذلك ثارت حمية الخليفة.. فكتب على ظهر الكتاب «إرجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلّة وهم صاغرون». ثم كتب «الجواب ما ترى لا ما تسمع». وبعث بالجواب إلى ملك قشتالة ثم أمر بحشد المطوعة واستنفار الجند للعبور إلى الأندلس(٦٠).

عبر الخليفة المنصور بجيوشه إلى الأندلس في شهر جمادى الثانية سنة ٥٩١ هـ/يونية ١١٩٥ م.. فكانت الجيوش تتألف من قبائل المصامدة وزناتة

---

(٥٨) ابن عذارى: البيان المغرب ق٣ ص ١٨٧و ١٨٩.

(٥٩) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق٢ ص ١٩٧.

(٦٠) انظر نص الكتاب عند ابن الأثير: الكامل جـ١٢ ص ٤٧ - ٤٨ - الناصري: الاستقصا جـ٢ ص ١٦٦ - ١٦٧ - ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ٤٣٠ - زيني دحلان: الفتوحات الإسلامية جـ١ ص ٣٢٦ - ابن أبي دينار المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس ص ١١٥ - ١١٦ - يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس ص ٣٣٢ - ٣٣٣.

وغمارة والعرب والأغزاز ثم المتطوعة والأجناد والعبيد.. نزل الخليفة في طريف والجزيرة الخضراء.. ثم استأنف مسيره إلى إشبيلية فقضى فيها أسبوعين ورحل عنها شمالاً صوب قلعة رياح فعسكر بعسكره على بعد مرحلتين منها[٦١].

سار ملك قشتالة بقواته من طليطلة للقاء الموحدين.. فتوقف في قلعة الأرك ـ وهي قلعة جديدة أنشأها على نهر وادي يانة ـ ينتظر وصول ملك ليون بقواته كي يشترك إلى جانبه في القتال ضد الموحدين.. لكن يبدو أن ملك ليون تأخر في الوصول أو تلوم في الحضور.. فتقدم ملك قشتالة بقواته وضرب معسكره إزاء معسكر الموحدين. وكان جيش ملك قشتالة يتألف من جميع الأجناد الفرسان والمشاة بالإضافة إلى فرسان قلعة رياح وفرسان الداوية.. فتوفر له أكثر من مائة ألف مقاتل[٦٢].

يقول المراكشي[٦٣]: «تجهّز أمير المؤمنين وأخذ في العبور.. فعبر البحر في جمادى الآخرة من سنة ٥٩١ بجموع عظيمة ونزل مدينة إشبيلية.. فلم يقم بها إلا يسيراً ريثما اعترض الجند وقسّم الأموال وخرج يقصد بلاد الروم.. وسمع الأذفونش ـ لعنه الله ـ بقصده.. فتجهّز هو أيضاً بجموع ضخمة والتقوا بموضع يعرف بفحص الحديد.. وكان الأذفونش قد جمع جموعاً لم يجتمع له مثلها قط.. فلما تراءى الجمعان اشتد خوف الموحدين وساءت ظنونهم لما رأوا من كثرة عددهم.. وأمير المؤمنين في ذلك كله لا مستند له إلا الدعاء والاستعانة بكل من يظن عنده خيراً من الصالحين».

---

(٦١) الناصري: نفس المصدر والجزء ص ١٦٧ ـ محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق٢ ص ١٩٩ ـ ٢٠٠.

(٦٢) يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس ص ٣٣٣ ـ ٣٣٤ S.P.Scott: A History of the Moorish empire V. II. P310... J. F.O'callaghan: A history of medieval spain P.243.

(٦٣) المعجب ص ٢٨٢.

«أخذ الموحدون والنصارى قبيل نشوب المعركة يبعثون بالسرايا الفرسان للتجسس على معسكر الطرف الآخر.. فاكتشف الموحدون سرية نصرانية على مقربة من معسكرهم فجردوا عليها بعض الفرسان وقضوا عليها فوراً.. «فكانوا عندهم كأكلة جائع أو شربة ظمآن وتركوهم بتلك البطاح ولائم للنسور والعقبان(٦٤)».

استشار الخليفة يعقوب المنصور كبار القادة الموحدين والأندلسيين في رسم خطة القتال.. ثم اختص أهل الأندلس بمزيد من المشور وقال لهم: إن جميع من استشرته وإن كانوا أولي بأس ومعرفة بالحرب لكنهم لا يعرفون من قتال الفرنج ما تعرفونه أنتم لتمرّسكم بهم وتمرّسهم بكم.. فأحالوه في الرأي على القائد أبي عبد الله بن صناديد.. فعوّل المنصور رحمه الله في ذلك على رأيه(٦٥).

يتلخص رأي ابن صناديد في تقسيم الجيش إلى قسمين.. يشمل القسم الأول جميع الحشود والجنود من العرب الأندلسيين والمطوعة وقبائل البربر تحت قيادة أحد كبار القادة فيخوض بهم المعركة وهو يحمل راية الخلافة فيعتقد النصارى أنه الخليفة. ويشمل القسم الثاني جند الموحدين والعبيد والحشم تحت قيادة الخليفة نفسه يقف بهم على أهبة الاستعداد في مكان قريب متوارياً عن الأنظار. فيدخل المعركة في الوقت المناسب خاصة إن بدت الهزيمة على المسلمين(٦٦).

عيّن الخليفة بعض القادة الصغار على جند القسم الأول من الجيش.. فجعل جرمون بن رياح قائداً على قبائل العرب.. ومنديل بن عبد الرحمن

---

(٦٤) ابن عذارى: البيان المغرب ق ٣ ص ١٩٣.
(٦٥) الناصري: الاستقصا جـ ٢ ص ١٦٧ - ١٦٨.
(٦٦) يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس ص ٣٣٤ - محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق ٢ ص ٢٠٠ - S. P. Scott: A history of the moorish empire V. II. P. 310.

قائداً على قبائل مغراوة ومحيو بن أبي بكر قائداً على قبائل بن مرين... وجابراً بن يوسف قائداً على قبائل بني عبد الواد.. وعباس بن عطية قائداً على قبائل بني توجين. وتلجين بن علي قائداً على قبائل هسكورة ومصمودة.. ومحمد بن منقفاد قائداً على قبائل غمارة وجعل الفقيه أبا خزر يخلف بن خزر على المطوعة.. وقيل أبا محمد عبد الواحد بن أبي حفص.. ثم جعل كبير وزرائه الشيخ أبا يحيى بن أبي حفص قائداً عاماً على هؤلاء القواد وجيوشهم فأعطاه راية الخلافة(٦٧).

قسّم الخليفة الجيش إلى مقدمة وقلب وجناحين.. جعل في المقدمة الأغزاز والمطوعة من حملة الرماح الطويلة.. وجعل في القلب القائد العام أبا يحيى بن أبي حفص مع قبيلة هنتانة.. وجعل في الميمنة الجند الأندلسي بقيادة ابن صناديد. وجعل في الميسرة قبائل زناتة والمصامدة والعرب(٦٨).

تقدّم الموحدون حتى أشرفوا على معسكر النصارى في سفح التل.. فنزلوا في البسيط الممتد أمام حصن الأرك.. ثم قام القائد العام الوزير الشيخ أبو يحيى يحث المسلمين على الصبر والثبات.. ويسألهم بصوت جهوري أن يستغفروا ويتغافروا فيما بينهم وأن يخلصوا نياتهم لله تعالى.. ثم قام القاضي أبو علي بن حجام وألقى خطبة بليغة تفيض حماسة وبياناً في الحث على الجهاد وفضله ومكانته وقدره عند الله.. وكان لهذه الحركة آثارها في إنعاش النفوس وتنبيه الضمائر وتنقية السرائر وإذكاء العزائم(٦٩).

نشبت الموقعة يوم الأربعاء ٩ شعبان ٥٩١ هـ/١٩ يوليو ١١٩٥ م.. فقد قام الفرسان النصارى بثلاث هجمات متتالية لاختراق صفوف

(٦٧) الناصري: الاستقصا جـ٢ ص ١٦٨ - ١٦٩ - محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق٢ ص ٢٠٢.
(٦٨) الناصري: نفس المصدر والجزء ص ١٦٩ - يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس ص ٣٣٥.
(٦٩) محمد عبد الله عنان: المرجع السابق ص ٢٠٢ - ٢٠٣.

الموحدين.. تقدّر الرواية هؤلاء النصارى بسبعة آلاف أو ثمانية آلاف فارس عليهم البيضات الحديدية والزرد لكنهم عجزوا عن اختراق صفوف الموحدين في الهجمتين الأولى والثانية.. فقد تصدّى لهم حملة الرماح الطويلة من مقدمة الجيش الموحدي حتى أصابوا صدور خيلهم.. فارتد الفرسان النصارى مرتين إلى معسكرهم في سفح التل(٧٠).

أعاد الفرسان النصارى تنظيم صفوفهم وأخذوا يستعدون للقيام بهجمة ثالثة فقام القائد العام أبو يحيى يحض المسلمين على الثبات وعدم التراجع وينتقل بين الصفوف فلما شاهد الفرسان النصارى راية الخلافة مرفوعة في قلب الجيش الموحدي، قرروا الهجوم على القلب لاعتقادهم أنه القسم الذي يقوده الخليفة نفسه.. فاندفعوا نحوه بكل قوة يهاجمون ويقتلون.. فاستشهد القائد العام الشيخ أبو يحيى وجماعة من هنتانة والمطوعة. ثم تقدمت قبائل العرب والأغزاز والجند الأندلسي فأحاطوا بالفرسان النصارى حتى أبادوا معظمهم. واضطر الباقي إلى الفرار نحو محلّتهم في سفح التل(٧١).

سار المسلمون وراء النصارى إلى سفح التل.. فاشتبك الطرفان مرة أخرى فحملت العرب والمطوعة وهنتانة والأغزاز والرماة على النصارى حتى أفنوهم.. لذلك سار بعض العرب إلى الخليفة وأخبروه بالنصر.. فتقدم الخليفة بقواته مصحوباً بقرع الطبول ورفع الرايات. فهرب ملك قشتالة ببقية جنده.. وسار المسلمون وراء النصارى فتمكنوا من بعضهم ثم أحاطوا بحصن الأرك معتقدين أن ملك قشتالة بداخله، لكنه لاذ بالفرار من الباب الخلفي للحصن.. واقتحم المسلمون الحصن عنوة وأضرموا النيران في أبوابه

---

(٧٠) الناصري: الاستقصا جـ٢ ص ١٦٩ - ١٧٠ - يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس ص ٣٣٦ -
J. F. O'callaghan: A history of medieval spain P. 243

(٧١) الناصري: نفس المصدر والجزء ص ١٧٠
- يوسف أشباخ: نفس المرجع ص ٣٣٦ - ٣٣٧ - محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق٢ ص ٢٠٦.

واستولوا على ما بداخله من الأسلاب والغنائم(٧٢).

تذكر رواية أخرى أن ملك قشتالة نفسه قاد هجوم النصارى على ميسرة الجيش الموحدي فتقهقر المطوعة وأخلاط السوقة.. فلما رأى الخليفة المنصور ذلك تقدم بنفسه دون ساقته وأخذ يحث الجند على الثبات والهجوم.. فكان لحركته هذه أبعد الأثر في إثارة حماس الجند وهجومهم على النصارى.. واستمر القتال طوال النهار فحلّت الهزيمة بالنصارى وقتل أكثرهم.. بينما تمكن ملك قشتالة من الفرار في عشرين فارساً من رجاله حين خيّم الظلام فسار إلى طليطلة والتجأ بقية جيشه إلى حصن الأرك(٧٣).

أما الرواية النصرانية فتذكر أن الاضطراب والفوضى حلّت بمعسكر النصارى حين تقدم نحوهم المسلمون في صباح يوم المعركة.. فاندفع النصارى بلا نظام نحو المسلمين واشتبكوا معهم في موقعة استمرت ناشبة حتى منتصف النهار فبدت الهزيمة على النصارى.. فحين شاهد ذلك ملك قشتالة وهو في معسكره بسفح التل.. اندفع ببقية جنده إلى ميدان المعركة يضرب يميناً وشمالاً ولكنْ أكثر جنده سقط قتيلاً في المعركة.. ثم أدرك بعض قادة النصارى استحالة استمرار القتال والتغلب على المسلمين فناشدوا ملكهم بالانسحاب والفرار خوفاً على حياته ولكنه رفض مما جعلهم يخرجوه بالقوة من ميدان المعركة وعادوا به إلى طليطلة(٧٤).

تلخص بعض الروايات موقعة الأرك بأسطر قليلة ولكن تقدم معلومات أخرى.. فمثلاً يقول ابن خلدون(٧٥): «... ثم ارتحل للقاء العدو ونزل

---

(٧٢) الناصري: نفس المصدر والجزء ص ١٧٠ ـ محمد عبد الله عنان: نفس المرجع ص ٢٠٧ و ٢٠٨ ـ S. P. Scott: The moorish empire V. II PP. 310 - 311.

(٧٣) محمد عبد الله عنان: نفس المرجع ص ٢٠٨.

(٧٤) يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس ص ٣٣٦ ـ ٣٣٧ ـ محمد عبد الله عنان: نفس المرجع ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩.

(٧٥) العبر جـ ٦ ص ٢٤٥.

بالأرك من نواحي بطليوس وزحف إليه العدو من النصارى وأمراؤهم يومئذ ثلاثة ابن أذفونش وابن الرنك والببوج. وكان اللقاء يوم كذا سنة إحدى وتسعين وأبو محمد بن أبي حفص يومئذ على المطوعة وأخوه أبو يحيى على العساكر والموحدين.. فكانت الهزيمة المشهورة على النصارى واستلحم منهم ثلاثين ألفاً بالسيف واعتصم فلهم بحصن الأرك وكانوا خمسة آلاف من زعمائهم. فاستنزلهم المنصور على حكمه وفودي بهم عددهم من المسلمين.

بينما يقول الحميري(٧٦): «التقى الجمعان بجسر الأرك والتحم القتال.. فانهزم العدو وركبهم بالسيف من ضحى يوم الأربعاء تاسع شعبان إلى الزوال وانتهب محلة الروم وقتل منهم زهاء ثلاثين ألفاً واستشهد من المسلمين دون الخمسمائة.. وأفلت أذفونش واجتاز على طليطلة لا يعرج على شيء في عشرين فارساً.. وحصر المسلمون فلهم بحصن الأرك وكانوا خمسة آلاف فصالحوا بقدرهم من أسارى المسلمين».

بينما يقول الناصري(٧٧): «إن عدد أسارى الأرك كانوا أربعة وعشرين ألفاً.. فمنّ عليهم المنصور وأطلقهم. قال فعزّ ذلك على جميع الموحدين وسائر المسلمين وعدت للمنصور سقطة من سقطات الملوك.. ولما حضرت المنصور الوفاة قال: ما ندمت على شيء فعلته في خلافتي إلا على ثلاث وددت أني لم أفعلها.. والثالثة إطلاقي أسارى الأرك ولا بد لهم أن يطلبوا بثأرهم».

ويقول المراكشي(٧٨): «فلما كان يوم الأربعاء الثالث من شعبان... التقى المسلمون وعدوهم.. فأنزل الله على الموحدين نصره وأفرغ عليهم صبره ومنحهم أكتاف الروم.. وكانت الدائرة على الأذفونش ـ لعنه الله ـ

---

(٧٦) الروض المعطار ص ١٣.

(٧٧) الاستقصا جـ٢ ص ١٧١ و ١٨٣ ـ B. Meakin: the moorish empire P. 80

(٧٨) المعجب ص ٢٨٢ ـ ٢٨٣.

وأصحابه.. ولم ينج إلا هو في نحو ثلاثين من وجوه قواده.. واستشهد من المسلمين جماعة من أعيان الموحدين وغيرهم.. منهم الوزير أبو يحيى بن عبد الله بن الشيخ أبي حفص».

بينما يقول ابن أبي دينار(٧٩): «كان الفنش لعنه الله انضم إليه جميع الأجناس حتى قيل كان معه ثلاثمائة ألف ما بين راجل وفارس.. فهزمهم الله ونصر المسلمين ودخلوا حصن الأرك الذي سميت به الواقعة وأخذوا منه ما لا يعلم قدره إلا الله من الأسارى أربعة وعشرين ألفاً فمنّ عليهم أمير المؤمنين يعقوب المنصور وأطلقهم».

أما ابن الأثير فيقول(٨٠): «التقوا تاسع شعبان شمالي قرطبة عند قلعة رياح بمكان يعرف بمرج الحديد.. فاقتتلوا قتالاً شديداً.. فكانت الدائرة أولاً على المسلمين ثم عادت على الفرنج فانهزموا أقبح هزيمة وانتصر المسلمون عليهم... وكان عدد من قتل من الفرنج مائة ألف وستة وأربعين ألفاً.. وأسر ثلاثة عشر ألفاً وغنم المسلمون منهم شيئاً عظيماً من الخيام مائة ألف وثلاث وأربعون ألفاً.. ومن الخيل ستة وأربعون ألفاً.. ومن البغال مائة ألف.. ومن الحمير مائة ألف.. وكان يعقوب قد نادى في عسكره من غنم شيئاً فهو له سوى السلاح.. وأحصى ما حمل إليه منه فكان زيادة على سبعين ألف لبس.. وقتل من المسلمين نحو عشرين ألفاً».

استولى الخليفة يعقوب المنصور بعد انتهاء القتال على بعض القلاع القريبة من ميدان المعركة.. ثم هاجم الموحدون قلعة رياح ذاتها واقتحموها بعد قتال عنيف وانتزعوها من أيدي فرسان جمعية قلعة رياح المتولّين للدفاع عنها.. وقتل أثناءالمعركة أستاذ الجماعة نونيو دي فوينتس.. وغادر بقية الفرسان القلعة، ولجأوا إلى قلعة شلبطرة القريبة منها. وهكذا استرد المسلمون

(٧٩) المؤنس في تاريخ افريقيا وتونس ص ١١٦.

(٨٠) الكامل جـ١٢ ص ٤٨ ـ زيني دحلان: الفتوحات الإسلامية جـ١ ص ٣٢٧ ـ الناصري: الاستقصا جـ٢ ص ١٧١.

هذه القلعة المنيعة بعد أن لبثت في حوزة النصارى منذ سقوطها في أيديهم سنة ١١٤٧ م زهاء نصف قرن. وأمر المنصور بتطهير جامعها الذي كان قد حوّل إلى كنيسة وقدم على حاميتها يوسف بن قادس[٨١].

إن الحميري الذي ينقل عنه محمد عنان لا يذكر استرداد قلعة رباح عنوة. يقول الحميري[٨٢]: «وفي سنة ٢٤١ أمر الإمام محمد بتحصين مدينة قلعة رباح والزيادة في مبانيها ونقل الناس إليها وإلى مدينة طلبيرة.. ثم ملكها النصارى ولم تزل في أيديهم الى عام وقيعة الأرك، فخلت قبل الوصول إليها. وكان بقاؤها في أيديهم إحدى وخمسين سنة وعشرة أشهر. فأمر المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بتطهير جامعها وصلى فيها وقدم على قوادها يوسف بن قادس».

يذكر مثل هذه الرواية المراكشي[٨٣] فهو يقول: «وخرج أمير المؤمنين بنفسه حتى قلعة رباح وقد انجلى عنها أهلها فدخلها وأمر بكنيستها فغيرت مسجداً. فصلى فيها المسلمون واستولى على ما حول طليطلة من الحصون. ثم رجع إلى مدينة إشبيلية منصوراً مفتوحاً عليه».

يقول أيضاً ابن الأثير[٨٤]: «ولما انهزم الفرنج اتبعهم أبو يوسف.. فرآهم قد أخذوا قلعة رباح وساروا عنها من الرعب والخوف.. فملكها وجعل فيها والياً وجنداً يحفظونها وعاد إلى مدينة إشبيلية».

ترتب على موقعة الأرك نتائج محددة للغاية، لا تتناسب مع الانتصار الكبير الذي حققه الموحدون.. مع ذلك فقد قضت موقعة الأرك الى حد كبير

---

(٨١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق٢ ص ٢١٤ (نقلاً عن الحميري: الروض المعطار ص ١٦٣).

(٨٢) الروض المعطار ص ١٦٣.

(٨٣) المعجب ص ٢٨٣.

(٨٤) الكامل في التاريخ ج ١٢ ص ٤٨ ـ ٤٩.

على قوة مملكة قشتالة وجعلتها بحاجة إلى عدة سنوات لتنهض من كبوتها وتستعيد مكانتها. إن موقعة الأرك دبت الفزع والرعب في الممالك النصرانية الأخرى أرغونة والبرتغال وليون.. فكانت تتوقع أن يقوم الموحدون بغزو بلادها. أما مملكة نبرة فكانت على استعداد أن تدفع الجزية للموحدين(٨٥).

عاد الموحدون إلى اشبيلية بعد انتهاء الموقعة. فلم يحسنوا الإفادة من نصرهم الكبير لاسترداد بعض المدن أو فرض سيطرتهم على الممالك النصرانية ولا حتى على مملكة قشتالة نفسها.. ربما يعود هذا إلى إحساس الموحدين بأن نصرهم هذا لم يتحقق الا إتفاقياً.. ففي ذلك يقول الحميري(٨٦): «وسمعت من يحدث أن هذا الفتح كان إتفاقياً بسبب إحراز الروم بعض رايات المسلمين وذهابهم بها قائمة منتصبة وانبعاث حفائظ بعض القبائل لما عاينوا راية إخوانهم مقدمة على العدو. واذ ظنوا أن أصحابهم حملوا على العدو.. فأوغلوا وهم لا يعلمون الحال.. وكيفما كان فهو فتح مبين ونصر مؤزر».

عاد ملك قشتالة الفونسو الثامن الى بلاده.. فصب جام غضبه على حلفائه من الممالك النصرانية وحملهم مسؤولية الهزيمة في موقعة الأرك لتقاعسهم عن نجدته وعدم اشتراكهم إلى جانبه في القتال(٨٧).. ومع ذلك إنتهز ملك ليون وملك نبرة هزيمة ملك قشتالة في موقعة الأرك فقام كل منهما بغزو مملكة قشتالة من ناحيته لاسترداد المدن والحصون التي سبق أن استولى عليها ملك قشتالة من المملكتين قبل نشوب موقعة الأرك ببضع سنوات(٨٨).

أخذ الخليفة المنصور هو الآخر يستعد لغزو مملكة قشتالة.. فاستدعى إليه الحشود والجنود. لذلك رأى ملك قشتالة أن يعقد الصلح مع الموحدين

(٨٥) S.P.S. scott. A history of the moorish empire V.II p. 312

(٨٦) الروض المعطار ص ١٣.

(٨٧) طاروجان جيروم: أزهار البساتين ص ٢٦ S. painter: A history of the middle ages p. 195

(٨٨) J. F. O'callaghan: A history of medieval spain pp. 244 - 245 - R. Altamira: A history of spain pp. 167, 171

حتى يتفرغ لقتال جاريه ملك ليون وملك نبرة. . فأخذ يبعث سفراءه إلى إشبيلية يطلب عقد معاهدة سلم ومهادنة، لكن الخليفة المنصور رفض. . فقد استقر رأيه على غزو بلاد الجوف أي منطقة الاسترامادورة لاسترداد ما انتزعه النصارى من قواعد وحصون هذه المنطقة(٨٩).

خرج الخليفة المنصور من إشبيلية يوم الاثنين منتصف رجب سنة ١١٩٢ م/أبريل ١١٩٦ م. . كانت طليعة الجيش تتألف من الجند الأندلسي بقيادة أبي عبد الله بن صناديد. فغزا حصن منتانجش وضرب الحصار عليه. . ثم وصل الخليفة ببقية الجيش في اليوم التالي. فعرض النصارى النزول عن الحصن مقابل الأمان. . فوافق الخليفة وأمر أبا عبد الله بن صناديد بتوصيل النصارى الى حدود بلادهم. وخشي نصارى مدينة ترجالة مقاومة الموحدين فتخلوا عن المدينة «بلا منازلة. . وقنعوا من السلامة بالفرار»(٩٠).

استمر الموحدون في غزوتهم فعبروا نهر التاجة واستولوا على بعض المدن والحصون. . لذلك انتهز الفرصة الفونسو التاسع ملك ليون فطلب العون من الموحدين على قتال ملك قشتالة لاسترداد المدن والحصون الواقعة على الحدود بين المملكتين. . فاستجاب الموحدون له واشتركوا معه في غزو مملكة قشتالة، مما أثار غضب البابا سلستين الثالث على ملك ليون. فأصدر ضده عقوبة النفي الكنسي وناشد ملك البرتغال بقتاله(٩١).

وتقول الرواية النصرانية إن الموحدين الذين ساعدوا ملك ليون في غزو قشتالة ضربوا الكنائس والأديرة بمنتهى القسوة. . كما قام جيش ملك ليون

---

(٨٩) محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع ٣ ق ٢ ص ٢١٧ ـ ٢٢٠.

(٩٠) ابن عذارى: البيان المغرب ق ٣ ص ١٩٨ ـ ١٩٩.

(٩١) J. F. O'callaghan: A history of medieval spain p. 244 - R. Altamira: A history of spain p. 167

بانتساف الضياع وتخريبها. فبلغت هذه الغزوة مدينة كريون.. وكان ملك نبرة في نفس الوقت يقوم بغزو مملكة قشتالة من ناحيته... فاقتحم مدينة سرية وعاث في تلك المنطقة تخريباً ونهباً(٩٢).

زحف الموحدون بعد ذلك شرقاً صوب مدينة طلبيرة وهم يثخنون تخريباً وقتلاً وسبياً.. فهاجموا طلبيرة وانتسفوا زرعها ولكنهم لم يستطيعوا الاستيلاء عليها لافتقارهم إلى آلات الحصار.. ثم ساروا شمالاً نحو مدينة مكادة فألحقوا بها التخريب والدمار.. ثم هبطوا إلى مدينة طليطلة واستعرضوا قوتهم فرساناً ومشاة.. فلم يجرؤ ملك قشتالة على الخروج من طليطلة والاشتباك مع الموحدين.. بل بقي معتصماً داخل عاصمته مستعداً لمقاومة الحصار. لذلك استمر الموحدون على حصار طليطلة نحو أسبوع فانتسفوا زرعها وخربوا أحوازها.. ثم اتجهوا جنوباً فاخترقوا أراضي قلعة رباح وساروا إلى جيان وقرطبة واستجة وقرمونة.. فدخلوا إشبيلية بعد أن قضوا ثلاثة أشهر في هذه الغزوة(٩٣).

تلخص بعض الروايات الإسلامية هذه الغزوة ببضعة أسطر.. فابن خلدون(٩٤) يقول: «إنكفـ المنصور راجعاً إلى إشبيلية ثم خرج منها سنة اثنتين وتسعين غازياً إلى بلاد الجوف فافتتح حصوناً ومدناً وخربها كان منها ترجالة وطلبيرة وأطل على نواحي طليطلة فخرب بسائطها واكتسح مسارحها وقفل إلى إشبيلية سنة ثلاث وتسعين».

ويقول المراكشي(٩٥): «أقام أمير المؤمنين بإشبيلية بقية سنة ٥٩١. وقصد بلاد الروم في السنة الثانية. فنزل على مدينة طليطلة بعساكره فقطع أشجارها وانتسف معايشها وغور مياهها وأنكى في الروم أشد نكاية».

---

(٩٢) محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق ٢ ص ٢١٩ ـ ٢٢٠.
(٩٣) محمد عبدالله عنان: نفس المرجع ص ٢١٩ ـ ٢٢٠.
(٩٤) العبر ج ٦ ص ٢٤٥.
(٩٥) المعجب ص ٢٨٣.

بينما يقول الحميري(٩٦): «رجع المنصور إلى إشبيلية ظافراً، فأقام مدة ثم غزا بلاد الجوف فحاصر ترجالة ونزل على بلنسية ففتحها عنوة وقبض على قائدها يومئذ مع مائة وخمسين من أعيان كفارها ووجههم إلى خدمة بناء الجامع الكبير بسلام مع أسارى الأرك، ثم انتقل إلى طلبيرة ومكادة فخربهما. ثم برز على طليطلة فشن عليها الغارات ثم نازل مجريط وشرع في القفول.. فأخذ على جيان إلى قرطبة إلى إستجة إلى قرمونة ووصل إلى إشبيلية في رمضان».

ويقول ابن أبي دينار(٩٧): «وأقام بإشبيلية إلى سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة وخرج إلى غزوته الثانية وفتح قلعة رياح ووادي الحجارة ومعاقل كثيرة وحاصر طليطلة وأحرق رباطاتها ونصب عليها المجانيق.. ثم ارتحل عنها إلى سلمنكة فدخلها بالسيف وقتل رجالها ونساءها ورجع إلى حضرة ملكه مراكش».

هناك رواية تذكر أن ملك قشتالة عاد إلى بلاده بعد هزيمته في الأرك فحشد جنده وعاد لقتال الموحدين فحلت بـه الهزيمـة ثانيـة.. يقول ابن الأثير(٩٨): «أما الفنش فانه لما انهزم حلق رأسه ونكس صليبه وركب حماراً وأقسم أن لا يركب فرساً ولا بغلاً حتى تنتصر النصرانية.. فجمع جموعاً عظيمة وبلغ الخبر بذلك إلى يعقوب.. فأرسل إلى بلاد المغرب مراكش وغيرها يستنفر الناس من غير إكراه.. فأتاه من المتطوعة والمرتزقة جمع عظيم فالتقوا في ربيع الأول سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة.. فانهزم الفرنج هزيمة قبيحة وغنم المسلمون ما معهم من الأموال والسلاح والدواب وغيرها.. وتوجه إلى مدينة طليطلة فحاصرها وقاتلها قتالاً شديداً وقطع أشجارها وشن الغارة على ماحولها من البلاد وفتح فيها عدة حصون فقتل رجالها وسبى

(٩٦) الروض المعطار ص ١٣.
(٩٧) المؤنس في أخبار افريقيا وتونس ص ١١٦.
(٩٨) الكامل في التاريخ ج ١٢ ص ٤٨ ـ الناصري: الاستقصا ج ٢ ص ١٧١ ـ ١٧٢.

حريمها وخرب دورها وهدم أسوارها.. فضعفت النصرانية حينئذ وعظم أمر الإسلام بالأندلس وعاد يعقوب إلى إشبيلية فأقام بها».

حاقت الأخطار بملك قشتالة من الموحدين ومن ملكي ليون ونبرة.. فأخذ ملك قشتالة يسعى إلى عقد معاهدة صلح أو تحالف ولكن دون جدوى.. ثم خدمته الأقدار بوفاة الفونسو الثاني ملك أرغونة في شهر رجب سنة ٥٩٢ هـ/أبريل ١١٩٦ م واعتلاء ابنه بدور الثاني عرش أرغونة.. فقد سلك بدور الثاني سياسة حسنة إزاء ملك قشتالة، فاستجاب له وعقد معه معاهدة تحالف، ثم جدد معه معاهدة كاسولا الخاصة باتفاق مملكتي أرغونة وقشتالة على غزو مملكة نبرة واقتسامها بينهما.. وفي نفس الوقت ناشد البابا سلستين الثالث ملك ليون بأن يتوقف عن غزو مملكة قشتالة وأن يشهر السلاح في وجه المسلمين(٩٩).

قام الخليفة المنصور خلال إقامته في مدينة إشبيلية بغزوة ثانية ضد مملكة قشتالة ففي شهر جمادى الثانية ٥٩٣ هـ/ أبريل ١١٩٧ م سار بجيوشه من إشبيلية شمالاً فنزل في مدينة قرطبة وأخذ يقوم بتقسيم الجيش وترتيبه استعداداً للغزو.. ثم استأنف الخليفة زحفه فعبر الحدود وسار نحو مدينة طلبيرة لغزوها.. فأقبل عليه ساعتئذ سفراء ملك قشتالة يعرضون عقد معاهدة صلح ومهادنة، لكنه رفض وأمر بصرف السفراء(١٠٠).

قام الخليفة المنصور بغزو مدينة مكادة دون أن ينال منها.. ثم سار جنوباً نحو مدينة طليطلة، فبلغه اجتماع ملكي أرغونة وقشتالة بقواتها في حصن مجريط.. فأقلع عن طليطلة وسار بقواته للقائهما، لكنهما غادرا حصن مجريط وتركا فيه بعض قواتهما بقيادة دون ديجو لوبث دي هارو.. فأحسن الدون ديجو الدفاع عن حصن مجريط.. مما جعل الخليفة يسير إلى قلعة

(٩٩) J. F. O'callaghan: A history of medieval spain p. 244

(١٠٠) ابن عذارى: البيان المغرب ق ٣ ص ٢٠٢ - ٢٠٣.

هنارس وإلى وادي الحجارة وهو ينتسف الزروع ويخرب الضياع دون أن يستولي على شيء.. ثم خرجت حامية وادي الحجارة فجأة فأوقعت ببعض الموحدين واستولت على بعض الأسلاب.. فسار الخليفة بعد ذلك الى وبذة، ثم حاصر قونقة وارتد نحو إقليش وسار منها جنوباً الى الكرسي وبياسة.. فوصل قرطبة آخر رمضان سنة ٥٩٣ هـ/أغسطس ١١٩٧ م[١٠١].

جعل يوسف أشباخ الغزوتين اللتين قام بهما الخليفة المنصور بعد موقعة الأرك غزوة واحدة[١٠٢].

استجاب الخليفة المنصور بعد غزوته الثانية لملك قشتالة.. فعقد معه معاهدة سلم.. يقول ابن خلدون[١٠٣]: «خرج المنصور من إشبيلية غازياً إلى بلاد ابن أذفونش حتى احتل باحة طليطلة وبلغه أن صاحب برشلونة أمد ابن أذفونش بعساكره وأنهم جميعاً بحصن مجريط.. فنهض إليهم ولما أطل عليهم انفضت جموع ابن أذفونش من قبل القتال ثم انكف المنصور راجعاً إلى إشبيلية.. ثم رغب إليه ملوك النصرانية في السلم فبذله لهم».

أما ابن عذارى[١٠٤] فيقول: «ولما رأت ملوك الروم أن بلادهم ورجالهم قد أتى عليهم الاستئصال والاصطلام... وجهوا إرسالهم في طلب الصلح على ما عهد من شروط الأحكام. فاسعفوا فيه على حكم شريعة الإسلام».

يعلق أوكالاهان[١٠٥] على استجابة الخليفة لعقد معاهدة الصلح بقوله: «إن الخليفة المنصور بموافقته على عقد معاهدة الصلح قدم منحة ثمينة لملك

---

(١٠١) محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق٢ ص ٢٢٩ - ٢٣٠ - R. Altamira: A history of spain p. 155

(١٠٢) انظر يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس ص ٣٣٩ - ٣٤٠

(١٠٣) العبر ج ٦ ص ٢٤٥.

(١٠٤) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٠٤.

(١٠٥) J. F. A history of medieval spain P. 244

قشتالة». فقد كانت الأخطار أنذاك تحيط بملك قشتالة.. خطر ملك ليون من ناحية وخطر ملك نبره من ناحية أخرى.

تقدم إلينا بعض المصادر الإسلامية سبب موافقة الخليفة المنصور على عقد هذه المعاهدة.. فيقول ابن الأثير(١٠٦): «فلما دخلت سنة ثلاث وتسعين سار - المنصور - إلى بلاد الإفرنج وذلوا واجتمع ملوكهم وأرسلوا يطلبون الصلح.. فأجابهم إليه بعد أن كان عازماً على الامتناع مريداً ملازمة الجهاد إلى أن يفرغ منهم.. فأتاه خبر علي بن إسحاق الملثم الميورقي أنه فعل بإفريقيا ما نذكر من الأفاعيل الشنيعة.. فترك عزمه وصالحهم مدة خمس سنين وعاد إلى مراكش آخر سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة». فيبدو أن الموحدين كانوا يعتبرون إفريقيا أكثر أهمية لهم من الأندلس.. أو كانوا يعتبرون ابن غانية بإفريقيا أشد خطراً عليهم من النصارى بالأندلس.

- موقعة العقاب :

أخذ ملك قشتالة بعد ذلك يسعى لكسب صداقة ملكي ليون ونبرة.. فبالنسبة لكسب صداقة ملك ليون وافق ملك قشتالة على اقتراح زوجته الملكة إلينور. فقد اقترحت أن تتزوج ابنتها الأميرة برنجيلا من ملك ليون الفونسو التاسع.. فيتنازل ملك قشتالة عن المدن والحصون التي استولى عليها ملك ليون كمهر لابنتها.. كما وافق ملك ليون من جانبه على هذا الاقتراح.. فأقيمت حفلات الزواج في مدينة بلد الوليد في شهر ذي الحجة ٥٩٣ هـ/اكتوبر ١١٩٧ م.. فترتب على هذا الزواج عقد معاهدة تحالف بين ملك قشتالة وملك ليون إتفقا فيها على غزو الأندلس والتعاون معاً على قتال المسلمين(١٠٧).

(١٠٦) الكامل في التاريخ ج ٢ ص ٤٨ - الناصري: الاستقصا ج ٢ ص ١٧٢ - ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ٤٣١.

(١٠٧) J. F. O'callaghan: A history of medieval spain P. 244 - 245 - R. Altamira: A history of spain p. 167

حاول البابا سلستين الثالث أن يقيم السلام بين مملكة قشتالة ومملكة نبرة.. فناشد ملك نبرة سانشو السابع أن يوقف غزواته ضد مملكة قشتالة.. وزيادة على هذا فقد إعترف البابا رسمياً بملوك نبرة.. إذ كانت البابوية ترفض الاعتراف بملوك نبرة منذ انفصالهم عن مملكة أرغونة في سنة ٥٢٨ هـ/١١٣٤ م.. ورغم ذلك فقد رفض ملك نبرة الاستجابة لرغبات البابا واستمر يغزو مملكة قشتالة(١٠٨)

قام ملك قشتالة وملك أرغونة بغزو مملكة نبرة كل من ناحيته تنفيذاً لإتفاقهما السابق. فلم يستطع ملك نبرة قتال الملكين وردهما معاً.. لذلك عبر البحر إلى مراكش سنة ٥٩٥ هـ/ ١١٩٩م يطلب العون العسكري من الموحدين. فأحسن الموحدون استقبال ملك نبرة ولكنهم لم يستجيبوا لطلبه.. فقد كانوا يخططون ومشغولون بالقضاء على ابن غانية في إفريقيا والجزائر الشرقية ومع ذلك بقي ملك نبرة في مراكش زهاء عامين.. ثم عاد إلى بلاده سنة ٥٩٧ هـ/١٢٠١ م بدون العون العسكري الموحدي(١٠٩) وهذا مما يجعل الباحث يقول للمرة الثانية كان الموحدون يعتبرون إفريقيا أكثر أهمية لهم من الأندلس.. أو كانوا يعتبرون ابن غانية بإفريقيا أشد خطراً عليهم من النصارى بالأندلس.

انتهت مدة معاهدة الصلح المعقودة بين مملكة قشتالة والموحدين.. فرأى ملك قشتالة أن يصرف الموحدين عن غزو بلاده حتى يتفرغ لقتال ملك نبرة وذلك بتجديد معاهدة الصلح مع الموحدين.. ففي سنة ٥٩٩ هـ/١٢٠٣ م بعث ملك قشتالة وزيره الخاص إبراهيم بن الفخار اليهودي إلى مدينة مراكش يحمل «رسالة في ربوط المهادنة والمصالحة(١١٠)».

---

(١٠٨) J. F. O'callaghan: opcit p. 245 - R. Altamira opcit pp. 170 - 171

(١٠٩) نيفل باربر: سفارة جون ملك انجلترا ص ١٦٧ ـ ١٦٩ ـ N. Barbour Morocco PP. 80 - 81

(١١٠) ابن عذارى: البيان المغرب ق ٣ ص ٢١٨.

استمر النزاع قائماً بين سانشو السابع ملك نبرة من ناحية وبين ملك قشتالة ألفونسو الثامن وملك أرغونة بدور الثاني من ناحية أخرى.. فلم ينته النزاع إلا في سنة ٦٠٤ هـ/١٢٠٧ م.. ففي هذا العام عقدت معاهدة صلح بين ملك نبرة وملك قشتالة.. فوافق ملك نبرة بموجبها على وضع حاميات عسكرية لملك قشتالة في المدن والحصون التي استولى عليها. كما عقدت معاهدة مماثلة في العام التالي بين ملك نبرة وملك أرغونة.. وتم التحالف في نفس الوقت بين مملكة قشتالة ومملكة البرتغال إثر زواج الأميرة القشتالية أوراكا من الفونسو ولي عهد البرتغال.. ثم جدد ملك قشتالة وملك ليون في سنة ٦٠٦ هـ/١٢٠٩ م إتفاقهما السابق الخاص بغزو الأندلس والتعاون على قتال المسلمين.. وهكذا أصبحت الممالك الإسبانية في حالة وئام وسلام وغدا ملك قشتالة مستعداً للثأر من الأرك(١١١).

قام البابا أنوسنت الثالث بدور كبير في إقامة السلام والوئام بين الممالك الإسبانية النصرانية.. فقد هدد بإصدار عقوبة النفي الكنسي ضد كل ملك وأمير نصراني يرفع السلاح في وجه جاره النصراني.. كان البابا يضطرم بروح صليبية فطالب جميع الملوك الإسبان أن يشهروا السلاح في وجه المسلمين بالأندلس.. ثم كتب إلى أسقف طليطلة في سنة ٦٠٦ هـ/١٢٠٩ م يأمره بحثّ ملك قشتالة على غزو الأندلس وقتال المسلمين بروح صليبية.. فقامت الفرق العسكرية الدينية وقام القساوسة بقيادة أسقف طليطلة رود ريجو خيمنث بغزوات إرهابية تخريبية في الأندلس(١١٢)

لم يسع ملك قشتالة كعادته لتجديد معاهدة الصلح بين الموحدين بعد انتهاء أجلها. بل حصّن قلعة مورة الواقعة على الحدود في سنة ٦٠٦ هـ/١٢٠٩ م.. ثم سار بقواته وبفرسان قلعة رياح لغزو الأندلس..

(١١١) J. F. O'callaghan: A history of medieval spain p. 245

(١١٢) J. F. O'callaghan: opcit pp. 245 - 246

فانتسف الحقول ونهب القرى وخرّب الضياع وقتل المسلمين وسبى منهم جموعاً ثم عاد إلى بلاده.. اجتمع ملك قشتالة بعد ذلك بملكي نبرة وليون فحصل منهما على وعد بتأييده وبإمداده بالجند والعتاد.. لذلك قام في العام التالي بغزوة إرهابية على الأندلس فخرب الأراضي وسفك الدماء واستولى على الغنائم والأسرى.. وبلغ في غزوته هذه أراضي جيان وأندوجر وبياسة وأحواز مرسية(١١٣).

بلغ الخليفة الناصر أخبار غزوات النصارى فأهمّه وأقلقه وكتب إلى الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص صاحب إفريقيا يستشيره في الغزو.. فأبى عليه مخالفة وأخذ في الحركة للجهاد.. وكان الناصر معجباً برأيه مستبداً بأموره ففرق الأموال على القواد والأجناد وكتب إلى جميع بلاد افريقيا والمغرب وبلاد القبلة يستنفر المسلمين لغزو الكفار فأجابه خلق كثير... وألزم كل قبيلة من قبائل العرب بحصة من الخيل والرجال وخرج للجهاد.. فقدمت عليه الجيوش من سائر الأقطار وتسارع الناس إليه خفافاً وثقالاً من البوادي والأمصار(١١٤).

عبر الخليفة الناصر بجيوشه البحر إلى الأندلس في أواخر سنة ٦٠٧ هـ/مايو ١٢١١ م. فتلقّاه وفود الأندلس والفقهاء والولاة في جزيرة طريف.. ثم سار إلى إشبيلية في أمم لا تحصى وجيوش لا تستقصى قد ملأت السهل والوعر. فتقدر الرواية عدد جيش الخليفة الناصر بستمائة ألف مقاتل.. مما أثار الرعب والفزع في قلوب النصارى.. فأخذوا في تحصين بلادهم.. وسار بعضهم إلى إشبيلية يخطب ود الموحدين ويعرض عقد معاهدة صلح وسلام. فوافق الخليفة الناصر وعقد معاهدة صلح مع ملك

(١١٣) يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس ص ٣٥٦ - محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق٢ ص ٢٨٣ - ٢٨٤.

(١١٤) الناصري: الاستقصا ج ٢ ص ١٩٦ - انظر محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق٢ ص ٢٨٥.

نبرة ثم مع ملك ليون وصرفهما إلى بلديهما مكرمين محمّلين بالهدايا والأموال(١١٥).

بلغ يوحنا ملك إنجلترا عبور الخليفة الناصر بهذه الجيوش الضخمة فتوقّع أن يسحق الممالك النصرانية الإسبانية جميعاً.. لذلك رأى أن يعقد مع الخليفة الناصر اتفاقاً يهدف إلى تعاونهما معاً على غزو فرنسا.. فيقوم ملك إنجلترا بغزوها من الجنوب بينما يقوم الخليفة الناصر بعد سحق الممالك النصرانية بعبور البرنية ويغزو شرقي فرنسا.. وبعث ملك إنجلترا سفراءه إلى إشبيلية في سنة ٦٠٨ هـ/١٢١١ م لعقد هذا الاتفاق مع الخليفة الناصر(١١٦).

أما بواعث هذا الاتفاق فهو أن يوحنا ملك إنجلترا قد تمكن آنذاك من إخضاع ويلز وإيرلندا لسيطرته.. فأخذ يتطلع إلى الاستيلاء على أملاكه في مقاطعة أكوتين جنوبي فرنسا. ثم قدم والتر أوف كوفنتري ـ أحد سفراء الملك يوحنا إلى الخليفة الناصر ـ تقريراً للملك يوحنا ورد فيه أن جيوش الخليفة الناصر من الكثرة بحيث يستطيع سحق الممالك النصرانية جميعاً.. فحين بلغ ذلك البابا أنوسنت الثالث بعث إلى الملوك الإسبان يخبرهم ويحذرهم ويحثّهم على التعاون والاتحاد(١١٧).

سار الخليفة الناصر في نفس العام المذكور بجيوشه صوب مملكة قشتالة.. فاخترق أراضي قرطبة وجيان وأبدة وبياسة إلى أن بلغ الحدود.. فأشار عليه وزيره أبو سعيد بن جامع بالاستيلاء على قلعة شلبطرة.. فاستجاب الخليفة الناصر لمشورة وزيره وضرب الحصار على قلعة شلبطرة ونصب عليها أربعين منجنيقاً.. ومع ذلك استمر حصار القلعة واحداً

---

(١١٥) الناصري: نفس المصدر والجزء ص ١٩٦ ـ ١٩٧ ـ

(١١٦) N. Barbour: Morocco P. 79 - B. Meakin: the moorish empire pp. 83 - 84

(١١٧) N. Barbour: opcit p. 79

وخمسين يوماً أو ثمانية شهور حسب رواية أخرى.. ثم نزل النصارى من القلعة على الأمان بعد أن يئسوا من وصول النجدة[١١٨].

استولى الخليفة الناصر على حصن آخر يسمى البلج أو الثلج. يقول ابن خلدون[١١٩]: «لما بلغ الناصر تغلب العدو.. خرج من مراكش سنة تسع ووصل إشبيلية واستقر بها واستعد للغزو ثم رجع من إشبيلية وقصد بلاد ابن أذفونش فافتتح قلعة شلبطرة واللج في طريقه».

بينما يقول الحميري[١٢٠]: «شلبطرة بالأندلس من بلاد الأذفونش.. وهو حصن من حصون الأندلس من عمل قلعة رباح.. كان الملك الناصر أبو عبد الله محمد بن المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ملك المغرب نزل عليها وحاصرها بالمجانيق الضخام والآلات الحربية حتى قهر أهلها وملأها... وذلك في أوائل سنة ٦٠٨.. وكان نزل أولاً على حصن الثلج فتملكه.. ثم رجع الحصار كله على حصن شلبطرة».

كانت قلعة شلبطرة تقع على مقربة من قلعة رباح.. لذلك اتخذها فرسان قلعة رباح قاعدة جديدة لهم بعد أن فقدوا قلعة رباح في موقعة الأرك سنة **٥٩١ هـ/١١٩٥** م وأخذ الفرسان النصارى يخرجون من قلعة شلبطرة ويغزون قلعة رباح وغيرها من بلاد الأندلس.. فيقتلون المسلمين ويأسرون وينهبون كما بلغت غزواتهم أحواز مدينة جيان وأندوجر وبياسة.. مما جعل الخليفة الناصر يصرّ على احتلالها[١٢١].

يبدو بعض أسباب الاستيلاء على شلبطرة في كتاب الفتح الذي أصدره

---

(١١٨) محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق ٢ ص ٢٩١ - ٢٩٢ - S.p. scott: moorish empire V.II p. 325

(١١٩) العبر جـ٦ ص ٢٤٩.

(١٢٠) الروض المعطار ص ١٠٨.

(١٢١) J. F. O'callaghan: A history of medieval spain p. 246

الخليفة الناصر. فقد جاء في الكتاب(١٢٢): «كان المعقل المعروف بشلبطرة قد علقت به حبائل الصلبان وضجر من ناقوسه ما في جهاته الأربع من التكبير والأذان.. مرقب الدو وعقاب الجو. العلم المطل على الأعلام.. والنكتة السوداء التي هبت بسائط الإسلام والخبأة الطلعة الذي لا حال للمسلمين معه قد جعلته النصرانية إلى كل غاية جناحاً. وأعدته إلى أبواب المعاقل والمدائن مفتاحاً. فاستخرنا الله تعالى على منازلته وقلنا هو يمين صاحب قشتالة إن قطعت قعد مقعد الذليل ونظنه عبرة إن لم يتحرك لها فقد قام على ضعفه أوضح دليل».

يرى البعض أن غزو قشتالة لم يكن قد تقرر بعد مستنداً على الكتاب الذي أصدره الخليفة الناصر. فيقول محمد عبد الله عنان(١٢٣): «يبدو من أقوال صاحب روض القرطاس أن الناصر كان يقصد السير تواً إلى غزو قشتالة ولكن وزيره أبا سعيد بن جامع أقنعه بوجوب الاستيلاء أولاً على قلعة شلبطرة نظراً لمناعتها الفائقة وأهمية موقعها. بيد أنه يبدو من الروايات الأخرى أن غزو أراضي قشتالة لم يكن قد تقرر لدى الخليفة بعد وأنه كان يقصد الاستيلاء على شلبطرة بادىء ذي بدء. ويؤيّد ذلك ما ورد في كتاب الفتح الخاص بشلبطرة على لسان الخليفة».

لكن يفهم من كتاب الفتح أن الخليفة قرر من البداية غزو مملكة قشتالة. يقول الحميري(١٢٤): «ولما ملك الناصر حصن شلبطرة نفذت عنه المخاطبات بهذا الفتح.. فمن فصل من ذلك ما خاطب به صاحب أفريقيا حينئذ الشيخ المعظم أبا محمد عبد الواحد: «وهذا كتابنا إليكم من منزل الموحدين بمنزل أندوجر.. ولما كان صاحب قشتالة أقرب من تعينت حربه داراً وأكثرهم عما استطاع أحراراً.. كان أول من نوينا ووجب تقديم غزوه علينا».

(١٢٢) الحميري: الروض المعطار ص ١٠٩ ـ ١١٠.
(١٢٣) دولة الإسلام ع ٣ ق ٢ ص ٢٩١.
(١٢٤) الروض المعطار ص ١٠٩.

تذكر بعض الروايات أن الخليفة الناصر لم يستأنف زحفه لغزو قشتالة بعد الاستيلاء على قلعة شلبطرة.. إنما عاد إلى إشبيلية.. يقول المراكشي[١٢٥]: «وتحرك في أول سنة ٨ فقصد بلاد الروم.. فنزل على قلعة عظيمة لهم في غاية المنعة تدعى شلبترة.. معناه بلسان العرب الأرض البيضاء إلا أن فيه تقديماً وتأخيراً كما جرت العادة في لسان العجم.. ففتحها بعد حصار وتضييق عليها شديد.. وبعد رجوع أمير المؤمنين أبي عبد الله من هذا الفتح المتقدم الذكر إلى إشبيلية استنفر الناس من أقاصي البلاد... فاجتمعت له جموع كثيفة».

ويقول الحميري[١٢٦]: «إن الملك الناصري أمير المؤمنين محمداً بن المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ملك المغرب كان تحرك من مراكش إلى الأندلس.. فأحلّ بإشبيلية ثم تحرك منها إلى قرطبة.. ثم نزل على حصني شلبطرة واللج فحاصرهما وضيّق عليهما.. فملك حصن اللج أولاً ثم حصن شلبطرة ونصب عليها المجانيق الضخام ورميت بالحجارة الضخمة حتى ملكها.. ورجع إلى إشبيلية ظافراً غانماً».

ربما كان سبب عودة الخليفة الناصر بالجيش هو دخول فصل الشتاء ورغبة منه في راحة الجيش من الصعاب التي حلت به خلال حصار حصن شلبطرة. «فيقال إنه أقام على ذلك الحصن ثمانية أشهر فنيت فيها أزواد الناس وقلّت علوفاتهم ونفدت نفقاتهم وكلّت عزائمهم وفسدت نياتهم وانقطعت الأمداد عن المحلة فغلت بها الأسعار.. ودخل فصل الشتاء فاشتد البرد وأصاب المسلمين كل ضر.. ويقال إنه من طول مقام الناصر على ذلك الحصن عشش خطاف في جانب خبائه وباض وأفرخ وطارت فراخه وهو مقيم على حاله[١٢٧]».

(١٢٥) المعجب ص ٣١٩، ٣٢١.
(١٢٦) الروض المعطار ص ١٣٧.
(١٢٧) الناصري: الاستقصا ج ٢ ص ١٩٨ ـ وانظر يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس ص ٣٥٧ ـ =

لم يسر ألفونسو الثامن ملك قشتالة لإنقاذ قلعة شلبطرة.. إنما سعى لتنظيم حملة صليبية في أنحاء إسبانيا النصرانية... وأوروبا، منتهزاً انشغال الموحدين بمواصلة حصار شلبطرة. فعلق رود ريجو أسقف طليطلة على ذلك بقوله: «إن الله أنقذ بهذه القلعة أرض قشتالة الواسعة».. ومع ذلك فإن استيلاء الموحدين على قلعة شلبطرة يعتبر ضربة قاصمة لمملكة قشتالة ولفرسان جمعية قلعة رياح على السواء.. فقد أصبح الفرسان مشردين بلا مأوى(١٢٨).

بعث ملك قشتالة الأساقفة إلى البابا أنوسنت الثالث بروما يناشده إعلان الحرب الصليبية في أوروبا ويحثّ الشعوب الأوروبية على السير إلى إسبانيا لقتال المسلمين. ثم أرسل أساقفة آخرين إلى أنحاء أوروبا ليثيروا بذلاقتهم حماسة الشعوب النصرانية من البرنية إلى البحر الأسود فتهرع لقتال المسلمين(١٢٩).

ثم عقد ملك قشتالة مؤتمراً في مدينة قونقة لتوحيد الجهود ضد المسلمين.. فحضر المؤتمر إلى جانب ألفونسو الثامن بدور الثاني ملك أرغونة.. أما بقية الملوك الإسبان فقد بعثوا مندوبين عنهم. وانتهى المؤتمر بالاتفاق على الاتحاد والتضامن لقتال الموحدين وتقديم الجند والمال اللازم.. ثم أعلن ملك قشتالة الحرب الصليبية في إسبانيا.. وأطلق صرخته المشهورة: «كلنا صليبيون(١٣٠)».. فأخذ النصارى المتطوعون يفدون تباعاً على مدينة طليطلة من كافة أنحاء المدن الإسبانية يقودهم رجال الدين.. كما قامت المجالس البلدية بتوفير الخيل والسلاح والمؤن.. ثم وفد فرسان الجمعيات

= محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق٢ ص٢٩٢ S.p. scott: A history of the moorish empire V.II p. 325

(١٢٨) J. F. O'callaghan: A history of medieval spain p. 246

(١٢٩) يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس ص٣٥٧ ـ ٣٥٨ ـ محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق٢ ص٢٨٨ ـ ٢٨٩ ـ R. Altamira: A history of spain p. 165

(١٣٠) Ibid - s.p. scott: A history of moorish empire V.II p. 325

الدينية فوصل فرسان قلعة رياح وفرسان شانت ياقب وفرسان الاستبارية وفرسان الداوية(١٣١).

أنذر البابا بتوقيع عقوبة الحرمان الكنسي على كل ملك أو أمير يتأخر عن مساعدة ملك قشتالة.. فوصل إلى طليطلة جيش مملكة أرغونة بقيادة الملك بدور الثاني. كان الجيش يضم الأتباع والأمراء بكامل قواتهم من الفرسان والمشاة.. ثم وصل جيش مملكة البرتغال بقيادة الأمير بدور الثالث ابن الملك سانشو الأول.. ثم وصل جيش ملك ليون يقوده الأمير سانشو أخو ملك ليون ألفونسو التاسع.. أما ملك نبرة فلم يكن قد استكمل استعداده بعد ولكن حضوره كان متوقعاً(١٣٢).

كذلك استجار البابا لملك قشتالة.. فأعلن الحرب الصليبية وبعث الأساقفة ورجال الدين إلى أوروبا لحثّ الصليبيين على التوجّه إلى إسبانيا لقتال المسلمين.. فأخذت جحافل الصليبيين تفد على طليطلة عبر البرنية من معظم أنحاء أوروبا.. بينما وفد البعض الآخر عن طريق ميناء برشلونة(١٣٣).

كان هؤلاء الصليبيون يتقلّدون شارة الصليب وتولى قيادتهم إلى إسبانيا رجال الدين والأساقفة.. وكان أرنولد مطران أربونة يضطرم شغفاً لقتال المسلمين.. فقاد جيشاً ضخماً من لانجدوك وبروفانس وبرجونية.. ثم حمل بذلاقته وضراعته ملك نبرة على نصر الصليب بالجند والمال وجعله يتعهد أن يسير بفرسانه ويشترك بنفسه في القتال إلى جانب ملك قشتالة(١٣٤).

(١٣١) يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس ص ٣٥٨ ـ محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع ٣ ق ٢ ص ٢٩٣.

(١٣٢) يوسف أشباخ: نفس المرجع ص ٣٥٩ ـ J. F. O'callaghan: A history of medieval spain pp. 246 - 247

(١٣٣) J. W. Thompson: the middle ages V.II. Mohammedan and christian spain p. 684

(١٣٤) يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس ص ٣٥٨ ـ ٣٥٩ ـ S.p. scott: opcit p. 325

حضـر إلى طليطلة من أنحـاء أوروبا زهـاء ألفـين من البـارونـات بحاشياتهم. وحضر معهم عشرة آلاف فارس وخمسون ألفاً من المشاة حملة الحراب.. فاجتمع من هؤلاء جيش بلغ زهاء سبعين ألف مقاتل(١٣٥).. فلم تتسع مدينة طليطلة لجميع الصليبيين الوافدين.. فأقام معظمهم خارج مدينة طليطلة على أرض شاسعة.. فكانت جموعهم تبدو في حالة حركة دائبة ويرتفع صوتهم بلغات مختلفة.. كما يبدو منظرهم مزيجاً من الأزياء والسلاح لا تجمعهم عادات واحدة(١٣٦).

كان من الصعب أن يسود النظام والسلام بين هذه الشعوب المتباينة.. فقد قطعوا الأشجار لاستعمالها في طبيخ الطعام.. واعتدوا على اليهود فقتلوا بعضهم.. لذلك بذل ملك قشتالة جهوداً كبيرة للمحافظة على النظام وتوفير الطعام.. فكان يصرف للصليبيين رواتب شهرية عشرين شلناً للفارس وخمسة شلنات للراجل.. هذا عدا ما كان يقدمه من الهدايا النفيسـة إلى القادة والزعماء.. ثم أرسلت إيطاليا وفرنسا كميات ضخمة من المال والسلاح والمؤن إلى ملك قشتالة(١٣٧).

أمر البابا أنوسنت الثالث في روما بالصوم ثلاثة أيام التماساً لانتصار الجيوش النصرانية في إسبانيـا على المسلمـين.. فأقيمت الصلوات العـامة وارتدى رجال الدين والرهبان والراهبات السواد وساروا حفاة.. كما سارت المواكب الدينية في الطرقات متمهلة من كنيسة إلى أخرى وألقى البابا موعظة دينية ناشد فيها النصارى أن يضرعوا إلى الله التماساً لنصر الإسبان(١٣٨).

---

(١٣٥) محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق ٢ ص ٢٩٤ ـ S. painter: A history of middle ages p. 195

(١٣٦) يوسف أشباخ: المرجع السابق ص ٣٥٩ ـ ٣٦٠.

(١٣٧) يوسف أشباخ: نفس المرجع ص ٣٦٠.

(١٣٨) محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق ٢ ص ٢٩٤.

لم يفت المصادر الإسلامية أن تذكر هذا الاستصراخ الصليبي.. يقول المراكشي: «خرج الأذفونش إلى قاصية بلاد الروم مستنفراً من أجابه من عظماء الروم وفرسانهم وذوي النجدة منهم.. فاجتمعت له جموع عظيمة من الجزيرة نفسها ومن ألمان حتى بلغ نفيره إلى القسطنطينية.. وجاء معه صاحب بلاد أرغن المعروف بالبرشنوني». يقول صاحب البيان المغترب: «فاستعد له ـ أي للقاء الناصر ـ وجمع أهل قشتالة أجمعين وغيرهم من سائر جموع ملوك النصرانية الذين هم للجزيرة مكتنفين(١٣٩)».

جاء مثل هذا أيضاً في الكتاب الذي أصدره الخليفة الناصر بعد الموقعة.. فكان مما ورد فيه «أن صاحب قشتالة لما كان في العام السالف قد ضعف عن الانتصار وكاد يخفى في بلاده عن الأبصار.. رأى أن يضرع لملوك أهل ملّته ضراعة الأسيف ويصانعهم على معونته بالتالد والطريف ويسترحمهم عسى أن يجد عندهم رقة القوي على الضعيف.. فبث القسيسين والرهبان من برتغال إلى القسطنطينية العظمى ينادون في البلاد من البحر الرومي إلى البحر الأخضر غوثاً غوثاً ورحمة رحمى.. فجاءه عباد الصليب من كل فج عميق ومكان سحيق.. وأقبلوا إليه إقبال الليل والنهار من رؤوس الجبال وأسياف البحار.. وكان أولهم سبقاً الافرنج المتوغلون في الشرق والشمال.. ثم تابعهم البرجلوني بما عنده من المدد والرجال(١٤٠).

استغاث ملك قشتالة بالصليبيين الأوروبيين وغيرهم منذ أن حاصر الخليفة الناصر قلعة شلبطرة. يقول الحميري(١٤١): «كان الحصار فيها إحدى وخمسين وليلة وزعيمهم الأذفونش بن ثانجة لم يقدر في ذلك الوقت على شيء حتى استغاث بأهل ملّته وكاتب من قرب وبعد منهم وشكا إليهم ما دهاه من

(١٣٩) محمد عبدالله عنان: نفس المرجع ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥.
(١٤٠) ابن عذارى: البيان المغرب ق ٣ ص ٢٤١.
(١٤١) الروض المعطار ص ١٠٩.

المسلمين وحثّهم على حماية دينهم ونصر ملّتهم.. فاستجابوا له وجاؤوه من كل جهة وانثالوا عليه».

نظم ملك قشتالة قواته وجميع القوات التي حضرت لمساعدته فقسّمها إلى ثلاثة جيوش كبيرة.. يتألف الجيش الأول من الصليبيين المتطوعين الوافدين من البلاد الأوروبية.. فتقدر الروايات عددهم بين ستين ألفاً ومائة ألف مقاتل تولى قيادتهم كونت بسكاية ديجو لوبث دي هارو.. بينما يتألف الجيش الثاني من قوات مملكة أرغونة وقطالونيا وفرسان الداوية.. فتولى قيادته ملك أرغونة بدور الثاني.. كان الجيش الثالث أضخم الجيوش.. فقد تألف من قوات مملكة قشتالة ومملكة ليون ومملكة البرتغال وبعض فرسان الجمعيات الدينية.. فبلغ عدد فرسان هذا الجيش أكثر من ثلاثين ألف فارس، وتولى قيادته ملك قشتالة نفسه مصحوباً بأسقف طليطلة رود ريجو خيمنث وأساتذة الفرق العسكرية(١٤٢).

سارت هذه الجيوش معاً من مدينة طليطلة يوم ١٧ من المحرم سنة ٦٠٩ هـ/ ٢٠ يونيه ١٢١٢ م.. فاخترقت حدود الأندلس. واستولى الفرنسيون وغيرهم من الصليبيين الأوروبيين على قلعة مالاجون وقتلوا حاميتها الإسلامية في ٢١ محرم سنة ٦٠٩ هـ/ ٢٤ يونية ١٢١٢ م. ثم استأنفت الجيوش الثلاثة زحفها فضربت الحصار على قلعة رياح وأخذت في غزوها للاستيلاء عليها(١٤٣).

كانت حامية قلعة رياح تتألف من سبعين فارساً بقيادة أبي الحجاج يوسف بن قادس.. فاستنجد بالخليفة الناصر أكثر من مرة دون جدوى.. لذلك عرض على النصارى النزول عن القلعة بالأمان.. فوافق ملك

---

(١٤٢) يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس ص ٣٦٠ ـ محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع ٣ ق ٢ ص ٢٩٥ ـ ٢٩٦ S.p. scott: A history of the moorish empire V.II. pp. 325 - 326

(١٤٣) J. F. O'callaghan: A history of medieval spain p. 247

قشتالة.. بينما رفض الصليبيون وأصرّوا على أخذ القلعة عنوة.. وقتل حاميتها الإسلامية مما جعل القائد أبا الحجاج يوسف بن قادس يصمم على المقاومة للنهاية إذا لم يمنح الأمان له ولرجاله.. ثم تغلب أخيراً رأي ملك قشتالة فسمح للحامية الإسلامية أن تغادر القلعة بلا سلاح ومعهم خمسة وثلاثون من الخيل(١٤٤).

سلّم ملك قشتالة قلعة رباح إلى فرقة الفرسان التي تحمل اسمها.. بينما غضب الصليبيون المتطوعون، فقد كانوا يريدون قتل الحامية الإسلامية ونهب القلعة.. فاختلفوا مع ملك قشتالة رغم أنه وزع عليهم جميع المؤن والغنائم التي وجدها في القلعة بالتساوي مع جنده.. إلّا أنهم اتهموه باستئثار كل التحف والذخائر النفيسة.. ثم أخذوا يعلنون تذمّرهم وصرّحوا برغبتهم في الرجوع إلى بلادهم بحجة أنهم غير معتادين على طقس إسبانيا الحار.. وأيّدهم في ذلك مطران بوردو(١٤٥).

فشل ملك قشتالة في التفاهم مع معظم الصليبيين.. فتخلّى عنه خمسون ألف مقاتل من الصليبيين وعادوا إلى بلادهم عبر البرنية.. بينما انحاز إلى جانبه بقية الصليبيين وبقي معه أسقف زبونة والكونت ثيو بالد أوف بلازون.. ثم بقي إلى جانبه جميع جيوش الممالك النصرانية الأخرى وهي جيوش أرغونة وليون وجليقية والبرتغال.. ثم وصل إليه في نفس الوقت ملك نبرة بقواته، وانضم إليه استجابة للبابا(١٤٦).

ذكرت الرواية الإسلامية تخلّي معظم الصليبيين عن ملك قشتالة..

---

(١٤٤) محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع٣ ق ٢ ص ٢٩٦ - ٢٩٧ - S.p. scott: opcit V.II p. 326

(١٤٥) يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس ص ٣٦١ - ٣٦٢ - محمد عبدالله عنان: نفس المرجع ص ٢٩٧ - J. F. O'callaghan: opcit P 247

(١٤٦) يوسف أشباخ المرجع السابق ص ٣٦٢ - ٣٦٣ - R. Altamira: A history of spain p. 165 - s.p. scott: A history of the moorish empire V.II p. 326

فيقول المراكشي[١٤٧]: «خرج الأذفونش من مدينة طليطلة في جموع ضخمة حتى نزل على قلعة رياح. وهي كانت للمسلمين افتتحها المنصور أبو يوسف في الوقعة الكبرى.. فسلّمها إليه المسلمون الذين بها بعد أن أمّنهم على أنفسهم.. فرجع عن الأذفونش بهذا السبب من الروم جموع كثيرة حين منعهم من قتل المسلمين الذين كانوا بالقلعة المذكورة، وقالوا: إنما جئت بنا لتفتتح بنا البلاد وتمنعنا من الغزو وقتل المسلمين ما لنا في صحبتك من حاجة على هذا الوجه».

سار يوسف بن قادس برجاله إلى الخليفة الناصر ليشرح له عوامل نزوله عن قلعة رياح إلى النصارى.. لكن الوزير أبا سعيد بن جامع لم يسمح لابن قادس أن يدخل على الخليفة إنما أمر بحبس ابن جامع وصهره.. ثم دخل على الخليفة الناصر وأخذ يحرّضه على ابن قادس ويتهمه بتسليم قلعة رياح إلى النصارى.. فأمر الخليفة الناصر بقتل ابن قادس «فقتل هو وصهره قصعاً بالرماح رحمهما الله». فحقدت جيوش الأندلس على ابن جامع وفسدت نياتهم على الناصر[١٤٨].

استأنف النصارى زحفهم بعد الاستيلاء على قلعة رياح.. فمروا على قلعة شلبطرة دون أن يحاولوا الاستيلاء عليها وعبروا مرتفعات جبال الشارات وممر مورادال في ١٠ صفر سنة ٦٠٩ هـ/١٣ يوليو ١٢١٢ م.. فاستولوا على حصن العقبان وقتلوا حاميته الإسلامية ثم استمروا في سيرهم.. ولكنهم ضلوا الطريق ووجدوا أنفسهم في طريق ضيق وعر.. فدب فيهم الفزع والذعر وتوقعوا هجوماً مفاجئاً من كمائن موحدية وأخيراً أرشدهم أحد الرعاة في هذه المنطقة إلى الطريق الصحيح بعد أن سار معه القائدان لوبث دي هارو وغوسيه روميرو للتأكد من صدق كلامه.. فسلك النصارى هذا الطريق

(١٤٧) المعجب ص ٣٢١.
(١٤٨) الناصري: الاستقصا ج ٢ ص ١٩٨ - ١٩٩.

إلى أن بلغوا سهل أبدة فضربوا معسكرهم(١٤٩).

كان الخليفة الناصر خلال ذلك قد سار بجيوشه شمالاً للقاء النصارى.. فكانت الجيوش الموحدية تتألف من خمسة أقسام.. يضم القسم الأول طوائف العرب.. ويضم القسم الثاني القبائل المغربية مثل صنهاجة وزناتة والمصامدة وغمارة.. يضم القسم الثالث المتطوعة.. والقسم الرابع يضم جند الموحدين النظامية.. أما القسم الخامس فكان يضم الجند الأندلسي.. كان عدد المتطوعة مائة وستين ألفاً بين فارس وراجل.. وبلغ عدد الرجال المحشودين ثلاثمائة ألف راجل.. بينما كان عدد العبيد الذين يمشون بالحراب بين يدي الخليفة ويدورون من حوله ثلاثين ألف عبد.. وكان عدد الرماة والأغزاز عشرة آلاف عبد. هذا علاوة على جند الموحدين وزناتة والعرب.. ثم نزل الخليفة الناصر بجيوشه في بسيط المرشة الممتد إزاء معسكر النصارى(١٥٠).

أخذ كل من الطرفين يستعد لخوض المعركة.. فأعاد النصارى تنظيم قواتهم إلى قلب وجناحين.. واتخذ ملك قشتالة ألفونسو الثامن مكانه في القلب بجيوشه وجيوش مملكتي ليون والبرتغال.. بينما اتخذ ملك نبرة سانشو السابع مكانه في الجناح الأيمن بجيوشه وجند سرية وابلة وشقوبية وفرسان فرنسا الذين وفدوا مع مطران أربونة.. أما الجناح الأيسر فقد كان بقيادة ملك أرغونة بدور الثاني.. بينما وقف فرسان الداوية والإستبارية وفرسان قلعة رباح في أماكن متفرقة بين الصفوف.. كانت كل فرقة تحت إمرة قائدها الخاص يهيمن عليهم أسقف طليطلة وكبار أساقفة قشتالة(١٥١).

(١٤٩) يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس ص ٣٦٥ - B. Meakin: the moorish empire p. 82 - J. F. O'callaghan: A history of medieval spain p. 247

(١٥٠) محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع ٣ ق ٢ ص ٣٠٠ - ٣٠١.

(١٥١) محمد عبدالله عنان: نفس المرجع ص ٣١٠ - يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس ص ٣٦٦ - J. F. O'callaghan: A history of medieval spain P. 248 - S. p. Scott: A history of the moorish empire V.II p. 330

نظم الموحدون أيضاً صفوفهم فجعلوا المطوعة جملة واحدة في المقدمة بأعدادهم الهائلة.. بينما اتخذ الموحدون مكانهم في القلب.. أمّا الجند الأندلسي فقد اتخذوا أماكنهم في الجناح الأيمن. واتخذت القبائل البربرية مكانها في الجناح الأيسر.. ثم على بعد مسافة قصيرة خلف هذا التنظيم وقفت الساقات والبنود والطبول بقيادة الوزير أبي سعيد بن جامع.. بينما ضرب الخليفة الناصر قبته الحمراء على ربوة عالية ليشرف على ميدان المعركة: فجلس خارج القبة بفرسه ورمحه ودرقته.. ونصب حول القبة سياج من السلاسل الحديدية والأعمدة.. ثم شهر حرس الخليفة رماحهم نحو العدو... بينما وقف العبيد بالسلاح والرماح فضربوا حلقة محكمة حول الخليفة وقبته وحرسه(١٥٢).

نشبت الموقعة بين الطرفين يوم الاثنين ١٥ صفر سنة ٦٠٩ هـ/١٩ يوليو ١٢١٢ م. فقد أقبلت جموع الفرنج على مصافها كأنها الجراد المنتشر.. فتقدمت إليهم المتطوعة وحملوا عليهم أجمعين وكانوا مائة وستين ألفاً.. فغابوا في صفوفهم وانطبقت عليهم جموع الفرنج فاقتتلوا قتالاً شديداً.. فاستشهد المتطوعة عن آخرهم.. هذا وعساكر الموحدين والعرب والأندلس ينظرون إليهم لم يتحرك إليهم منهم أحد(١٥٣).

واصل النصارى الهجوم فبلغوا قلب الجيش الموحدي واشتبكوا معه.. ثم رجحت كفة الموحدين فردوا الفرسان النصارى على أعقابهم.. وتمكّن جناحا الجيش الموحدي من رد جناحي الجيش النصراني.. فلاح النصر إلى جانب المسلمين.. فلما رأى ذلك ملك قشتالة اندفع إلى ميدان المعركة بقواته وقوات مملكتي ليون والبرتغال.. واندفع وراءه ملكا أرغونة ونبرة بقواتهما،

(١٥٢) محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع ٣ ق ٢ ص ٢٠٨، ٢١٠ - يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس ص ٣٦٦ - ٣٦٧.

(١٥٣) الناصري: الاستقصا ج ٢ ص ١٩٩ - ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٥٨.

فوقعت الهزيمة على جناحي الجيش الموحدي ولاذ الجند الأندلسي والعرب بالفرار.. ثم تركز هجوم النصارى على القلب فأوقعوا به الهزيمة واخترقوا دائرة حرس الخليفة.. فانتهت الموقعة بهزيمة الموحدين(١٥٤).

استولى النصارى على معسكر الموحدين بجميع محتوياته من الذهب والفضة والعتاد والسلاح والخيام والأقمشة الحريرية والبسط والآنية الثمينة والنقود والمؤن والدواب.. وجمع النصارى كميات كبيرة من السهام والرماح والحراب.. ذكر بعض المعاصرين أن نقلها يحتاج إلى آلاف من الدواب.. وكانت خيمة الخليفة الناصر وراية الموحدين من أنفس الغنائم التي استولى عليها النصارى.. فأرسل ملك قشتالة الخيمة ونفيس الغنائم مع بعض الصليبيين إلى البابا أنوسنت الثالث بروما(١٥٥).

سار ألفونسو الثامن ملك قشتالة بعد الموقعة للاستيلاء على بعض البلاد فاستولى على حصون فرال وبلج وبانيوس وتولوسا.. ثم سار إلى مدينتي بياسة وأبدة القريبتين من ميدان المعركة.. خشي أهل بياسة قتال الملك فغادروا مدينتهم ولم يبق فيها سوى الضعفاء والمرضى وجرحى المعركة.. فقتل ملك قشتالة معظمهم وأسر الباقي ثم أحرق دور بياسة وخرب مسجدها الجامع.. سار بعد ذلك إلى أبدة التي كانت مزدحمة بأهلها وبمن وفد إليها من أهل بياسة والفارّين من المعركة.. فحاصرها ثلاثة عشر يوماً وأخذ في غزوها(١٥٦).

عرض أهل أبدة فدية قدرها ألف ألف دينار على الملك مقابل أن

---

(١٥٤) يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس ص ٣٦٨-٣٦٩ - محمد عبدالله عنان: دولة الاسلام ع ٣ ق ٢ ص ٣١١ - ٣١٢. S. painter: Ahistory of middle ages p 196.

(١٥٥) يوسف أشباخ: نفس المرجع ص ٣٧١ - S. p. Scott: Ahistory of the moorish empire. V.II pp. 332 - 333 - J. F. O'callaghan: Ahistory of medieval spain p. 248.

(١٥٦) محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع ٣ ق ٢ ص ٣٢٣ - R. Altamira: Ahistory of spain p. 165 - s. p. scott: Ahistory of the moorish empire V.II p. 339.

يتركهم أحراراً.. فوافق الملك وزميلاه ملكا أرغونة ونبرة.. ولكن القساوسة رفضوا وأصرّوا على تسليم المدينة بلا قيد ولا شرط.. فنزل الملوك على رغبة رجال الدين واقتحم النصارى مدينة أبدة فقتلوا ستين ألفاً من سكانها وسبوا مثل هذا العدد.. وتعترف الرواية النصرانية بهذا الإجراء فتقدر قتلى وسبي مدينة أبدة بمائة ألف.. وتقدر رواية أخرى السبايا وحدهم بمائة ألف.. يقول المراكشي إن بلاد الروم امتلأت من أسرى وسبايا قرطبة.. فكانت هذه أشد على المسلمين من الهزيمة.. ثم هدم النصارى دور المدينة حتى أصبحت أنقاضاً(١٥٧).

تبالغ الروايات الإسلامية والنصرانية في تقدير خسائر المسلمين.. فقد استشهد في الموقعة عدد كبير من المسلمين.. ثم استشهد عدد آخر خلال المطاردة والفرار.. وتذكر الرواية أن ملك قشتالة نادى في جنده أن لا يأتوه بأسير فمن أحضر أسيراً قتل هو وأسيره.. لذلك قيل بأنه لم ينجُ من المسلمين سوى الواحد في الألف.. فإذا كانت الرواية تقدر جيش المسلمين بستمائة ألف مقاتل فيكون عدد من بقي منهم على قيد الحياة ستمائة رجل(١٥٨).

يقدر ملك قشتالة ألفونسو الثامن قتلى المسلمين في خطابه إلى البابا بمائة ألف رجل بناء على أقوال بعض الأسرى المسلمين.. بينما يقدر أرنولد أسقف بربونة قتلى المسلمين بستين ألف رجل.. ويقدرهم رود ريجو أسقف طليطلة بمائتي ألف رجل.. قتل منهم في الموقعة مائة ألف والباقي قتل خلال المطاردة.. بينما تقدرهم الأميرة برنجيلا ابنة ملك قشتالة في خطاب بعثته إلى أختها ملكة فرنسا بخمسة وثمانين ألفاً(١٥٩).. جاء في خطابها أيضاً

(١٥٧) محمد عبدالله عنان: نفس المرجع والصفحة ـ S. p. scott: opcit pp. 339 - 340
(١٥٨) الناصري: الاستقصا ج ٢ ص ١٩٧ و٢٠٠ ـ محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع ٣ ق ٢ ص ٣١٤.
(١٥٩) يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس ص ٣٧٠ ـ محمد عبدالله عنان: نفس المرجع ص ٣١٥

قولها(١٦٠): «إن أبانا الملك النبيل قهر أمير المؤمنين في معركة رائعة. إن هذا لشرف فريد فلم نعتقد حتى تلك اللحظة أنه بإمكاننا قهر ملك المغرب على هذه الصورة».

يقدر ملك قشتالة خسائر النصارى في خطابه إلى البابا بثلاثين رجلاً فقط.. بينما يقدرهم رود ريجو أسقف طليطلة بخمسة وعشرين رجلاً.. ويقدرهم أرنولد أسقف بربونة بخمسين رجلاً.. بينما تقدرهم الأميرة برنجيلا في خطابها لأختها بمائتين وتقدرهم الملكة بلانكا في رسالة بعثتها إلى أميرة شمبانيا بأربعين رجلاً.. ثم يقدم إلينا الراهب البريكوس الذي عاش قريباً من الموقعة أحسن تفسير لخسائر النصارى الضئيلة فيقول إنه هلك من المسلمين مائة ألف وهلك من النصارى عدد كبير.. ولكن بعد الموقعة هلك من النصارى ثلاثون رجلاً أثناء مطاردة المسلمين الفارّين(١٦١).

أما الخليفة الناصر فقد سار بعد فراره من موقعة العقاب إلى مدينة بياسة ثم أبدة وجيان فعاد منها إلى مدينة إشبيلية.. فوصلها أواخر شهر صفر سنة ٦٠٩ هـ/يوليو ١٢١٢ م.. ثم حمل السيف على طائفة كبيرة ممن توجهت إليهم الظنة(١٦٢). وأصدر خلال إقامته بإشبيلية كتاباً إلى كافة أقطار المغرب والأندلس من إنشاء وزيره الكاتب أبي عبد الله بن عياش، حاول فيه رفع معنويات المسلمين والاستهانة بانتصار ملك قشتالة.. ثم أرجع سبب الهزيمة إلى مشيئة الله امتحاناً للمؤمنين.. وصرح بأن الجيش لاتزال على قوته وسيعاود الغزو والجهاد.

فما جاء في الكتاب(١٦٣): «أن الفئتين قضي بتلاقيهما في الموضع

(١٦٠) J. F. O'callaghan: A history of medieval spain P. 248.

(١٦١) يوسف أشباخ: المرجع السابق ص ٣٧٠ ـ محمد عبدالله عنان: المرجع السابق ص ٣١٥ - ٣١٦ ، ibid

(١٦٢) الناصري: الاستقصا ج ٢ ص ٢٠٠.

(١٦٣) ابن عذارى: البيان المغرب ق ٣ ص ٢٤١ ـ ٢٤٢.

المعروف بالمرشة. فكان بين المسلمين وبين أعدائهم يوم ذو كواكب نازعت فيه المواكب على المواكب. . اشتد فيه الكفاح وأرخصت فيه الأرواح. . لكن أراد الله أن يمحص المؤمنين ويبلي فيه الكافرين. فكانت عاقبة اليوم على الخصوص لأهل الصلبان والعاقبة المطلقة هي لأهل الإسلام والإيمان وتحاجز الفريقان والمسلمون عزيزة جوانبهم محروسة بقدرة الله كتائبهم. . لم تصب الحرب منهم أحداً ولا نقصت لهم عدداً. . وهي الحروب قضى الله أن تكون سجالاً وأن يجعل الله فيها لكل قوم مجالاً. . كذلك كانت في زمن النبي ﷺ والحي غض نضير وجبريل من السماء إلى الأرض في كل وقت سفير. . وكذلك في زمن الخلفاء رضي الله عنهم. . كل ذلك ليعلم الشاكر والصابر منهم. وإذا كانت ـ وفقكم الله ـ الجيوش موفورة والرايات منشورة والعزايم باقية وكفايات الله وافية. . فلا تهنوا فإنا لا نهن وانتظروا الكرة على الكفار. . وكتب في أواخر صفر سنة تسع وستمائة».

بينما يقول الحميري(١٦٤): «ولما انتهى الناصر إلى إشبيلية أنس البلاد بخطاب كتبه إليهم بزخرفه الكاذب. . ثم جاز البحر إلى مراكش فتوفي في قصره في مراكش سنة ٦١٠. . قيل عضه كلب وقيل غير ذلك».

لا شك أن تعاون الممالك النصرانية معاً واشتراكها جميعاً في القتال لأول مرة. . ثم استجابة الصليبيين الأوروبيين لصرخة البابوية إلى الحرب الصليبية، واشتراكهم في القتال إلى جانب ملك قشتالة. . كل هذا كان من العوامل الرئيسية التي أدّت إلى هزيمة الموحدين(١٦٥). . بالإضافة إلى غدر ملكي ليون ونبرة بالموحدين. . ذلك أنهما حضرا إلى إشبيلية قبيل الموقعة لعقد معاهدة صلح وسلام. فعقد لهما الخليفة الناصر صلحاً أبدياً ما دامت دولة

---

(١٦٤) الروض المعطار ص ١٣٨.

(١٦٥) عبدالله العراوي: تاريخ المغرب محاولة في التركيب. . ترجمة ذوقان قرقوط ١٩٧٧م، المؤسسة العربية للدراسات والنشر. . ص ١٩٣ ـ ١٩٤.

الموحدين قائمة وصرفهما مكرمين.. ثم اشتركا في القتال بجميع قواتهما إلى جانب ملك قشتالة ضد الموحدين (١٦٦).

تذكر الرواية أن ملك ليون ما حضر إلى إشبيلية لعقد معاهدة صلح إلا باتفاق سابق مع ملك قشتالة حتى يجر الهزيمة على الموحدين.. ففي ذلك يقول ابن خلدون (١٦٧): «وكان ابن أذفونش قد ناظر ابن عمه الببوج صاحب ليون في أن يوالي الناصر ويجر الهزيمة على المسلمين ففعل ذلك».

أشار الخليفة الناصر إلى غدر ملك نبرة في الكتاب الذي أصدره بعد الموقعة.. فكان مما جاء فيه: «كان صاحب نبرة متعلقاً من الموحدين بزمام ومنقاداً إليهم أبداً في أسمح زمام.. فسخط عليه صاحب رومة إن لم يكن لقومه معسكراً ولسواد أهل ملّته مكثراً.. فلحق بتلك الجموع مرهجاً وتوسّط بحرهم المزبد ملججاً.. كل ينادي الصليب ونحن ننادي بالسميع المجيب (١٦٨).

كان من أكبر أسباب الهزيمة مقتل القائد الأندلسي يوسف بن قادس صاحب قلعة رياح وصهره.. فقد قاوم ابن قادس حصار النصارى وبعث بالكتب إلى الخليفة الناصر مستنجداً.. لكن الوزير أبا سعيد بن جامع كان يخفي الكتب عن الخليفة الناصر. فسلم ابن قادس القلعة بالأمان إلى النصارى بعد أن يئس من وصول النجدة. وسار لمقابلة الخليفة الناصر.. فمنعه الوزير ابن جامع من الدخول على الخليفة وأمر بحبسه هو وصهره.. ثم دخل الوزير على الخليفة فحرضه على ابن قادس وصهره واتهمهما بتسليم القلعة إلى النصارى.. فأمر الخليفة بقتلهما.. لذلك حقد جند الأندلس

---

(١٦٦) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٥٥ ـ ١٥٦ ـ الناصري: الاستقصا ج ٢ ص ١٩٧ ـ نيفل باربر: سفارة جون ملك انجلترا إلى الناصر ص ١٧٠ ـ ١٧١.

(١٦٧) العبر ج ٦ ص ٢٤٩ ـ ٢٥٠.

(١٦٨) ابن عذارى: البيان المغرب ق ٣ ص ٢٤١.

وقادتها على الوزير والخليفة، فانسحبوا من الموقعة أثناء القتال وجروا الهزيمة على الموحدين (١٦٩).

ويقول الناصري (١٧٠): «حقدت جيوش الأندلس على ابن جامع وفسدت نياتهم على الناصر.. وأحس ابن جامع بذلك.. فأمر بإحضار قوادهم فحضروا بين يديه.. فقال اعتزلوا جيش الموحدين فلا حاجة لنا بكم كما قال الله تعالى: ﴿لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً﴾ وسننظر بعد هذا في أمر كل فاجر.. فلما انتشب القتال بين الفريقين فرّت قواد الأندلس وجيوشها لما كانوا قد حقدوه على ابن جامع في قتل ابن قادس أولاً، وتهديدهم وطرده لهم ثانياً.. فجروا الهزيمة على المسلمين ولا حول ولا قوة إلاّ بالله».

ويقول المراكشي (١٧١): «وأكبر أسباب هذه الهزيمة اختلاف قلوب الموحدين.. وذلك أنهم كانوا على عهد أبي يوسف يعقوب يأخذون العطاء في كل أربعة أشهر، لا زال من أمرهم.. فأبطأ في مدة أبي عبد الله هذا عنهم العطاء وخصوصاً في هذه السفرة.. فنسبوا ذلك إلى الوزراء وخرجوا وهم كارهون.. فبلغني عن جماعة منهم أنهم لم يسلوا سيفاً ولا شرعوا رمحاً ولا أخذوا في شيء من أهبة القتال.. بل انهزموا لأول حملة الإفرنج عليهم قاصدين لذلك».

ونكب الخليفة الناصر - خلال مسيره لهذه الغزوة - بعض أشياخ الموحدين بتحريض ابن مثنى صاحب الأعمال المخزنية.. فغضب أشياخ الموحدين على الخليفة الناصر وعلى ابن مثنى.. فلم يخلصوا القتال

---

(١٦٩) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٥٧ - ١٥٨ - الناصري: الاستقصا ج ٢ ص ١٩٨ - ١٩٩ - عبدالله العراوي: تاريخ المغرب ١٩٤ - ١٩٥.
(١٧٠) نفس المصدر والجزء ص ١٩٩.
(١٧١) المعجب ص ٣٢٢.

والنصيحة.. إنما وجدوا في الهزيمة الشفاء والعزاء.. لذلك ربط الناس والأشياخ بين ابن مثنى والهزيمة فضربوا بهما المثل... فكانوا يقولون: «مدها قل لابن مثنى يردها» يعنون بذلك صاحب الأشغال الذي نكب أشياخ الموحدين.. لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم(١٧٢).

جاء عند الحميري بعض أسباب الهزيمة.. فهو يقول(١٧٣): «استغاث الأذفونش بأهل ملّته وحثّهم على حماية دينهم.. فاستجابوا وانثالوا عليه من كل مكان.. وخرج إليه الناصر من إشبيلية في العشرين من محرم سنة ٦٠٩ بحشود لا غرض لهم في الغزو. وقد أمسكت أرزاقهم وقتر عليهم مع ما كان من قتله لابن قادس صاحب قلعة رياح بسبب إسلامه القلعة للنصارى من غير أن يسمع حجته وإخراجه من مجلسه الحشود الأندلسية غضباً عليهم.. ومخادعة النصارى لباقي الأجناد باشتهار الصلح والعمل على ضده حتى خالطوهم.. فأخذ المسلمون في فرار ما سمع بمثله.. وكان ذلك في العقاب بين جيان وقلعة رياح في منتصف صفر من سنة ٦٠٩».

ـ أحوال الموحدين ومملكة قشتالة بعد العقاب:

بقي الخليفة الناصر بعد انتهاء موقعة العقاب مقيماً في مدينة إشبيلية نحو سبعة أشهر.. ثم عبر البحر إلى مراكش وتوفي في شهر شعبان سنة ٦١٠ هـ/ديسمبر ١٢١٣ م. واختلفت المصادر في سبب وفاته.. فقيل إن بعض الوزراء خشي انتقام الناصر فأغروا بعض جواريه بوضع السم له في قدح من الخمر فمات من حينه.. وقيل أيضاً إنه مات كمداً وغماً من هزيمة العقاب.. وقيل عضه كلب فمات كما قيل أيضاً أصابته سكتة من ورم في دماغه.. فرفض إشارة الأطباء بالفصد(١٧٤).

(١٧٢) ابن عذاري: البيان المغرب ق ٣ ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧ و٢٤١.
(١٧٣) الروض المعطار ص ١٣٧ ـ ١٣٨.
(١٧٤) الناصري: الاستقصا ج ٢ ص ٢٠٠ وحاشية ص ٢٠١ ـ محمد عبدالله عنان: دولة

تذكر رواية أخرى أن الخليفة الناصر دخل قصره بمراكش. فاحتجب فيه عن الناس وانغمس في لذاته مصطبحاً ومغتبقاً إلى أن توفي في شعبان سنة ٦١٠ هـ/ديسمبر ١٢١٣ م.. هناك رواية تذكر أن الخليفة كلف بعض عبيده بحراسة بستانه بمراكش وأمرهم بقتل كل من يظهر لهم في الليل.. ثم أراد أن يختبرهم فتنكر ومشى في البستان ليلاً. فهجم العبيد عليه بالرماح وقتلوه وهو يقول: «أنا الخليفة أنا الخليفة.. فما تحققوه حتى فرغوا منه والله أعلم بصحة ذلك(١٧٥)».

بينما يقول الناصري(١٧٦): «قلت الصحيح في وفاة الناصر ما ذكره الوزير ابن الخطيب في رقم الحلل قال: ثم صرف الناصر وجهه إلى غزو الأندلس في عزم لم يبلغ إليه ملك قبله.. ولما احتل رباط الفتح من سلا نزل به الموت فتوفي ليلة الثلاثاء عاشر شعبان سنة عشر وستمائة.. فانحل العزم وتفرقت الجموع والبقاء لله وحده».

تولى خلافة الموحدين بعد وفاة الخليفة الناصر ابنه أبو يعقوب يوسف المستنصر بالله.. وتلقبه بعض المصادر بالمنتصر بالله.. كان سن المنتصر آنئذ ستة عشر عاماً.. فانشغل عن تدبير الأمر والجهاد بما يقتضيه الشباب.. فغلب على الخليفة الوزير أبو سعيد بن جامع ومشيخة الموحدين وقاموا بالأمر نيابة عنه واستبدوا عليه.. لذلك تأخرت بيعة الشيخ أبي محمد بن أبي حفص صاحب أفريقيا لصغر سن الخليفة.. ثم بايع بعد تدخل الوزير ابن جامع وصاحب الأشغال عبد العزيز بن أبي زيد(١٧٧).

= الاسلام ع ٣ ق ٢ ص ٣٢٤ - ٣٢٥.

J. F. O'callaghan: Ahistory of medieval spain p. 253.

(١٧٥) الناصري: نفس المصدر والجزء ص ٢٠١ B. Meakin: the moorish empire p 84

(١٧٦) نفس المصدر والجزء والصفحة.

(١٧٧) ابن خلدون: العبر ج ٦ ص ٢٥٠ - الناصري: الاستقصا ج ٢ ص ٢٠٢.

B. Meakin: opcit p. 85 - J. F. O'callaghan: Ahistory of medieval spain p. 336.

توفي ألفونسو الثامن ملك قشتالة في ربيع الثاني سنة ٦١١ هـ/أكتوبر ١٢١٤ م، بعد حكم طويل استمر ستاً وخمسين سنة فخلفه في الحكم ابنه الطفل إنريكي البالغ من العمر إحدى عشر عاماً. . لذلك تولت الوصاية عليه أمه الملكة الينور، لكنها توفيت بعد ستة وعشرين يوماً من وفاة زوجها ألفونسو الثامن. . فتولت الوصاية على الملك إنريكي أخته الملكة برنجيلا التي كانت متزوجة من ألفونسو التاسع ملك ليون. . ثم طالبتهما البابوية بالطلاق بحجة القرابة الشديدة بينهما. . . فتم الطلاق في سنة ٦٠١ هـ/١٢٠٤ م بعد إنجاب أربعة أطفال يدعى أكبرهم فرناندو(١٧٨).

رأت الملكة برنجيلا أن تعقد معاهدة صلح وعدم اعتداء مع الموحدين. . ففي العام التالي ٦١٢ هـ/١٢١٥ م حضر إلى مراكش سفيرها ابراهيم بن الفخار. . فاستقبله الخليفة المستنصر وعقد معه اتفاقية سلم وموادعة على جميع بلاد الموحدين بالأندلس على الشروط التي عدوها والعهود التي عقدوها. . ثم بعث الخليفة كتابين إلى الأندلس. . أحدهما إلى والي جيان السيد أبي الربيع، والثاني إلى والي قرطبة الشيخ أبي العباس بن أبي حفص. . أمرهما بالتزام شروط السلم والهدنة مع ملكة قشتالة. . فصلحت البلاد الأندلسية في هذه السنة من جهة المهادنة(١٧٩).

---

(١٧٨) J. F. O'callaghan: opcit pp. 245 - 253 - 335 - R. Altamira: Ahistory of spain p. 188.

(١٧٩) ابن عذارى: البيان المغرب ق ٣ ص ٢٤٤ ـ B. Meakin; the moorish empire p. 85 - J. F. O'callaghan: opcit pp. 253, 336.

الفصل الثاني

علاقة الموحدين السياسية بمملكة ليون

أصبحت مملكة ليون دولة مستقلة عن مملكة قشتالة منذ شهر شوال سنة ٥٥٢ هـ/أغسطس ١١٥٧ م[١٨٠]. ففي هذا التاريخ توفي ملك قشتالة

(١٨٠) كانت مملكة ليون أولى الممالك النصرانية التي نشأت بعد فتح العرب لإسبانيا في سنة ٩٢ هـ/٧١١ م. وتولت حركة مقاومة المسلمين. أما تفصيل ذلك فهو أن أحد الأمراء الإسبان يدعى بلاي كان قد هرب إلى منطقة جليقية ببعض رجاله وتزعم حركة مقاومة المسلمين في هذه المنطقة النائية في أقصى شمال غربي إسبانيا. ثم أنزل هزيمة بالمسلمين في موقعة كوفادونجا سنة ١٣٣ هـ/٧٥٠ - ٧٥١ م. وأخذ يوسع حدود إمارته حتى شملت جزءاً من مقاطعة جليقية وناحيتي اشتوريش وكنتبرية. (انظر حسين مؤنس: بلاي وقيام حركة المقاومة النصرانية في شمال إسبانيا. فصله في مجلة كلية الآداب. المجلد الحادي عشر مايو سنة ١٩٤٩ م).

كانت هذه المملكة تسمى مملكة اشتوريش وجليقية وكانت عاصمتها مدينة اوفيدو. ثم أصبحت تعرف باسم مملكة ليون بعد وفاة الملك الفونسو سنة ١٩١١ م، فقد نقل ابنه وخليفته غرسية عاصمتها إلى مدينة ليون لتوسطها بين جليقية واشتوريش. وحملت مملكة ليون هذه مسئولية قتال المسلمين والإستيلاء منهم على البلاد. فاستولى ملوكها على منطقة قشتالة التي تمتد شرقاً حتى هضاب ناقارا ومن ولاية ريوخا جنوباً حتى الأراضي التي سميت فيما بعد أرغونة وسويرابي، وكانت عاصمتها مدينة برغش. ثم قامت حركة استقلالية في قشتالة عن مملكة ليون بزعامة فرنان كونثالث، وانتهت تبعية قشتالة اسميا إلى مملكة ليون. ثم قامت حرب أهلية في مملكة ليون فكان ملوك قشتالة يتدخلون في الحرب لصالحهم مما أدى إلى ضعف مملكة ليون وازدياد قوة مملكة قشتالة حتى تمكن ملوكها من توحيد مملكتي ليون وقشتالة في دولة واحدة، وتولوا حركة مقاومة المسلمين وبرز دورها واضحاً خلال عصر الطوائف والمرابطين والموحدين، فكان أعظم ملوكها خلال هذه الفترة الملك الفونسو السادس والفونسو السابع والفونسو الثامن. (انظر محمد عبدالله عنان: دولة الاسلام العصر الثاني والثالث عصر الطوائف وعصر المرابطين والموحدين).

ألفونسو السابع. وكان قد أوصى قبل وفاته بتقسيم مملكته بين ولديه. فمنح أكبرهما سانشو الثالث عرش مملكة قشتالة والأراضي التابعة لها في أعالي التاجة. أما عاصمة هذا الجزء من مملكته فهي طليطلة ومنح ابنه الأصغر فرناندو عرش مملكة ليون وجليقية وأشتوريش. كما منحه جزءاً من الفتوح الجديدة في أراضي إسترامادورة(١٨١).

اجتمع ملك ليون فرناندو الثاني مع أخيه ملك قشتالة سانشو الثالث في مدينة ساهاجون سنة ٥٥٣ هـ/١١٥٨ م. فاتفق الملكان على إقامة السلام بينهما والتعاون معاً على جميع أعدائهما ما عدا رامون برنجيز الرابع ملك أرغونة. واتفقا أيضاً على تقسيم مملكة البرتغال بينهما. فحصل فرناندو الثاني على حق ضم الأراضي البرتغالية كما يريد بينما حصل سانشو الثالث على حق اختيار الأجزاء التي يراها مناسبة من مملكة البرتغال فيضمها لمملكته(١٨٢).

قرر الملكان في هذا الاجتماع أيضاً السير على سياسة والدهما في غزو الأندلس. فاتفقا منعاً لنشوب الخلاف بينهما على تقسيم مناطق غزو الأندلس. فانفرد فرناندو الثاني ملك ليون بغزو المنطقة الغربية الواقعة بين مدينتي أشبونة ولبلة. . وهي تضم لبلة ومتنانجش وبطليوس وشلب ويابرة وميرتلة وماردة وأشبونة. بالإضافة إلى هذا يكون من حق ملك ليون أيضاً نصف مدينة إشبيلية ودخلها. أما ملك قشتالة سانشو الثالث فكان من حقه غزو بقية بلاد الأندلس، وخاصة جميع البلاد الواقعة بين الوادي الكبير ومدينة غرناطة(١٨٣).

(١٨١) يوسف اشباخ: تاريخ الأندلس ص ٢٣١ و٢٥٥ - J. F. O'callaghan: opcit p. 233 - R. Altamira: Ahistory of medieval spain p. 167 - E. Barker and G. clark. the european inheritance (3 vels oxford 1954. VII P. 399.

(١٨٢) J. F. O'callaghan: opcit P. 235

(١٨٣) مراجع الغناي: سقوط دولة الموحدين ص ١٠٤ - ١٠٥ - محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع ٣ ق ٢ ص ٣٧ - Ibid

قام فرناندو الثاني ملك ليون[١٨٤] بغزو الأندلس قبل أن يعقد الاتفاق السابق مع أخيه سانشو الثالث ملك قشتالة. ففي سنة ٥٥٢ هـ/١١٥٧ م قام بغزو الأندلس حتى بلغ حصن زغبولة من أحواز إشبيلية. لذلك استدعى والي إشبيلية السيد أبو يعقوب يوسف الولاة الموحدين على بلاد غربي الأندلس. فحضروا إليه بقواتهم. ثم سار بهم وبقواته لقتال ملك ليون ورده. فنشبت موقعة بين الطرفين عند حصن زغبولة فحلت الهزيمة بالموحدين واستشهد جملة من الأشياخ والولاة وأسر من أهل إشبيلية بشر كثير. أما السيد أبو يعقوب يوسف فقد تمكن من الفرار «بدليل من الأدلة أخرجه من الملحمة في الغبار وطار به أي مطار[١٨٥]».

اتخذ رجال ملك ليون حصن طرنكس الواقع شمالي مدينة بطليوس قاعدة ينطلقون منها لغزو الأندلس. لذلك أمر الخليفة عبد المؤمن بالاستيلاء على الحصن. فسار الشيخ أبو محمد عبد الله بن أبي حفص بجيش الموحدين واستولى على الحصن سنة ٥٥٥ هـ/١١٦٠ م وقتل جميع حاميته النصرانية. فحين بلغ ذلك ملك ليون أقبل بقواته لنجدة الحصن، فحلت به الهزيمة وفقد كثيراً من جنده بين قتيل وأسير[١٨٦].

ـ قيام الجمعيات الدينية:

لعبت الفرق العسكرية التابعة للجمعيات الدينية دوراً هاماً وكبيراً في تاريخ الأندلس. فقد كانت تحارب المسلمين بنشاط متواصل وبحماس

(١٨٤) يعرف في الرواية الاسلامية باسم فرنانده صاحب مدينة السبطاط وأبلة وليون وسمورة. وتطلق الرواية الاسلامية عليه لقب البيوج أي الكثير اللعاب (ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص ٢١٣ ـ ٢٢٢ و٢٨٠ ـ ابن عذارى: البيان المغرب ق ٣ ص ٥٨ ـ ٥٩ ـ محمد عبدالله عنان: نفس المرجع ص ٣١ ـ ٣٢.

(١٨٥) ابن عذارى: نفس المصدر والقسم ص ٣٧.

(١٨٦) ابن عذارى: نفس المصدر والقسم ص ٣١ ـ ٣٢ ـ ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٣٠.

شديد، فتشجع بذلك جيوش الممالك النصرانية على مواصلة قتال المسلمين. وكان معظم فرسان الجمعيات الدينية ينحدرون من الطبقة الأرستقراطية (١٨٧) وكان في مملكة ليون جمعيتان من هذا النوع. تعود نشأة الجمعية الأولى إلى سنة ٥٥١ هـ/١١٥٦ م.. فقد اتفق فارسان يدعى أحدهما سويرو والآخر جوميت نذرا حياتهما لقتال المسلمين ثم تعاونا مع ناسك من أهل شلمنقة يدعى سانت أماندوس على البحث عن مكان يصلح لإقامة حصن يلجأ إليه الفرسان الذين وهبوا أنفسهم لقتال المسلمين(١٨٨).

سمع أردوينو أسقف شلمنقة بإقامة هذا الحصن حول دير سانت جوليانوس في شلمنقة ثم ذاع خبر هؤلاء الفرسان فانضم إليهم كثير من رجال الدين والفرسان والزهاد ممن وهبوا أنفسهم لقتال المسلمين. ونظموا أنفسهم في جماعة دينية محاربة برئاسة الفارس سويرو. واتخذوا أنظمة هيئة السترشيان منهاجاً لهم فعرفوا أول أمرهم باسم جماعة سان جوليان دل بريرو. ثم عرفت باسم جماعة فرسان القنطرة بعد استيلاء النصارى على هذه المدينة. وبارك البابا إسكندر الثالث هذه الجمعية سنة ٥٧١ هـ/١١٧٦ م بعد أن أثبتت جدارتها ورسخت أنظمتها(١٨٩).

أما الجمعية الدينية الأخرى، فهي جمعية القديس ياقب نشأت سنة ٥٥٦ هـ/١١٦١ م. فيعود أصل قيامها إلى بعض الفرسان من قطاع الطرق الذين كانوا يخوضون حياة همجية عنيفة، فيرتكبون الآثام والجرائم. ثم تابوا على أيدي بعض رجال الدين فوهبوا بقية حياتهم لقتال أعداء النصرانية، وقاموا بحماية الحجاج النصارى الذاهبين لزيارة قبر القديس ياقب في كومبوستلا. فعرفوا باسم جماعة القديس ياقب. وعين بدرو فرنانديز أول

---

(١٨٧) E. prestage: Chivarly p. 124

(١٨٨) يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس ص ٢٦٦.

(١٨٩) J. F. O'callaghan: Ahistory of medieval spain pp. 238 - 239.

رئيس لهذه الجمعية بموافقة ملك ليون فرناندو الثاني. فأسبغ عليها الطابع الحربي واتخذت شعارها سيف القديس ياقب الدامي في صورة الصليب(١٩٠).

قام فرسان هذه الجمعية بغزو الأندلس، فعني بهم فرناندو الثاني ملك ليون عناية خاصة، وشملهم بالرعاية الزائدة والتشجيع المستمر والإهتمام المتواصل. فاغدق الأموال عليهم ومنحهم الإقطاعات الشاسعة في انحاء مملكته(١٩١). كذلك عنيت البابوية بهذه الجمعية فمنحها البابا اسكندر الثالث والبابا أنوسنت الثالث كثيراً من الهبات والإمتيازات الدينية، مما أدى إلى حماس النصارى على قتال المسلمين. فقد كان النصارى يعتبرون حربهم للمسلمين في الأندلس لا تقل أهمية عن الحرب الصليبية في المشرق(١٩٢).

وقامت في مملكة ليون فرقة عسكرية أخرى خلال القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي عرفت باسم فرسان ترجالة سارت على نفس اسلوب ونظم فرسان المعبد(١٩٣).

ـ عقد الصلح ونقضه:

عرض ملك ليون فرناندو الثاني عقد معاهدة صلح على الموحدين في سنة **٥٦٣** هـ/**١١٦٨** م. فقد «رغب في المهادنة وأن يكون مع الموحدين أيدهم الله وعوناً لهم بعسكره على أعدائهم. وذكر أن بينه وبين القمط نونة ظئر ابن أخيه أذفونش الصغير صاحب طليطلة ـ خربها الله ـ فتنة ملتحمة على منازعة ملكهم. وأكد الرغبة مع صلحه في عسكر من عساكر الموحدين أعزهم الله يبعث به إليه إلى مدينته بالسبطاط ليقاتل بهم نونة القمط المنازع له عن ابن أخيه في بلاده(١٩٤).

---

(١٩٠) يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩.

(١٩١) J. F. o'callaghan: opcit p. 239.

(١٩٢) C. E. chapman: Ahistory of spain pp. 95 — 96

(١٩٣) E. Prestage: chivarly P. 126

(١٩٤) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص ٣٧٠ ـ ٣٧١.

استجاب الخليفة أبو يعقوب يوسف لملك ليون. فعقد له الصلح وبعث اليه جيشاً من الموحدين بقيادة أبي العلاء بن عزون والحافظ أبي علي بن تمصليت والحافظ أبي عمران موسى بن حمو. فعاون هؤلاء الموحدون ملك ليون على قتال أعدائه في مملكة قشتالة وسالموا من سالمه. ثم أخضعوا خصومه داخل مملكته. فبلغوا أقصى حدود بلاده عند مقاطعة اشتريش. ثم أقاموا عند ملك ليون خمسة أشهر وعادوا إلى بلادهم بعد أن أكد لهم ملك ليون التزامه بشروط الصلح وعاهدهم «أنه متى سمع بعدو من النصارى يطرق بلاد أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين بغدر أو مكر أن يكون لذلك العدو معهم دافعاً وحامياً لحماهم وحلف في بيعة بلده بالإيمان عن دينه»(١٩٥).

أوفى ملك ليون بوعده. ففي شهر رجب سنة ٥٦٤ هـ/أبريل ١١٦٩ م استولى ملك البرتغال على مدينة بطليوس ثم حاصر قصبتها لاستنزال الموحدين الممتنعين فيها. فلما بلغ ذلك ملك ليون أقبل مسرعاً بقواته واقتحم مدينة بطليوس. فقاتل ملك البرتغال داخل المدينة وهزمه وأسره. سلم ملك ليون بعد ذلك مدينة بطليوس لواليها الموحدي الممتنع بالقصبة أبي علي عمر بن تمصليت. فشكره الوالي ودعاه لزيارة القصبة والوقوف على مناعتها. فاعتذر ملك ليون بأدب «وقال بكلامه العجمي: إنما هي دار أمير المؤمنين ولا أدخلها إلا بأمره. وقد فعلت لما أوجب عهدي وربطي وودي». ثم انصرف عائداً بقواته الى بلاده (١٩٦).

لم يكن الوفاء بالعهد ورد الجميل هو الدافع الحقيقي أو الوحيد وراء مساعدة ملك ليون للموحدين على استخلاص مدينة بطليوس من ملك البرتغال. فقد كان ملك ليون يرى أن مدينة بطليوس من نصيبه وحده. فهي

---

(١٩٥) ابن صاحب الصلاة: نفس المصدر ص ٣٧١ - ٣٧٢.

(١٩٦) ابن صاحب الصلاة: نفس المصدر ص ٣٨١ - ٣٨٢ - ابن عذارى: البيان المغرب ق ٣ ص ٧٩ - ٨١ J. F. o'callaghan: Ahistory of medieval spain pp. 237 - 238

داخلة في منطقة نفوذه بموجب الاتفاق الذي عقده في مدينة ساهاجون سنة ٥٥٣ هـ/١١٥٨ م مع أخيه سانشو الثالث ملك قشتالة. لذلك كان ملك ليون يحول دائماً دون استيلاء ملك البرتغال على بطليوس، وينتظر الفرصة المواتية للاستيلاء عليها(١٩٧).

لم يفت هذا على الموحدين. ففي سنة ٥٦٦ هـ/١١٧١ م سار السيد أبو سعيد بقواته من إشبيلية لإصلاح مدينة بطليوس وتعميرها. فاكتشف فجأة قدوم ملك ليون «بعسكره قاصداً بطليوس ليسترجع ملكها وأخذها من أيدي المسلمين لما رأى عدوه ابن الرنك قد قارب التغلب عليها مرة ثانية... وقال في نفسه أنه أولى بها دفاعاً لعدوه(١٩٨)».

بعث السيد أبو سعيد بعض قادته لسؤال ملك ليون عن سبب وصوله بالجيش دون استدعاء أو ضرورة. فأخفى ملك ليون نيته في الاستيلاء على مدينة بطليوس وقال لهم: «إنما خرجت لحمايتها وامساكها لأمير المؤمنين بن أمير المؤمنين أيدهم الله». فشكروه وعرضوا عليه المسير معهم إلى محلة السيد أبي سعيد لتأكيد التزامه بالصلح. فوافق ملك ليون وسار معهم ببعض رجاله وقابل السيد أبا سعيد. فأكد التزامه بالصلح ثم عاد بقواته إلى بلاده(١٩٩).

يبدو أن ملك ليون قد يئس من إمكانية الاستيلاء على مدينة بطليوس أنئذ. فبعث إلى الموحدين يسألهم المال ويقول إنه أنفق مالاً كثيراً على قواته أثناء قتاله لملك البرتغال واستخلاص بطليوس منه. فبعث الخليفة أبو يعقوب يوسف إلى ملك ليون هدية ثمينة من الجوهر المنظوم، حملها له أبو محمد بن جامع وابن عزون وأبو زكريا الكومي. وقد تلقى ملك ليون الهدية بالسرور.

(١٩٧) J. F. o'callaghan: opcit p. 238.

(١٩٨) ابن صاحب الصلاة: نفس المصدر ص ٤٠٠ - ٤٠١.

(١٩٩) ابن صاحب الصلاة: نفس المصدر ص ٤٠١ - محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع ٣ ق ٢ ص ٤٥ - ٤٦.

ثم بعث هدية إلى الموحدين مع بعض رجاله وأكدوا التزام ملكهم بشروط الصلح المعقود[٢٠٠].

نقضت مملكة ليون الصلح في سنة ٥٦٨ هـ/١١٧٣ م. فقد «خرج من مدينة أبلة خربها الله القومس المسن الضال شان مينوس المعروف عند أهل الثغور والمسلمين بالأحدب عظيم النصارى بأبلة ومدير الحرب في الفتنة على المسلمين بالأندلس فكم من فتكة له في أيام السيرات مع الحشم وبعدها في أيام فتوته وكهولته وشيخوخته لعنه الله في شن غارات على المسلمين غرباً وشرقاً وقبلة وجوفاً بجموع من الكفرة إخوانه أهلكهم الله، يصل بهم إلى جزيرة طريف والجزيرة الخضراء ويسقي المسلمين من إذايته كأساً مراً ولم يمنعه قط نزول مطر ولا اتصال قر ولا حر يناله من ذلك بعض ضرر فكان يهزم عساكر من تقدم من المسلمين ويقفر بغاراته عمارة المؤمنين[٢٠١]».

يبدو من هذه الحوادث أن شان مينوس كان قائد بعض فرق فرسان الجمعيات الدينية فخرج بفرسانه في غزوته هذه من مدينة أبلة في شعبان سنة ٥٦٨ هـ/مارس ١١٧٣ م. وعبر نهر الوادي الكبير عند المخاضة الواقعة بين حصن بالمة وحصن الجرف، وشن غاراته على جنوبي قرطبة واستجة حتى بلغ أحواز إشبيلية[٢٠٢]. وغنم خمسين ألف رأس من الغنم ومائتي رأس من البقر وأسر أكثر من مائة وخمسين رجلاً من المسلمين. ثم أخذ في العودة إلى بلاده فعبر مخاضة بليارش عند بلدة القصير القريبة من مدينة قرطبة[٢٠٣].

جهز الخليفة أبو يعقوب يوسف جيشاً في مدينة إشبيلية وكلفه بمطاردة النصارى وقتالهم وكان الجيش يتألف من الموحدين وأشياخهم من فرسان

(٢٠٠) ابن عذارى: البيان المغرب ق ٣ ص ١٠٣ ـ ١٠٤.
(٢٠١) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص ٥١٨.
(٢٠٢) نسب محمد عبدالله عنان هذه الغزوة إلى نصارى مملكة قشتالة (انظر دولة الإسلام ع ٣ ق ٢ ص ٨٧ ـ ٨٩).
(٢٠٣) ابن صاحب الصلاة: نفس المصدر ص ٥١٨ ـ ٥١٩.

العرب وأشياخهم. وتولى قيادة الجيش أخوا الخليفة السيد أبو زكريا يحيى والسيد أبو إبراهيم إسماعيل. ثم سار الموحدون من إشبيلية فعبروا نهر الوادي الكبير ولحقوا بالنصارى يتقدمهم طليعة من الأدلاء بقيادة الحافظ أبي عمران موسى بن حمو الصنهاجي لشهامته وخبرته بالثغور فهو صاحب يابرة سابقاً(٢٠٤).

نزل النصارى خلال عودتهم بفحص كركوي على مقربة من قلعة رياح. ثم اكتشفوا مطاردة الموحدين لهم والاقتراب منهم. فنشبت موقعة بين الطرفين، وحلت الهزيمة بالنصارى وقتل قائدهم شان مينوس. فلم ينج منهم إلا نحو مائتي فارس اختفوا عند حلول الليل في شعاري جبل هناك. «وفني في هذه الهزيمة أدلاء النصارى وشرارهم من أهل أبلة دمرها الله ولم يكن لهم بعد هذه الهزيمة رأس يخرجون معه ولا قام لهم أعلام أبداً إلى هذا التاريخ(٢٠٥)».

استولى الموحدون على غنائم النصارى واستنقذوا الأسرى المسلمين واستردوا الغنائم من البقر والغنم، ثم عادوا إلى إشبيلية برأس شان مينوس. فتلقى الخليفة الخبر بالفرح والسرور وجلس لتلقي التهنئة والاستماع الى الشعراء. وقد أصاب النصارى الجزع والخوف لمقتل شان مينوس فيقول ابن صاحب الصلاة(٢٠٦): «ولما كانت هذه الوقيعة في الكفرة النصارى أهل أبلة أهلكهم الله وقتل فيها زعيمهم الأحدب لعنة الله سرى الخبر في بلادهم سرى الشمس وتحدثوا في كنائسهم مع أقستهم وقواميسهم بما عانيوه من قتل أحزابهم بالأمس، فخامرهم الروع والجزع وظلت قلوبهم من مقتلهم تتصدع».

(٢٠٤) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص ٥١٩ - ٥٢٠ - ابن عذارى: البيان المغرب ق ٣ ص ٩٨ - ٩٩.

(٢٠٥) ابن صاحب الصلاة: نفس المصدر ص ٥٢١ - ٥٢٢ - انظر الناصري: الاستقصا ج ٢ ص ١٣٥

(٢٠٦) المن بالإمامة ص ٥٢٣ - ٥٢٥ - وانظر ابن عذارى: المصدر السابق ص ٩٩.

قام ملك ليون بغزو الأندلس في العام التالي ٥٦٩ هـ/١١٧٤ م. فجهز الخليفة أبو يعقوب يوسف جيشاً من العرب والأجناد الموحدين لغزو ملك ليون في عقر داره. وسار بالجيش أخو الخليفة السيد أبو حفص من مدينة إشبيلية في شهر صفر سنة ٥٧٠ هـ/سبتمبر ١١٧٤ م .وغزا مدينة السبطاط دون أن يتمكن من الاستيلاء عليها، لكنه استرد حصن ناضوش ومدينة القنطرة. ثم عاد إلى إشبيلية، فاحتفل الخليفة بالنصر وأنشد الشعراء قصائدهم(٢٠٧).

كذلك استرد الموحدون مدينة قنطرة بعد ثماني سنوات من استيلاء النصارى عليها. فأثارت هذه الانتصارات استياء البابا إسكندر الثالث، فناشد النصارى الإسبان مواصلة قتال المسلمين بالأندلس، وشجعهم بأن أعلن منح المباركات والامتيازات لكل من يستجيب لندائه. لذلك سار ملك ليون بقواته فعبر نهر الوادي الكبير سنة ٥٧٢ هـ/١١٧٧ م، وشن غزوة بلغ فيها أعماق الأندلس عند أحواز أركش وشريش(٢٠٨).

خرج جيش موحدي من مدينة إشبيلية وسار وراء الملك دون جدوى. فعاث الموحدون تخريباً بالأراضي النصرانية، والتقوا بقوات نصرانية من أهل مدينة طلبيرة، ففتكوا بها واستنقذوا ما كان معها من الغنائم والأسرى. ثم عادوا بثمانين أسيراً من النصارى ضربوا أعناقهم في مدينة إشبيلية أمام الخليفة والأشياخ(٢٠٩).

واصل ملك ليون غزو الأندلس. حاصر مدينة قاصرش أكثر من مرة دون أن يتمكن من الاستيلاء عليها. ثم عبر الخليفة أبو يعقوب يوسف البحر إلى الأندلس في سنة ٥٨٠ هـ/١١٨٤ م. وسار بقواته لغزو مملكة البرتغال.

---

(٢٠٧) ابن عذارى: البيان المغرب ق ٣ ص ١٠٤ - وانظر الناصري: الاستقصا ج ٢ ص ١٣٥ - R. Altamira: Ahistory of medieval spain p. 167

(٢٠٨) J. F. O'callaghan: Ahistory of medieval spain p. 239

(٢٠٩) محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع ٣ ق ٢ ص ٩٧.

كان ملك ليون انذاك يحاصر مدينة قاصرش فخشي لقاء الموحدين وعاد بقواته إلى بلاده. . فلما حاصر الخليفة مدينة شنترين، ثم نشبت موقعة بين الموحدين ونصارى البرتغال، أقبل ملك ليون بقواته واشترك في القتال الى جانب البرتغاليين ضد الموحدين. فكان تصرفه هذا دفاعاً عن مصالحه الخاصة أكثر مما هو رغبة في مساعدة البرتغاليين(٢١٠).

أحوال مملكة ليون:

توقف ملوك ليون بعد ذلك فترة حاولوا خلالها توسيع حدودهم على حساب بعض الممالك النصرانية الأخرى. لكن لا يعني هذا توقف فرسان فرق الجمعيات الدينية عن غزو الأندلس، مع أن المصادر لا تقدم إلينا في هذا الشأن أخباراً تذكر.

توفي ملك البرتغال ألفونسو هنريكيز في سنة ٥٨١ هـ/١١٨٥ م، فخلفه ابنه سانشو الأول. لذلك انتهز ملك ليون الفرصة فقام بغزو مقاطعة جليقية لاسترداد بعض المدن والقلاع من البرتغال، مما أدى الى نشوب الحروب بين المملكتين. ثم توفي ملك ليون فرناندو الثاني سنة ٥٨٤ هـ/١١٨٨ م وخلفه ابنه ألفونسو التاسع. فانتهز الفرصة كل من ملك قشتالة ألفونسو الثامن وملك البرتغال سانشو الأول. فقاما بتوسيع حدودهما على حساب مملكة ليون، مما أدى إلى نشوب الحروب بينهم. ثم أرسل البابا سلستين الثالث سفيراً إلى إسبانيا لتسوية الخلاف. فاستجاب ملك ليون وملك قشتالة وأقاما السلام بينهما، لكن الخلافات كانت عميقة فلم يحقق السلام الغرض المنشود(٢١١).

انتهز ملك ليون فرصة هزيمة ملك قشتالة في موقعة الأرك سنة

(٢١٠) J. F. O'callaghan: opcit p. 241

(٢١١) J. F. O'callaghan: opcit p. 243

٥٩١ هـ/١١٩٥ م فقام بغزو مملكة قشتالة لاسترداد الحصون والقلاع التي استولى عليها ملك قشتالة، ثم طلب العون العسكري من الموحدين. فاستجاب الموحدون لملك ليون واشتركت قواتهم إلى جانبه في غزو مملكة قشتالة وساعدته على استرداد حصونه وقد أثار هذا التصرف استياء البابا، فأصدر عقوبة النفي الكنسي على ملك ليون، وناشد ملك البرتغال بقتاله. ثم عاود البابا استرضاء ملك ليون فوعده بالغاء قرار النفي الكنسي عنه بشرط أن يتوقف عن غزو مملكة قشتالة وان يحول إشهار السلاح نحو المسلمين(٢١٢).

بقي النزاع قائماً بين ملك ليون وملك قشتالة. ثم أخذ ملك قشتالة باقتراح زوجته الملكة الينور ليكسب صداقة ملك ليون. فقد اقترحت أن تتزوج ابنتها الأميرة برنجيلا من ملك ليون، فيتنازل ملك قشتالة عن المدن والحصون المتنازع عليها الى ملك ليون كمهر لابنتها. كذلك وافق ملك ليون من جانبه على هذا الاقتراح، فأقيمت حفلات الزواج في بلد الوليد في شهر ذي الحجة سنة ٥٩٣ هـ/ أكتوبر ١١٩٧ م. وترتب على هذا الزواج عقد معاهدة بين ملك قشتالة وملك ليون، اتفقا فيها على قتال المسلمين وغزو الأندلس والاستيلاء على البلاد(٢١٣).

تعثر تنفيذ اتفاق الملكين بضع سنوات لانشغال ملك قشتالة بقتال ملك نبرة. ثم أخذ البابا أنوسنت الثالث يطالب العروسين بالطلاق بحجة القرابة الشديدة التي تجمعها فاحتج ملك قشتالة مراراً على طلب البابا دون جدوى. فتم الطلاق في سنة ٦٠١ هـ/١٢٠٤ م، بعد انجاب أربعة أطفال يدعى أكبرهم باسم فرناندو. وترتب على هذا الطلاق تجدد النزاع بين ملك ليون وملك قشتالة نحو عامين آخرين. ثم اتفق الملكان في سنة ٦٠٣ هـ/١٢٠٦ م على التنازل عن المدن والحصون المتنازع عليها إلى أبناء ملك ليون من مطلقته

(٢١٢) J. F. O'callaghan: Ahistory of medieval spain p. 244 R. Altamira: Ahistory of spain p. 167

(٢١٣) J. F. O'callaghan: opcit pp. 244 - 245 -R. Altamira opcit p. 167

برنجيلا، وجددا اتفاقهما الخاص بالتعاون على قتال المسلمين وغزو الأندلس ثم جدد الملكان ثانية هذا الاتفاق الأخير في سنة ٦٠٦ هـ/١٢٠٩ م[٢١٤].

عبر الخليفة الناصر بجيوشه إلى الأندلس في العام التالي لغزو النصارى فثار الفزع والرعب في جميع الممالك النصرانية وحين بلغ ذلك البابا انوسنت الثالث، ناشد الملوك النصارى الإسبان في رسائل بعثها اليهم بالتعاون والاتحاد معاً وإشهار السلاح في وجه المسلمين. ثم هدد بإصدار عقوبة النفي الكنسي على كل ملك أو أمير نصراني يتوانى عن قتال المسلمين أو يشهر السلاح في وجه جاره النصراني[٢١٥].

ثم سار ملك ليون إلى مدينة إشبيلية في سنة ٦٠٨ هـ/١٢١١ م يعرض على الموحدين عقد معاهدة صلح وعدم اعتداء. فأحسن الخليفة الناصر استقباله وعقد له ما سعى اليه وبذل له الأموال والهدايا، ثم صرفه إلى بلاده مكرماً معززاً[٢١٦]. لكن ملك ليون خرق معاهدة الصلح بعد فترة قصيرة جداً. فقد بعث قواته إلى مملكة قشتالة بقيادة أخيه الأمير سانشو فرنانديز، واشتركت في القتال الى جانب ملك قشتالة ضد الموحدين في موقعة العقاب صفر ٦٠٩ هـ/يوليو ١٢١٢ م[٢١٧].

إن حضور ملك ليون إلى إشبيلية في العام الماضي وعقده معاهدة صلح مع الخليفة الناصر قد تم بموافقة ملك قشتالة حتى يجر الهزيمة على الموحدين يقول في ذلك ابن خلدون[٢١٨]: «والببوج صاحب ليون هو الذي مكر بالناصر عام العقاب، فداخله وقدم عليه وأظهر له التنصيح فبذل له أموالاً ثم غدر به وكر عليه الهزيمة يوم العقاب» ويقول أيضاً ابن خلدون[٢١٩]:

(٢١٤) J. f. O'callaghan: opcit. 245 — R. Altamira: opcit p. 168

(٢١٥) N. Barbour: morocco P. 79 - B. meakin: the moorish empire pp. 82, 83 - 84

(٢١٦) ابن خلدون: ج ٤ ص ١٨٣ ـ الناصري: الاستقصا ج ٢ ص ١٩٧

(٢١٧) يوسف اشباخ: تاريخ الأندلس ص ٣٥٩

(٢١٨) العبر ج ٦ ص ١٣٨

(٢١٩) نفس المصدر ج ٦ ص ٢٤٩ ـ ٢٥٠

وكان ابن اذفونش قد ناظر ابن عمه الببوج صاحب ليون في أن يوالي الناصر ويجر الهزيمة على المسلمين، ففعل ذلك».

اجتمع ملك ليون وملك قشتالة وملك البرتغال بعد موقعة العقاب في مدينة قلبرية عاصمة البرتغال. وكان ذلك في شهر جمادى الثانية سنة ٦٠٩ هـ/نوفمبر ١٢١٢ م وعقد الملوك الثلاثة معاهدة اتفقوا فيها على التعاون معاً ضد المسلمين والاستيلاء على بلاد الأندلس. ترتب على عقد هذه المعاهدة مبادرة ملك ليون الفونسو التاسع بغزو الأندلس فاستولى على مدينة القنطرة وسلمها في الحال الى فرقة فرسان جمعية القنطرة، فاتخذها الفرسان مركزاً لجمعيتهم. كانت مدينة القنطرة بقلعتها الحصينة المرتفعة في عنان السماء تشرف على أراضي وادي التاجة فتهيمن عليه وتسهر على حراسته(٢٢٠).

أما الحميري فيقول(٢٢١): «اتفق صاحب قشتالة وصاحب بلاد الجوف أن يخرجا بعسكرهما على بلاد الإسلام التي لا دافع عنها بجزيرة الأندلس بعد وقيعة العقاب فأما صاحب بلاد الجوف فجاء في الشمال الى عامل إشبيلية، فاصطلم كل ما مر عليه إلى أن انتهى إلى مرج الحمار. فخرج إليه أبو زكريا ابن أبي حفص بن عبد المؤمن صاحب إشبيلية بعسكر الأندلس الوافر الذين لم تلحقهم معرة العقاب في السنة الماضية. فوعدهم ومناهم وأثار حفائظهم وزحف بهم إلى العدو فأعطاه الله نعل النصر. فيقال إنه قتل منهم نيفاً على عشرة آلاف وامتلأت أيديهم مما كان في عسكرهم. وكانت وقعة تحدث بها زماناً، وما زال أهل إشبيلية يعتزون بما اتفق فيها. فيخرجون متى هم عدو بجهاتهم فيرجعون إلى أبخس حالة وأكثرهم أسير وقتيل».

ذكرت بعض المصادر هذه الموقعة بايجاز شديد بعد كائنة العقاب.

---

(٢٢٠) J. F. O'callaghan: Ahistory of medieval spain p. 249

(٢٢١) الروض المعطار ص ١٩٦

فتقول(٢٢٢): «ثم رجعت الفرنج إلى الأندلس بعد الكائنة للإغارة على بلاد المسلمين فلقيهم السيد أبو زكريا بن أبي حفص بن عبد المؤمن قريباً من إشبيلية فهزمهم وانتعش المسلمون بها واتصلت الحال على ذلك».

لم نجد في المصادر والمراجع أخباراً عن غزوات أو حروب نشبت بين الموحدين ومملكة ليون. فربما لم يكن ملك ليون يتوقع أن تحل به مثل هذه الهزيمة أو أنه صرف اهتمامه لاعتلاء عرش مملكة قشتالة. فقد توفي الفونسو الثامن ملك قشتالة في شهر ربيع الثاني سنة ٦١١ هـ/اكتوبر ١٢١٤ م فخلفه في الحكم ابنه انريكي البالغ من العمر إحدى عشر عاماً تحت وصاية زوجته الملكة الينور. ثم توفيت الملكة الينور بعد ست وعشرين يوماً من وفاة زوجها ملك قشتالة، فتولت الوصاية على الملك انريكـي أخته الملكة برنجيلا مطلقة الفونسو التاسع ملك ليون(٢٢٣).

ثم تـوفي الملك انريكي فجـأة في شهر محـرم سنة ٦١٤ هـ/يـونيـة ١٢١٧ م، إذ أصابه حجر أدى إلى وفاته حين كان يلعب مع بعض الصبية. فتولت أخته برنجيلا عرش مملكة قشتالة. لذلك حاول مطلقها الفونسو التاسع ملك ليون احتلال مملكة قشتالة ولكنه فشل فعاد وسحب قواته. ثم استدعت برنجيلا ملكة قشتالة ابنها فرناندو من ليون حيث كان يعيش عند أبيه ملك ليون، فتنازلت له عن عرش مملكة قشتالة في اجتماع شعبي عقدته في بلد الوليد في شهر صفر سنة ٦١٤ هـ/يوليو ١٢١٧ م. ثم اتفق ملك ليون مع ابنه فرناندو الثالث ملك قشتالة في العام التالي على إقـامة السـلام بينهما والتعاون معاً على قتال المسلمين واحتلال بلاد الأندلس(٢٢٤)

---

(٢٢٢) الناصري: الاستقصا ج ٢ ص ٢٠٠ - ابن خلدون: العبر ج ٦ ص ٢٥٠

(٢٢٣) J. F. O'callaghan: Ahistory of medieval spain. pp. 245, 253, 335, R. Altamira: Ahistory of spain p. 188

(٢٢٤) J. f. O'callaghan: opcit pp. 335 - 336 R. Altamira: opcit p. 168

ـ أحوال الموحدين:

انتهز ملك ليون فرصة نزاع الموحدين على عرش الخلافة بمراكش فأخذ يقوم بغزو الأندلس. ففي أوائل سنة ٦٢١ هـ/١٢٢٤ م ثار السيد أبو محمد عبدالله بن يعقوب المنصور والي مدينة مرسية على عمه الخليفة بمراكش عبد الواحد فأعلن خلافته وتلقب بالعادل. لذلك بايع العادل ولاة قرطبة وغرناطة ومالقة وإشبيلية، بينما رفض والي بلنسية السيد أبو زيد البيعة للخليفة العادل. سار الخليفة العادل بعد ذلك إلى إشبيلية كي يعبر البحر الى المغرب لاعتلاء عرش الخلافة بمراكش. لكنه ما كاد يتحرك حتى نقض بيعته ابن عمه والي قرطبة السيد أبو محمد عبدالله بن محمد بن يوسف بن عبد المؤمن، فأعلن خلافته وتلقب بالظافر(٢٢٥).

أصبح هناك ثلاثة خلفاء للموحدين، اثنان من الأندلس والثالث في مراكش. ثم بعث الخليفة العادل من إشبيلية جيشاً لاخضاع الخليفة الظافر بقرطبة. فهرب الخليفة الظافر إلى بياسة واستنجد بملك قشتالة فرناندو الثالث مقابل التنازل له عن مدينتي بياسة وقيجاطة. لذلك استجاب ملك قشتالة لطلب الخليفة الظافر، فبعث اليه فرقة من الفرسان أنزلت الهزيمة بجيش الخليفة العادل وأجبرته على الفرار والعودة إلى إشبيلية(٢٢٦).

وقد انتهز ملك ليون فرصة هذه الأحوال، فسار بقواته أوائل سنة ٦٢٢ هـ/ ١٢٢٥ م واستولى على مدينة قاصرش، فأصبح الطريق أمامه ممهداً للاستيلاء على مدينتي ماردة وبطليوس(٢٢٧). ثم واصل نصارى مملكة ليون

(٢٢٥) الناصري: الاستقصا ج ٢ ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦ ـ محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع ٣ ق ٢ ص ٣٥١ ـ ٣٥٢ B. Meakin: the moorish empire p. 85.

(٢٢٦) الناصري: الاستقصا ج ٢ ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧ ـ ابن عذارى: البيان المغرب ق ٣ ص ٢٤٩ ـ ابن خلدون: العبر ج ٦ ص ٢٥٢ ـ محمد عبدالله عنان: دولة الاسلام ع ٣ ق ٢ ص ٣٥٣

(٢٢٧) J. F. O'callaghan: Ahistory of medieval spain p. 338 R. Altamira: Ahistory of spain p. 167

غزو الأندلس، فعبرت قوات يقودها مارتين سانشيز جبال الشارات وقامت بغزو أراضي الشرف في غربي إشبيلية واستولت على كثير من الغنائم والسبي. كان الخليفة العادل أنذاك موجوداً في مدينة إشبيلية وإلى جانبه أخوه أبو العلاء ووزيره ابن يوجان وأشياخ الموحدين، الا أنهم لم يتحركوا للقاء النصارى ودفعهم(٢٢٨).

انتهز أهل إشبيلية وجود الخليفة العادل في المسجد الجامع. فصاحوا به بعد أداء صلاة الجمعة وحملوه على الخروج للقاء النصارى دون جدوى. لذلك خرج المنادي في اليوم التالي ينادي على الناس بالخروج، فاستجابوا له وساروا طوال يومي السبت والأحد «بسلاح وبغير سلاح كما يخرجون إلى نزهتهم في البساتين والجنات. . . ولم يخرج معهم من الخيل الا دون المائة. والروم في عدد ضخم عليهم الدروع وبأيديهم الأسلحة. . . وكان في من خرج من الجند أبو محمد عبدالله بن أبي بكر بن يزيد، وهو أعلم بالحرب من هؤلاء الرعاع والغوغاء الذين لا يعقلون، فصاحوا به أن يسير إلى لقاء العدو فأبى عليهم ونهاهم وحذرهم. فأبوا عليه الا اللقاء وسبوه وآذوه بالقول. فزهمهم وانصرف عنهم هو ومن كان معه من الخيل(٢٢٩).

التقى أهل إشبيلية بالنصارى في شهر جمادى الأولى سنة ٦٢٢ هـ/مايو ١٢٢٥ م عند بلدة طلياطة على بعد عشرين ميلاً من إشبيلية. فنشبت بين الطرفين موقعة غير متكافئة انتهت بهزيمة فادحة للمسلمين. فقد خسروا نحو عشرين ألفاً بين قتيل وأسير وقيل دون ذلك(٢٣٠) وقيل أيضاً أن المساجد والأسواق خلت من المسلمين لكثرة من قتل منهم في هذه الموقعة(٢٣١).

---

(٢٢٨) محمد عبدالله عنان: نفس المرجع ص ٣٥٤
(٢٢٩) الحميري: الروض المعطار ص ١٢٩
(٢٣٠) محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع ٣ ق ٢ ص ٣٥٤
(٢٣١) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٨١ - ١٨٢

ـ سقوط ماردة وبطليوس:

ثم انتهز ملك ليون ثورة الأندلسيين على الموحدين وقيام ابن هود بالدعوة العباسية في الأندلس. فسار بقواته وحاصر مدينة ماردة في سنة ٦٢٧ هـ/١٢٣٠ م. لكن حين بلغ ذلك ابن هود أسرع بقواته لأنقاذ مدينة ماردة من السقوط فتخلى ملك ليون عن حصار المدينة وتقدم بقواته للقاء ابن هود، فنشبت بينهما موقعة عند حصن الحنش. فحلت الهزيمة بابن هود وفر جنده وعاد إلى مدينة إشبيلية بينما عاد ملك ليون بعد الموقعة فهاجم مدينة ماردة واستولى عليها ثم استولى على مدينة بطليوس(٢٣٢).

يقال ان القديس جيمس ظهر في موقعة الحنش المذكورة حاملاً الصليب في لباس فارس. وأقام ملك ليون ألفونسو التاسع أسقفية في مدينة بطليوس. ثم ما لبث أن توفي في نفس العام. فدفن في كنيسة كومبوستلا. وحين بلغ فرديناند الثالث ملك قشتالة وهو يحاصر مدينة جيان خبر وفاة والده ملك ليون.. تخلى عن حصار جيان وعاد مسرعاً بقواته إلى بلاده، ثم اعتلى عرش مملكة ليون بالإضافة إلى عرش مملكة قشتالة.. فأعاد الوحدة إلى المملكتين كما كانت في عهد الفونسو السابع(٢٣٣).

---

(٢٣٢) ابن الخطيب: الإحاطة ج ١ ص ١٣٠ ـ ابن الآبار: الحلة السيراء ج ٢ ص ٢٩٦ محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع ٣ ق ٢ ص ٤٠٠

(٢٣٣) J. F. O'callaghan: Ahistory of medieval spain pp. 339 - 340 - R. Altamira: Ahistory of spain pp. 167 - 168 - C. F. Hayes and M. W. Baldwin: history of europe p. 226

الفصل الثالث

علاقة الموحدين السياسية بمملكة أرغونة

ـ اتحاد أرغونة وبرشلونة:

كانت مملكة أرغونة تتألف من اتحاد مملكتي أرغونة ونبـرة منذ سنـة ٤٦٨ هـ/١٠٧٦ م.. ثم انفصلت مملكة نبرة عن مملكـة أرغونـة في سنة ٥٢٨ هـ/١١٣٤ م إثر وفاة ألفونسو المحارب ملك أرغونة دون أن يترك في حكم المملكة وريثاً من صلبه.. وكان للملك ألفونسو المحارب أخ يدعى راميرو اعتـزل الحياة وانخرط في سلك الكهنوت فأصبح راهباً مقيماً في دير بندكتي يقع بالقرب من أربونة.. لذلك لم يعهد الملك ألفونسو بالحكم لأخيه راميرو.. فقد كان يرى في تديّن أخيه نقطة ضعف لا تسمح له بمزاولة الحكم(٢٣٤).

كتب الملك ألفونسو قبيل وفاته بثلاثة أعوام وصيّته حول مصير مملكته، وكانت أغرب وصية يمكن تصورها.. ذلك أنه أوصى فيها بأن تقسم مملكته الكبيرة إلى ثلاثة أقسام الأول يخصص لسلام روح والده ووالدته والتكفير عن زلاته ولكي يظفر بمكان في جنة الله وللقبر المقدس وسدنته وخدمته.. والثاني يخصص للفقراء والفرسان الاستبارية ببيت المقدس. والثالث يخصص لفرسان المعبد (الداوية) باعتبارهم حماة النصرانية في معبد المسيح(٢٣٥).

رفض أهل أرغونة وأهل نبرة تنفيذ هذه الوصيـة.. ثم بعث أهل

---

(٢٣٤) J . F. O'callaghan: Ahistory of medieval spain p. 223.

(٢٣٥) محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع ٣ ق ١ ص ٤٩٤

أرغونة بعد بضعة أيام من وفاة الملك ألفونسو يستدعون أخاه الراهب راميرو لاعتلاء عرش مملكة أرغونة. فحصل الراهب راميرو على براءة بتحريره من سلك الكهنوت وتولى عرش مملكة أرغونة في سنة ٥٢٨ هـ/١١٣٤ م.. ثم تزوج بموافقة البابا إبنة كونت بواتيه وهي أخت دوق أكوتين. لكن أهل نبرة رفضوا الاعتراف بالراهب راميرو ملكاً عليهم. فانفصلوا عن مملكة أرغونة واختاروا جارثيا الرابع راميرو ملكاً عليهم.. وهو حفيد سانشو الكبير الذي أطاح به ملك أرغونة سانشو الأول راميرو سنة ٤٦٨ هـ/١٠٧٦ م(٢٣٦).

لم يستطع الملك راميرو تصريف أمور الدولة والقيام بأعباء الحكم.. فرأى بعد ثلاث سنوات من الحكم أن يزوج ابنته الطفلة بترونيلا من رامون برنجير الرابع كونت برشلونة ويتنازل عن عرش مملكة أرغونة.. فوافق نبلاء مملكة أرغونة كما وافق كونت برشلونة على هذا المشروع.. وتم عقد الزواج في مدينة بربشتر سنة ٥٣١ هـ/١١٣٧ م.. وتنازل الملك راميرو عن عرش مملكة أرغونة لصهره كونت برشلونة.. ثم تعهد كونت برشلونة أن يحترم القانون ويسهر على مصلحة الشعب وحمايته وتلبية رغباته، كما تعهد بتنفيذ جميع المواثيق التي سيتفق عليها.. لكنه لم يتخذ في أول الأمر لقباً ملوكياً.. إنما اتخذ لقب كونت برشلونة وأمير أرغونة بينما عاد الملك راميرو إلى حياة الرهبنة.. فظل مقيماً في دير سان بدرو أحد أديرة وشقة حتى توفي سنة ٥٥٢ هـ/١١٥٧ م(٢٣٧).

ترتب على وحدة أرغونة وبرشلونة تكامل الدولتين من الناحية الجغرافية والعسكرية والحضارية.. فقد اشتهرت برشلونة بأسطولها البحري واشتهرت أرغونة بقواتها البرية.. وكان لكل منهما هدف واحد هو غزو الأندلس والاستيلاء على البلاد، فحالت وحدتهما دون منافستهما ونزاعهما.. وكانت

(٢٣٦) J. F. O'callaghan: opcit pp. 222 - 223

(٢٣٧) J. F. O'callaghan: opcit pp. 224 - 225 - R. Altamira: Ahistory of spain p. 156 - s. painter: Ahistory of the middle ages p. 195

أرغونة أكثر قرباً إلى مملكة قشتالة في العادات والتقاليد واللغة من برشلونة.. كما كانت برشلونة في نفس الوقت أكثر قرباً إلى لانجدوك وبروفانس في الأصل والعادات والتقاليد واللغة من أرغونة.. فأفاد هذا الاختلاف كلاً من أرغونة وبرشلونة.. لذلك يعتبر بعض المؤرخين اتحاد أرغونة وبرشلونة أهم حدث سياسي تم في إسبانيا خلال القرن ٦ هـ/١٢ م(٢٣٨).

ـ سقوط قواعد الثغر الأعلى:

اتفق الكونت رامون مع ملك قشتالة ألفونسو السابع وملك البرتغال ألفونسو هنريكيز على التعاون في غزو الأندلس والاستيلاء على البلاد.. فاشترك الكونت رامون بقواته في الحملة التي قادها ملك قشتالة للاستيلاء على مدينة المرية سنة ٥٤٢ هـ/١١٤٧ م.. كما اشترك في هذه الحملة أساطيل جنوا وبيزا ومونبليه.. ثم اتفق الكونت رامون خلال عودة الغزاة مع أساطيل جنوا لمساعدته في الاستيلاء على مدينة طرطوشة الواقعة على مصب نهر إيبرو.. وبارك البابا أيوجين الثالث إعداد هذه الحملة فدعا الصليبيين للاشتراك فيها.. وكانت مدينة طرطوشة آنذاك تقف سداً منيعاً أمام تقدم النصارى، فتردهم على أعقابهم معتمدة على جهودها الذاتية(٢٣٩).

سار الكونت رامون بقواته والصليبيون بأساطيلهم.. وحاصروا مدينة طرطوشة من البر والبحر طوال ستة أشهر.. دون أن يستطيع محمد بن سعد بن مردنيش أمير شرقي الأندلس أن يرسل المدد والنجدة لمدينة طرطوشة، فسقطت بأيدي الغزاة في ١٩ شعبان سنة ٥٤٣ هـ/٣١ ديسمبر ١١٤٨ م.. ثم أعطى ملك أرغونة الكونت رامون ثلثي المدينة إلى الجنويين والبيزيين وجيوم صاحب مونبليه نظير مساعدتهم له على أن يؤدوا الجزية. وأعطى الثلث الباقي إلى

(٢٣٨) J. F. O'callaghan: opcit pp. 225 - 226 - R. Altamira: opcit p. 140 - j. w. thompson: The middle ages V. II mohammedan and christian spain pp. 680 - E. Barker and G, clark: European inheritance. V. I p. 399

(٢٣٩) J. F. O'callaghan: opcit pp. 229 - 231

أمراء أرغونة.. ثم عاود في العام التالي ٥٤٤ هـ/١١٤٩ م غزو بقية قواعد الثغر الأعلى فاستولى على مكناسة ولاردة وأفراغة في شهر جمادى الثانية/أكتوبر من العام المذكور(٢٤٠).

تذكر رواية أخرى أن الغزاة حاصروا مدينة طرطوشة من البر والبحر، فصمد المسلمون للحصار مدة أربعين يوماً على أمل أن تصلهم النجدة من بلنسية أو غيرها.. ثم يئسوا من كل عون فسلّموا مدينتهم صلحاً في شعبان ٥٤٣ هـ/ديسمبر ١١٤٨ م مشترطين أن يحتفظوا بأملاكهم ومساجدهم.. ولكنهم لم يستطيعوا الاحتفاظ بمساجدهم أكثر من ثلاثين أو أربعين سنة.. قام الكونت رامون بعد ذلك بالتعاون مع الصليبيين بمهاجمة مدينة لاردة، فسقطت بأيديهم في جمادى الثانية سنة ٥٤٤ هـ/أكتوبر ١١٤٩ م.. وعبر واليها المرابطي ابن هلال البحر ملتجئاً إلى محمد بن غانية أمير ميورقة. ثم سقطت على أثر ذلك مدينتا أفراغة ومكناسة بيد الكونت رامون(٢٤١).

أصبحت مملكة أرغونة باستيلائها على بقية قواعد الثغر الأعلى تسيطر على جميع مدن وأراضي وادي إيبرو من منابعه إلى مصبه.. فأثارت هذه الانتصارات المتواصلة الأمل في نفوس النصارى لطرد المسلمين كلية من الأندلس.. وترتب عليها عقد معاهدة بين الكونت رامون برنجير الرابع وألفونسو السابع ملك قشتالة، عرفت باسم معاهدة تطيلة.. وذلك في سنة ٥٤٦ هـ/١١٥١ م، فاتفقا فيها أولاً على إحياء اتفاقهما السابق الخاص بغزو مملكة نبرة واقتسامها بينهما، وثانياً التعاون على غزو الأندلس واقتسام الأراضي بينهما ونصّت المعاهدة على حق ملوك أرغونة غزو بلاد شرقي الأندلس على أن

---

(٢٤٠) يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس ٢٢٧ - R. Altamira: Ahistory of spain p. 159 - s. p. scott: Ahistory of the moorish empire. V. II p. 293

(٢٤١) محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع ٣ ق ١ ص ٣٦٩ - ٣٧٠ - عبدالله علام: الدولة الموحدية ص ١٧٦ - ١٧٧

يتولوا حكم مدينتي بلنسية ومرسية بصفتهم تابعين لملوك قشتالة(٢٤٢).

لم يستطع الكونت رامون تنفيذ نص المعاهدة الخاص بغزو الأندلس.. فقد شغل بالنزاع مع بعض الأمراء في ممتلكاته الواقعة وراء البرنية.. وكان أخوه الكونت برنجير يحكم ولاية بروفانس فنازعه بعض الأمراء المحليين وقتل مدافعاً عن ولايته.. ثم نجح الكونت في إخضاع أشراف بروفانس.. فاعترفوا بطاعته وتلقّب بلقب كونت دي بروفانس مضافاً إلى ألقابه.. ثم عاود بعض الأمراء النزاع فأثاروا الاضطرابات في بروفانس، منضوين بحماية القيصر فردريك الأول أمبراطور ألمانيا.. ولكن الأمبراطور تحول أخيراً إلى مناصرة الكونت رامون، ومنحه عهد الجزية على بروفانس وعاصمتها أرل كما كان الأمر من قبل. لذلك سافر الكونت وابن أخيه برنجير إلى تورينو حيث كان يقيم الأمبراطور ليتلقيا منه عهد الجزية.. لكن الكونت مرض وتوفي عبر الطريق سنة ٥٥٧ هـ/١١٦٢ م(٢٤٣).

ولي الحكم بعد وفاة الكونت رامون ابنه ألفونسو الثاني من زوجته بترونيلا ابنة الملك الراهب راميرو.. ثم تنازلت بترونيلا في سنة ٥٥٩ هـ/١١٦٤ م عن جميع حقوقها في مملكة أرغونة إلى ابنها ألفونسو الثاني، فأصبح ملكاً لمملكة أرغونة الكبرى المكونة من اتحاد برشلونة وأرغونة.. بالإضافة إلى ولايات بروفانس وقرقشونة وبيزية وغيرها من الولايات الواقعة خلف البرنية.. ثم أقام الملك ألفونسو علاقة مودة وصداقة مع ألفونسو الثامن ملك قشتالة، وجدد معه الاتفاق الخاص بالتعاون على غزو مملكة نبرة لاقتسامها بينهما(٢٤٤).

ثم حاول ألفونسو الثاني ملك أرغونة الاستيلاء على مدينة بلنسية منتهزاً

---

(٢٤٢) J. F. O'callaghan: Ahistory of medieval spain p. 232

(٢٤٣) محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع ٣ ق ١ ص ٥١٤

(٢٤٤) J. F. O'callaghan: opcit 236

حصار الموحدين لابن مردنيش في مدينة مرسية.. فسار بقواته في سنة ٥٦٧ هـ/١١٧٢ م واستولى على بعض الحصون ثم أرسل حملة بحرية وأخرى برية للاستيلاء على بلنسية.. لكن أبا الحجاج يوسف والي بلنسية من قبل أخيه محمد بن مردنيش، هزم الحملة البرية وردها خاسرة على أعقابها.. كذلك استطاع أبو القاسم قائد أسطول ابن مردنيش أن يهزم الحملة البحرية ويحرق بعض سفنها(٢٤٥).

استولى الموحدون على بلاد شرقي الأندلس بإثر وفاة ابن مردنيش واعتراف أولاده بالولاء والطاعة للموحدين في أواخر سنة ٥٦٧ هـ/١١٧٢ م.. فأصبح الموحدون على أثر ذلك واقفين وجهاً لوجه مع مملكة أرغونة.. لذلك سار الموحدون بقواتهم في سنة ٥٦٩ هـ/١١٧٤ م وغزوا مملكة أرغونة واستولوا على بعض الحصون، ثم خربوها وعادوا إلى إشبيلية بالغنائم والسبي(٢٤٦).

ـ معاهدة كاسولا:

قام ألفونسو الثاني ملك أرغونة بمساعدة ألفونسو الثامن ملك قشتالة في الاستيلاء على مدينة قونقة سنة ٥٧٢ هـ/١١٧٧ م.. ثم قام ملك أرغونة في العام التالي بغزو الأندلس. فخشي ملك قشتالة امتداد هذه الغزوات ورأى أن يحدد نطاق غزوات ملك أرغونة.. لذلك عقد معه معاهدة في سنة ٥٧٤ هـ/١١٧٩ م سميت معاهدة كاسولا. نصت على تعاون الملكين ضد المسلمين وضد الخصوم من النصارى خاصة ملك نبرة.. كما نصت على تقسيم الأندلس بينهما، فحددت حق ملوك أرغونة في غزو الأراضي الإسلامية الممتدة من بلنسية شمالاً ألى بلدة بيرة جنوباً(٢٤٧).

---

(٢٤٥) محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع ٣ ق ٢ ص ٥١ ـ ٥٢

(٢٤٦) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٣٩

(٢٤٧) J. F. O'callaghan: Ahistory of medieval spain pp. 239 - 240 R. Altamira: Ahistory of spain p. 167

يـرى بعض المؤرخين أن مملكـة أرغونـة خسرت كثيراً بعقد هـذه المعاهدة.. وعقدوا مقارنة بينها وبين معاهدة تطيلة التي عقدها ملكا أرغونة وقشتـالـة في سنـة ٥٤٦ هـ/١١٥١ م ثم جـددت بينهـما ثـانيـة سنـة ٥٥٣ هـ/١١٥٨ م.. فقد نصت معاهدة تطيلة على حق ملوك أرغونة في غزو الأندلس دون تحديد على أن يتولوا حكم مدينتي بلنسية ومرسية بصفتهم تابعين لملوك قشتالة.. لذلك انصرف ملوك أرغونة إلى الاهتمام بولاياتهم خلف البرنية.. أما معاهدة كاسولا فقد أصبح ملوك أرغونة بموجبها أحراراً لا يدينون بالتبعية لملوك قشتالة في حكم مدينتي بلنسية ومرسية. ولكنها حددت نطاق غزوات ملوك أرغونة فجعلت معظم الفتوح من نصيب ملوك قشتالة.. كما أنها سلبت ملوك أرغونة من ممارسة حقوق الإقطاع على بعض الحصون والقلاع الواقعة على الحدود مع قشتالة.. ثم صرفت ملوك أرغونة إلى العناية بغزو الأندلس دون العناية بولاياتهم خلف البرنية مما أدّى إلى انفصال هذه الولايات في المستقبل(٢٤٨).

قام الملكان ألفونسو الثاني ملك أرغونة وألفونسو الثامن ملك قشتالة بغزو مملكة نبرة كل من ناحيته تنفيذاً لاتفاقهما السابق.. فنجح ملك قشتالة في غزو مملكة نبرة من ناحيته، بينما فشل ملك أرغونـة وارتد إلى بـلاده خاسراً.. لذلك حقد على زميله الظافر ملك قشتالة فعقد ضده حلفاً مع سانشو ملك نبرة في سنة ٥٨٦ هـ/١١٩٠ م.. ثم انضم إلى هذا الحلف ملكا ليون والبرتغال في العام التالي.. وبقي الخصام قائماً بين ملك أرغونة وملك قشتـالـة إلى أن تـوفي ألفـونسـو الثـاني ملك أرغـونـة في سنـة ٥٩٢ هـ/١١٩٦ م.. فخلفه مع حكم برشلونة وأرغونة ابنه بدرو بينما خلفه في حكم باقي الإمارات الفرنجية خلف البـرنية وهي روسيـون ويليارش ومونبليه وغيرها ابنه الثاني ألفونسو(٢٤٩).

(٢٤٨) J. F. O'callaghan: opcit pp. 240 - 241

(٢٤٩) محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع ٣ ق ٢ ص ٦٠٢ - ٦٠٣

يعلق أوكالاهان على ذلك بقوله[٢٥٠]: «لم تكن هذه المرة الوحيدة التي تنفصل فيها إمارات عبر البرنية عن مملكة أرغونة، ولكنها في الحقيقة كانت آخر مرة، فلم تعد بعدها إلى مملكة أرغونة أبداً».

رأى بدرو الثاني ملك أرغونة الجديد أن يقيم مع ملك قشتالة علاقة صداقة وتحالف بسبب المتغيرات الجديدة لإعادة التوازن بين الممالك النصرانية. ذلك أن ملكي ليون ونبرة انتهزا فرصة هزيمة ملك قشتالة في موقعة الأرك سنة ٥٩١ هـ/١١٩٥ م.. فقام كل منهما بغزو مملكة قشتالة من ناحيته.. لذلك عقد بدرو الثاني ملك أرغونة حلفاً وثيقاً مع ألفونسو الثامن ملك قشتالة، فشهرا الملكان في وقت واحد الحرب على ملكي ليون ونبرة مما أدّى إلى فزع الملكين من هذا التحول المفاجىء.

ثم حاول ملك أرغونة مساعدة ملك قشتالة ضد الموحدين.. ففي العام التالي ٥٩٣ هـ/١١٩٧ م.. عاود الخليفة المنصور غزو مملكة قشتالة، فأسرع ملك أرغونة بقواته واجتمع مع ملك قشتالة في قلعة مجريط.. لذلك سار الخليفة المنصور نحوهما بقواته، لكنه لم يجدهما وقيل إن قوات الملكين انفضّت رعباً قبيل نشوب الموقعة.

---

(٢٥٠) A History of medieval spain p. 244

الباب الثالث

العلاقات الحضارية بين المغرب والأندلس والممالك النصرانية

الفصل الأول

العلاقات الاجتماعية

أ ـ بين المغرب والأندلس

ـ احتفال البيعة بالخلافة:

كان الموحدون يحتفلون بتولّي أحد الخلفاء منصب الخلافة وتسلّم سلطتها.. ففي مناسبة بيعة الخليفة أبي يعقوب يوسف يقول ابن صاحب الصلاة[1]: «لما كملت على ما ذكرته من الإجماع عليها من الموحدين، وسرت بها البشائر في البلاد، وتيمن بارتباطها بالعدوة والأندلس جميع العباد، عفا عن المسجونين، وحظ البقايا من العمال الخائنين... وأمنهم من المخاوف فيما تقيد عليهم في الدواوين.. فزاد الانبساط والنشاط عند الناس بفضله وصفحه وعدله.. وكثر المال في الأيدي من توالي سمحه وبركته» ثم يضيف إلى ذلك قوله إنه بعد أن جرى الاحتفال بالبيعة: «أمر أمير المؤمنين رضي الله عنه ببركة تعم الناس بحضرة مراكش، إيصالاً للعفو الذي تقدم وإفضالاً بتتميم منّه الذي أنعم. ونفذ أمره العزيز بمخاطباته إلى السادات إخوته بالبلاد العدوية والأندلسية القاصية والدانية بالإنعام بالبركة على ما ذكرته.. فعم الناس فضله ورفده، وبث في القلوب حبه وعهده[2]».

كذلك احتفل الناس وعمهم البشر والسرور حين بويع يعقوب المنصور بالخلافة. ذلك أنه لما تمت له البيعة وطاعت له الأمة، كان أول شيء فعله

(١) المن بالإمامة: ص ٣٤٧
(٢) المصدر نفسه ص ٣٥٣

أن أخرج مائة ألف دينار ذهباً من بيت المال، ففرقها في الضعفاء من بيوتات المغرب.. وكتب إلى جميع ولاته في تسريح السجون ورد المظالم التي فعلها العمال في أيام أبيه.. وأكرم الفقهاء وراعى الصلحاء وأهل الفضل وأجرى على أكثرهم الإنفاق من بيت المال، وفرّق في الموحدين وسائر الأجناد أموالاً جمة(٣).

ـ الاحتفال باستقبال الوفود:

كان الموحدون يحتفلون احتفالاً كبيراً باستقبال الوفود التي تفد إليهم.. ومن أشهر الاحتفالات التي وصفها لنا ابن صاحب الصلاة، ذلك الاحتفال الذي جرى لاستقبال القبائل العربية التي وفدت من إفريقيا على الموحدين في مراكش سنة ٥٦٦ هـ/١١٧١ م.. وكان الخليفة أبو يعقوب يوسف قد استدعى إليه هذه القبائل لتشترك معه في غزو النصارى.. ثم أخذ يستعد لاستقبالهم حين بلغه مسيرهم إليه، فأمر بتوزيع مختلف أنواع السلاح على المشتركين في موكب الاستقبال، كما أمر باعداد البنود والرايات والطبول(٤).

كما كانوا يحتفلون باستقبال أحد السادة من إخوة الخليفة أو أولاده. مثال ذلك الاحتفال الذي جرى سنة ٥٦٠ هـ/١١٦٥ م، حين سار السيد أبو حفص بجماعة من كبار الدولة للقاء أخيه السيد أبي سعيد بجبل طارق. فقد عبر البحر بموكب فخم وفي هيئة عظيمة للنظارة من نشر البنود وقرع الطبول... وبرز أيضاً السيد أبو سعيد في قطائعه بجبل الفتح براياته.. ما أبهت الحاضرين وسر العابرين والناظرين.. ووفد أهل إشبيلية والفقيه ابن الجد وقاضيهم أبو بكر الغافقي وصاحب المخزن محمد بن المعلم المستناب بإشبيلية، وأهل المغرب وأهل قرطبة وغرناطة والشعراء للتهاني باتصال

(٣) الناصري: الاستقصا ج ٢ ص ١٤٢
(٤) انظر الاحتفال عند ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص ٤٣٠ ـ ٤٣٢

البشارات والأماني. . وجلس السيد الأعلى للناس للسلام في القصر المشيد. . فدخل وفد بعد وفد، وخطبوا وأطنبوا وأطعموا الطعام، وأنيلوا المنزل الرحب والإنعام. . وأنشد الشعراء أشعارهم، وقضوا فيها وفدوا به أوطارهم، وحبا السيد الأعلى جميعهم بالأعطيات والبركات والكسا على أتم الخيرات. . ودامت الإقامة في الجبل مدة خمسة عشر يوماً في مسرة متصلة ومبرة مشتملة(٥).

ـ الاحتفال بتشييد الأبنية:

اهتم الموحدون ببناء القصور والمساجد والمدن وكانوا يحتفلون بمناسبة الانتهاء من تشييدها بحضر الخليفة وكبار رجال الدولة والحاشية وأعيان البلاد ووفودها وجمهور غفير من الناس. . فينتهز الشعراء الفرصة ويلقون قصائدهم بين يدي الخليفة. . ومن أوضح الأمثلة على ذلك الاحتفال الذي جرى سنة ٥٥٥ هـ/ ١١٦٠ م بمناسبة الانتهاء من بناء مدينة الفتح بجبل طارق. . فقد سار الخليفة عبد المؤمن بموكب فخم من مدينة مراكش، وجاز البحر إلى جبل طارق بالأندلس وبرز له يوم إجازته البحر من الناس النظارة على سيف البحر عالم لا يحصيهم إلا خالقهم، وكان يوماً مذكوراً مشهوراً ظهر فيه من فخامة الملك والأمر ما لم يتقدم في سالف الأزمان ولا تخيل مرآه في الأذهان(٦).

فلما علم أهل الأندلس بمسير الخليفة، ساروا بوفودهم من الولاة والقضاة والأعيان لاستقباله. . ثم جرى احتفال فخم، وسمح الخليفة بهذه المناسبة للشعراء بإلقاء قصائدهم، ولرؤساء الوفود بإلقاء خطبهم، كما سمح لهم بتجديد البيعة له بالخلافة وتقبيل يده. . وقد استمر الاحتفال عشرين

---

(٥) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص ٢٥٠ ـ ٢٦٠ ـ ابن عذارى: البيان المغرب ق ٣ ص ٦٠ ـ ٦١

(٦) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص ١٤٧

يوماً، كانت جميع المصاريف وإطعام الناس على نفقة الدولة، هذا علاوة على عطاء الخليفة لجميع الحاضرين كل حسب مقامه.. ثم انصرف الخليفة عائداً إلى مراكش بعد أن أقام في جبل طارق زهاء شهرين(٧).

ـ الاحتفال بمسير الجيش للغزو:

كان للموحدين نظام لموكب الجيش خلال مسيره للغزو.. وقد استمر العمل بهذا النظام حتى نهاية الدولة الموحدية، فقد احتفل به أبو دبوس آخر الخلفاء الموحدين(٨).. ومن أوضح الأمثلة على ذلك وصف موكب الجيش خلال مسيره للغزو من مراكش إلى الأندلس في سنة ٥٦٦ هـ/١١٧١ م. ففي هذا الصدد يقول ابن صاحب الصلاة(٩): «أمر سيدنا الخليفة بتمييز الموحدين على عدد قبائلهم.. فامتثل ذلك وتمادى تمييزهم مدة خمسة عشر يوماً وقسم عليهم الخيل.. وكذلك على العرب الوافدين، وأعطى للجميع الرماح والدروع والبيض والسيوف.. ثم أمر لهم بإعطاء البركة عن الزاد لهذه الغزوة.. وكسا جميعهم القباطي والقمص والغفاير والعمايم.. فلنذكر الآن حركته السعيدة، كانت من الحضرة مراكش صبيحة يوم السبت الرابع من شهر رجب الفرد من سنة ست وستين وخمسمائة... واجتمع الناس لرؤيته.. فكان في أحسن تعبئة، قد ملأت العساكر الأرض كثرة، فسار أمامهم والعلام الأبيض قدامه مع الرجالة على عادة الأمر العزيز من الترتيب في المشي، والعلامات والساقات والطبول وراءه.. وقد قدم أمامه مصحف صاحب رسول الله ﷺ عثمان بن عفان رضي الله عنه على جمل مرتفع، وقدام هذا المصحف مصحف الإمام المهدي رضي الله عنه... والمصحف المكرم منظم حول حفاظه بالجوهر النفيس والياقوت الأحمر والأصفر والأخضر

(٧) المصدر نفسه ص ١٤٧ ـ ١٧٢

(٨) ابن عذارى: البيان المغرب ق ٣ ص ٩٢ وص ١٢٩ ـ ١٣٠ وص ٤٧١ ـ ٤٧٢

(٩) المن بالإمامة ص ٤٣٨ ـ ٤٥٢

الغريب، والزمرد الأخضر النفيس العجيب. . . وأمر بإحضار أربع رايات صغار في أربعة رماح صغار، وفي أعلى كل رمح تفاحة من ذهب تتلألأ ضياء وشعاعاً والرايات ملونات بالخلدي الأحمر والأصفر والأبيض، وجعل تلك الرايات الأربع في أركان تابوت المصحف المكرّم، مصحف عثمان رضي الله عنه. . ثم استوى على صهوة فرسه ومشى على الهيئة المتقدمة والعساكر وراءه من الموحدين والعرب قد ملأوا بسيط الأرض. . حتى وصل. . قرطبة في غرة ذي القعدة».

الاحتفال بالانتصار:

وكان الموحدون يحتفلون أيضاً بمناسبة انتصاراتهم الحربية. . إذ كان الخليفة يبعث بكتاب الانتصار إلى ولاته، فيقرأون الكتاب على الناس والطلبة، ويطلبون منهم استظهار ما جاء في الكتاب من الأخبار والأشعار. . وكان الاحتفال يستمر أحياناً مدة شهر كامل يصحبه في العادة قرع الطبول وتناول الطعام، مثال ذلك الاحتفال الذي جرى في سنة ٥٥٥ هـ/ ١١٦٠ م على أثر انتصار الخليفة عبد المؤمن على فرنج صقلية واسترداد موانىء إفريقيا منهم(١٠).

ومن هذه الانتصارات التي وصفها لنا ابن عذارى احتفال الخليفة المنصور بانتصاره على مملكة البرتغال في سنة ٥٨٦ هـ/ ١١٩٠ م. فقد عاد مزهواً بالانتصار إلى إشبيلية في الحادي عشر لجمادى الآخرة من السنة. . وفي يوم هذا الوصول نزل على إشبيلية في غاية الحفل، وركب السودان على النجب البيض بأيديهم الدوق، وعلى رؤوسهم طراطير الطليقان الشديد الحمرة، وصدور النجب منظومة بجلاجيل على شكل السفرجل. والأغزاز

---

(١٠) انظر وصف الاحتفال في المن بالإمامة ص ١٢٠ ـ ١٢٦ ـ وفي البيان المغرب ق ٣ ص ٤١

بضروب الحلل.. فظهر مرأى تحار فيه الأبصار، وتذهل الخواطر والأفكار(١١).

ـ الترويح عن النفس:

سار الموحدون في أول أمرهم على أسلوب حياة محمد بن تومرت في التقشف وعدم الاهتمام بمسرات الحياة وطيبات النعيم، ثم أخذوا شيئاً فشيئاً يبتعدون عن هذا النوع من العيش وينبذون حياة التقشف فكان يطيب للخلفاء الاستمتاع بجمال الطبيعة بالنظر إلى الأشجار والثمار.. مثال ذلك ما كان يفعله الخليفة عبد المؤمن.. يقول في ذلك المراكشي(١٢): «أخبرني الفقيه المتفنن أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن أبي جعفر الوزير عن أبيه عن جده الوزير أبي جعفر قال: دخلت على عبد المؤمن وهو في بستان له، قد أينعت ثماره وتفتحت أزهاره، وتجاوبت على أغصانها أطياره، وتكامل من كل جهة حسنه، وهو قاعد في قبة مشرفة على البستان فسلمت وجلست.. وجعلت أنظر يمنة وشأمة متعجباً مما أرى من حسن ذلك البستان.. فقال لي: يا أبا جعفر أراك كثير النظر إلى هذا البستان! قلت: يطيل الله بقاء أمير المؤمنين، والله إن هذا لمنظر حسن!».

ولما بنى الخليفة عبد المؤمن مدينة الفتح في جبل طارق بالأندلس سنة ٥٥٥ هـ/ ١١٦٠ م، أنشأ فيها الدور والقصور الخلافية له ولابنائه السادة.. كما استصلح ما حولها من الأراضي وزرعها بمختلف أنواع الفاكهة كالتين والعنب والتفاح والكمثري والسفرجل والمشمش والإجاص والأترج والموز.. كذلك فعل الخليفة أبو يعقوب يوسف، فبنى القصور الخلافية في إشبيلية وأحاطها بالبساتين الواسعة المزروعة بشتى أنواع الفاكهة والزيتون.. وقد تولى

---

(١١) ابن عذارى: البيان المغرب ق ٣ ص ١٨٠

(١٢) المعجب ص ٢٠١

إقامة هذه القصور الخلافية وغرس بساتينها المهندسون والعمال الأندلسيون.. فكان من أشهرهم الحاج يعيش المالقي المهندس، وأحمد بن باسة المهندس. ثم أبو القاسم أحمد بن محمد الحوفي القاضي وأبو بكر محمد بن يحيى بن الحذا لمعرفتها بالمساحة والتكسير والفلاحة(١٣).

وكان يطيب للخليفة الناصر التنزه في بساتينه بمراكش.. ويروى عنه أنه أمر عبيده بحراسة أحد بساتينه، وأباح لهم قتل من يدخل البستان ليلاً. ثم أراد أن يختبرهم، فتنكر ودخل البستان ليلاً. فعندما رأوه جعلوه غرضاً لرماحهم، فجعل يقول: أنا الخليفة أنا الخليفة، فما تحققوه حتى فرغوا منه(١٤).

كما كان الخليفة يوسف المنتصر مولعاً باتخاذ الحيوان واستنتاجه.. فكان يؤتى إليه بأصناف البقر من الأندلس، فيرسلها في بستانه الكبير من حضرة مراكش.. ويحمل بعضها على بعض للتناسل.. فخرج ذات يوم للتطوف على تلك البقر والنظر إليها.. فتوسط قطيعاً منها.. فأنكرته بقرة شرود، فطعنته في صدره طعنة أتت عليه في حينه(١٥).

وبنى الخليفة الرشيد بمراكش رياضاً فسيحاً، وجعل فيه بحيرة كبيرة.. ثم بنى حوله سقائف للموحدين ودياراً للمقربين في خدمته وأرباب دولته.. وكان يطيب له أن يتنزه في هذا الرياض، ويطيب له التنقل في البحيرة بزورق مع بعض خاصته.. فأخذ في أحد الأيام زورقاً مع بعض جواريه برسم التنزه بالبحيرة فانقلب الزورق بهم.. ومات الخليفة من حينه(١٦).

وكان الولاة الموحدون أيضاً يخرجون مع بعض خاصتهم وحاشيتهم

(١٣) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص ١٣٧ - ١٤٣ و٤٦٤ - ٤٦٩
(١٤) الناصري: الاستقصا ج ٢ ص ٢٠١ - B. Meakin: the moorish empire pp. 84 - 85
(١٥) الناصري: نفس المصدر والجزء ص ٢٠٤
(١٦) ابن عذارى: البيان المغرب ق ٣ ص ٣٥٧ - ٣٥٨

للتنزه بين الخمائل والجداول. فعلى سبيل المثال كان الوالي أبو عبدالله بن أبي إبراهيم «يخرج في بعض أيام ولايته لغرناطة مع أصحابه الحفاظ النبهاء من الموحدين أكرمهم الله وفي خاصته. وينزل على ساقية بقرب قرية يزقر من نظر غرناطة على ضفة نهر أحسن من شاد مهر.. تحفها جداول كالصلال.. ولا تكاد ترمقها الشمس من تكاثف الظلال فيستريح فيها.. وقد أحضر له من الطعام والشراب ما كفى جملته وأنسهم بفرط الإكرام والإنعام.. ويسط نفوسهم بتقريبه لهم في ذلك المقام.. ثم ينصرفون معه وقد جازوا منه من المجالسة والمؤانسة خير حرمة وذمام(١٧)»

وإلى المنتزهات كان الناس يخرجون في بعض المناسبات السعيدة كالأعياد والاحتفالات الرسمية، أو بمناسبة وصول بيعة بعض الولايات للخليفة، وقد استمر الحال على ذلك حتى أواخر الدولة.. ففي سنة ٦٣٥ هـ/١٢٣٧ م.. وصلت بيعة أهل إشبيلية وأهل سبتة للخليفة الرشيد، فعمت الأفراح أهل المغرب حتى «شملت المسرات كبيرهم وصغيرهم. ولم يبق سوق من الأسواق إلا جمع أهلها للنزاهات، وابتاعوا رؤوس البقر والغنم والفواكه. وخرجوا إلى بحائر الحضرة، وذلك على ترتيب الأسواق وأهل الصنائع(١٨)».

ـ الغناء والطرب:

سار الموحدون أول أمرهم على سياسة إمامهم محمد بن تومرت في مكافحة الغناء والطرب. فكان محمد بن تومرت يعتبر هذا النوع من مسرات الحياة لهواً وفسقاً، لذلك استخدم العنف والشدة في مكافحة المطربين والعازفين، ثم استعمل عصاه في تكسير أدوات الطرب وآلات الموسيقا(١٩).

(١٧) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص ٢٩٩

(١٨) ابن عذارى: المصدر السابق ص ٣٣٨

(١٩) B. Meakin: the moorish empire pp. 65 - 66 - N. Barbour: Morocco - pp. 70 - 71 - 72 - H. Z (J. W): Ahistory of the jews in north africa p. 122

يقول البيذق[٢٠]: «فلما كان يوم من الأيام دخل علينا المعصوم وقال لنا: أين الصبيان؟.. فقلنا: هنا نحن حاضرون.. قال: ما منكم أحد غائب؟ قلنا: كلنا حاضرون. فقال المعصوم: اخرجوا واقطعوا مقارع من شجر التين الذي أسفل الوادي الذي لا ينتفع به وأقبلوا بسرعة.. وكنا في سبع نفر... فخرجنا السبعة وأقبلنا بسبعة مقارع من ذكاير التين.. فقال لنا: خفوا مقارعكم. وسرنا معه ولا علمنا أين يتوجه حتى وصلنا زقاق بزقالة.. فقال لنا: تفرقوا على الحوانيت.. وكانت الحوانيت مملوءة دفوفاً وقراقر ومزامير وعيداناً وروطاً وأربية وكيثارات وجميع أدوات اللهو. فقال لنا المعصوم: «اكسروا ما وجدتم من أدوات اللهو. فقام أصحابها شاكين نحو قاضيهم ابن معيشة... فقال لهم القاضي: لولا ما رأى في السنّة ما كسرها ومزقها»...

وقد استمر الموحدون بعد وفاة محمد بن تومرت يكافحون الغناء والطرب.. فحين بلغ الخليفة عبد المؤمن عودة بعض الناس إلى هذا النوع من اللهو، أصدر مرسوماً إلى ولاته سنة ٥٥٦ هـ/١١٦١م أمرهم فيه «بالكشف عن التلصص والحرابة والتولج في مكان الريب والغواية والاجتماع على السير الجاهلية والملاهي على فنونها وأنواعها وضروبها واختلاف آلاتها، وما يتبعها من المناكر الناشئة عن أهل الجهالة، فاكشفوا عن هذه الأصناف وأثيروهم عن مكانهم[٢١].

ولذلك لم يهتم الموحدون بعلماء الموسيقا رغم تشجيعهم للعلم والعلماء.. فقد كان ابن طفيل الأندلسي متعدد المواهب وله مكانة خاصة عند الخلفاء الموحدين، وكان يأخذ من الموحدين راتباً شهرياً بصفته من

---

(٢٠) أخبار المهدي بن تومرت ص ٢٣ - ٢٤ من ط ابن منصور وص ٦٤ - ٦٥ من ط بروفنسال - ابن القطان: نظم الجمان ص ٢٣ - ٢٤

(٢١) حسن علي: الحياة الإدارية والاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأقصى ص ٤٨٩

الأطباء، وراتباً ثانياً بصفته من المهندسين، وراتباً ثالثاً بصفته من الكتاب والشعراء، وراتباً رابعاً بصفته من الأجناد والرماة.. وكان يقول عن الموحدين: لو نفق عليهم علم الموسيقا لأنفقته عندهم[٢٢]».

غير أنه يبدو أن الخلفاء الموحدين غضوا الطرف عن الغناء وضرب الدف في بعض المناسبات.. ففي سنة ٥٦٧ هـ/١١٧٢ م دخل الخليفة أبو يعقوب مدينة مرسية خلال عودته من غزوة وبذة.. فخرج لاستقباله «جميع أهل مرسية من خاصتهم وعامتهم وكبيرهم وصغيرهم يتكلمون لأنفسهم بالتيسير والتبشير، ويقولون بأعلى صوتهم: الحمدلله الذي جمع بيننا وبينكم على أحسن حال وأنعم حال، ورفع عنا الظلم والكفر.. ونساؤهم يبدين أصواتهن بالفرح وينطقن بألسنتهن بكل لفظ منشرح[٢٣]» كذلك حين زار الخليفة المنصور قبر المهدي محمد بن تومرت في تينمل استقبله الناس «والنساء يولولن ويضربن بالدفوف[٢٤]».

ويبدو أن حملات الموحدين لم تنجح في القضاء على أهل الغناء والطرب، أو أنهم عادوا للظهور مرة ثانية وانتشروا بصورة أزعجت الخلفاء.. ففي حوادث سنة ٥٨٠ هـ/١١٨٤ م يقول ابن عذارى[٢٥] عن الخليفة المنصور: «لما رأى التساوي في الانهماك والاغترار وسمع المجاهرة بالاستهتار والتنافس في الشهوات، ونفاق سوق الغانيات الملهيات، تنكر وغضب في الله لذلك المنكر وأضرب عن القال والقيل وجعل الإنذار والإعذار مكان السيف الصقيل».

كما أقبل بعض الخاصة في أواخر دولة الموحدين على شراء الجواري وتأديبهن وتعليمهن الغناء.. فقد كان لدى أبي علي بن يبقى أثناء ولايته مالقة

(٢٢) المراكشي: المعجب ص ٢٤٠
(٢٣) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة ص ٥١٣ - ٥١٤
(٢٤) المراكشي: المعجب ص ٢٩١
(٢٥) البيان المغرب ق ٣ ص ١٤٣

جارية أدّبها وعلمها الغناء فطلبها منه أبو العلاء المأمون بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن، فلم يسعفه بها. ولما بويع المأمون بالخلافة سنة ٦٢٦ هـ/١٢٢٩ م، أحضر إليه أبا علي بن يبقى وضرب عنقه في إشبيلية(٢٦).

ـ **الأزياء والملابس:**

حرص الموحدون أول أمرهم في الابتعاد عن ارتداء الملابس الغالية الثمن المصنوعة من الحرير والديباج المطرز، ثم أخذوا شيئاً فشيئاً يقلدون الأندلسيين في ارتداء هذا النوع من الملابس.. أما عن لباس الموحدين المصامدة في بلادهم فيقول الإدريسي(٢٧): «يعمل ببلاد السوس من الأكسية الرقاق والثياب الرفيعة ما لا يقدر أحد على عمله بغيرها من البلاد، ورجالها ونساؤها سمر.. وزيّهم لباس الأكسية من الصوف التفافاً، وعلى رؤوسهم الشعور الكثيرة ولهم بها اهتمام وحفظ، وذلك أنهم يصبغونها في كل جمعة بالحناء ويغسلونها في كل جمعة مرتين برقيق البيض وبالطين الأندلسي.. ويحتزمون في أوساطهم بمآزر صوف يسمونها أسفاقس».

وكان محمد بن تومرت إمام الموحدين «يلبس العباءة المرقعة وله قدم في التقشف والعبادة(٢٨)». واقتدى الخليفة عبد المؤمن بابن تومرت، فيذكر ابن القطان(٢٩): «انه ما لبس قط إلا ثياب الصوف عن قميص وعن سراويل وعن جبّة تواضعاً لله تعالى وزهداً». كما كان عبد المؤمن أيضاً يلبس أبناءه مثلما يلبس من الثياب.

ولذلك لم يحرص الموحدون في أوائل دولتهم على إقامة دور طراز لهم، لصناعة الملابس الحريرية والديباج المطرز، إنما اقاموها أواخر دولتهم.. ففي

(٢٦) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب ص ٤٢٩
(٢٧) وصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ص ٦٢
(٢٨) ابن خلدون: العبر ج ٢ ص ٢٢٩
(٢٩) نظم الجمان ص ١٣٢

ذلك يقول ابن خلدون (٣٠) خلال حديثه عن دور الطراز عامة: «ولما جاءت دولة الموحدين بالمغرب... أول المائة السادسة، لم يأخذوا بذلك أول دولتهم لما كانوا عليه من منازع الديانة والسذاجة، التي لقنوها عن إمامهم محمد بن تومرت المهدي.. وكانوا يتورعون عن لباس الحرير والذهب، فسقطت هذه الوظيفة من دولتهم، واستدرك منها أعقابهم لم يكن بتلك النباهة».

كما أخذ الموحدون عن الأندلسيين ارتداء مختلف أنواع الديباج، فقد كان الأندلسيون يرتدون - كل حسب مقداره - الملابس الحريرية والصوفية والقطنية والكتانية(٣١). فأقبل الخلفاء وكبار رجال الدولة وعامة الناس رجالاً ونساء على ارتداء الملابس الحريرية المطرزة والديباج الموشى الغالي الثمن.. وكان هذا النوع من الملابس يصنع في دور الطراز بمرسية وبلنسية وغرناطة وبسطة ومالقة والمرية(٣٢).

ويبدو أن الموحدين وكافة الناس قد أسرفوا في ارتداء هذا النوع من اللباس، مما جعل الخليفة المنصور يأمر بعدم ارتدائها في سنة ٥٨٠ هـ/١١٨٤م... ففي ذلك يقول ابن عذارى(٣٣) عن الخليفة المنصور: «أمر بقطع لباس الغالي من الحرير والإجتزاء منه بالرسم الرقيق الصغير، ومنع النساء من الطرز الحفيل.. وأمر بالاكتفاء منه بالساذج القليل، وأمر بإخراج ما كان في المخازن من ضروب ثياب الحرير والديباج المذهب. فبيعت منه ذخائر لا تحصى بأثمان لم تعرف ولم تُستقصَ».

ويذكر المراكشي(٣٤) أن الخليفة المنصور أظهر بعد سنة ٥٨٣ هـ/١١٨٧ م «زهداً وتقشفاً وخشونة ملبس ومأكل». كما يذكر ابن

(٣٠) المقدمة ص ٢٦٧
(٣١) ابن الخطيب: الإحاطة ج ١ ص ١٣٤ - ١٣٥ و١٣٩
(٣٢) المقري: نفح الطيب ج ٢ ص ٦٨ - ٦٩
(٣٣) البيان المغرب ق ٣ ص ١٤٥
(٣٤) المعجب ص ٢٧٨

عذارى[٣٥] ان الخليفة المنصور كان يرتدي في حالتي جلوسه ومواكبه عقارة زبيبية وبرنساً مسكياً.. ثم ارتدى هذا الزي السادة من أبناء الخلفاء والقرابة والخاصة، فأمر الخليفة المنصور بمنعهم من ارتداء هذا الزي على اعتبار انه زي الخليفة الرسمي.

غير أن الموحدين والناس عامة عادوا بعد وفاة الخليفة المنصور إلى ارتداء الملابس الحريرية المطرزة والديباج الموشى، مع الإقتصار بزينتها على الرسم الرقيق، كما أقاموا دور الطراز، فقد أحصى الديون في عهد الخليفة الناصر ابن المنصور ثلاثة آلاف وأربع وتسعين دار طراز في مدينة فاس وحدها[٣٦].

وبالغ الموحدون في عهد الخليفة الناصر في نسج الملابس الحريرية بأنواع الجواهر واليواقيت والأحجار الكريمة.. يدل على ذلك الهدية التي قدمها الخليفة الناصر إلى علي بن الغازي بمناسبة توحيده وإعلانه الولاء والطاعة.. فقد كان في الهدية «ثوبان قد نسجا بأنواع الجواهر وجعلت فيها أعلام من اليواقيت والأحجار النفيسة[٣٧]».

وأخذ الموحدون العمائم لرؤوسهم، يدل على ذلك ما ذكره أبو محمد سيداري بن وزير للسيد أبي سعيد بن الخليفة عبد المؤمن... فقد قال بعد عودته من عند النصارى: «سرق أرذال النصارى المتصرفين في الخباء عمامة راسي عند غفلة مني، فلما وصلت إلى السيد أبي سعيد منصرفاً مع الببوج، رأى رأسي دون عمامة.. فسألني عن ذلك، فوصفت له الحال وأنا ضاحك من رجال النصارى وسرقاتهم.. فأخذ بفضله وسيادته عمامة رأسه ودفعها إليَّ، واستدعى خديمه حماداً العصري وأمره بسوق عمامة أُخرى لرأسه..

(٣٥) المصدر السابق ص ١٥٩
(٣٦) الجزنائي: زهرة الآس ص ٣٣
(٣٧) ابن محمد الأندلسي: الحلل السندسية ص ٢٥٨

فقبّلت يده وزاد حبه في قلبي وسؤدده[٣٨]».

وكانت العمائم من بين الأكسية التي وزعها الخليفة عبد المؤمن على أفراد جيشه سنة ٥٥٨ هـ/١١٦٣ م.. فقد وزع «من الثياب والكسا والعمائم والبرانس ما استغربته الأذهان ولا تقدم بمثله زمان.. وقسم ذلك كله على الموحدين أعانهم الله، على أشياخهم وعامتهم، وعلى العرب أجمعين فجميع قبائلهم الحاضرين، وعلى الاجناد المرسومين المعينين[٣٩]».

أما الأكسية التي وزعها الخليفة أبو يعقوب يوسف على أفراد جيشه، فكانت لكل واحد ستة أثواب عامة وعقارة وقبطية مبطنة ومقطعين مهدوبين وكساء[٤٠]».

وقد تخلى معظم أهل الأندلس ـ خاصة من كان في شرقي البلاد ـ عن اتخاذ العمائم منذ أوائل القرن السابع الهجري: الثالث عشر الميلادي.. يقول في ذلك «ابن سعيد: وأما زي أهل الأندلس، فالغالب عليهم ترك العمائم ولا سيما في شرقي الأندلس. فإن أهل غربيها لا تكاد ترى فيهم قاضياً ولا فقيهاً مشاراً إليه إلا وهو بعمامة.. وقد تسامحوا بشرقيها في ذلك.. ولقد رأيت عزيزابن خطاب أكبر عالم بمرسية... وهو حاسر الرأس وشيبه قد غلب على سواد شعره.. وأما الأجناد وسائر الناس فقليل منهم من تراه بعمة في شرق منها أو في غرب[٤١].

هذا ولم يقتصر ارتداء أهل الأندلس على مصنوعات دور طرازهم من الملابس الحريرية والصوفية والقطنية والكتانية، بل كانوا يلبسون أيضاً الأردية الإفريقية والمقاطع التونسية والمآزر[٤٢].

(٣٨) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص ٤٠٢
(٣٩) ابن صاحب الصلاة: نفس المصدر ص ٢١٥
(٤٠) ابن صاحب الصلاة: نفس المصدر ص ٤٥٠
(٤١) المقري: نفح الطيب ج ٢ ص ١١٠ ـ ١١١
(٤٢) ابن الخطيب: الإحاطة ج ١ ص ١٣٤ ـ ١٣٥

أما زي اليهود فيذكره المراكشي(٤٣) بقوله: وفي أواخر أيام أبي يوسف امر أن يميز اليهود الذين بالمغرب بلباس يختصون به دون غيرهم.. وذلك ثياب كحلية وأكمام مفرطة السعة تصل إلى قريب من أقدامهم، وبدلاً من العمائم كلوتات على أشنع صورة كأنها البراذيع تبلغ إلى تحت آذانهم.. فشاع هذا الزي في جميع المغرب، ولم يزالوا كذلك بقية أيامه وصدراً من أيام ابنه أبي عبدالله إلى أن غيره أبو عبدالله المذكور، بعد أن توسلوا إليه بكل وسيلة، واستشفعوا بكل من يظنون أن شفاعته تنفعهم.. فأمرهم أبو عبدالله بلبسان ثياب صفر عمائم صفر. فهم على هذا الزي إلى وقتنا هذا وهو سنة ٦٢١».

وقد ذكر هيرسبرج هذه الرواية وعلق عليها بقوله: «إن اليهود دفعوا ثمناً باهظاً مقابل إقامتهم بالمغرب».. ولكنه يعود فيعترف صراحة بأن وضع اليهود في المغرب والأندلس تحت حكم المسلمين، كان أفضل بكثير من وضع بني جلدتهم تحت حكم النصارى(٤٤).

وعن سبب فرض هذا الزي على اليهود يقول المراكشي(٤٥): «إنما حمل أبا يوسف على ما صنعه من إفرادهم بهذا الزي وتمييزه إياهم به، شكه في إسلامهم، وكان يقول: لو صح عندي إسلامهم لتركتهم يختلطون بالمسلمين في أنكحتهم وسائر أمورهم.. ولو صح عندي كفرهم لقتلت رجالهم، وسبيت ذراريهم، وجعلت أموالهم فيئاً للمسلمين! ولكني متردد في أمرهم».

- الطعام والشراب:

ذكر صاحب كتاب الطبيخ(٤٦) ألوان الطعام الذي كان شائعاً في بلاد

(٤٣) المعجب ص ٣٠٤ - ٣٠٥ - ابن عذارى: البيان المغرب ق ٣ ص ٢٠٥

(٤٤) H. Z. (J. W) Hirschberg: Ahistory of the Jews in north africa V. I pp. 201, 204, 383

(٤٥) المصدر السابق ص ٣٠٥

(٤٦) هو مؤلف أندلسي لا نعرف اسمه ولا عنوان كتابه.. عاش في النصف الأول من القرن =

المغرب والأندلس خلال عصر الموحدين.. ثم ذكر طريقة طهي كل لون، كما ذكر أسماء بعض البلاد أو المدن التي اشتهرت بتحضير أحد ألوان الطعام.. بالإضافة إلى هذا فإنه ذكر أسماء بعض الخلفاء أو الولاة أو الوزراء الذين اشتهروا بتحضير أحد ألوان الطعام، أو أقبلوا على تناوله.. فكان من أشهر ألوان الطعام على سبيل المثال هو ما يلي، بالإضافة إلى طريقة تحضيره.

١ ـ «نوع من الأحرش.. كان يستعمله السيد أبو الحسن[٤٧] وغيره بمراكش.. ويسمونه إسفيريا.. يؤخذ من لحم الغنم الأحمر منه ويدق دقاً بليغاً.. ويعرك بالمري النقيع والخل والزيت والثوم المدقوق والفلفل والزعفران والكمون والكزبرة والسنبل وقرفة وزنجبيل وقرنفل. ومن الشحم واللحم المقشر مدقوق ومقسوم، ويسير من البيض قدر ما يلتف به الجميع.. ويصنع منه قرص على قدر الكف أو أصغر قليلاً، وتقلى في مقلاة بزيت كثير حتى تحمر.. ثم يصنع لها مرقة بخل وزيت وثوم، ويترك منها قسمة دون مرقة.. فهي طيبة عجيبة[٤٨]».

٢ ـ لون المخلل: يؤخذ من اللحم البقري السمين أو غنمي سمين ويقطع قطعاً صغاراً.. ويجعل في قدر جديدة بملح وفلفل وكزبرة يابسة وكمون وزعفران كثير وثوم مقشر مقطع ولوز مقشر مقسوم وزيت كثير ويغمر بالخل الثقيف الخالص جداً ولا سبيل لشيء من الماء. ويرفع على نار فحم معتدلة، ويحرك إذا غلى.. فإذا نضج وانحل اللحم وقل حينئذ ينزل على الرضف.. ويخمر ببيض كثير وقرفة وسنبل، ويصبغ بزعفران كثير صبغاً

٧ هـ/١٣ م عثر على كتابه المستشرق الإسباني امبروثو هويثي ميراندا، فحققه ونشره في مجلة مدريد للدراسات الإسلامية ضمن مجلدين ٩ و ١٠ لسنتي ١٩٦١ ـ ١٩٦٢ ص ١٨ ـ ٢٢٥

(٤٧) هو أبو الحسن علي بن أبي حفص عمر بن عبد المؤمن. كان من أجل أهل بيته قدراً وأطيبهم ذكراً وأسفحهم يداً وأمنعهم سنداً.. كان مألفاً للشعراء والأدباء. ولاه الخليفة المنصور على مراكش خلال إحدى سفراته عنها. ثم ولاه الخليفة الناصر على تلمسان. توفي بمراكش سنة ٦٠٥ هـ/١٢٠٨م (ابن سعيد: الغصون اليانعة ص ١٥٠ ـ ١٥١).

(٤٨) كتاب الطبيخ ص ٢٢

يرخى، ويجعل فيه من محاح البيض صحاحاً ويترك على الرضف حتى يعقد ويجف مرقه ويظهر دسمه. هذا اللون يبقى أياماً كثيرة لا يتغير ولا يفسد.. يسمى في بلاد المغرب طعام العرس. وهو واحد من السبعة الألوان المذكورة المستعملة عندنا في الولايم بقرطبة وإشبيلية(٤٩)».

٣ ـ صنعة البلاجة التي كانت تصنع في بلاد المغرب مثل قرطبة ومراكش وما بينها من البلاد يؤخذ من اللحم الغنمي السمين دون عظم ولا عصب، بل من قطع لحمه وشحمه ودوراته ومعاه وكبده وقلبه وكرشه ويقطع ذلك كله قطعاً صغاراً جداً.. ويجعل في قدر بملح وقطعة بصلة وكزبرة يابسة وزبيب ويسير مري نقيع.. ويحمل على نار معتدلة ويطبخ حتى ينضج.. وينزل عن النار.. ويصفى من مرقته.. ويغلى في مقلاة بزيت كثير حتى يحمر، ثم يجعل في طاجن ويصب عليه قدر ما يحتاج من دسمه ومرقته التي طبخ فيها.. ويفقص عليه من البيض قدر الكفاية.. ويضاف إليه من الفلفل والكزبرة اليابسة والسنبل.. وينثر عليه لوز مقشر مقسوم.. ويصبغ بالزعفران صبغاً يرخى ويضرب حتى يختلط.. ويصب عليه زيت كثير، ويدفن فيه من محاح البيض ما أمكن.. ويدخل في الفرن ويترك فيه حتى يجف مرقه ويحمر أعلاه ويخرج(٥٠)».

٤ ـ الحوت المروج: اشتهر بعمل هذا اللون من الطعام أهل بلاد غربي الأندلس وأهل مدينة سبتة.. أما طريقة تحضيره فهي أن «يؤخذ من أي نوع كان الحوت، يقطع ويقشر ويصلق في الماء والملح صلقة خفيفة ويترك حتى يجف من مائه.. ثم يؤخذ طاجن ويرفع على نار معتدلة، ويصب فيه من الزيت قدر ما يغمر الحوت.. ويغطيه ويغلق عليه.. فإذا غلى الزيت جعل فيه قطع الحوت المصلوق المذكور.. ويترك يغلي فيه حتى يحمر.. ثم

(٤٩) كتاب الطبيخ ص ٢٦
(٥٠) نفس المصدر ص ٤٩

يخرج من الزيت، ثم يترك بناحية.. ثم يؤخذ طاجن آخر ويجعل فيه من الخل جزءان.. ومن المري النقيع أقل من جزء.. وفلفل وكمون وثوم قليل ويسير صعتر وقرفة، ويغمر بالزيت العذب ويرفع على نار لينة، فإذا غلى حينئذ، يؤخذ قطع الحوت ويجعل فيه المقلوة في الزيت شيئاً بعد شيء ويترك قليلاً وتقلب وتترك تجف ولا يبقى إلا الزيت وينزل عن النار ويترك حتى يفتر من حرارته(٥١)».

٥ ـ طعام المجبنة: والمجبنة لا تتهيأ من جبن واحد، بل من الجبنين أعني البقري والغنمي، لأنها إن عملت بجبن الغنم وحده تتفتق، فيخرج الجبن منها ويسيل، وإن عملت بجبن البقر تتشرك وتستدير وصارت لحمة واحدة ولم تفترق أجزاؤه، والأصل في صنعتها أن يمزج الجبنين معاً، فيكون من البقري قدر الربع في ثلاثة أرباع من جبن الغنم ويحرك الجميع حتى في الأصل ويلتئم بعض أجزائه ببعض فيعتدل بذلك ويتماسك، ولا يسيل في المقلاة ولا يشتد أيضاً وينعقد وإن احتاج إلى ترطيب رطب باللبن الحليب، في حين حلبه، ولا يكون الجبن طرياً جداً بل شديداً دون في الأصل قد ذهبت مائثيه، كذا يصنعه أهل بلادنا بغرب الأندلس مثل قرطبة وإشبيلية وشريش وغيرها من بلاد المغرب(٥٢).

٦ ـ طعام الرفيس: إن من شروط الرفيس بأنواعها أن يكون عجينة من السميذ الصافي بالخمير المعتدل، وأن يكون ملحه قليلاً جداً حتى لا يظهر فيه شيء من طعم الملح، ويكون زبده مغلياً مصفى وعسله منزوع الرغوة، وإن كان بالزيت فيكون زيته مسخناً حتى لا يبقى فيه شيء من طعم الزيت السيء، ويخبزه في التنور ليكون خبزه رطباً مفتوح المسام وداخله منفوشاً، فإذا رفس كان رفيسه رخواً متخلخلاً، ويرفس بالدسم فيكون ألذ وأعذب وأسرع

---

(٥١) نفس المصدر ص ١٧٦

(٥٢) نفس المصدر ص ١٩٩

انهضاماً، وان عمل الرفيس من الفطير كان خبزه عجيناً ورفيسه ملزراً مكتنزاً لا يداخله دسم مثل رفيس البربر أو رفيس السوق ولا يصلح إلا لأهل الكد والتعب أو لعلف الدجاج(٥٣)».

٧ ـ عجل مشوي: كان يصنع عادة للسيد أبي العلاء في سبته حين كان والياً عليها(٥٤) «يؤخذ كبش سمين مسلوخ، منظف يفتح بين فخذيه فتحاً ضيقاً ويخرج ما في جوفه من أحشائه برفق، ثم يدخل في جوفه أوزة مشوية، وفي جوف الأوزة دجاجة مشوية وفي جوف الدجاجة فرخ حمام مشوي، وفي جوف الفرخ زرزور مشوي، وفي جوفه عصفور مشوي أو مقلو، كل ذلك مشوية مدهونة بالمرقة الموصوفة للشواء، ويخاط ذلك الفتح ويدخل الكبش في التنور المحمى ويترك حتى ينضج ويحمر ويطلى بتلك المرقة، ثم يدخل في جوف عجل قد أعد منظف ويخاط عليه ويجعل في تنور محمى ويترك فيه حتى ينضج ويحمر ثم يخرج ويقدم(٥٥)».

٨ ـ طعام الثومية، كان يصنع عادة للسيد أبي الحسن(٥٦) فيستحسنه «يؤخذ دجاجة سمينة ويخرج ما في جوفها وينظف ويترك، ثم يؤخذ أربع أواقي من الثوم المقشور ويدق حتى يصير كالدماغ ويخلط ما أخرج من جوف الدجاجة ويقلى فيما يغمره من الزيت حتى يذهب رائحة الثوم، ويجمع ذلك مع الدجاجة في قدر نظيفة بملح وفلفل وقرفة وسنبل وزنجبيل وقرنفل وزعفران، ومن اللوز المقشر مدقوق وغير مدقوق، وشيء يسير من المري النقيع، ويطبق القدر بالعجين ويدخل الفرن ويترك حتى ينضج، ثم يخرج ويفتح القدر ويصب في صحفة نظيفة فتنم منه رائحة طيبة تعم الموضع(٥٧)».

(٥٣) نفس المصدر ص ٢٠٤

(٥٤) هو أخو الخليفة أبي يعقوب يوسف بن الخليفة عبد المؤمن، ولي حيناً قيادة الأساطيل الموحدية (انظر مقدمة كتاب الطبيخ ص ١٩).

(٥٥) نفس المصدر ص ٣٢ ـ ٣٣.

(٥٦) سبق التعريف به وانظر ابن سعيد: الغصون اليانعة ص ١٥٠ ـ ١٥١

(٥٧) كتاب الطبيخ ص ٤٦

٩ ـ «صنعة مجبنة بالبيض، يفقص البيض على العجين ويعرك به عوضاً من الماء حتى ينحل... ثم يحرك العجين المذكور ويفقص عليه أيضاً من البيض قدر ما يحتمل، ويحرك بشيء من أنيسون ونافع ويعدل في قصعة ثم تبل اليد بالماء ويؤخذ ويحشى به العجين ويصنع مجبنة كما ذكر أولاً وتقلى على ما تقدم فتأتي عجينة لذيذة الطعم، هذه كانت تصنع لأبي سعيد بن جامع(٥٨) وأصحابه، فكان يستحسنه، وهي من استنباط موسى بن الحاج يعيش المحتسب بمراكش(٥٩)».

١٠ ـ «صنعة المجبنة الفرنية وتسمى عندنا بالطليطلة، يعجن عجين مثل عجين المسمنة، ويورق منه قرصه، ثم يمد ويجعل في وسطها من الجبن المعروك قدر الكفاية، وتطوى أطراف القرصة وتضم على الجبن من كل جهة ويترك وهي موضع صغير على قدر الدينار يظهر الجبن منه ويذر عليه شيء من الأنيسون، ثم تدخل الفرن على لوح وتترك حتى تنضج وتخرج.. ويستعمل كيف شئت(٦٠)».

١١ ـ «صنعة الفيجاطة: تصنع بالأندلس وتسمى سبع بطون، يؤخذ من الجبن الرطب الطري ويدعك باليد، ثم يؤخذ طاجن من حنتم يكون عميقاً مجوفاً ويجعل في قعره رغيف من الرقاق المصنوعة مثل الكنافة ويجعل على الرقاقة من ذلك الجبن ورغيف، وهكذا حتى يبقى من الطاجن قدر ربعه أو ثلثه، ويصب عليه من الزيت العذب ويدخل الفرن ويترك قليلاً، ثم يخرج ويسقى باللبن الحليب، ويرد للفرن قليلاً أيضاً، ويخرج ويسقى باللبن

(٥٨) هو أبو سعيد عثمان بن عبدالله بن إبراهيم بن جامع سليل أسرة تولت الوزارة كثيراً للخلفاء الموحدين.. كان أبو سعيد المذكور وزيراً للخليفة المستنصر بالله أبي عبدالله، ثم تولى الوزارة أيضاً للخليفة أبي يعقوب (انظر المراكشي: المعجب ص ٣١٠ ـ ٣١١، الحميري: الروض المعطار ص ٦٧).

(٥٩) كتاب الطبيخ ص ٢٠٠

(٦٠) نفس المصدر ص ٢٠١

الحليب ويرد للفرن وهكذا حتى يقشع الحليب والدسم منه ويترك حتى يحمر وجهه ويصير مسكياً، ثم يخرج ويصب عليه من العسل المنزوع الرغوة أو من شراب الورد. ومن الناس من يذر عليه من السكر المسحوق والافاوية، ومنهم من يتركه كذلك[٦١]».

١٢ ـ «صنعة تارفست: وهي من أطعمة أهل فاس، يعجن من الدرمك أو السميذ ويصنع رغف رقاق وتخبز في التنور أو في الفرن المعتدل ثم يؤخذ من العسل المنزوع الرغوة ويحل بمثله من الماء العذب ويلقى فيه من الزعفران قدر ما يصبغ الفتات صبغاً يرخى.. ثم يطرح فيه ذلك الفتات ويحرك حتى يصير مجسداً مثل المعجون ويدام تحريكه فاذا اشتد فرغ في جفنه بعد أن ينثر لوز مقسوم كثير، وحرك حتى يختلط وصنع في وسطه حفرة تملأ بسمن فواح أو زبد طري ويذر عليه سكر وقرفة وسنبل وقرنفل وفانيد صحيح وتقدم[٦٢]».

١٣ ـ «السنبوسك: كان يصنع بمراكش بدار أمير المؤمنين أبي يوسف المنصور رحمه الله، يؤخذ من السكر الأبيض فيحل ويحلب بماء الورد، ثم يجعل عليه اللوز المدقوق كالعجين، ويحرك برفق حتى يلتف ويصير مثل حشو القاهرية، ثم ينزل عن النار، فاذا فترت حرارته جعل فيه سنبل وقرنفل ويسير زنجبيل وشيء يسير من المصطكي بعد ما تحل هذه العقاقير مسحوقة بماء الورد، قد حل فيه شيء من كافور ومسك ولوز مقسوم، ويضع الجميع ويعرك حتى يتداخل بعضه ببعض ويصنع منه قرص على قدر الكعك وعلى شكل النارنج وشبه التفاح والأجاص ويتنقل بها فهي لذيذة، هذا يسمى السنبوسك بالمشرق وهو سنبوسك الملوك[٦٣]».

١٤ ـ «صنعة المعاصم.. هذه كانت تسمى بمراكش معاصم الأولاد..

(٦١) نفس المصدر ص ٢٠٢
(٦٢) نفس المصدر ص ٢٠٧
(٦٣) نفس المصدر ص ٢١٣

يدق اللوز المقشور مع السكر الأبيض، ولا يبالغ في دقهما بل تترك جريشاً . . ثم يعرك بالكف ويصنع منه شبه معصم يكون مستديراً أو يكون فيه عرض على هيئة المعصم . . ثم يمدد رغيف من الفانيد الرطب قبل أن يجف، ويجعل المعصم في وسط الرغيف ويلوى عليه ويسوى من كل جهة حتى يلتصق ويترك بجهة . . ثم يجعل من غبار الدرمك في طاجن على نار لينة ضعيفة . . فإذا سخن الدرمك جعل فيه من المعصم ونديره حتى يلتصق به الدرمك، ويعلو عليه ويسوى من كل جهة ويرفع، فيشغل به الأطفال(٦٤)».

كما ذكر صاحب كتاب الطبيخ أيضاً طريقة إضافة الملح والفلفل إلى الطعام . . فكان البربرة عادة يذرون الفلفل المسحوق على الطعام في القطعة وقت الأكل . . بينما كان أهل الأندلس عادة يضعون الفلفل المسحوق في القدر مع الطعام قبل الطهي . . ثم بعد نضج الطعام يذرون عليه عند الأكل القرفة والسنبل، وذلك في أطعمة خاصة وليس في كل لون(٦٥).

وذكر أيضاً صاحب كتاب الطبيخ عادة تقديم الطعام على السفرة، فقال(٦٦): «أول ما يبدأ تقديم المؤتة مثل البقلية المكررة والتفايا بأنواعها . . ومن بعدها من الألوان الجملى ثم المثلث ثم لون المري ثم المخلل ثم المعسل ثم الفرضون ثم المعسل ثانية، فهذا ذكر الألوان السبعة وترتيب أكلها . . وقد كان كثير من أكابر الناس وأتباعهم رسموا أن يوضع على كل مائدة بين يدي الرجال ألوان مفردة، لون بعد لون آخر مرتبة. وهو لعمري أحسن من أن يجعل أغضرة كثير كلها على مائدة، وأجمل وأكثر تأدباً وأطراف. وهي طريقة أهل الأندلس والمغرب رؤسائهم وخواصهم، وذوي الفضل من أهلها من أيام عمر بن عبد العزيز وبني أمية إلى هلم».

(٦٤) كتاب الطبيخ ص ٢٢٥
(٦٥) نفس المصدر ص ٨٠ ـ ٨١
(٦٦) نفس المصدر ص ٨٥

شراب الرب:

كان الموحدون المصامدة يتناولون شراب الرب حتى يبعث الحرارة في أجسامهم، فيتحملون شدة برد جبال درن. فالرب هو الطبيخ الخائر من عصير العنب. نظم ابو عثمان بن الشيخ أبي جعفر بن ليون التجيبي أبياتاً شعرية في كيفية عمل الرب فقال:

الرب طبخ صفو ماء العنب بعد قعود ثقلة المجتنب
للثلث في الطيب، أو للربع في العنب الرديء ذا الباني رع
واطبخه مع ماء يزاد وتزال رغوته مدة طبخه اتصال[٦٧]

وقد انتشر شراب الرب في كافة أنحاء المغرب والأندلس.. لكن يبدو أن الناس قد أسرفوا في تخميره حتى أصبح مفعوله كمفعول الخمر.. ففي سنة ٥٤٣ هـ/١١٤٨ م أصدر الخليفة عبد المؤمن رسالة إلى الطلبة والكافة والأعيان والأشياخ بالأندلس، يأمرهم فيها بالكشف عن مواضع صناعة الخمر ومكافحة أماكن بيع الرب وعصره.. فقد جاء في الرسالة «الله الله في البحث عن الخمور، وتقديم النظر في أمرها.. فهو من أهم الأمور فإنها مفتاح الشرور، ورأس الكبائر والفجور.. وهي رابطة أهل الجرم وجامعة أشتات الظلم. قال النبي صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم: «الخمر جماع الإثم».. فجدوا في طلبها في المواطن المهتمة بشأنها، واجتهدوا في إراقتها وكسر دنانها.. واعمدوا إلى السبب الذي يؤدي إلى التمكن منها، فارعوه والحظوه واطرحوا الإغفال لذلك والفظوه. وقدموا أمناء متخيريه للتطوق على مواضع الترتيب، يكون بالمحافظة على ذلك محل المكالىء الرقيب، ولا يمكن منهم إلا من يفرق بين الحلال والحرام، ويميز ويعرف ما يجوز شربه وما لا يجوز، ومروهم بالتعهد لمواضع بيع الرب واعتصاره، وخذوهم بتوقف جدهم على ذلك واقتصاره، فما حل منه أباحوه، وما كان غير ذلك قطعوه أصلاً

(٦٧) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة حاشية ص ١٧٤ ـ ١٧٥

وفرعاً وأراقوه. الحلال بين والحرام بين.. ولقضايا الشرع نظام.. قال رسول الله صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم: «مما أسكر كثيره فالجرعة منه حرام (٦٨)».

ويبدو أن الناس قد استمروا أو عادوا إلى تناول شراب الرب المسكر.. ففي سنة ٥٥٦ هـ/١١٦١ م أصدر الخليفة عبد المؤمن رسالة أخرى إلى ولاته أمرهم فيها: «بالنظر في الرب وتمييزها، والهجوم على بائعيها، ومدمني شربها ومستعمليها.. فيراق مسكرها ويقطع منكرها، وليعمد إلى من عمل المسكر الحرام عامداً، وشربه مدمناً عليه ومعاهداً، ولم تردعه الحدود، فيمحى أثره ويحذف خبره(٦٩)».

ولم يكن تناول شراب الرب المسكر مقصوراً على الناس وعامتهم.. بل اتهم الوزير عبد السلام أولاد الخليفة عبد المؤمن بتناوله، وأخبر الخليفة عبد المؤمن بذلك. «فتأثر الخليفة لقوله وبحث عليهم وبعث شيوخ الموحدين الثقاة إليهم ودخلوا موضعهم ومجتمعهم عليهم دون إذن ولا مشورة.. فوجدوهم يأكلون طعاماً وبين يدهم مشروب مطبوخ من الرب الحلال الذي لا مرية فيه ولا ريبة.. فرجعوا إلى أمير المؤمنين وشهدوا عندة بالحال، وزوروا عنده كلام كل مطالب وحيلة كل محتال.. فتيقن أمير المؤمنين رضي الله عنه مطالبته لهم(٧٠)».

وكان محمد ابن الخليفة عبد المؤمن ولياً للعهد، ثم أدمن على تناول الخمر، فلم تتم لذلك بيعته بالخلافة. يقول في ذلك المراكشي(٧١) خلال حديثه عن الخليفة عبد المؤمن: «وكان قد عهد في حياته إلى أكبر أولاده محمد، وبايعه الناس، وكتب بيعته إلى البلاد. فأبى تمام هذا الأمر لمحمد هذا

(٦٨) ابن القطان: نظم الجمان: ص ١٦١

(٦٩) حسن علي: الحياة الإدارية والإقتصادية والإجتماعية في المغرب الأقصى ص ٤٩٤

(٧٠) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص ١٧٤ ـ ١٧٥

(٧١) المعجب ص ٢٣٦

ما كان عليه من أمور لا تصلح معها الخلافة، من إدمان شرب الخمر واختلال الرأي، وكثرة الطيش، وجبن النفس».

ويؤيد قول المراكشي ما جاء عند ابن صاحب الصلاة المؤرخ المعاصر.. فقد ذكر أن الخليفة عبد المؤمن خلع ابنه محمداً من ولاية العهد لتناوله «الخمر المحرمة وظهور السكر عليه.. وذلك أنه تقيأها على ثيابه واطنابه وسرجه، وهو راكب على فرسه في المحلة على مرأى من عظماء الموحدين، وأشياخهم والعالم من المؤمنين الزائرين.. فصح عند الخليفة أبيه فكره، وتخليطه وسكره، فاسقط هو بفعله من الأمر نفسه، وكسف بالنهار شمسه(٧٢)».

وقد استمر الموحدون يتناولون شراب الرب الحلال ممزوجاً بالماء.. فكانوا يقدمونه للناس والوافدين عليهم في المناسبات الخاصة والاحتفالات الرسمية.. ففي سنة ٥٦٦ هـ/١١٧١ م، استجاب عرب افريقيا للخليفة أبي يعقوب يوسف، وساروا إليه في مراكش. فأحسن الخليفة استقبالهم واحتفل بقدومهم.. ثم «أطعم العرب والناس الوافدين وغيرهم مدة خمسة عشر يوماً، يدخل كل يوم في البحيرة أزيد من ثلاثة آلاف رجل، وقد صنع ما تقدمت العادة به.. نهر من رب ممزوج بالماء، كلما أكلت طائفة وقامت مشت إلى موضع الخليفة رضي الله عنه، وسلمت عليه ودعا لها.. نهضت إلى ساقية الرب تشرب وتطرب(٧٣)».

هذا وقد تحايل الناس في صنع شراب الرب، فجعلوه مسكراً بطريقة او بأخرى. لذلك رأى الخليفة يعقوب المنصور أن يفوت على الناس ذلك، فأمر بقطع صنع الرب نهائياً من جميع أنحاء الدولة، وتحريم تناوله بمختلف اشكاله.. ثم أصدر رسالة إلى ولاته في سنة ٥٨٠ هـ/١١٨٤ م، جاء فيها:

(٧٢) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص ٢١٦ ـ ٢١٧

(٧٣) ابن صاحب الصلاة: نفس المصدر ص ٤٣٣ ـ ابن عذارى: البيان المغرب ق ٣ ص ٩١

«إن الناس تجوزوا في أمر الرب واغفلوا فيه الاجتهاد ورفعوا حول حماه... ولم يزل الاشتداد في هذا الأمر القائم بالحق يتناولهم بأبلغ الزجر والقمع والاحتساب... والحال الذميمة يزداد بهم تماديها، والذي أطلقه هذا الأمر العزيز منه، وأجاز فيه مباح البيع والشراء، ما أنهى طبخه غاية الإنهاء، وصير جرمه في قوام الطلاء... ولما تقرر عندنا من الالتباس في ذلك ما تقرر، رأينا والله المستعان أن قطعه بالكلية أخلق بالإحتياط لدينهم وأجدر... فاذا وافاكم كتابنا هذا بحول الله عز وجل، فاقطعوه جملة وتفصيلاً، ولا توجد أحد إلى بيعه سبيلاً، واشتدوا في ذلك اشتداداً، وعاقبوا من تجدونه عنده أشد عقوبة(٧٤)».

وقد جاء مثل ذلك التحريم أيضاً عند ابن عذارى، فيقول(٧٥) إن الخليفة يعقوب المنصور «لما بلغه التساوي في الانهماك والاغترار.. وسمع المجاهرة بالاستهتار والتنافس في الشهوات... تنكر وغضب في الله لذلك المنكر، وأضرب عن القيل والقال، وجعل الإنذار والإعذار مكان السيف الصقيل.. فأمر بإراقة المسكرات وقطعها، والتحذير بعقاب الموت على استعمالها، وأنفذ المخاطبات بذلك إلى كافة ولاته بالأمصار، فأريق منها بالبلاد ما يساوي أموالاً جمة».

هذا وتذكر الرواية أن الخليفة الناصر عاد إلى مراكش بعد هزيمته في موقعة العقاب سنة ٦٠٩ هـ/١٢١٢ م، فدخل «قصره واحتجب فيه عن الناس وانغمس في لذاته مصطحباً ومغتبقاً(٧٦)». كما تذكر الرواية عن وفاته أن بعض وزرائه أغروا بعض جواريه بوضع السم له في قدح من الخمر فمات من حينه(٧٧).

---

(٧٤) حسن علي: الحياة الإدارية والإقتصادية والإجتماعية في المغرب الأقصى ص ٤٩٥

(٧٥) المصدر السابق ص ١٤٣ ـ ١٤٤

(٧٦) الناصري: الاستقصا ج ٢ ص ٢٠٠

(٧٧) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٦٠ ـ ابن عذارى: المصدر السابق ص ٢٤٣

ب ـ بين دولة الموحدين (المغرب والأندلس) والممالك النصرانية

ـ الجاليات الدينية:

لعبت الجاليات الدينية دوراً كبيراً في نقل بعض العادات الاجتماعية أثناء خضوعها لأحد الطرفين وخلال انتقالها إلى الطرف الآخر. وتتمثل هذه الجاليات الدينية في المعاهدين النصارى واليهود والمسلمين المدجنين... فالمعاهدون النصارى في المغرب والأندلس لم تنقطع هجرتهم إلى الممالك النصرانية. وقد حدثت أكبر هجرة لهم خلال قيام الفونسو المحارب بغزوته الكبرى على الأندلس في سنة ٥١٩ هـ/١١٢٥ م، فبلغ عدد المهاجرين معه بين عشرة آلاف وأربعة عشر ألف مهاجر(٧٨).. وكان الملك الفونسو يشجع النصارى على الانضمام لجيشه والهجرة معه، ويخاطبهم قائلاً: «أيها النصارى إنني حضرت إليكم ومن أجلكم حتى أخلصكم بعون الله من حكم المسلمين، وأعيدكم إلى حكم النصارى.. لذلك فإنني أناشدكم باسم الصليب أن تتركوا دياركم ومصالحكم، وتسيرون معي إلى بلادي، فسوف تحبونني لأنني سأرحب بكم في مملكتي(٧٩)».

وقد قام الملك الفونسو بغزوته هذه ـ التي استمرت نحو ثمانية عشر شهراً متواصلاً بناء على دعوة تلقاها من النصارى كي يساعدوه على احتلال

(٧٨) R. Altamira; a history of spain p. 159

(٧٩) J. F. O'callaghan: Ahistory of medieval spain pp. 221, 285

غرناطة. . لذلك أشار القاضي ابن رشد على أمير المسلمين علي بن يوسف بتغريب النصارى من الأندلس عقاباً لهم على خيانتهم العهد، فأخذ الامير علي بهذا الرأي وغرب النصارى من الأندلس إلى بلاد المغرب. ثم دخل معظمهم في خدمة المرابطين كجند وحرس وجباة ضرائب، واستمروا على حالهم هذه في بلاد المغرب إلى أن خيرّ الموحدون أهل الذمة عامة بين مغادرة البلاد أو اعتناق الإسلام، مما أدى إلى هجرة الكثير منهم إلى الأندلس ومنهم إلى الممالك النصرانية. فاستوطنوا الأراضي الممتدة على طول وادي التاجة من أحواز طليطلة، كذلك سار في نفس الوقت بعض اليهود وسكنوا في الممالك النصرانية(٨٠).

بينما فضل بعض اليهود اعتناق الإسلام والبقاء في بلاد المغرب على الهجرة منها، لذلك لم يعد في بلاد المغرب أهل ذمة خلال معظم عمر الموحدين إلى أيام المراكشي الذي يقول(٨١): «ولم تنعقد عندنا ذمة ليهودي ولا نصراني منذ قام أمر المصامدة، ولا في جميع بلاد المسلمين بالمغرب بيعة ولا كنيسة إنما اليهود عندنا يظهرون الإسلام ويصلون في المساجد ويقرئون أولادهم القرآن، جارين على ملتنا وسنتنا، والله أعلم بما تكن صدورهم وتحويه بيوتهم».

وكان المسلمون المدجنون أحد عناصر سكان الممالك الإسبانية النصرانية. . وذلك أن المسلمين خلال العصور الأولى من القتال مع النصارى، كانوا يتركون بلادهم إذا سقطت بأيدي النصارى، ويسيرون جنوباً فيقيمون إلى جانب إخوانهم المسلمين. . ثم تغير الحال في العصور التالية من الحروب مع النصارى، فغدا بعض المسلمين يفضلون البقاء في ديارهم على الهجرة منها، حتى ولو سقطت البلاد بأيدي النصارى،

---

(٨٠) opcit: pp. 221, 285 - 286

(٨١) المعجب ص ٣٠٥

ويصبحون بذلك من رعية الملوك النصارى.

ولم تظهر هذه الحالة الجديدة خلال عصر الموحدين فقط، بل ظهرت قبل ذلك بكثير وربما ظهرت لأول مرة بصورة واضحة إثر سقوط طليطلة بأيدي ملك قشتالة الفونسو السادس في ١٠ محرم سنة ٤٧٨ هـ/٦ مايو سنة ١٠٨٥م. فقد ترتب على سقوط طليطلة سقوط توابعها من البلاد مثل طلبيرة وماقدة والفهمين ومجريط وطلمنكة ووادي الحجارة وكركي وموره واقليش والمدور واليط ومدينة سالم وأبلة وشقوبية وقورية وأوسما وغيرها من البلاد، حتى بلغ عدد المنابر التي سقطت مع طليطلة ثمانين منبراً، ورد ذكرها في مدونة بلاي وكتاب الإكتفاء لابن الكردبوس.. ولم يهاجر المسلمون من هذه البلاد، وبذلك أصبحوا من تابعي ملك قشتالة ويعيشون تحت حكمه(٨٢).

كما سبق أن رأينا في باب العلاقات السياسية أن كثيراً من القواعد سقطت بأيدي النصارى خلال عصر الموحدين، وأن معظم المسلمين من أهلها بقوا فيها وأصبحوا من رعايا الملوك النصارى.. مثال ذلك مدينة طرطوشة وطرسونة وطركونة وأشبونة وشنترين والمرية وقلعة رياح وشلب وقصر أبي دانس وقونقة.. لكن الموحدين تمكنوا من استرداد بعض هذه المدن بعد أن بقيت مدة طويلة بأيدي النصارى.. مثال ذلك قلعة رياح التي استردها الموحدون بعد أن بقيت نحو خمسين سنة بأيدي النصارى.. كذلك مدينة المرية التي استردها الموحدون بعد عشر سنوات من تاريخ سقوطها بأيدي النصارى. ويقال مثل ذلك أيضاً عن مدينة شلب وقصر أبي دانس وباجة.

ثم شهد الربع الثاني من القرن السابع الهجري: الثالث عشر الميلادي سقوط معظم قواعد الأندلس بأيدي النصارى، حتى لم يبق بأيدي المسلمين

(٨٢) حسين مؤنس في تحقيقه لكتاب أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب النصارى على وطنه ولم يهاجر ما يترتب عليه من العقوبات والزواجر.. مجلة مدريد للدراسات الإسلامية عدد ٥ ١٩٥٧م ص ١٣٨ حاشية رقم١

سوى غرناطة وتوابعها.. وقد صحب سقوط البلاد هجرة كثير من المسلمين إلى غرناطة وبلاد المغرب، مما أدى إلى خلو البلاد من السكان، لذلك أخذ النصارى يزحفون جنوباً بعشرات الآلاف بحثاً عن فرصة أفضل، واستوطنوا البلاد التي أخلاها المسلمون.. ومما دفع النصارى على القيام بهذا الزحف هو أن عدد سكان اسبانيا تزايد خلال سنتي ١١٣٠م و ١٣٤٠م، لأن هذه الفترة شهدت ازدهاراً اقتصادياً ونمواً سكانياً في جميع أنحاء أوروبا ومنها اسبانيا، حتى أن عدد سكان مملكة قشتالة بلغ خلال منتصف القرن ٧ هـ/١٣م نحو أربعة أو خمسة ملايين نسمة، كان فيهم ثلاثمائة ألف مسلم ويهودي(٨٣).

كذلك تضاعف عدد سكان قطالونيا في نفس الفترة حتى بلغ ما لا يقل عن نصف مليون نسمة، علاوة على أعداد النصارى الذين هاجروا منها إلى بلنسية وميورقة وصقلية. كما بلغ عدد سكان أرغونة في نفس الفترة ما لا يقل عن مليون نسمة.. وكان في بلنسية وحدها ثلاثمائة ألف نصراني ومائتا ألف مسلم، وفي بقية أنحاء أرغونة مائتا ألف مسلم.. مما جعل البعض يقول أن نصف مملكة أرغونة من المسلمين.. كما أن عدد المساجد فيها أثار غضب أسقف طركونة لأنه لا يقل عن عدد الكنائس وبالإضافة إلى ذلك هناك عدد آخر من المسلمين في أنحاء متفرقة من البلاد.. أما في مملكة البرتغال فقد تركز المسلمون في ولاية الغرب(٨٤).

تمتع المدجنون أول الأمر ببعض الامتيازات في ظل الملوك النصارى لذلك نعموا فترة بالطمأنينة والرخاء والأمن.. فقد سمح لهم في الإحتفاظ بديانتهم ومدارسهم، وممارسة شعائرهم الدينية وأسلوب حياتهم.. كما كان لهم قضاة مسلمون يفصلون في سائر المنازعات التي تقع بينهم وفقاً للشريعة

---

(٨٣) J. F. O'callaghan: ahistory of medieval spain pp. 459 - 460

(٨٤) J. F. O'callaghan: opcit pp. 461 - 462

الإسلامية.. أما المنازعات التي تقع بين مسلم ونصراني، فكان يفصل فيها أحد القضاة النصارى أو قضاة من الطرفين.. وبالإضافة إلى ذلك فإن المدجنين لم يدفعوا للملوك النصارى سوى نفس الضرائب التي كانوا يدفعونها خلال حكم المسلمين.. ثم أنهم احتفظوا بأملاكهم وأراضيهم مدة يسيرة وتمتعوا اثناءها بحق التصرف سواء بالبيع أو الشراء(٨٥).

وقد تمتع بهذه الحرية كافة المدجنين، سواء الذين كان يعيشون في المدن أو القرى.. كما كان لهم هيئة أو جمعية في المدن الكبرى تتولى تصريف شؤونهم والعناية بمصالحهم.. وهي تتألف من أعيانهم الذين عرفوا باسم الجماعة، وعرف رئيسهم باسم الشيخ أو صاحب الجماعة.. ولكن رغم الحرية التي تمتع بها المدجنون، فقد أخذ النصارى بعض مساجدهم وحولوها إلى كنائس.. ونص أحد بنود لائحة القوانين القشتالية أن على النصارى واجب إقناع المدجنين باعتناق النصرانية دون استخدام القوة أو الضغط. كما إنه لم يكن يسمح لنصراني باعتناق الإسلام، وإن أسلم أحد النصارى يحرم من حقوقه ويقتل، وهذا يدل على أنه كان هناك جدل ديني(٨٦).

ثم كانت الكنيسة تبغض المدجنين لوجودهم في قلب المجتمع النصراني، وتنقم عليهم هذه الدعة وتسامح الملوك النصارى معهم، «وترى في احتفاظهم بدينهم ولغتهم نوعاً من التحدي المذموم، وتأخذ على ملوك قشتالة وأرغونة تسامحهم في معاملتهم، وتسعى جاهدة لتحريضهم على اتباع سياسة الانتقام والعنف آزاء أولئك الرعايا المسلمين... ومنذ أوائل القرن الثالث عشر تتوالى أوامر البابوية وقراراتها ضد المدجنين، والحض على استرقاقهم أو تنصيرهم. ومن ذلك ما أمر به البابا أنوسان الرابع في سنة

---

(٨٥) Ch h. lea: A history of the inquisition in spain V.I pp 62 - 63 - R. Altamira: A history of spain p. 145

(٨٦) J. F. O'callaghan: ahistory of medieval spain pp. 462 - 463

١٢٤٨ م ملك أرغونة خايمي الأول من وجوب استرقاق المسلمين في الجزائر الشرقية، ولكن خايمي لم يأبه لذلك الأمر.. ولما فتح ثغر بلنسية في سنة ٦٣٦ هـ/١٢٣٨ م سمح للمسلمين أن يبقوا فيها كمدجنين.. وكان ملوك قشتالة وأرغونة يعارضون هذه السياسة العنيفة لبواعث وأسباب تتعلق بمصالحهم القومية ورخاء بلادهم[٨٧].

ولكن رغبة رجال الدين قد تغلبت بعد فترة على سياسة الملوك النصارى. فقد جاء في بعض الوثائق النصرانية أن كثيراً من المدجنين قد لحقهم الاسترقاق، فعملوا كعبيد في فلاحة الأرض وكخدم في بيوت النبلاء والقساوسة وفي الأديرة وفي الفرق العسكرية الدينية.. كما صدر عن المجالس الكنسية التي عقدت في سنة ٦٥٠ هـ/١٢٥٢ م عدة قرارات ضد المدجنين، فحرمت عليهم ارتداء ملابس ذات لون أبيض أو أخضر، أو استخدام حذاء أبيض، وحرمت عليهم إطالة شعر الرأس حتى لا يتدلى على الجبهة، بينما حرمت عليهم قص اللحى حتى تطول، كما حرمت عليهم العيش في بيوت نصرانية أو استخدام نصراني في خدمتهم أو شراء أراضي نصرانية إلا بعد استئذان الكنيسة ودفع الضريبة المقررة عليها.. ثم إنها أباحت قتل المدجن إذا اعتدى على امرأة نصرانية وأباحت لأهل المرأة النصرانية بعقابها أو حرقها إذا تزوجت من أحد المدجنين[٨٨].

أما اليهود فكانوا ينتشرون بكثرة في مدن مملكة قشتالة وفي مدن مملكة أرغونة ولكنهم لم ينتشروا في مملكة البرتغال إلا بأعداد قليلة.. ومع ذلك فقد قدر البعض عددهم في أواخر القرن ٧ هـ/١٣ م بحوالي مليون نسمة في جميع أنحاء إسبانيا بينما قدرهم البعض الآخر دون هذا العدد بكثير.. وبالنسبة لأحوالهم فإنهم كانوا يعيشون في المدن ويحكمون أنفسهم بأنفسهم وفق

---

(٨٧) محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع ٤ ص ٦٢

(٨٨) J. F. O'callaghan: ahistory of medieval spain p. 463

شريعتهم.. كما كان لهم مجلس يضم كبارهم وحكماءهم لتصريف شؤونهم والعناية بمصالحهم.. ورغم ذلك فإن الملوك النصارى فرضوا عليهم ارتداء ملابس خاصة بهم، ومنعوهم من استخدام النصارى كخدم.. كما أصدرت بعض المجالس الكنسية عدة قرارات ضدهم فحرمت عليهم أن يأكلوا أو يناموا مع النصارى، يتزوجوا نصرانية أو يخضعوا نصرانياً لهم، وأن يلبسوا ملابس خشنة.. ومع ذلك استخدمهم الملوك النصارى كسفراء وجامعي ضرائب وأطباء ومستشارين(٨٩).

ـ العادات الاجتماعية:

ومما هو جدير بالذكر أن بعض العادات الاجتماعية للمسلمين قد أخذها النصارى عن المدجنين.. ففي ذلك يقول أحمد لطفي عبد البديع(٩٠) «لكن السجل الحي للنساء المدجنات وصلتهن بالمجتمع الإسباني هو ما نراه في الاثبرست دي هيتا.. فقد رسم إطاراً أخاذاً صور فيه روح القوم حين يغنون وحين يرقصون.. ولم يفته أن يتحدث عن المرأة الكريمة التي تغض طرفها عن الخنا وتتزين بالحياء ولا تنطق إلا العربية... ومن مظاهر تأثيرهم في المجتمع أن نبلاء قشتالة وأعيانها كانوا يتزينون بأزيائهم، ويمارسون رياضتهم كالمبارزة بالسيف واللعب بالعصا، ويتخذون الطعام والشراب الشائع عندهم».

وأخذت النصرانيات عن المسلمات لبس الحجاب، فصار النساء يغطين وجوههن ولا يبدين زينتهن، وأصبح يحرم على نساء الموريسكيين أن يسرن سافرات في الطرق العامة. كما أن عادة الجلوس على الأرض من بقايا التأثير العربي.. فقد كن يتخذن المنصة التي لا تكاد ترتفع عن الأرض إلا قليلاً

(٨٩) J. F. O'callaghan: opcit pp. 283 - 284, 464 - 465

(٩٠) الإسلام في إسبانيا ص ١٧٠ ـ ١٧١

يغطيها بساط وتسندها مساند. . وكان سير فنتس يعلم أن هذه الجلسة مما أخذه الإسبان عن المسلمين، فصرح بذلك في قصة دون كيخوتة التي سجل فيها عادات عصره وتقاليده(٩١).

وقد ظلت الحياة الاجتماعية في إسبانيا متأثرة تأثراً جوهرياً بالحياة الاجتماعية الإسلامية، واستمرت الريفيات محجبات طوال عدة قرون وخاصة الأندلسيات منهن. فكانت تسليتهن الكبرى أن يطلن من نوافذ بيوتهن عبر ستار أو ضلفة، كي يشاهدن في الخارج حياة تختلف كل الاختلاف عن حياتهن المنزلية المطردة(٩٢).

كذلك أخذ النصارى عادة الاستحمام عن المسلمين. . يقول توريس بالباس(٩٣): «وقد تأصلت هذه العادة في إسبانيا الإسلامية، وأصبح للحمام نفس وظائف مثيله الشرقي. ولم تكن الحمامات قاصرة على المدن التي يحكمها المسلمون. . بل إنها تعدتها إلى المدن الأخرى، كما هو الحال في مدن كانفرانك واستيليا وشغونسة وبرغوش وثيوداد رودريجو والبادي تورميس وسورية وبلاسنثيا. . وهذه الأخيرة أسسّها الفونسو الثامن. . وكان الاستحمام عادة عند الجميع سواء أكان ملكاً أم فقيراً محتاجاً مسيحياً كان عربياً أم يهودياً، ولكل فريق أيام خاصة في الأسبوع. . . وقد نظمت راهبات الدير الأرغوني في سخينا استخدام حمامهن. . وكذلك كانت الراهبات البرناردتيات في لاس اويلجاس دي بورغوش وسان كليمنتي في طليطلة يمتلكن حمامات تتلقى هبات سخية».

ويقول أحمد لطفي عبد البديع(٩٤): «إن خريطة للقرى التي فيها

(٩١) المرجع نفسه ص ٩٤ ـ ٩٥

(٩٢) توريس بالباس: الأبنية الإسبانية الإسلامية: ترجمة علية إبراهيم العناني، مجلة مدريد للدراسات الإسلامية، العدد الأول سنة ١٩٥٣ م ص ١٢٥ ـ ١٢٦

(٩٣) نفس المرجع ص ١١٦ ـ ١١٧

(٩٤) الاسلام في اسبانيا ص ٩٢ ـ ٩٣

حمامات لتدل أقوى دلالة على المنطقة التي خضعت لتأثير إسلامي ظاهر.. فبعض قرى قشتالة التي لا تعرف اليوم الحمامات التي يجري فيها ماء ساخن، كانت تضم في القرن الثالث عشر حمامات عامة، ورد ذكرها في لوائح البلدية.. من ذلك قرية زوريتا Zorita ...... وبريهويجا Brihuegaفي وادي الحجارة وأوساجري Usagre في بطليوس. ومما نصت عليه هذه اللوائح أن على صاحب الحمام أن يقدم للداخلين فيه الماء الساخن والصابون والمناشف... بقيت هذه الحمامات إلى قريب من القرن السادس عشر يرتادها الرجال والنساء والأطفال، وقد خصص لكل طائفة منهم يوم من أيام الأسبوع حتى لا يقع الاختلاط المفضي إلى الفساد.. ثم أخذت تختفي تلك العادة بين المسيحيين».

كما أخذ النصارى عبارات التحية وآداب المجتمع الإسلامي.. فكان مما يدعو به المستعربون في القرن ٦ هـ/١٢ م قولهم: حرسك الله وحفظك.. ويذهب منندث بيدال إلى أن هذا الدعاء لم يكن قاصراً على المستعربين ومن في حكمهم فمن أقاموا في البيئة الإسلامية، بل تجاوزهم إلى غيرهم من الإسبان.. فالملك إذا نصب يدعى له به، والأندلسيون حين يحيي بعضهم بعضاً يرددون مثل هذا الدعاء فيما بينهم.. كما انتشر بين النصارى عادة تقبيل اليد، فالابن يقبل يد أبيه والصغير يقبل يد الكبير. كذلك أصبحت الرسائل الموجهة إلى الأب أو إلى من هو أكبر سناً تنتهي بجملة: أقبل أياديكم الطاهرة.. وقد لاحظ أميركو كاسترو أن إظهار الخضوع بتقبيل اليد لا علاقة له إطلاقاً بالإقطاع الأوروبي.. بل هو متأصل في تاريخ إسبانيا ومستمد من التقاليد العربية(٩٥).

ثم يجمل شاخت وبوزورث العادات الإسلامية التي أخذها النصارى عن المسلمين بقولهما(٩٦): «وقد اهتدى كاسترو نفسه.. إلى سلسلة كاملة من

(٩٥) المرجع نفسه ص ٩٦ - ٩٨

(٩٦) تراث الإسلام ق ١ ص ١٣٩ - ١٤٠

الظواهر المتعلقة بالحياة المادية والروحية، وبالعادات والدين، يظهر فيها تراث الإسلام بصورة واضحة: من الحمامات العامة التي كانت لا تزال منتشرة بصورة واسعة في إسبانيا المسيحية في القرن الثالث عشر.. ثم منعت لأسباب أخلاقية ودينية، إلى طقوس غسل الموتى، ومن حجاب النساء إلى عادة الجلوس على الأرض على البسط والوسائد.. ومن عبارات المجاملات والفروسية وإكرام الضيف.... وعادة تقبيل اليد إلى عادات الترحيب والتمنيات الطيبة التي تتضمن اسم الله.. ومن العبارات المستعملة في طلب الصدقة، وفي الإعتذار عن تلبية الطلب، إلى تفضيل اللباس المغربي وخصوصاً اللباس النسائي الذي كان يشاهد لدى أعلى الطبقات الاجتماعية.... وكل هذه العوامل هي قطع متعددة من لوحة فسيفساء يظهر فيها أن تعريب العادات الإسبانية قد صمد مدة طويلة بعد أُفول السيطرة الإسلامية وسقوطها».

- التأثر بالمطوعة:

إن تأثير الإسلام على الإنسان الإسباني في جانبه الجماعي يتجلى في ظهور الفرق الدينية العسكرية التي ذاع صيتها في السجلات التاريخية لحروب الاسترداد، باعتبارها قوة عسكرية محاربة.. مثال ذلك فرقة قلعة رياح وسنتياغو والقنطرة وغيرها من الفرق.. فقد نشأت هذه الفرق بتأثير من المسلمين المجاهدين والمطوعة الذين نذروا أنفسهم لجهاد أعداء الإسلام، واتخذوا أماكنهم في الرباط الإسلامي على الحدود(٩٧).

وقد نشأت هذه الفرق الدينية العسكرية في أحضان دينية وروحية وحربية، حتى أن المستشرقين الذين بحثوا أصل هذه الفرق ونشأتها، ذهبوا إلى أنه لا سبيل إلى التماس أشباه لها إلا في العالم الإسلامي، وفي المسلم

(٩٧) المرجع نفسه ص ١٤٠ ـ ١٤١

الذي التقت في كيانه عناصر المتصوف مع عناصر المحارب.. فلم يكن من قبيل الصدفة أن تولد هذه الفرق في بلاد تعد تخوماً وحدوداً للإسلام كفلسطين وإسبانيا.. ذلك أن طوائف المرابطين في الثغور الإسلامية قد جمعوا إلى الزهد في الدنيا وملذاتها والعكوف على العبادة، نزعة الجهاد في سبيل الله امتثالاً لقوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون(٩٨) ﴾.

يقول بعد ذلك أحمد لطفي عبد البديع(٩٩) «لا يمكن أن يتصور المرء من وجهة النظر المسيحية البحتة كون الشخص يجمع بين الرياضة الروحية والتعلق بالجهاد.. فالكنيسة لم تكن تنظر بعين الرضا إلى من يسلم نفسه لحياة الزهد ويحمل السيف في يده.. أما الإسلام فالجهاد فريضة فيه ﴿ كتب عليكم القتال وهو كره لكم، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون(١٠٠) ﴾.. فقد كان من السنن الإسلامية الحميدة أن يخرج الزهاد والعباد في طليعة الجيوش الإسلامية يتقربون إلى الله بذلك.. ومنهم من كان يدعو الله وهو بالكعبة أن يرزقه الشهادة ليفوز بنعيم الآخرة... فظهور الفرق العسكرية منذ القرن الثاني عشر أمر طبيعي في إسبانيا التي كانت في تلك الحقبة قد ارتوت من نظم الإسلام وأشربت روحه».

والحديث عن الفرق العسكرية يسوق إلى الحديث عن مسألة أخرى أخطر شأناً وأبعد أثراً تتصل بالحرب المقدسة عند النصارى.. فقد صارت الباب المفضي إلى الجنة، والسبيل المؤدية إلى المجد في الآخرة.. وهو معنى لم يكن له وجود في المسيحية الأولى. مثال ذلك أن الفونسو الثامن ملك قشتالة

---

(٩٨) سورة آل عمران الآية ٢٠٠

(٩٩) الإسلام في إسبانيا ص ١٠١ ـ ١٠٤

(١٠٠) سورة البقرة الاية ٢١٦

قد مر بلحظات ضعف وهو يقاتل الموحدين في موقعة العقاب سنة ٦٠٩ هـ/١٢١٢ م، وخشي على حياته، لكن الدون رودريجو مطران طليطلة كان يتقدم إلى الملك ويقول له مشجعاً: «ياسيدي إن كان مصيرنا الموت فمآلنا معكم إلى الجنة[١٠١]».

ثم ورد هذا الخبر بصورة أخرى في مدونة الفونسو الحكيم، إذ تقدم مطران طليطلة إلى الملك الفونسو وقال له: «ياسيدي سيأتينا تاج من النصر إن أراد الله لنا ذلك». كما جاء في المدونة أيضاً أن كثيراً من النصارى لقي حتفه خلال إنقاذ حصن مارتوس، فكان مما قاله ديجوبريث دي فارجاس: «إذا نحن لم نستطع أن نمضي ونموت اليوم، فستنجو أرواحنا وسيكتب لنا المجد في الجنة». ثم إن الدون خوان مانويل ـ وهو ابن عم ملك قشتالة ـ يشير في كتبه إلى الشهادة والشهداء.. ويقول إن الذي يموت من النصارى دفاعاً عن الكنيسة فهو شهيد، والشهادة تمحو السيئات.. كما يقول في موضع آخر من كان آثماً ومات وهو يقاتل المسلمين، فلينتظر الأمل العظيم في النجاة مما لا يتهيأ مثله للعصاة الذين يموتون حتف أنوفهم في غير ساحة القتال[١٠٢]

إن هذه النصوص وأمثالها صدى لفكرة الجهاد في الإسلام، فهناك كثير من الآيات القرآنية التي تحض على الجهاد والشهادة، وتبين منزلة الشهداء في الجنة.. فمن هذه الآيات على سبيل المثال قوله سبحانه وتعالى: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله[١٠٣]﴾. كما جاء في الكتاب الحكيم أيضاً: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون[١٠٤]﴾. وبالإضافة إلى هذا قوله عزوجل: ﴿فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل

(١٠١) أحمد لطفي عبد البديع: الإسلام في إسبانيا ص ١٠٥ ـ ١٠٦
(١٠٢) المرجع نفسه ص ١٠٦
(١٠٣) سورة التوبة الآية ١١١
(١٠٤) سورة آل عمران الآية ١٦٩

الله، فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً[١٠٥]﴾. وهكذا يفيض القرآن الكريم بمثل هذه الآيات وغيرها التي تحض على الجهاد، وتبين منزلة الشهداء في الجنة.

وبالنسبة للموحدين أو أسلافهم المسلمين، فقد واصلوا غزو النصارى، وحثّوا المسلمين على الجهاد والصبر على القتال والسعي لنيل الشهادة، سواء خلال المعارك أو قبيل نشوبها.. لذلك فإن الجهاد عند المسلمين قد أكسب الحرب عند النصارى معنى دينياً جديداً، لم يعرفوه من قبل ردده المطران دون رودريجو وألفونسو الحكيم وابن أخيه دون خوان مانويل.. وهكذا جعلوا من الشهادة ـ كما في الإسلام ـ الباب المفضي إلى الجنة والسبيل إلى عفو الله ورضوانه[١٠٦].

ـ استخدام النصارى:

كان كثير من المسلمين والنصارى يقع أسيراً بأيدي الطرف الآخر.. والروايات تبالغ عادة في عدد هؤلاء الأسرى، كما تذكر أن الملوك النصارى كانوا يأخذون الأسرى المسلمين إلى بلادهم بما فيهم النساء والصبيان[١٠٧].. كذلك كان الموحدون يحملون معهم الأسرى النصارى إلى الأندلس وبلاد المغرب، ثم يستخدمونهم في بعض الأعمال كعمال بناء مثلاً أو كخدم في البيوت[١٠٨].

ويبدو أن بعض النصارى من الأسرى أو غيرهم عاشوا أحراراً في مدينة مراكش.. فحين حدث قحط في عهد المنصور الموحدي، خرجت طوائف

(١٠٥) سورة النساء الآية ٧٣

(١٠٦) أحمد لطفي عبد البديع: الإسلام في إسبانيا ص ١٠٦ ـ ١٠٧

(١٠٧) ابن عذارى: البيان المغرب ق ٣ ص ١٦٧ ـ المراكشي: المعجب ص ٢٨٠ و٣٢٢ ـ ٣٢٣

(١٠٨) ابن غذارى: الروض المعطار ص ١٣ ـ ابن عذارى: نفس المصدر ص ١١٧ ـ ابن خلدون: العبر ج ٦ ص ٢٤١ B. Meakin: the moorish empire pp. 80, 240 - 241

المدينة كلها ومنها اليهود والنصارى للاستقساء والدعاء.. يقول عباس المراكشي في ترجمته لأبي العباس السبتي المتوفي سنة ٦٠١ هـ: ومن بركاته رضي الله عنه أن أهل مدينة مراكش قحطوا في زمن يعقوب المنصور رحمه الله تعالى فأمر الناس بالخروج حتى لم يبق في المدينة أحد، وخرج إليها اليهود والنصارى(١٠٩).

وفي بعض الأحيان كان يجري تبادل الأسرى بين الموحدين والنصارى، فيطلق الموحدون الأسرى النصارى مقابل الإفراج عن مثل عددهم من الأسرى المسلمين عند النصارى. وأحياناً أخرى كان الموحدون يفدون الأسرى المسلمين بالمال، سواء أكانوا من القادة أو من الجند والرعية.. إذ كان الفكاك يحمل المال إلى النصارى، مما يؤدي إلى إطلاق سراح الأسرى لسلمين والعودة إلى أهلهم وبلادهم(١١٠).

ولم يتحرج الخلفاء الموحدون من اتخاذ بعض النصارى حراساً وحجاباً لهم.. فحاجب الخليفة أبي يعقوب يوسف اسمه كافور الخصي، وحاجب الخليفة يعقوب المنصور واسمه ريحان الخصي، فلما توفي اتخذ الخليفة المنصور حاجباً آخر اسمه مبشر الخصي، ثم اتخذ حاجباً ثالثاً اسمه عنبر الخصي.. كذلك عمل مبشر الخصي حاجباً للخليفة الناصر الذي اتخذ حاجباً آخر اسمه فارح الخصي يكنّى أبا السرور(١١١).

كذلك استخدم الموحدون في جيوشهم بعض القادة النصارى.. فكان من أشهر هؤلاء أبو الحسن علي، وهو ابن الربرتير الفارس النصراني الذي أسره المرابطون في إحدى المعارك، ثم جعله الأمير علي بن يوسف قائداً على

(١٠٩) حسن علي: الحياة الإدارية والاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأقصى ص ٤٢٠

(١١٠) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص ٣٩٣ - ٣٩٤ - ابن عذارى: البيان المغرب ق ٣ ص ١١٦

(١١١) المراكشي: المعجب ص ٢٣٩ و ٢٤٤ و ٢٦١ و ٣١١ و ٣٢٣ - ٣٢٤ و ٣٦٣

جنده من المرتزقة النصارى إلى أن توفي سنة ٥٣٩ هـ/١١٤٥ م.. ثم اعتنق ابن الربرتير الإسلام وتسمى بأبي الحسن علي، ودخل في خدمة الموحدين وأصبح من كبار قوادهم في البر والبحر، إلى أن قتل سنة ٥٨٣ هـ/١١٨٧ م في موقعة قفصة التي نشبت مع بني غانية بإفريقيا(١١٢).

كذلك استخدم الموحدون القائد بلاسكودي الاجون نحو سنتين في جيش والي بلنسية، لذلك أصبح يجيد اللغة العربية ويعرف أحوال الموحدين.. ثم عاد إلى بلاده بعد أن عفا عنه الملك خايمي، وأطلع الملك على أماكن ضعف بلنسية مما أدّى إلى نجاح الملك خايمي في الاستيلاء على بلنسية وحصونها.. كما استخدم الموحدون القائد القشتالي البار بيريث دي كاسترو، فكان يقاتل النصارى بإخلاص إلى جانب الموحدين، ثم عاد إلى بلاده بعد أن عفا عنه ملك قشتالة. ثم استعان الخليفة الرشيد بالقائد شانجة وجنده النصارى على قتال خصومه من الخلفاء ببلاد المغرب(١١٣).

وهناك قائدان آخران أدخلهما الموحدون في خدمتهم.. الأول من مملكة قشتالة وهو البار بدرو فرنانديث الذي جعله الخليفة المنصور قائداً على بعض جنده.. والثاني من مملكة البرتغال وهو جيرالدو سيمبافور الذي دخل بجميع رجاله النصارى في خدمة الموحدين، لكنه لم يخلص العمل فاتصل سراً بملك البرتغال للغدر بالموحدين.. ثم وقعت بعض رسائله السرية بأيدي الموحدين، فأمر الخليفة أبو يعقوب يوسف بقتله هو وجميع رجاله، فتم ذلك فوراً(١١٤).

أما أحمد الصقلي الذي كان من أكبر قادة أساطيل االموحدين، فقد وقع أسيراً بأيدي النصارى أيام طفولته، وربي عندهم إلى أن كبر، ثم استخدموه

(١١٢) أحمد مختار العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٥٥ حاشية رقم ١

(١١٣) محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ص ٩٢ و ٣٥٨ - ٣٥٩ و ٣٩٧ - ٣٩٨ و٤٣٩ - ٤٢٠ و ٤٩٩ - ٥٠٢

(١١٤) N. Barbour: Morocco p. 80

لكفايته ومهارته. لكنه هرب في أحد الأيام وسار إلى مراكش، فتلقاه الخليفة أبو يعقوب يوسف بالمبرة والكرامة، وجعله قائد أساطيله. فأحسن أحمد الصقلي جهاد النصارى وغزوهم(١١٥).

ولم يقتصر استخدام الموحدين على القادة من النصارى، بل استخدموا أيضاً جنداً نصارى في جيوشهم. فالمراكشي وهو المؤرّخ المعاصر يقول خلال حديثه عن أصناف جند الموحدين: «وللمصامدة بعد هذا جند من سائر أصناف الناس كالعرب والغز والأندلس والروم وقبائل من المرابطين وغيرهم(١١٦)». كذلك ورد عند ابن صاحب الصلاة وهو المؤرخ المعاصر ذكر الروم من بين أجناد الموحدين(١١٧).

وحين يتحدث ابن خلدون بصفة عامة عن استخدام ملوك المغرب للجند النصارى حتى عهده، يذكر أن هؤلاء الملوك لم يستخدموا الجند النصارى في جهاد الممالك النصرانية «حذراً من ممالاتهم على المسلمين». إنما استخدموهم في قتال العرب والبربر لإجبارهم على الطاعة(١١٨). كذلك استعان بعض الخلفاء الموحدين بالجند النصارى على قتال خصومهم من الخلفاء وغيرهم، فهذا ما فعله الخليفة الظافر، ثم الخليفة الرشيد، ومن بعدهما الخليفة السعيد ثم الخليفة المرتضي(١١٩).

ولم يكن الاستعانة بالجند النصارى يتم بلا مقابل أو شروط، فمن ذلك مثلاً أن الخليفة المأمون وافق على جميع شروط ملك قشتالة مقابل إمداده بفرقة

(١١٥) ابن خلدون: المقدمة ص ٢٥٥

(١١٦) المعجب ص ٣٢١ ـ B. Meakin: the moorish empire p. 240

(١١٧) المن بالإمامة ص ٤٣١

(١١٨) المقدمة ص ٢٧٤

(١١٩) ابن عذارى: البيان المغرب ق ٣ ص ٢٤٩ ـ ٢٥١ و ٢٦٤ ـ ٢٦٥ و ٢٧٠ و ٢٧٦ و ٤٠٢ ـ ابن خلدون: العبر ج ٦ ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣ و ٢٥٨ ـ ٢٦٠ و ٣٥٧، ج ٤ ص ١٦٧، ج ٧ ص ١٧٦ ـ N. Barbour: Morocco p. 80. B. Meakin: the moorish empire pp. 241, 325

من الفرسان النصارى، وكان أحد هذه الشروط أن يبني الخليفة المأمون كنيسة في مراكش كي يمارس فيها الجند النصارى طقوسهم الدينية. فنفذ الخليفة المأمون هذا الشرط، وأخذت الكنيسة تضرب نواقيسها في العاصمة الموحدية. وقد ترتب على ذلك تدخل بابوات روما، فأخذوا يعينون أساقفة من قبلهم للنصارى في مراكش، ويبعثون برسائل إلى الخلفاء الموحدين ويطلبون منهم العناية بالنصارى وإحسان معاملتهم ولم يجد الخلفاء الموحدون غضاضة في ذلك، إنما كانوا يبعثون بالجواب إلى بابوات روما ويطلبون منهم اختيار أساقفة للنصارى ممن يتمتعون بالصفات الحميدة والعقل الراجح[١٢٠].

ـ الزواج من نصرانيات:

كذلك لم يجد الخلفاء الموحدون حرجاً في الزواج من نساء نصرانيات. فالخليفة أبو يعقوب يوسف تزوج من إحدى سبايا النصارى اسمها ساحر وأنجبت له ابنه يعقوب المنصور الذي تولى الخلافة من بعده.. ثم تزوج الخليفة المنصور من إحدى سبايا مدينة شنترين اسمها سر الحسن التي أنجبت له ابنه عبد الله الذي تولى الخلافة فيما بعد باسم الخليفة العادل. كما تزوج الخليفة المنصور بامرأة نصرانية اسمها زهرة فأنجبت له ابنه محمد الناصر الذي تولى الخلافة من بعده.. كذلك تزوج الخليفة الناصر لدين الله من إحدى سبايا النصارى اسمها قمر ولقبها حكيمة، فأنجبت له ابنه يوسف الذي تولى الخلافة من بعده باسم يوسف المستنصر أو المنتصر[١٢١].

كذلك تزوج الخليفة المأمون بنساء من سبي النصارى، فأنجبن له عدداً من الأبناء منهن زوجته حباب التي أنجبت له ابنه عبد الواحد الذي تولى

(١٢٠) B. Meakin: opcit pp. 239 - 241, 311, 314 - 315 - 325 - N. Barbour: opcit p. 80

(١٢١) المراكشي: المعجب ص ٢٦١ و٣٠٧ و٣٢٣ ـ ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٤٢ و ١٦٣ ـ B. Meakin: opcit p: 82

الخلافة من بعده باسم الرشيد(١٢٢). وكان الخليفة الواثق بالله إدريس أبيض اللون، أشقر اللحية، أزرق العينين إذ أن أمه كانت من سبي النصارى اسمها شمس الضحى(١٢٣).

ومن سمات هذا العصر اعتناق بعض النصارى الدين الإسلامي، فكان من أشهر هؤلاء أحد أمراء مملكة قشتالة، وهو ابن اخت الملك ألفونسو. إذ لجأ إلى الموحدين بمراكش، وأعلن إسلامه، وتسمى بأبي زكريا يحيى بن فنراك، واستوطن مدينة فاس، ثم بنى فيها حماماً شهيراً، وعمل قائداً في جيش الموحدين واتخذ زيهم(١٢٤).

وعادة كان يجري احتفال عام في مدينة مراكش بمناسبة اعتناق أحد الأسرى النصارى الدين الإسلامي. ففي ذلك يقول الصديق بن العربي(١٢٥): «يجدر بنا أن نقدم للقارىء وصفاً موجزاً لحفلة من تلك الحفلات التي كانت تقام بمناسبة اعتناق الأسير المسيحي للديانة الإسلامية كما يصفها أحد الأسارى... فعندما يبدي الأسير رغبته في اعتناق الدين الإسلامي يقع إخراجه من السجن ويؤتى به إلى المسجد الأعظم بصحبة قائد الأسارى وهناك أمام القاضي والإمام وجماعة من رجال الدين تلقن له الشهادة، فيرددها مراراً إلى أن ينطق بها سالمة. ثم تلقن له بعد ذلك قواعد الدين، ويخرج الجميع حيث يتألف موكب حافل، فيمتطي الأسير صهوة جواد مطهم، ويقبض بيمينه المرتفعة فوق رأسه قضيباً طويلاً إشارة إلى التوحيد، ويخترق الموكب أزقة المدينة في مظاهرة صاخبة، تختلط فيها الرجال والأطفال

---

(١٢٢) الناصري: الاستقصا ج ٢ ص ٢١٦ - ابن الخطيب: الإحاطة ج ١ ص ٤١٦ - ٤١٧ - B. Meakin: opcit pp. 85, 314 - 315

(١٢٣) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٧٢ - ابن عذارى: البيان المغرب ق ٣ ص ٤٥٤

(١٢٤) الصديق بن العربي: طوائف وشخصيات مسيحية بالمغرب، مجلة تطوان المغربية العدد الأول سنة ١٩٥٦ م ص ١٥٤ - ١٥٥

(١٢٥) المرجع نفسه ص ١٥٨

بقرع الطبول وترنيم المزامير وزغاريد النساء. فيصبح العلج منذ ذلك الحين فرداً من أفراد المسلمين له ما لهم، وعليه ما عليهم».

كما ارتد بعض الموحدين عن الدين الإسلامي، فكان من هؤلاء السيد أبو زيد أخو الخليفة أبي دبوس الواثق بالله الموحدي. يقول صاحب الذخيرة السنية(١٢٦): «وفي سنة تسع وخمسين وستمائة تنصر السيد أبو زيد أخو أبي دبوس بإشبيلية. فحلق الفنش لحيته وكساه حلة... فلما كساه الحلة صعد على كرسي عال يشرف منه على الناس، ثم قال: أشهدكم يا من حضر من المسلمين والنصارى واليهود أني قدمت على دين النصرانية منذ أربعين سنة وكنت أكتمه. وأنا الآن قد أبحته وأظهرته، وأن دين المسيح بن مريم الدين القويم الأزلي. فتكلم له الفنش حين غبطه النصارى بدينهم».

(١٢٦) مجهول ص ١٠٦

الفصل الثاني

العلاقات الاقتصادية

أ ـ العلاقات الاقتصادية بين المغرب والأندلس

لم تهتم المصادر المعاصرة بالعلاقات الاقتصادية بين المغرب والأندلس زمن الموحدين إنما عنيت بالحوادث السياسية، وما تخللها من حروب مع العناية إلى حد ما بأثر ذلك على العلاقات الاقتصادية. ورغم ذلك فإن بعض المصادر ذكرت منتجات المغرب والأندلس من المحاصيل الزراعية والمنتجات الصناعية. كما ذكرت تردد القوافل والمراكب التجارية بين القطرين. ولكن هذه المعلومات تتصف بالشمولية في معظم الأحيان دون تحديد، علاوة على أن معظم هذه المصادر إما أن تكون سابقة على عصر الموحدين كالبكري والإدريسي مثلاً، وإما أن تكون لاحقة على عصر الموحدين كابن الخطيب والحميري وابن غازي مثلاً.

ـ عوائق التبادل التجاري بين المغرب والأندلس:

اعترض طريق التبادل التجاري بين المغرب والأندلس بعض العوائق، فحالت بصفة مؤقتة دون قيام تبادل تجاري بين القطرين. وكان من بين هذه العوائق تحريم التعامل تجارياً مع الخصوم. فمثلاً حين رفضت مدينة مالقة الخضوع للموحدين، فرض الموحدون عليها حظراً تجارياً، وهددوا بقتل كل من يحمل إليها نوعاً من أنواع البضائع التجارية. ولما بلغ الخليفة عبد المؤمن أن أهل سبتة يتعاملون تجارياً مع مدينة مالقة، بعث رسالة شديدة اللهجة إلى

الطلبة بمدينة سبتة، فكان مما جاء فيها: «وأما ما ذكرتموه ـ أكرمكم الله ـ من أمر أولئك التجار الذين يحملون المرافق إلى مالقة وأمثالها، فلتنظروا نظراً أكيداً في قطعهم وردعهم، ولا سبيل لأحد من خلق الله أن يمد أحداً من تلك الأصناف بمادة حتى يتضح وجه ما أدعوه، وتعرفوا بذلك ليرسم لكم ما تعتمدون عليه وكل من أخذ حاملاً إليهم مادة، فالسيف جزاؤه، والقتل من تلك العادة دواؤه(١٢٧)».

فإذا كانت هذه سياسة الموحدين التجارية إزاء مدينة مالقة وأمثالها، فكيف الحال إذن مع ابن مردنيش أو مع بني غانية أو مع النصارى؟! فقد قاتل ابن مردنيش الموحدين زهاء عشرين عاماً، فلحق الخراب والدمار بأجزاء كبيرة من بلاد الأندلس. ثم فرض ابن مردنيش على رعيته مغارم كثيرة كي يدفع نفقات جنده من المرتزقة النصارى. مما أدّى إلى سوء الأحوال الاقتصادية في بلاده.. ففي ذلك يقول ابن الخطيب(١٢٨) خلال حديثه عن ابن مردنيش: «فصالح صاحب برشلونة لأول أمره على ضريبة، وصالح ملك قشتالة على أخرى. فكان يبذل لهم في السنة خمسين ألف مثقال. وابتنى لجيشه من النصارى منازل معلومات وحانات للخمور وأجحف برعيته لأرزاق من استعان به منهم. فعظمت في بلاده المغارم وثقلت، واتخذ حوانيت بيع الأدم والمرافق تختنق بجانبه. وجعل على الأغنام وعروض البقر مؤناً غريبة. وأما رسوم الأعراس والملاهي فكانت قبالاتها غريبة».

وبالإضافة إلى هذا فإن الحروب التي خاضها ابن مردنيش ضد الموحدين طوال ربع قرن من الزمان، قد ألحقت الخراب والدمار باقتصاد بعض بلاد الأندلس وبالتالي أدّت إلى كساد التجارة وندرة المحاصيل الزراعية والمنتجات الصناعية. وقد أصاب مثل هذا الخراب والدمار بلاد المغربين الأدنى

(١٢٧) حسن علي: الحياة الإدارية والاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأقصى ص ٣٢٢ ـ ٣٢٣
(١٢٨) الإحاطة في أخبار غرناطة ج ٢ ص ١٢٤

والأوسط سواء قبيل عصر الموحدين أو خلال عصرهم. فالإدريسي جاب هذه البلاد قبيل منتصف القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، وذكر في كتابه نزهة المشتاق في اختراق الآفاق جميع الموانىء والمدن والقرى، وما تشتهر به من المحاصيل الزراعية والمنتجات الصناعية، علاوة على نشاط تبادلها التجاري مع غيرها من البلاد(١٢٩).

لكنه خلال حديثه كان يردد كثيراً جملة: «وقد قل ذلك في وقتنا هذا. . وهو يرجع سبب ذلك إلى انتشار القبائل العربية من أثبج وزغبة ورياح وبني هلال وسليم وعوف ودياب من طرابلس شرقاً إلى بجاية غرباً. إذ إنهم جابوا البلاد طولاً وعرضاً، وعاثوا فيها فأفسدوا الزرع ونهبوا التجار وسفكوا الدماء لأن أيدي الأجناد مقبوضة وأيدي العرب مطلقة في الإضرار. وموجب ذلك أن العرب لها دية مقتولها، وليس عليها دية فيمن تقتل(١٣٠)».

ترتب على هذه الأحوال انهيار اقتصاد البلاد بصفة عامة. وفي ذلك يقول أرشيبالد لويس(١٣١): «ازدادت أحوال التجارة سوءاً بشمال أفريقيا بعد عام ١٠٥٤، ذلك أن غزوات العرب الهلالية أحلّت الخراب والدمار محل الخصب والنماء في الوديان الواقعة بين قابس وبين بونة. وخرّب البدو المغيرون ونهبوا الأراضي الزراعية في ذلك الإقليم، ولاقت الصناعة نفس المصير المحزن تقريباً بعد ما بذل في تنظيمها منذ القرن التاسع من عناية. . . لم يقف عمل البدو عند حد تخريب مراكز التجارة والصناعة في تونس، بل تجاوز ذلك إلى قطع طريقين هامين من طرق القوافل الواصلة عبر الصحراء بين المغرب وبين السودان والنيجر. وهي الطرق التي تمر إحداها بواحة أوجلة، والثانية بواحة غدامس. ونتج عن ذلك أن وقف تدفق الذهب لذلك القسم من بلاد المغرب. وفوق هذا فإن خط البريد المنظم الذي كان يربط

(١٢٩) الإدريسي: وصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ص ٨٧ ـ ١٢٧

(١٣٠) نفس المصدر والصفحة

(١٣١) القوى البحرية والتجارية ص ٣٨٥ ـ ٣٨٦

سبتة بالإسكندرية توقف هو الآخر عام ١٠٤٨، لتعذر حماية الأربطة والحصون الواقعة على الطريق من غارات البدو».

ربما ساعد على هذه الأحوال ضعف القوى السياسية في تلك البلاد. ثم شهدت البلاد فترة قصيرة من الاستقرار والانتعاش بعد أن بسط الموحدون سيادتهم عليها نحو منتصف القرن ٦ هـ/١٢ م. ولكن سرعان ما عادت إليها القلاقل والاضطرابات منذ سنة ٥٨٠ هـ/١١٨٤ م. ففي هذا العام قام بنو غانية أصحاب الجزائر الشرقية بغزو بجاية، ثم قاتلوا الموحدين زهاء خمسين عاماً متواصلة في المغرب الأدنى والأوسط، مما أدى إلى كساد التجارة وخراب الأراضي الزراعية وتوقف الصناعة وانعدام الأمن والأمان(١٣٢).

وعلى سبيل المثال إليك وصف ابن عذارى لأحوال مدينة بجاية بعد أن غزاها بنو غانية. فهو يقول(١٣٣): «لما وقعت الفتنة ببجاية وأنظارها وخف قطينها وعمارها وانتهبت زروعها وغلاتها، وقلت خيراتها وعدمت مرافقها وأقواتها، وألم بالرعية الحيف وتقسمهم الجلاء والسيف، واعتصم من نجا منهم بقنن الجبال والأوعار، واحتمى من ركن منهم أحياء للعرب بالجوار، فأقفرت من بجاية بسائطها، وجاوز تقتيرها النهاية. فتسلل من القبائل خيلاً ورجلاً ومعظم سوادهم، وتسربوا مع الأيام فراراً من الإعدام إلى أقطارهم وبلادهم. . . والمجاعة تشتد والوباء يزيد حتى عم الموتان، وبطرت معيشتها الرخم والعقبان، وانحصر المسلوبون والمغنمون إلى البلد في أمم لا يحصى عديدهم، ولا ينادي من الإقتار وليدهم. وعجز أهل البلد عن تكفين الموتى، وعن مواساة الأحياء. فكانوا يصيحون في الخرب وفي سكك المدينة زمراً أمواتاً ذكوراً وإناثاً».

وبالإضافة إلى هذا فإن قطّاع الطرق كانوا يعترضون طريق القوافل

(١٣٢) انظر الفصل الثاني. والباب الثاني.
(١٣٣) البيان المغرب ق ٣ ص ١٥٢ ـ ١٥٣

التجارية فيقتلون وينهبون، مما جعل الموحدين يتشددون في عقابهم. فحين قبض والي سجلماسة الموحدي السيد أبو الربيع سليمان على قطاع الطرق أمر بضرب أعناقهم، ثم أخذ ينكث رؤوسهم بقضيب من الأبنوس وهو ينشد:

ولا غرو أن كانت رؤوس عداته جواباً إذا كان السيف رسائلة[١٣٤]

كذلك تعرض التبادل التجاري بين غربي الأندلس والمغرب الأقصى للتوقف والخطر من قبل قطاع الطرق. يقول ابن صاحب الصلاة في حوادث سنة ٥٦٣ هـ[١٣٥]: «وفي هذه السنة لازم الموحدون أعزهم الله حصن طبيرة، وللغادر الثائر فيها عبد الله بن عبيد الله بالضيقة عليها والأسار براً وبحراً، وسكنوا في حصن قسطلة بعسكرهم المؤيد يضربون عليها نهار وليلاً... عزماً منهم عليهم في دفع ضرها، ورفع شرها الذي استشرى فيها من أول عام ستة وأربعين وخمسمائة إلى آخر عام ثلاثة وستين وخمسمائة باجتماع الفسقة في داخلها من أصناف الدايرين من أهل الشرف والسرف بالفسق والعصيان، وإذاية المسلمين في البر والبحر من كل البلدان. فكانت شجى على أهل العدوة والأندلس في نهب أموال المسافرين والتجار في البراري والبحار. وقد كان أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه أيام إمارته العزيزة بإشبيلية نازلها مرتين فعصت عليه، وامتنعت بفساقها لديه، حتى فتحها الله له في خلافته بسعده ويمنه عقب شهر ذي القعدة من السنة المؤرخة... فسر أمير المؤمنين بارتفاع شغبها، وانقطاع نفاقها الطائل في السنين ونوبها».

وكانت بعض المغارم والمكوس عائقاً آخر في طريق ازدهار التبادل التجاري بين المغرب والأندلس، مما جعل الخليفة عبد المؤمن يأمر بإلغائها في رسالة موجهة إلى جميع الطلبة بالأندلس، ومن صحبهم من المشيخة والأعيان

(١٣٤) حسن علي: الحياة الإدارية والإقتصادية والإجتماعية ص ٣١١ - ٣١٢
(١٣٥) المن بالإمامة ص ٣٦٧ - ٣٦٨

والكافة. فكان مما جاء في الرسالة: «ولقد ذكر لنا في أمر المغارم والمكوس والقبالات وتحجير المراسي وغيرها ما رأينا أنه أعظم الكبائر جرماً وإفكاً... وأن من ذلك الرأي الذميم والسعي المنقوم، ما ذكر لنا في أمر المسافرين الذين يريدون الرجوع إلى أوطانهم وعمارتها، والطوائف المارة على البلاد لتغني تجارتها يتسبب إليه قوم من هؤلاء الظلمة الدخلاء... فيقولون للرجل منهم عندك من حقوق الله كيت وكيت وإن للمخزن جميع ما به أتيت، ويقرنون بهذا من الوعيد والإغلاظ الشديد ما يرضى له المذكور بالخروج من جميع ماله... ويا عجباً لكم معشر الطلبة والشيوخ وكافة الموحدين فإنكم بذلك مطلوبون.. وعليكم أن تبحثوا بغاية حدكم عن أولئك المسببين لتلك القبائح... وتعرفوننا بهم بعد تثقيفهم لنشرد بهم من خلفهم، ونكف بعقابهم نوعهم الظالم وصنفهم.. وكان مما بعثنا - وفقكم الله تعالى - على تبينكم وإذكاركم وإيقاظكم للنظر في تلك المصالح وإشعاركم، ما ألقيناه بحضرة مراكش - حرسها الله تعالى - بعض تلك الأنواع مما أحدثه فيها بعض أهل الابتداع كنوع القبالة وما يجري مجراها في وجوب الإزالة والإحالة(١٣٦)».

كما أصدر الخليفة عبد المؤمن رسالة أخرى موجهة إلى أهل قسنطينة يأمرهم فيها بإلغاء المكوس الجائرة، وجباية ما قرره الشرع فقط. فكان مما جاء فيها: «وقد كان بهذه الأصقاع من آثار أهل الاختلاق والابتداع ما علمتوه من القبالات والمكوس والمغارم وسائر تلك الأنواع. وكان الأشقياء من ولاتها يرون إيجابها وإلزامها شرعاً يلتزمونه، وواجباً يقدمونه، ولا يلتفتون إلى ما أوجب الله من الزكوات والأعشار، بل كانوا يطرحون ذلك أطراح أمثالهم من الفجار... وقد قطع الله بفضله أصولهم وفروعهم... وأجرى الشرع

(١٣٦) انظر محمد عنان: دولة الإسلام ع ٣ ق ١ وثيقة رقم ٢ ص ٥٥٢ - ٥٦١ - أورد حسن علي بعض فقرات من هذه الرسالة انظر: الحياة الادارية والاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأقصى ص ٢٢٧

بالإمـام المهدي على بابه، وأراح جميع أهل البلاد والمعمورة بالتوحيد من جميع ما كانوا يكلفونه من المغارم.. فلا يطالبون إلا بما توجبه السنة وتطلبه، ولا يلزمون ـ ومعاذ الله ـ مكسا ولا مغرماً ولا قبالة ولاسيما ما تسميه الظلمة بأسمائها وتلقبه ولكم في علم ذلك ومعرفته دليل على ما سواه. والله يهدي بهداه من اختاره وارتضاه(١٣٧).

ولم تكن العوائق المذكورة هي الحائل الوحيد المؤقت الذي اعترض طريق التبادل التجاري، بل تعرض التبادل التجاري بين المغرب والأندلس للكساد والتوقف مدة بعد موقعة العقاب سنة ٦٠٩ هـ/١٢١٢ م. فقد واصل النصارى بعد العقاب غزو الأندلس دون أن يتمكن الموحدون من ردهم، فانصرف الخلفاء إلى النزاع على عرش الخلافة بمراكش. ثم استعان بعضهم بالنصارى مقابل التنازل لهم عن بعض حصون وبلاد الأندلس. لذلك ثار أهـل الأنـدلس عـلى المـوحـدين وطـردوهم كليـة من بـلادهم في سنـة ٦٢٦ هـ/١٢٢٩ م. فأصبحت الأندلس لقمة سائغـة للنصارى، وأخـذت بعض قـواعدهـا تسقط تباعـاً بيد الأعـداء، فصاحب ذلـك سوء الحيـاة الاقتصادية بصفة عامة، وكساد التبادل التجاري بصفة خاصة(١٣٨).

ولم يكن المغرب بعد العقاب أحسن حالاً من الأندلس من حيث الحياة الاقتصادية فقد نشبت الحروب بين الخلفاء المتنازعين عـلى عرش الخـلافة بمراكش، وكان الجند النصارى يشتركون في هذه الحروب إلى جانب بعض الخلفاء ضد البعض الآخر. ثم انتهز الفرصة بنو مرين، فبسطوا سيطرتهم على بعض البلاد، وأنزلوا هزائم عديدة بجيوش الموحدين. كذلك قام بنو عبد الواد، فبسطوا سيطرتهم على بعض نواحي المغرب، وهزموا الموحدين في

---

(١٣٧) حسن علي: نفس المرجع ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨

(١٣٨) ابن عذارى: البيان المغرب ق ٣ ص ٢٣٩ ـ ٢٤٢ ـ الناصري: الاستقصا ج ٢ ص ٢٠٤ ـ ٢١٥

مواقع كثيرة. واشتركت بعض القبائل العربية وبخاصة عرب الخلط في هذه الحروب، وصاحب ذلك تخريب الزرع والعيث بالأرض وكساد التجارة وانعدام الأمن والأمان، وانتشار المجاعات والوباء.. فكان يدفن أكثر من مائة شخص في اليوم الواحد(١٣٩).

هذا ويصف ابن عذارى أحوال البلاد والناس من الناحية الاقتصادية خلال هذه الحروب فيقول(١٤٠): «ضاقت الأرض بما رحبت على الناس لانقطاع المرافق والمواد وارتفعت الأسعار، وعدمت الأقوات، وقل كل مرفق وأعوز... واقشعرت الجلود من هول المكلبدة في طلب شيء من أنواع الحنطة، وبلغت مبلغاً لا عهد بمثله، حتى انتهى الربع الواحد من الدقيق اللطيف الفاسد إلى ثلاثة دنانير. والناس في ازدحام على من يشعرون عنده زنة الخردلة منه أو من سواه، وما أهمهم إلا إقامة الأود بما ينطلق عليه اسم الحنطة».

وفي موضع آخر يقول(١٤١): «لم يبق لأحد سبد ولا لبد ولا طارف ولا تالد ولا ذخيرة ولا مال ولا عقار. واستولت المجاعة على جمهور الناس، ورأوا محناً يستعاذ بالله منها... وأما أسواق المدينة في هذه المجاعة فلم يكن بها ما يطلق عليه اسم بوجه من الوجوه. والحوانيت مغلقة، وما بقي بها من يلبس ثوباً يساوي عشرة دراهم إلا الأطمار المتغيرة الخلقة. وتغيرت الصور الجميلة، وتنكرت الدنيا باستيلاء المجاعة، وإذا ظهر في السوق بعد أيام كثيرة شيء من خبز الشعير يحشر الناس عليه، وإنهم لقيام ينظرون، وما يصل إليه

(١٣٩) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٧١ - ١٩٧ - ابن خلدون: العبر ج ٦ ص ٢٥١ - ٢٥٧ وج٧ ص ٧٧ - ٧٩ و ١٦١ - ١٧٠ و ١٧٥ - ١٨٠ - مجهول الذخيرة السنية ص ٢٢ - ٢٧ و ٣٥ و ٦٨ - ٧٩ و ٩٨ - ١٠٢ و ١٢٣ - ١٣٤ - اندريه جوليان: تاريخ أفريقيا الشمالية ج ٢ ص ١٥٥ - ١٥٧ - N. Barbour: morocco pp. 81 - 88

(١٤٠) البيان المغرب ق ٣ ص ٣٠٧

(١٤١) نفس المصدر ص ٣١٥ - ٣١٦

إلا الكفاة الذين لهم تجلد على الاقتحام والصبر. ثم لا يعدم الذي يتوصل إليه أن يجتمع عليه العشرون وأكثر من الضعفاء المساكين حتى ينزعوه منه قهراً. وأما شيخ أو عجوز أو طفل أو ضعيف فإنه لا يصل إلى شيء ولا على لقمة منه. وسائر الأيام إنما يظهر إلى الأسواق ما يكرر طحنه من فيتور الزيتون وغيره، فهو كان غذاء الناس لأنه كان كثيراً بالوادي الخالية فيجلبه الضعفاء ويقتاتون منه، ويبيعون فضلاتهم. وكذلك النارنج حامضاً هو أم حلواً. . وكان يباع في الأسواق خبز يعمل من تامود التي تنبته الصهاريج وفي الأنهار والسواقي. وهو شبه من القصب سم من السموم، يتخير منه ما جف ويطحن كما تطحن الحنطة، ويعمل منه خبز نحيل لمن يراه، فإذا التمس شيئاً منه باستعماله ومذاقه لم يجد شيئاً. ومن جملة ما اقتات الناس به في ذلك الوقت عصائد تصنع من نوار الخروب، وما عدا هذا ليس له وجود البتة، حتى لقد هلكت أمم لا تحصى».

ـ العلاقات الاقتصادية بين المغرب والأندلس:

وعلى الرغم من هذه العوائق التي كانت تحول دون حرية النشاط التجاري بين المغرب والأندلس زمن الموحدين، فقد ظلت دولتهم في المغرب الأقصى أو الأندلس تنعم بما كانت عليه البلاد من رخاء في ميادين الزراعة والصناعة والتجارة. ومما ساعد على استمرار هذا الرخاء أنهم كانوا يسيطرون على سجلماسة، وهي نهاية طريق معظم القوافل إلى ذهب بلاد السنغال، فاستمر فيضان الذهب عبر هذا الطريق بعد أن انقطع وروده عن طريق المسالك الصحراوية الأخرى[١٤٢].

كما استمرت العلاقات الاقتصادية بين المغرب والأندلس قائمة. وقد تمثل ذلك في نشاط التبادل التجاري بينهما، فقد اشتهرت لقنت والمرية وقرطبة

(١٤٢) ارشيبالد لويس: القوى البحرية والتجارية ص ٣٨٦ ـ ٣٨٧

بأسواقها، وتصدر إلى المغرب الأخشاب والحبوب والمصنوعات والكتان والمنتوجات الشرقية. ثم أدخل الموحدون تغييرات على السكة الذي سنه المرابطون، فرسموا في وسط دائرة الدينار شكلاً مربعاً، وجعلوا على أحد الجانبين تهليلاً وتحميداً، وكتبوا على الجانب الآخر اسم المهدي واسم الخلفاء من بعده، وجعلوا سكتهم ضعف ما كانت عليه لتماثل في وزنها الدينار القديم(١٤٣).

ونشطت حركة المراكب التجارية، وأخذت تسير بين المغرب والأندلس في قوافل منتظمة حاملة البضائع المختلفة، فتنقل من المغرب إلى الأندلس أنواع الغلات والحبوب والطعام ثم تعود بالتين والعنب والقطن وزيت الزيتون من إشبيلية إلى ميناء سلا. أما المنسوجات فكان أهل مراكش يستوردونها من بلنسية، ويستوردون الحصا الملون من المرية لتزيين أدوات الطعام. ومما ساعد على نشاط التبادل التجاري، قيام المغرب الأقصى بدور الوسيط بين إقليم السودان في الجنوب والأندلس في الشمال. فكان التجار يحملون الذهب والصمغ إلى الأندلس، ثم يعودون بالمحاصيل الزراعية والمنتجات الصناعية إلى بلاد السودان(١٤٤).

ومما هو جدير بالذكر أن ابن سعيد وهو المؤرخ المعاصر يذكر صناعات بعض المدن الأندلسية ونشاطها التجاري، فيخص بالذكر مدينة مالقة وما لها من شهرة في صناعة الزجاج والفخار المزجج والرخام المفضض المعروف في المشرق بالسيفساء، وهناك نوع آخر يبسط في قاعات الدور يعرف بالزليجي وهو ذو ألوان عجيبة، ويستخدم بدل الرخام الملون في تزيين البيوت وزخرفتها. كما أنها اشتهرت بصناعة ملابس الحرير الموشى المذهب، فقد بلغ من حسن الصنعة درجة عالية بحيث أثار إعجاب أهل المشرق. وبالإضافة إلى

(١٤٣) أندرية جوليان: تاريخ إفريقيا الشمالية ج ٢ ص ١٦٠

(١٤٤) حسن علي: الحياة الإدارية والاقتصادية والاجتماعية ص ٣٢١ - ٣٢٢

هذا اشتهرت مالقة بأنواع الثمار خاصة اللوز الذي يحيطها من جميع الجهات، والتين الذي تحمله المراكب إلى سائر الأقطار، فهو مفضل على سائر تين الأندلس إلا تين إشبيلية(١٤٥).

ثم ينقل المقري عن ابن سعيد، فيشيد بصناعات مدينة المرية، وبخاصة صناعة الزجاج والفخار المزجج والصناعات المعدنية كالسكاكين والأمقاص المذهبة، وما شابه ذلك من أدوات العروس ما يبهر العقل، لذلك كان يتجهز بها تجار الأندلس إلى بلاد المغرب(١٤٦). ومما ساعد مدينة المرية على اتقان مثل هذه الصناعات هو توفر معادن الحديد والنحاس في موضع قريب يسمى هولاية حسب قول المؤرخ المعاصر صاحب المعجب(١٤٧).

كما ذاعت شهرة نتالة بعمل البسط الفاخرة التي يغالى في ثمنها. أما مدينة مرسية فقد اشتهرت بصناعة الزجاج والفخار المزجج، والطراز الموشى المذهب، والأسرة المرصعة والحصر الفتانة الصناعة، وقد بلغت صناعات مرسية من الشهرة درجة عالية، بحيث حملها التجار إلى بلاد المغرب(١٤٨).

وبالإضافة إلى هذا كان التجار يحملون معهم حيوان القنلية من الأندلس إلى بلاد المغرب، وهو حيوان أدق من الأرانب، وأطيب طعماً وأحسن وبراً، حتى أن أهل الأندلس يلبسون فراءه حسب قول ابن سعيد، ولا يوجد في بر العدوة إلا ما جلب منه إلى سبتة(١٤٩). ومما هو جدير بالذكر أن الخليفة يوسف المنتصر كان مولعاً بتربية البقر. فكان يجلبه من الأندلس ويضعه في حظيرة كبيرة له بمراكش، ويحمل بعضها على بعض للتناسل(١٥٠).

(١٤٥) ابن سعيد في حلى المغرب ص ٤٢٣ - ٤٢٤
(١٤٦) المقري: نفح الطيب ج ٢ ص ٦٨
(١٤٧) المراكشي: ص ٣٦٣
(١٤٨) المقري: المصدر السابق ص ٦٨
(١٤٩) المصدر نفسه ص ٦٢ - ٦٣
(١٥٠) الناصري: الاستقصا ج ٢ ص ٢٠٤

كذلك اشتهرت مدن بلاد المغرب بوفرة انتاجها الزراعي والصناعي، خاصة مدينة فاس، فأصبحت مقصد التجار والقوافل من كل صقع وبلد، يحملون إليها كل غريبة من أنواع البضائع لتفترق منها على ما حولها من بلاد، ويحملون منها الأقمشة والأحذية وأغطية الرأس، ومما هو جدير بالذكر أنه أصبح لكل أهل بلد وإقليم منزل ومتجر ومصرف بمدينة فاس نظراً لازدياد نشاطها التجاري، وكثرة انتاجها الصناعي، فقد كان فيها حسب إحصائية الديوان على عهد الخليفة الناصر الموحدي ثلاثة آلاف وأربع وتسعون دار طراز، وسبع وأربعون داراً لصناعة الصابون، وست وثمانون داراً لدباغة الجلود وتصنيعها ومائة وست عشرة داراً للصباغة وإحدى عشر داراً لصناعة الزجاج، واربعمائة دار لعمل الكاغد، ومائة وثمانون داراً لصنع الفخار واثنا عشر داراً لسبك الحديد والنحاس(١٥١).

لذلك كان المراكشي ـ وهو المؤرخ المعاصر ـ على حق حين وصف مدينة فاس بقوله(١٥٢): «ما أظن في الدنيا مدينة كمدينة فاس أكثر مرافق، وأوسع معايش وأخصب جهات. وتتخلل الأنهار أكثر دورها زائداً على نحو من أربعين عيناً ينغلق عليها أبوابها، ويحيط بها سورها. وفي داخلها وتحت سورها نحو ثلاثمائة طاحونة تطحن بالماء. ولا أعلم بالمغرب مدينة لا تحتاج إلى شيء يجلب إليها من غيرها ـ إلا ما كان من العطر الهندي ـ سوى مدينة فاس هذه. فإنها لا تحتاج إلى مدينة في شيء مما تدعو إليه الضرورة، بل هي توسع البلاد مرافق وتملأها خيراً».

أما مدينة سبته فيقول فيها ابن سعيد وهو المؤرخ المعاصر: «وهذه المدينة بين بحرين وهي ركاب البرين تشبه الإسكندرية في كثرة الحط والإقلاع وفيها التجار الأغنياء الذين يبتاعون المركب الكبير بما فيه من بضائع

(١٥١) حسن علي: الحياة الإدارية والاقتصادية والاجتماعية ص ٢٩٦ ـ ٢٩٧وص ٣٠٥
(١٥٢) المعجب ص ٣٥٨ ـ ٣٥٩

الهند وغيرها في صفقة واحدة، ولا يخرجون صاحبه إلى أنقاص». كما أن ميناء طنجة انتعشت به الحركة التجارية، فأخذت المراكب التجارية تحمل منه الصوف والجلود والفواكه والقمح والعسل، وتنقل إليه الثياب والأسلحة(١٥٣).

وبقيت مدينة تلمسان آهلة عامرة بالسكان وبأنواع التجارات، فهي وفيرة الإنتاج من الغلات وأنواع الفواكه، ورخيصة الأسعار لذلك قصدها التجار من سائر الأقطار، مما أدى إلى ثراء أهلها، فقيل إنه لم يكن في بلاد المغرب بعد اغمات وفاس أكثر من أهل تلمسان أموالاً، ولا أرفه حالاً. وعلى سبيل المثال بلغ إيراد إحدى قراها من التجارة مائة ألف دينار سنوياً، وذلك على عهد يغمرا سن بن زيان(١٥٤).

ومما ساعد على ازدياد التبادل التجاري بين المغرب والأندلس، هو إعادة الأمن والاستقرار إلى هذه البلاد. ففي ذلك يقول أندريه جوليـان(١٥٥): «لمعت الحضارة الأندلسية حينذاك لمعاناً زاد تألقاً باستتباب الأمن الذي حققه الموحدون عند ممارستهم للحكم. فقد وضع الخلفاء حداً للفوضى المالية التي سادت في عهد ملوك الطوائف وشجعوا الزراعة في بلاد البركة كما وصفها كاتب عربي من القرن الثاني عشر، وظلت الصناعات مزدهرة ونفقت تجارة دور الحرير في جيان وعمرت لقنت بعدد من دور الصناعة. وبلغ عدد مناسج الحرير ثماني مائة بالمرية التي كانت تنتج كذلك آلات من النحاس والحديد. وكان لهذا النشاط الصناعي أثره في المغرب، فكانت سبته مثل شاطبة مشهورة بصناعة الورق المعروف بالسبتي، وعلى غرارها كانت فاس عامرة بالطواحين لنفس الإنتاج».

لذلك أخذت المراكب تروح وتغدو بين مدن الأندلس ومدن المغرب.

---

(١٥٣) حسن علي: المرجع السابق ص ٣١٣ - ٣١٤
(١٥٤) الجيلالي: تاريخ الجزائر العام ج ٢ ص ٢٣٣ - ٢٣٤
(١٥٥) تاريخ افريقيا الشمالية ج ٢ ص ١٥٩ - ١٦٠

ثم بين تونس وسوسة وعنابة وتنيس ووهران من جهة، والإسكندرية والشام من جهة أخرى. كما بين المرية ومالقة والإسكندرية وطرابلس، فكانت هذه المراكب تحمل إلى الأندلس والمغرب سلع المشرق والأبزرة والجزائر والبردى، وتحمل إلى المشرق منتجات المغرب والأندلس(١٥٦). ثم أخذ تجار الأندلس يفدون على مدينة بونه، مما أدى إلى نشاط حركة التجارة بين الأندلس وبين كل من وهران وتنيس كما أدى صيد المرجان الى ازدياد أهمية تنيس، وصارت المنستير سوقاً سنوية كبيرة يتوافد عليها التجار(١٥٧).

لكن مرجان صيد الخزر أجمل جميع المرجان الموجود بسائر الاقطار لذلك يحمله التجار الى جميع الجهات، مما أدى إلى ثراء أهل مرسى الخزر، وأصبح ربحهم التجاري عشرة آلاف دينار سنوياً. فقد كانوا يخرجون الى البحر في كل الاوقات بنحو خمسين مركباً وفي كل مركب نحو عشرين رجلاً، فيجمعون المرجان بآلات ذوات ذوائب تصنع من القنب، ويستخرجون منه الشيء الكثير، مما يباع بالأموال الطائلة(١٥٨).

ومما هو جدير بالذكر أن مدينة بجاية اشتهرت بتجارة الرقيق الأبيض والأسود مع جزيرة ميورقة، وذلك حسب قول أحد المؤرخين المعاصرين. فهو يقول(١٥٩): «إن بجاية بلدة غزاة، وكان غزاة قطعها يدخلون إلى دواخل الجزر الرومانية وغيرها، ويسوقون السبي الكثير منها، وينزل الناس لشرائه بحومة المذبح من جهة ربضها. وهناك يخمس ويقع الفصل فيه. ولم يزل الحال على ذلك، وبلغ الحال من كثرة سبي الآدميين أن يباع بيضاوان من الروم بسوداء من الوخش. وكانت أجفان إسحاق بن غانية تصل أيضاً من ميورقة، كما تصل به أجفان بجاية. وكان إسحاق بن غانية بجزيرة ميورقة هو وبقية اللمتونيين».

(١٥٦) نجاة باشا: التجارة في المغرب الإسلامي ص ٦٧
(١٥٧) ارشيبالد لويس: القوى البحرية والتجارية ص ٣٣٠
(١٥٨) الجيلالي: تاريخ الجزائر العام ج ٢ ص ٢٣٩
(١٥٩) الغبريني: عنوان الدراية ص ٢٣ ـ ٢٤

ولا شك أن نشاط هذه الحركة التجارية بين المغرب والأندلس خلال عصر الموحدين تعود ـ بالإضافة إلى العوامل التي سبق ذكرها ـ إلى عناية الخلفاء بمسح الأراضي وغرسها بأنواع الثمار والفاكهة. فالخليفة عبد المؤمن أمر في سنة ٥٥٥ هـ/ ١١٦٠ م «بتكسير بلاد إفريقيا من برقة إلى السوس الأقصى طولاً وعرضاً بالفرسخ والأميال. وأسقط الثلث من التكسير في مقابل الجبال والأنهار والسباخ. وما يبقى قسط عليه الخراج وألزم كل قبيلة قسطها من الزرع والورق. وهو أول من أحدث ذلك بالمغرب[١٦٠]».

ثم استعان بخبراء الزراعة والفلاحة من أهل الأندلس. فعهد إلى المهندس الأندلسي أحمد بن ملحان الطائي بإنشاء بستان كبير له في مراكش، وغرسه بمختلف أنواع الثمار والفاكهة الأندلسية مما لم تكن معروفة حينئذ بالمغرب. فلما اكتمل البستان بلغت مساحته ثلاثة أميال في مثلها، وأصبح من مصادر دخل الدولة. إذ بيعت ثماره بعد ثلاث سنوات من إنشائه بثلاثين الف دينار مؤمني رغم رخص السعر آنذاك[١٦١].

لذلك أنشأ عبد المؤمن بستانا آخر في مراكش. وفعل نفس الشيء ابنه الخليفة أبو يعقوب يوسف، فاهتم بغراسة البساتين وتخزين المياه اللازمة لها في صهاريج ضخمة. ثم أنشأ الخليفة يعقوب المنصور بستاناً طوله إثنا عشر ميلاً، وزرع على جانبيه ثمانمائة شجرة من النارنج، وجعل بين كل شجرتين إما ريحانة أو ليمونة. وفي نفس الوقت غرس الموحدون بساتين مدينتي فاس ومكناسة بأنواع الفاكهة والزيتون، فانتجت محصولاً وفيراً من التمر والتين والعنب والرمان والسفرجل والتفاح والكمثري والمشمش والخوخ والبرقوق والتوت والجوز والليمون والنارنج والبطيخ[١٦٢].

---

(١٦٠) ابن أبي دينار: المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس ص ١١٢

(١٦١) عبدالله علام: الدولة الموحدية ص ٣٨٥

(١٦٢) حسن علي: الحياة الإدارية والاقتصادية والاجتماعية ص ٢٧٧ ـ ٢٧٨

ولم يكن استصلاح الأراضي وغرسها مقصوراً على ما يأمر به الخلفاء، بل كان الولاة الموحدون يهتمون بذلك أيضاً. فالوالي محمد بن عبدالله بن واجاج أكثر من غراسة مكناسة بشجر الزيتون، حتى عرفت باسم مكناسة الزيتون، وبالإضافة إلى ذلك اشتهرت بزراعة مختلف أنواع الفاكهة، وأصبحت مقصد التجار ومنزل المسافرين، مما أدى إلى تحضيرها بعد أن كانت بداوة(١٦٣).

كما عمل الموحدون في نفس الوقت على تقدم الزراعة والصناعة في بلاد الأندلس مما أدى إلى ازدياد نشاط الحركة التجارية. يقول محمد عبدالله عنان(١٦٤): «تقدمت الزراعة والصناعة والتجارة في عهد الموحدين. وازدهرت الصناعة بنوع خاص، وارتقت أساليبها الفنية، وتنوعت المحاصيل، وانتشرت زراعة الفاكهة في أحواز بلنسية وإشبيلية. وتقدمت الصناعات الحربية والمدنية، ولا سيما صناعة الأقمشة الممتازة، والصناعات الجلدية وصناعة الورق وغيرها. وازدهرت التجارة وعم الرخاء. وكانت ثغور الأندلس مثل بلنسية ودانية وإشبيلية والمرية ومالقة من أعظم مراكز التجارة الخارجية في هذا العصر».

ومن مظاهر عناية الموحدين بالأندلس من الناحية الزراعية هو تنفيذ أوامر الخليفة عبد المؤمن باستصلاح أراضي جبل طارق، وغرسها بمختلف أنواع الفاكهة كالتين والعنب والتفاح والكمثري والسفرجل والمشمش والإجاص والأترج. كذلك تم استصلاح أراضي واسعة في مدينة إشبيلية بناء على أوامر الخليفة أبي يعقوب يوسف، ثم غرسها بأشجار الزيتون وكافة أنواع الفاكهة الأندلسية، ثم عني بجلب الماء إليها من الوادي بواسطة قنوات تحت الأرض(١٦٥).

---

(١٦٣) المرجع نفسه ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥ و ٢٧٨ ـ ٢٧٩ و ٣٠٥ ـ ٣٠٦
(١٦٤) دولة الإسلام ع ٤ ص ٤٣٩
(١٦٥) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص ١٣٧ ـ ١٤١ و ٤٦٥ ـ ٤٦٩

ب ـ العلاقات الاقتصادية بين دولة الموحدين (المغرب والأندلس) والممالك النصرنية

ـ عوائق العلاقات الاقتصادية بين دولة الموحدين في المغرب والأندلس والممالك النصرانية:

لم نجد في المصادر والمراجع نصوصاً تتضمن ما يستدل منها على قيام تبادل تجاري بين دولة الموحدين والممالك الإسبانية النصرانية. فقد كان كل منهما يحشد كافة امكانياته للتغلب على الآخر وفرض سيطرته عليه. فالنصارى واصلوا قتال الموحدين وغزو الأندلس للاستيلاء عليها. والموحدون قاموا بجهاد النصارى وغزوهم للحيلولة دون استيلائهم على الأندلس.

ـ قرارات المقاطعة من الجانبين: حرَّم الخلفاء الموحدون والملوك النصارى على رعاياهم معاملة رعايا الطرف الآخر تجارياً. فإذا كان الخليفة عبد المؤمن قد أنذر رعيته بقتل كل من يتعامل تجارياً مع مدينة مالقة لمجرد أنها حافظت على استقلالها ورفضت الخضوع للموحدين(١٦٦)، فكيف الحال إذن مع الممالك النصرانية؟ وتتحدث نجاة باشا عن قرارات المقاطعة هذه وتقول(١٦٧): «وكانت السلطة الإسلامية من جهتها تقرر التحريمات المتعددة ولا سيما فيما يخص القمح والمواد الغذائية والخيل والعتاد الحربي والرقيق من المسلمين».

---

(١٦٦) حسن علي: الحياة الادارية والاقتصادية والاجتماعية ص ٣٢٢ ـ ٣٢٣

(١٦٧) التجارة في المغرب الإسلامي ص ٦٤

كذلك حرم الملوك النصارى الإسبان على رعيتهم الإتجار مع المسلمين من أهل المغرب والأندلس خلال عصر الموحدين، وبخاصة فيما يتعلق بمواد معينة كالثياب وأنواع الطعام والرقيق والحبال والأخشاب والحديد. ومع ذلك فإن النصارى القطلان من أهل مملكة أرغونة كانوا يتعاملون تجارياً مع البلاد الإسلامية الواقعة في الحوض الشرقي للبحر المتوسط، لكن هذا التعامل لقي معارضة شديدة من البابوية والقساوسة المحليين، وأخذوا يحذرون النصارى من بيع الحديد والخبز والسلاح والخشب(١٦٨).

ثم لم يكتف النصارى بذلك، بل كانوا يعترضون طريق قوافل الموحدين فيقتلون وينهبون حتى في وقت السلم. فمن أمثلة ذلك قيام نصارى مدينة شنترين - بقيادة العلج جيراندة الجليقي - باعتراض طريق قافلة للموحدين في سنة ٥٦٥ هـ/ ١١٧٠ م، وهي تتألف من خمسة آلاف دابة كانت في طريقها من مدينة إشبيلية إلى مدينة بطليوس. ثم هاجمها النصارى وقتلوا جميع حراسها واستولوا عليها بأكملها(١٦٩).

- قرارات البابوية:

كذلك كانت البابوية تحذر النصارى من التعامل تجارياً مع المسلمين، وتذكرهم بين الحين والآخر بأن الإسلام هو عدوهم الحقيقي. ففي ذلك تقول نجاة باشا(١٧٠): «ومن حين لآخر علا صوت البابا مذكراً أن الإسلام هو العدو، وأنه مبدئياً محجراً أن يصدر نحو الأراضي الإسلامية ما من شأنه أن يزيد في طاقاتها. وكان التحجير يشمل لا الرقيق المسيحيين فحسب، بل كذلك مجموعة من المواد كالأسلحة والمعادن والمراكب والمواد الصالحة لبنائها

(١٦٨) J. F. O'callaghan: A history of medieval spain pp. 297, 483
(١٦٩) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص ٣٩٨
(١٧٠) التجارة في المغرب الإسلامي ص ٦٤

ولتجهيزها كالخشب والحديد والحبال. وكذلك المواد الغذائية ولا سيما الحبوب».

ـ القرصنة البحرية:

لم يقف الأمر عند حد المقاطعة التجارية وإصدار القرارات واعتراض طريق القوافل، بل كانت الممالك الإسبانية النصرانية تعترض أيضاً طريق السفن الموحدية، فتهاجمها وتستولي عليها بما فيها. ومن أمثلة ذلك ما قام به والي طرطوشة النصراني، فقد اعترض طريق السفن الموحدية المحملة بالأخشاب، واستولى عليها خلال عودتها من جزيرة بياسة إلى جزيرة ميورقة. لذلك غضب والي ميورقة الموحدي، وبعث ابنه بالأسطول لغزو سواحل برشلونة، فاستولى ابنه خلال طريقه على مركبين الأولى برشلونية والثانية جنوية(١٧١).

وقد نشأت هذه القرصنة البحرية منذ وقت مبكر، لكن القراصنة لم يكتفوا بالتعرض للسفن والمراكب التجارية في عرض البحر ـ بل كانوا يغيرون على الشواطىء والموانىء فينهبون ويأسرون. ثم فرضوا الأتاوات على بعض المدن مقابل عدم التعرض لها. فمثلاً فرض قراصنة المدن الإيطالية أتاوة ضخمة على مدينة المرية، مقدارها مائة وثلاثة عشر ألف دينار ذهباً. كذلك اضطرت بلنسية الى دفع عشرين ألف دينار ذهباً ثمناً لسلامتها من النهب والسلب. ثم تعرضت الجزائر الشرقية لعدة غارات قرصنية قام بها أهل المدن الإيطالية، فيعلق لويس على ذلك بقوله(١٧٢): «وهكذا تم الانتقام لمدن باري ومونت جازيليانو وفراكسينت بما أنزله المسيحيون بثغور الشواطىء الإسلامية الضعيفة من تقتيل وسلب ونهب».

لذلك أنشأ الموحدون لهم قوة بحرية لقمع القراصنة المسلمين والنصارى

(١٧١) محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ع ٣ ق ٢ ص ٤٠٣

(١٧٢) القوى البحرية والتجارية ص ٣٧٢ ـ ٣٧٣

على السواء رغم أنهم كانوا يملكون أسطولاً كبيراً في الحوض الغربي للبحر المتوسط. لكن الملاحة الغربية ما لبثت أن تقدمت، فكان لذلك أثره السيء على التجارة البحرية، ولم يتورع رجال الملاحة الإسبان والطليان من إدراج النهب القرصني في صفقاتهم التجارية(١٧٣).. ثم اتهم كبير قساوسة طركونة في سنة ١٢٥٧ م بمزاولة القرصنة البحرية واعتراض طريق التجار التونسيين فقد استولى منهم على أموال بلغت قيمتها أكثر من ثلاثين ألف بيزنت من الفضة، أي ما يعادل ستة آلاف دينار من الذهب(١٧٤).

وبلغ من عتو قراصنة الغرب ولصوصه أن أصبحوا يجوبون البحر المتوسط، فيعترضون مراكب المسلمين، ويختطفون المسلمين من شواطىء المغرب لبيعهم في أوروبا بيع السوائم. كما كان كثير من البحارة الأوروبيين يستغلون حركتهم التجارية، فيقومون بأعمال القرصنة البحرية. مثال ذلك ما جرى في سنة ٥٩٦ هـ/١٢٠٠ م. اذ هاجمت سفينتان من بيزا مراكب إسلامية، فأسفر الهجوم عن أسر المسلمين، وانتهاك أعراض النساء، ونهب الأموال والبضائع. ثم اختطف القراصنة آلاف المسلمين من الشواطىء الإفريقية، وباعوهم في أسواق الرقيق بأوروبا(١٧٥).

ولم تقتصر أعمال القرصنة على جو البحر المتوسط، إنما شملت أيضاً شواطىء إسبانيا والأندلس المطلة على المحيط الأطلسي. فقد زاولها الصليبيون الإنجليز والفرنسيون والألمان والفلمنك والنورمان، خلال طريقهم عبر المحيط الأطلسي ومضيق جبل طارق إلى المشرق الإسلامي للاشتراك في الحروب الصليبية. فكانوا يعترضون المراكب التجارية، وينهبون الثغور والموانىء، كما أنهم ساعدوا ملوك البرتغال في الاستيلاء على مدينة أشبونة وشلب وقصر أبي

(١٧٣) عبد العزيز بن عبدالله: البحرية المغربية والقرصنة. مجلة تطوان العدد ٣ و ٤ سنة ١٩٥٨ - ١٩٥٩ م ص ٦٢ - ٦٣

(١٧٤) نجاة باشا: التجارة في المغرب الإسلامي ص ٧٠

(١٧٥) الجيلالي: تاريخ الجزائر العام ج ٢ ص ٣١

دانس، وخربوا قادس ونهبوا سبته. كذلك قامت أساطيل جنوا وبيزا ومونبلية بأعمال قرصنة في البحر المتوسط، وذلك باشتراكهم في الاستيلاء على المرية وطرطوشة والجزائر الشرقية. فأعطى ملك أرغونة أساطيل جنوا وبيزا ثلث مدينة طرطوشة، وأعفاهم من جميع الرسوم مقابل عونهم له(١٧٦).

كذلك قام الصليبيون الإنجليز والنورمان والفلمنك بنهب الشواطىء الإسبانية النصرانية خلال طريقهم إلى المشرق الاسلامي. فعلى سبيل المثال سار في سنة ٥٠٦ هـ/١١١٢ م جماعة من الإنجليز نصفهم صليبيون ونصفهم الآخر قراصنة، فنزلوا على شواطىء جليقية، ونهبوا القرى والبلاد، ثم انضموا إلى الثوار في قتالهم ضد الملكة أوراكة، وقاموا خلال ذلك بنهب الكنائس وسرقتها. كما كانت أساطيل الصليبيين تطوف بسواحل إسبانيا من جليقية إلى قطالونيا عبر مضيق جبل طارق، ثم تسير إلى مرسيليا ومنها إلى عكا. لكن يحدث أحياناً أن تجبر العواصف أساطيل الصليبيين على اللجوء إلى بعض الثغور والموانىء، فيقوم الصليبيون بأعمال سلب ونهب، وقتل السكان خاصة المسلمين واليهود(١٧٧).

ثم كثر انتشار القراصنة في البحار، فكان منهم الجنويون والصقليون والبيزيون والبروفانسيون والإغريق والقطلان. لذلك قامت بعض الدول الأوروبية بعقد المعاهدات مع المسلمين، من أجل القضاء على القرصنة، وحماية التجارة البحرية. مثال ذلك تلك المعاهدة التي عقدتها بيزا سنة ٥٨٢ هـ/١١٨٦ م، فتعهدت بيزا بموجبها بعقاب البيزيين الذين يقومون بالقرصنة. ثم عقدت جنوا معاهدة مماثلة مع المسلمين سنة ٦٣٤ هـ/١٢٣٦ م، كذلك عقدت ميورقة معاهدة مماثلة سنة ٦٣٧ هـ/١٢٣٩ م(١٧٨).

---

(١٧٦) J. F. O'callaghan: A history of medieval spain pp. 280, 295 - 296

(١٧٧) نيقل باربر: أخبار الأندلس في المدونات الإنجليزية ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥

(١٧٨) B. Meakin: moorish empire pp. 256 - 257

نفذ المسلمون في بلاد المغرب نصوص هذه المعاهدات للقضاء على القرصنة، فوفروا الضمانات وفرضوا التعويضات على الخسائر التي تلحق برعايا الطرفين ثم تعهدت جميع الدول التي أبرمت تلك المعاهدات بالعمل المشترك من أجل استئصال القرصنة. «فنصت معاهدة صيبوي في فصلها التاسع عشر على أنه إذا ما اضطر الموحدون إلى تجهيز المراكب لمطاردة أحد القراصنة الجنويين، فإن جمهورية جنوا يجب عليها إذ ذاك أن تجهز بدورها مركباً للمساهمة في هذه المطاردة. وقد أدى الأمر بالطرفين ـ استئصال رياح القرصنة العفنة ـ إلى تحظير بيع الغنائم والأسرى، وتسريح هؤلاء عاجلاً بدون فداء. بل قرر الجانبان معاً إتلاف ومصادرة أموال القراصنة الذين يهاجمون رعايا الدول المتحالفة(١٧٩)».

وقررت الحكومات المتحالفة بموجب نفس المعاهدة المذكورة إعدام القراصنة سواء كانوا مسلمين أم نصارى. كما نصت المعاهدة على أن الفظائع المتبادلة بين القراصنة المسلمين والنصارى لا يتحمل مسئوليتها رجال التجارة أبداً. ثم كفلت المعاهدة لرجال التجارة حرية التنقل من بلد لآخر في طمأنينة وسلام دون أن يتحملوا وزر الآخرين. لكن رغم ذلك فقد استمر النصارى يزاولون أعمال القرصنة. يقول لاطري: «في نفس الوقت الذي كان التجار المسيحيون محفوفين بالرعاية والعناية تعاملهم سلطات المغرب وسلطانه بحسن فيه، استداموا نهب التجار المسلمين في البحار، بالرغم من المعاهدات والجهود التي ما فتيء الأمراء المسلمون يبذلونها(١٨٠)».

ثم ضاق المسلمون بأعمال القراصنة النصارى، لذلك أخذت بعض المدن الإسلامية على عاتقها رد هؤلاء القراصنة. فكان أهل مدينة بجاية أول من انبرى لمقاومة هذه القرصنة الأوروبية، ورد عاديتها عن سواحل المسلمين

---

(١٧٩) الجيلالي: تاريخ الجزائر العام ج ٢ ص ٣٢

(١٨٠) عبد العزيز بن عبدالله: البحرية المغربية والقرصنة ص ٦١ و ٦٣ ـ ٦٤

بالمغرب. ثم اتخذوا الأساطيل المسلحة، وقاموا بغزو شواطىء جنوا والبندقية وبقية شواطىء إيطاليا وإسبانيا، وكالوا للنصارى كيلاً بكيل، فغنموا وأسروا حتى كثر «عدد الأسرى في بجاية، واشتد لغطهم وصخبهم بالمدينة من أثر اجترار السلاسل والأغلال[١٨١].

بينما كانت أساس سياسة الخليفة عبد المؤمن الخارجية هي معاقبة كل من تجرأ على الملاحة المسيحية من المسلمين. ولم يكن يسمح لغير أساطيل الدولة بمطاردة العدو أو القراصنة. وذلك استجابة لمقتضيات التجارة الدولية ونواحيها. وهكذا ألزم الموحدون أنفسهم بحماية الحرية التجارية، ونشر الطمأنينة والسلام في البحار، رعاية لمصالح تجارتهم الخارجية. غير أن تفكك أوصال الإمبراطورية الموحدية، وانقسامها بين أمراء مستقلين، جعلت هؤلاء الأمراء عاجزين عن تعقب القراصنة[١٨٢].

ثم انتهز بعض أهالي مدينة جنوا الموجودون في مدينة سبتة فرصة تفكك الدولة الموحدية وانقسامها فقاموا بحركة عسكرية خاطفة للسيطرة على مدينة سبته نظراً لأهميتها التجارية. لكن والي المدينة استدعى على الفور القبائل المجاورة، وتمكن بفضل مساعدتهم من القضاء على حركة الجنويين ثم قام أهل سبته على الجنويين فقتلوا عدداً منهم ونهبوا أموالهم وفنادقهم، لكن أكثر الجنويين عرفوا طريق الفرار، ورموا أنفسهم في البحر، وسبحوا إلى مراكبهم الراسية في الميناء، فعادوا بها إلى بلادهم. لذلك جهزت جنوا على الفور مائة مركب، ثم سارت للاستيلاء على سبته لكن أبا العباس اليانشتي لم يستطع قتال الجنويين، فضربهم عن سبته بأن دفع لهم أربعمائة ألف دينار تعويضاً عما لحق بإخوانهم وتجارتهم من ضرر. وقد حدث ذلك بين سنتي ٦٣٢ - ٦٣٦ هـ/ ١٢٣٤ - ١٢٣٨ م[١٨٣].

(١٨١) الجيلالي: تاريخ الجزائر ج ٢ ص ٣٢

(١٨٢) عبد العزيز بن عبدالله: البحرية المغربية والقرصنة ص ٦٤

(١٨٣) محمد عنان: دولة الإسلام ع ٣ ق ٢ ص ٥٠٦ - ٥٠٧ - أحمد العبادي: دراسات في تاريخ =

ـ العلاقات الاقتصادية على مستوى الأفراد والمدن بين المغرب والأندلس والممالك النصرانية: على الرغم من قرارات المقاطعة بين الجانبين (الموحدون والممالك النصرانية) وقرارات البابوية والقرصنة البحرية، فهذا لم يحل دون وجود علاقات اقتصادية بين المسلمين والنصارى، وبين المدن الأندلسية والمدن النصرانية على مستوى فردي وضعيف.

وفي ذلك تقول نجاة باشا(١٨٤): «إن هذه التحجيرات وهذه التحريمات بقيت بدون كبير مفعول، ولم تكن لتحد من النشاط التجاري. بل كنا نلاحظ اتجاهاً عاماً تصاعدياً نشطت به التجارة غير الرسمية في مادة الحبوب والزيت والمنتوجات الصالحة للاستهلاك العادي. وكانت السلطة الدينية والسياسية نفسها تغض الطرف عن ذلك. بل هي سمحت بتنظيم النشاط التجاري وتدعيمه بين شواطىء إسبانيا المسيحية وضفاف أوروبا الجنوبية من جهة، وبلاد المغرب الإسلامي من جهة أخرى. ففي بعض الوثائق التابعة لبلاط أراغون نجد نصاً يتعرض إلى كون بعض التجار من برشلونة اقترفوا ذنباً خطيراً ببيعهم سفينة لبعض المسلمين، فصدر عليهم حكم مبدئي بغرامة مالية قدرها ٥٠٠ صولدي برشلوني».

ثم أخذ الموحدون يعملون شيئاً فشيئاً على توثيق علاقاتهم التجارية مع أهل بعض الدول النصرانية ومنهم أهل قطالونيا من مملكة أرغونة. وقد بدأ هذا في سنة ١١٥٩ م، أي بعد أن بسط الموحدون سيادتهم على إفريقيا ببضع سنوات، فأقاموا علاقات تجارية مع بعض الجمهوريات الإيطالية، ثم سمحوا للتجار النصارى من أهل إيطاليا وبروفانس وقطالونيا أن يستقروا بتونس وبجاية وغيرهما من الموانىء(١٨٥).

= المغرب والأندلس ص ٣٧٣ ـ ٣٧٤ ـ C. F. Hayes and M. W. Baldwin: history of europe p. 245

(١٨٤) التجارة في المغرب الإسلامي ص ٦٤

(١٨٥) المصدر نفسه ص ٧٢

كذلك يقول أندريه جوليان[١٨٦]: «كان المسلمون أول من نظموا أساليب تجارتهم حسب مقتضيات السوق العالمية فلما جاء عهد الموحدين حسنوا طرقهم فاقتبسها منهم النصارى. ولم تنفك الروابط والمبادلات بين النصارى والمسلمين في اطراد رغم فوارق الدين، بل رغم تكاثر القرصنة التي أفلت زمامها من الملوك الأفارقة. ولم يقتصر التجار النصارى في القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث عشر على المجيء إلى تونس والمتاجرة بها بل استقروا فيها. وكانوا يشترون من بلاد المغرب خاصة جلود الضأن والمعز والشمع، ويبيعون بها الأقمشة والمنتوجات الشرقية». وتضيف نجاة باشا إلى ذلك فتذكر أن التجار النصارى كانوا يحملون معهم إلى بلاد المغرب أيضاً البضائع المستوردة من إفريقيا السوداء كالذهب وريش النعام والعاج والرقيق[١٨٧].

وإن نجاح النصارى في الاستيلاء على معظم القواعد الأندلسية خلال القرن ٧ هـ/١٣ م، أدى إلى ازدهار إسبانيا اقتصادياً ونشاطها تجارياً. فقد بقي في هذه المدن كثير من المسلمين والمعاهدين واليهود يزاولون أعمالهم التجارية والزراعية والصناعية، خاصة الصناعات اليدوية الدقيقة[١٨٨]. لذلك انتقلت هذه الصناعات إلى بعض المدن الإسبانية، كما استمرت صناعة الحرير منتشرة في عدة مدن أخرى مثل جيان ومرسية وبلنسية، وازدهرت هذه الصناعة أكثر في مدينة إشبيلية حتى أصبح فيها ستة آلاف نول للغزل[١٨٩].

ومما ساعد على ذلك هو بقاء إشبيلية على مكانتها التجارية رغم سقوطها بأيدي النصارى وأخذت التجارة تتدفق عليها من سائر البلاد! فتأتيها من طنجة ومن سبته وبجاية والإسكندرية وجنوا والبرتغال وانجلترا وبوردو

(١٨٦) تاريخ إفريقيا الشمالية ج ٢ ص ١٦٠ - ١٦١

(١٨٧) نجاة باشا: التجارة في المغرب الإسلامي ص ٧٩

(١٨٨) J. F. O'callaghan: A history of medieval spain p. 296

(١٨٩) R. Altamira: A history of spain p. 210

وبايون وصقلية وجاسكونيا وقطالونيا وارغون، بل من فرنسا أيضاً(١٩٠).

كذلك ظل المسلمون المدجنون أفضل عناصر السكان في الممالك الإسبانية النصرانية فأكثرهم مثابرة وتأدية للضرائب. وقام بعضهم بزراعة أراضي النبلاء واستغلالها، فكان لهم الفضل في إدخال محاصيل عديدة إلى إسبانيا النصرانية مثل القصب والقطن والأرز والحرير والتين والبرتقال واللوز. كذلك كان لهم فضل إقامة مشاريع الري خاصة في شمالي إسبانيا وشرقيها. كما أنهم وضعوا أسس الصناعة الإسبانية خاصة الصناعات اليدوية، مثل صناعة المنسوجات القطنية والحريرية، والفخار والخزف والجلود. بينما صار بعضهم يمارس أوجه النشاط التجاري بنجاح وشرف، فكانوا أفضل التجار وأكثرهم أمانة(١٩١).

---

(١٩٠) أحمد لطفي عبد البديع: الإسلام في إسبانيا ص ٨٩ ـ ٩٠

(١٩١) محمد عنان: دولة الإسلام ع ٤ ص ٦٢

الفصل الثالث

العلاقات الفنية

أ - بين المغرب والأندلس

- التأثيرات الفنية المتبادلة بين المغرب والأندلس زمن الموحدين:

أدّى الاتحاد الوثيق بين المغرب والأندلس خلال عصر الموحدين إلى انتشار الفن الأندلسي بالمغرب، لذلك يعتبر عصر الموحدين من أخصب عصور الفن الأندلسي بالغرب الإسلامي. فالموحدون لم يكن لديهم تقاليد فنية قيمة تعمل على تعديل الفن الأندلسي أو احتلال مكانه، وإن ما يسمى تجاوزاً بالفن الموحدي إنما هو في الحقيقة فن أندلسي مقيد بميل الموحدين إلى الاقتصاد في الزخرف والبذخ(١٩٢).

ويؤكد ابن خلدون انتقال الحضارة الأندلسية بصفة عامة إلى بلاد المغرب خلال عصر الموحدين. فهو يقول(١٩٣): «وأما المغرب فانتقل إليه منذ دولة الموحدين من الأندلس حظ كبير من الحضارة، واستحكمت به عوائدها بما كان لدولتهم من الاستيلاء على بلاد الأندلس وانتقل الكثير من أهلها إليهم طوعاً أو كرهاً... فأبقوا فيها وبأمصارها من الحضارة أثراً».

كذلك يرى ابن سعيد أن فن العمارة بتونس هو محض تقليد لمنشآت المغرب الأقصى القائمة على سواعد مهندسين ومعماريين أندلسيين. فهو

---

(١٩٢) ليوبولد توريس بالباس: الفن المرابطي والموحدي، ترجمة سيد غازي. منشأة المعارف. الإسكندرية ١٩٧٦ م ص ١٣ - ١٤

(١٩٣) المقدمة ص ٣٧٠ - ٣٧١

يقول: «ومن المعروف اليوم ـ ٦٣٥ هـ/١٢٣٧ م ـ أن هذا الازدهار وهذا الرخاء في مراكش انتقلا إلى تونس، فأقام سلطانها قصوراً وغرس حدائق وكروماً على الطريقة الأندلسية، فاستعان في ذلك بمهندسي الأندلس وبنّائيها ونجاريها ولبانيها ودهانيها وبساتينها. فتم تشييد تلك المباني بحسب رسوم وصفها أناس من الأندلس، أو صنعت تقليداً لمبان أندلسية[١٩٤].

وقد تأثر الفن الأندلسي بالتقشف الذي أخذ به الموحدون أنفسهم وبرغبتهم في محاربة كل ما في الحياة من مظاهر البذخ والترف ليتفق مع دعوتهم إلى إحياء الإسلام في نقاوته الأولى. فكل هذا ترك أثراً واضحاً على الفن. لذلك تخلى الفن الأندلسي عن الزخارف الكثيرة الجميلة والنقوش البديعة، والتزم بدلاً منها أنماطاً من النظام والبساطة، فأصبحت زخارفه تنحصر في أشكال رئيسية حاسمة الخطوط بيّنة المعالم فوق أرضيات فسيحة عاطلة من الزينة[١٩٥].

كذلك ترك الفن الموحدي أثراً واضحاً على الفن الأندلسي من حيث الضخامة والاتساع ثم من حيث الزخرف الحريص على الترتيب والوضوح، وهو ما دعا إلى القول بأن هذا الفن هو منتهى الضبط المتكامل المتوافق. وقد عرف الفن الموحدي قمة أوجه في عهد الخلفاء الأولين، ثم بدأ في الانحطاط منذ القرن ٧ هـ/١٣ م[١٩٦].

ـ تطور العمارة الإسلامية زمن الموحدين:

شيّد الموحدون كثيراً من المنشآت. فالخليفة عبد المؤمن شيد حمداً لله مساجد عدة، كان أولها مسجد تازة ثم جامع الكتبيين الأول في مدينة

(١٩٤) الجيلالي: تاريخ الجزائر العام ج ٢ ص ٤٢

(١٩٥) بالباس: الفن المرابطي والموحدي ص ١٢ و ٤٨ ـ وانظر عبد العزيز بن عبدالله: تطور الفن الموحدي ص ٧٤

(١٩٦) أندريه جوليان: تاريخ افريقيا الشمالية ج ٢ ص ١٦٧

مراكش، فرغم انهدامه واندثاره إلا أن الحفريات كشفت عن أسسه وساعدت على معرفة تخطيطه. كذلك بنى الخليفة عبد المؤمن مسجد تينمل تخليداً لذكرى المهدي محمد بن تومرت. وقد اجتمعت في هذه المساجد التقاليد الأندلسية المغربية، والعناصر الشرقية والتأثيرات المحلية(١٩٧).

ويذكر توريس بالباس أن مسجد تينمل بني بجبال أطلس بعد سنة ٥٤٨ هـ/٥٣ ـ ١١٥٤ م(١٩٨). بينما يضع ابن القطان بناء مسجد تينمل في سنة ٥٤٣ هـ/١١٤٨ م معتمداً في ذلك على رسالة رسمية أصدرها الخليفة عبد المؤمن، فكان مما ورد فيها: «وكتابنا هذا ـ كتب الله تعالى لكم كل رأفة ورحمة، وسوغكم من اليمن والأمن أنعم نعمة، وجعلنا وإياكم فيمن قدم لدار قرارة ونعمة ـ من الحضرة العلية بتينمل حرسها الله تعالى في سادس عشر من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة... وكان مقصودنا من هذه الوجهة المباركة زيارة قبر المكرم تمتعاً ببركاته... ورغبة في رفع بيت من أفضل البيوت التي أمر الله عزوجل أن ترفع ويذكر فيها اسمه(١٩٩).

كما يذكر توريس بالباس أن مسجد الكتبيين الثاني بني قبل سنة ٥٥٨ هـ/١١٦٣ م، في مدينة مراكش لصق جامع الكتبيين الأول المندثر(٢٠٠). لكن الناصري يذكر استناداً على رواية لابن طفيل أنه بني في سنة ٥٥٣ هـ/١١٥٨ م، فهو يقول: «أمر عبد المؤمن ببناء المسجد الجامع بحضرة مراكش حرسها الله، فبدىء ببنائه وتأسيس قبلته في العشر الأول من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة، وكمل في منتصف شعبان من السنة المذكورة، على أكمل الوجوه وأغرب الصنائع وأفسح المساحة، وأحكم البناء والنجارة: وفيه من شمسيات الزجاج ودرجات المنبر وسياج المقصورة ما

(١٩٧) أندريه جوليان: نفس المرجع والجزء ص ١٦٥
(١٩٨) توريس بالباس: الفن المرابطي والموحدي ص ١٧
(١٩٩) ابن القطان: نظم الجمان ص ١٥٢ ـ ١٥٣
(٢٠٠) توريس بالباس: المرجع السابق ص ١٧

لو عمل في السنين العديدة لاستغرب تمامه، فكيف في هذا الأمر اليسير الذي لم يتخيل أحد الصناع أن يتم فيه تقديره وتخطيطه فضلاً عن بنائه. وصليت فيه صلاة الجمعة منتصف شعبان المذكور[٢٠١]». ويبرهن بناء هذا المسجد ـ على عكس مسجد تينمل ـ أن الخليفة عبد المؤمن بدأ يتحلل من القيود ويتأثر إلى حد ما بمظاهر الفن الأندلسي، وهو أول علامة على طريق تطور الفن الموحدي. ثم يظهر تطور الفن واضحاً جلياً في جامع القصبة بمراكش وجامع رباط الفتح. ويقول توريس بالباس[٢٠٢]: «والصحون المبنية في جامع حسان برباط الفتح، وفي مسجد القصبة بمراكش تكشف بتعددها وجمال تصميمها عن عناية فنية وروح إبداعية بين مهندسي الموحدين في نهاية القرن الثاني عشر (٦ هـ). ويبدو أن هؤلاء المهندسين شعروا بالحنين إلى ما في بيوت الصلاة القديمة من الأعمدة الحجرية والرخامية التي يسويها الرخامون ـ وهي تعلو من الوجهة الفنية على دعائم الآجر التي يقوم بإعدادها البناؤون ـ فألصقوا بدعائم الآجر التي أقاموها أعمدة من الحجر أو الرخام ذوات تيجان من الجص المزخرف، لم يقصدوا بها أن تكون عماداً لشيء، وإنما أرادوا بها الحلية الخالصة. وجامع رباط الفتح الذي لم يتم تشييده... يتميز بأنه المسجد الوحيد الذي يشتمل على أعمدة رخامية أسطوانية».

كما أن أوجه المحاريب في المساجد الموحدية مأخوذة من وجه محراب جامع قرطبة. في المسجد الموحدي الأول وجامع الكتبيين ومسجد القصبة بمراكش وجامع تينمل يتكرر تصميم النموذج الأندلسي. إذ يؤدي إلى قلب المحراب عقد متجاوز مدبب بعض الشيء يستند على أزواج من الأعمدة، ويدور بهذا العقد إطار عريض مربع في هيئة إفريز تمتد فيه أشرطة ترسم بينها مضلعات وتعلو هذا الإفريز نوافذ مصممة للتحلية، ويتوجها إطار آخر

(٢٠١) الناصري: الاستقصا ج ٢ ص ١١٤
(٢٠٢) الفن المرابطي والموحدي ص ٢٢

يشتمل على أشرطة تترابط في تصميم هندسي، ولا تظهر في العقد حدود القطع التي تدخل في تركيبه[٢٠٣].

كذلك تطور الزخرف النباتي تطوراً جديداً، واستمد من سعف النخيل شكله النهائي. يقول تراس وهينو: «كانت كل سعفة يعنى بها على حدة، ويعتنى بتصوير حافاتها، وتعظم الأشكال وتتداخل الحافات الممتلئة اليانعة القوية كالعضلات، وتنحني في حركات عنيفة. وقد استوحى القوم من الفن الشرقي بإفريقيا صورة جديدة للسعفة، فكأن سعفات النخيل تنبثق من كؤوس متوالية. وفي الجص المنحوت تقطع الحافات لتحدث ظلالاً واقية. أما في الزخرف المتشابك فإن السعفة الملساء تظهر في الموضع الذي لا يصرف فيه النظر إلى غير المطاوي المتشبخة للقويسات[٢٠٤].

ـ المآذن:

شيد الموحدون مآذن لمساجدهم في المغرب والأندلس على غرار مأذنة جامع قرطبة التي شيدها الخليفة عبد الرحمن الناصر سنة ٣٤٠ هـ/٩٥١ م. فقد اتخذت مأذنة قرطبة هذه لجمالها وجلالها نموذجاً نسجت على منواله مأذنة جامع الكتبيين بمراكش والأخيرالد بإشبيلية، ومأذنة جامع حسان برباط الفتح. وهذه المآذن الموحدية الثلاث الباقية بجلالها على الزمن روعي في بنائها أن تكون أمثلة للجلال والعظمة. لذلك فإنها تعد بحق من أروع ابتكارات الفن الإسلامي[٢٠٥].

بيد أن منارة جامع الكتبيين بمراكش تمثل تقدماً على منارة جامع قرطبة من حيث حجمها. إذ يبلغ طول الضلع عند قاعدتها ١٢,٥ م، ويبلغ

(٢٠٣) المرجع نفسه ص ٧٧ ـ ٧٨
(٢٠٤) أندريه جوليان: تاريخ افريقيا الشمالية ج ٢ ص ١٦٦
(٢٠٥) توريس بالباس: المرجع السابق ص ٢٤

ارتفاعها أربعة أمثال طول القاعدة كما أن النظام الداخلي للمنارة يحدد الدرج الصاعد الملتف حول جسم أوسط يبرز مؤلفاً جسماً علوياً هو المنارة النهائية. ويوجد إلى أسفل نحو ست غرف متراكبة تختلف قبواتها، وتتميز من بينها قبوة متقاطعة وفق التخطيط القرطبي المفضل، لكن ضلوعها رشيقة كما في قبة جامع تلمسان مع مقربصات في تجويفها الأوسط، وأخرى أكثر تقدماً من الوجهة الفنية تشغل الطاقات التي تقوم عليها(٢٠٦).

والمأذنة الوحيدة التي زينها الموحدون بتفافيح ذهبية هي مأذنة جامع إشبيلية، وذلك بناء على رغبة الخليفة يعقوب المنصور. بيد أن الذي أمر ببناء المأذنة الخليفة أبو يعقوب يوسف، ثم توقف العمل في بنائها مدة قصيرة إثر وفاته في غزو شنترين. أما تفافيحها الذهبية فكانت من أملح ما يكون «بلغت من العظم إلى ما لا يعرف قدره إلا أن الوسطى منها لم تدخل على باب المنار حتى قلعت الرخام من أسفله، وزنة العمود الذي ركبت عليه أربعون ربعاً من الحديد. وكان الذي صنعها ورفعها في أعلى المنار المذكور المعلم أبو الليث الصقلي. ومولت تلك التفافيح بمائة ألف دينار ذهباً(٢٠٧).

بينما يذكر ابن صاحب الصلاة وهو شاهد عيان أن زنة العمود مائة وأربعون ربعاً من الحديد، ثم يقول(٢٠٨): «وكان عدد الذهب الذي طليت به هذه التفافيح الثلاث الكبار والرابعة الصغرى سبعة آلاف مثقالاً كباراً يعقوبية عملها الصناع بين يدي أمين أمير المؤمنين وحضوره. ولما كملت سترت بالأغشية من شقاق الكتان لئلا ينالها الدنس من الأيدي والغبار وحملت على العجل مجرورة حتى إلى الصومعة بالتكبير عليها والتهليل حتى وصلت ورفعت بالهندسة حتى إلى أعلى صومعة الصومعة المذكورة. ووضعت في

---

(٢٠٦) جوميث مورنيو: الفن الإسلامي في إسبانيا ص ٣٥٢

(٢٠٧) الناصري: الاستقصا ج ٢ ص ١٧٤

(٢٠٨) المن بالإمامة ص ٤٨٣ ـ ٤٨٤

العمود وحصلت فيه، وحصنت بمحضر أمير المؤمنين أبي يوسف المنصور رضي الله عنه، وبمحضر ابنه ولي عهده أبي عبد الله السعيد الناصر لدين الله، وجميع بنيه وأشياخ الموحدين والقاضي وأهل الوجاهة من الناس. وذلك في يوم الأربعاء عقب ربيع الآخر بموافقة التاسع عشر من مارس العجمي من عام أربعة وتسعين وخمسمائة. ثم كشف عن أغشيتها، فكادت تغشي الأبصار من تألقها بالذهب الخالص الإبريز وبشعاع رونقها».

ـ القصور:

شيد الموحدون كثيراً من القصور والدور الخلافية في المغرب والأندلس خلال النصف الأول من القرن ٦ هـ/١٢ م، لكن لم يبق أثر من هذه المنشآت. ومع ذلك يمكن القول إن الموحدين قد تأثروا في بنائها بمظاهر الترف والبذخ الأندلسيين، فجملوها بالحدائق والبرك وأكثروا من تحليتها بالزخارف البديعة والنقوش الجميلة. يؤكد وجود هذا الترف ما ذكره عبد الواحد المراكشي ـ وهو المؤرخ المعاصر ـ في وصف البيمارستان الفخم الذي بناه الخليفة يعقوب المنصور في مدينة مراكش لإيواء المرضى وعلاجهم(٢٠٩).

يصف المراكشي هذا البيمارستان خلال حديثه عن الخليفة المنصور بقوله(٢١٠): «وبني بمدينة مراكش بيمارستاناً ما أظن أن في الدنيا مثله. وذلك أنه تخير مساحة فسيحة بأعدل موضع في البلد، وأمر البنائين بإتقانه على أحسن الوجوه فأتقنوا فيه من النقوش البديعة والزخاريف المحكمة ما زاد على الاقتراح. وأمر أن يغرس فيه مع ذلك من جميع الأشجار المشمومات والمأكولات وأجرى فيه مياهاً كثيرة تدور على جميع البيوت، زيادة على أربع برك في وسطه، إحداها رخام أبيض. ثم أمر له من الفرش النفيسة من أنواع

(٢٠٩) توريس بالباس: الفن المرابطي والموحدي ص ٣٣ ـ ٣٤

(٢١٠) المعجب ص ٢٨٧

الصوف والكتان والحرير والأديم وغيره بما يزيد على الوصف، ويأتي فوق النعت».

- تطور الصناعات الفنية زمن الموحدين:

ليس من السهل في الصناعات الفنية أو الزخرفية عزل نماذجها في عهد الموحدين عن نماذج العهود السابقة أو التالية مباشرة. فإن تداول الحكم بين الأُسر الحاكمة وتعاقبها في تسلم السلطة لم يكد يؤثر في الصناعات المزدهرة التي أورد عنها الإدريسي صورة كاملة في النصف الأول من القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي. ففي قرطبة وغرناطة ومالقة والمرية وبلنسية ومرسية وغيرها من المدن الأندلسية، وفي مدن المغرب التي لا تضاهي المدن الأندلسية كثرة وازدحاماً بالسكان، كان الصناع المتواضعون من النساجين والصائغين والحدادين والدباغين والفخارين يزاولون أعمالهم صابرين في حوانيتهم الصغيرة القائمة في نهاية الدروب والأزقة، محتفظين بالأشكال والقواعد التقليدية لم يعدلوا فيها إلا تحت تأثير المستحدثات الوافدة من شرقي البحر المتوسط، وبحكم التطور الزمني الذي لا مفر منه(٢١١).

ويدل على انتشار الفنون المعدنية في الأراضي التي كان يسيطر عليها الموحدون في القرن ٦ هـ/١٢ م، صفائح الناس التي تغطي المصراعين الخشبيين بباب الغفران لكاتدرائية إشبيلية المؤدي قديماً إلى بيت الصلاة الموحدي. فتغطي الباب بطاقات مسدسة مختومة تتوالى بين عمودية وأفقية، حاصرة بينها نجوماً ذوات أربعة أطراف تتوسطها مثمنات. وتتوالى داخل البطاقات زخارف نباتية، وخطوط كوفية تتردد فيها عبارة الملك لله، وتؤلف بين حروفها زخارف نباتية ما تزال في هذا الباب حتى اليوم بقايا قشرة من الذهب وضبتاه رائعتان(٢١٢).

(٢١١) توريس بالباس: الفن المرابطي والموحدي ص ٥٥
(٢١٢) توريس بالباس: نفس المرجع ص ٦٠

ويعدد ابن سعيد بعض الصناعات التي اشتهرت بها المدن الأندلسية فيذكر مثلاً شهرة مدينة مرسية بصناعة الأسرة المرصعة، وآلات الصفر والحديد من السكاكين والأمقاص المذهبة وغيرها من آلات العروس والجندي ما يبهر العقل، فتجهز جميع هذه الأصناف إلى بلاد المغرب. كما اشتهرت المدن الأندلسية أيضاً بصناعة آلات الحرب من التراس والرماح والسروج والألجم والدروع والمغافر، فقد كانت أكثرية أهل الأندلس مصروفة إلى هذه الصناعات. ثم يذكر ابن سعيد أن في مدينة إشبيلية من دقائق الصنائع ما يطول ذكره(٢١٣).

أما الفخار المذهب والزجاج، فقد اشتهرت بصناعتهما مدينة المرية ومالقة ومرسية وكان يصنع بالأندلس أيضاً نوع من المفضض المعروف في المشرق بالفسيفساء ونوع آخر يبسط به قاعات الدور يعرف بالزليجي يشبه المفضض وهو ذو ألوان عجيبة يقيمونه مقام الرخام الملون الذي يستعمله أهل المشرق في زخرفة بيوتهم كالشاذروان(٢١٤).

كما أن الفخار المذهب الذي كان يصنع خلال عصر الخلافة بالأندلس استمرت صناعته قائمة خلال عصر الموحدين. فقطع الآنية التي عثر عليها في مالقة مزخرفة على نفس النمط والأسلوب، أما تاريخها فيرجع في رأي جوميث مورنيو إلى النصف الثاني من القرن ٦ هـ/١٢ م، فهي إذن أسبق عهداً من النماذج التي رآها ابن سعيد بمالقة ـ وأطنب في مدحها ـ حول منتصف القرن ٧ هـ/١٣ م. وقد عثر في قصبة مالقة بالإضافة إلى ذلك على قطع من الخزف المحزوز تعود أيضاً إلى عصر الموحدين. كما يدل على ذلك قطع أخرى تماثلها ـ وإن كانت أفقر منها أسلوباً وزخرفة ـ تم العثور عليها في مراكش بحصن دشيرة الذي أمر ببنائه الخليفة عبد المؤمن(٢١٥).

(٢١٣) المقري: نفح الطيب ج ٢ ص ٦٩ ـ ٧١

(٢١٤) المقري: نفس المصدر والجزء ص ٦٩ ـ ابن سعيد: المغرب في حل المغرب ص ٤٢٤

(٢١٥) توريس بالباس: الفن المرابطي والموحدي ص ٦١

ثم عثرت بعثة الحفريات الأثرية المغربية على قطع من الخزف المنقوش المزخرف بمنقش أو بقوالب، والمزخرف بالطين المطبوخ أو بالخشب. وكانت هذه الطريقة تستخدم بالنسبة للقطع ذات الحجم الكبير من خوابي وجرر وأوان كبيرة ذات شكل دائري، أما أشكالها الزخرفية فهي دائماً أزهار ورسوم هندسية، ونجوم وكتابة أسماء وأعلام بالخط الكوفي. وقد ظهر هذا النوع من الفخار في قلعة بني حماد في القرن ٥ هـ/١١ م. ثم انتقل إلى المغرب والأندلس في عصر الموحدين. كذلك تقدمت صناعة الخزف من نوع الحبل اليابس في عهد الدولة الموحدية. كما عثرت نفس البعثة المغربية على نوع آخر من الخزف تزينه أشكال نباتية بالميناء الخضراء على رقعة بيضاء، وقد شاع بالمغرب والأندلس خلال عصر الموحدين وحتى القرن ٨ هـ/١٤ م(٢١٦).

كذلك استمر الخزف غير المموه المختوم بالقوالب الوافد من الشرق يصنع في بلاد المغرب والأندلس خلال عصر الموحدين، فقد وجد في حافة بئر بمدينة سبتة يرجع تاريخها إلى سنة ٥٨٦ هـ/١١٩٠ م، وحفظت بمدرسة الأشغال والحرف اليدوية بتطوان. كما عثر في حصن دشيرة على قطع كثيرة من بقايا أزيار كبيرة ودنان وقدد ولبعضها آذان في هيئة أجنحة منبسطة. فجميع هذه القطع من الخزف غير المموه المختوم بالقوالب، والمزخرف بالنقوش الهندسية والنباتية(٢١٧).

أما بالنسبة للمنسوجات فيقول توريس بالباس(٢١٨): «لا يكاد يصنف من المنسوجات في عصر الموحدين أكثر من أشغال السجاجيد. ويتميز عصر الموحدين في زخرفة النسيج بأن الدوائر الكبيرة التي تحلي الأقمشة أخذت تختفي تدريجياً ليحل محلها رسوم من المعينات وغيرها وانتهى الأمر في القرن

(٢١٦) أحمد المكناس: دراسة تمهيدية عن الخزف الاسلامي القديم في المغرب، مجلة تطوان المغربية، العدد الثاني سنة ١٩٥٧ م ص ١٦٦ ـ ١٦٨

(٢١٧) توريس بالباس: الفن المرابطي والموحدي ص ٦٢

(٢١٨) المرجع نفسه ص ٦٣ ـ ٦٤

الثالث عشر (٧ هـ) بغلبة رسوم من المشبكات تشتمل على متابات وعناصر هندسية. ويمكن أن ينسب إلى هذا العصر رداء القديس فاليرو، فقد صنع في هذا القرن وكان محفوظاً إلى عهد قريب بكاتيدرال روضة».

ويؤكد ابن خلدون خلال حديثه عن دور الطراز بصفة عامة بأن الموحدين الأواخر أقاموا لهم دور طراز، فهو يقول(٢١٩): «ولما جاءت دولة الموحدين بالمغرب بعد بني أمية أول المائة السادسة لم يأخذوا بذلك أول دولتهم، لما كانوا عليه من منازع الديانة والسذاجة التي لقنوها عن إمامهم محمد بن تومرت المهدي. وكانوا يتورعون عن لباس الحرير والذهب، فسقطت هذه الوظيفة من دولتهم، واستدرك منها أعقابهم آخر الدولة طرفاً لم يكن بتلك النباهة».

وهكذا أصبحت أثواب الموحدين تنسج بأنواه الجواهر واليواقيت والأحجار الكريمة، فمن ذلك مثلاً الأثواب التي أهداها الخليفة الناصر إلى علي بن الغازي - ابن عم ابن غانية - مكافأة له على إعلان الولاء والطاعة للموحدين. يقول في ذلك الأندلسي(٢٢٠): «وخرج علي بن الغازي عن المهدية بجملته وحاشيته... ثم دعته نفسه إلى الدخول تحت طاعة الموحدين، فبعث إلى الناصر فعرفه بذلك ويقول: الآن أطعت بعد أن ضربت في حكم نفسي. فاستحسن الناصر ذلك منه واستدعاه، وأحسن إليه وأنزله عنده. ووافق ذلك وصول المملوك ناصح ديوان سبتة بالهدايا العظيمة التي جمعها في المدة الطويلة وكان فيها ثوبان نسجا بأنواع الجواهر وجعلت فيهما أعلام من اليواقيت والأحجار النفيسة. فأمر الناصر بحمل جميع الهدايا إلى علي بن الغازي، فمات ناصح على أثر ذلك كمداً».

---

(٢١٩) المقدمة ص ٢٦٧

(٢٢٠) الحلل السندسية ص ٢٥٨

ـ المقصورات:

يظهر تطور الفن الموحدي واضحاً جلياً في المقصورات التي عملها الخلفاء الموحدون. فالخليفة عبد المؤمن عمل مقصورة في جامع الكتبية بمراكش، وأثارت إعجاب كل من شاهدها. فقد صنعها المهندس الأندلسي الحاج يعيش المالقي، وركبها على حركات بحيث تتحرك تلقائياً، فتخرج أضلاعها بطريقة آلية لا يسمع لها حس ولا يرى تدبيرها وكانت تتألف من ستة أضلاع وتسع أكثر من ألف رجل(٢٢١).

كذلك عمل الخليفة يعقوب المنصور مقصورة مماثلة للسابقة، وضعها في مسجده المتصل بقصره في مراكش. وكانت أيضاً تعمل بحركات هندسية، فترتفع عند دخول الخليفة ووزرائه للصلاة، وتختفي إذا انفصلوا عنها. ثم وصف الشاعر أبو بكر يحيى بن مجير حركات المقصورة بعد تركيبها في إحدى وفاداته على الخليفة المنصور فقال(٢٢٢):

طوراً تكون بمن حوته محيطة ... فكأنها سور من الأسوار
وتكون حيناً عنهم مخبوءة ... فكأنها سر من الأسرار
وكأنها علمت مقادير الورى ... فتصرفت لهم على مقدار
فإذا أحست بالإمام يزورها ... في قومه قامت إلى الزوار
يبدو فتبدو ثم تخفي بعده ... كتكوّن الهالات للأقمار

فطرب الخليفة يعقوب المنصور لهذا الوصف. «قال أبو العباس المقري في نفح الطيب وقد بطلت حركات هذه المقصورة الآن، وبقيت آثارها حسبما شاهدته سنة عشر وألف.. والله وراث الأرض ومن عليها(٢٢٣)».

(٢٢١) عبد الهادي التازي في تحقيقه لكتاب ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص ١٣٩ حاشية رقم ١ ـ محمد عنان: دولة الإسلام ع ٣ ق ٢ ص ٣٤٣ ـ ٣٤٤ ـ عبدالله علام: الدولة الموحدية ص ٣٧٤

(٢٢٢) الناصري: الإستقصا ج ٢ ص ١٧٥

(٢٢٣) الناصري: نفس المصدر والجزء والصفحة

ـ المنابر:

يذكر محمد عنان وعبد الله علام أن الخليفة عبد المؤمن زود مسجده جامع الكتبية بمراكش بمنبر فخم، كان قد أمر بصنعه في الأندلس من خشب العود والصندل المغطى بصفائح الذهب والفضة، فتولى المهندس الأندلسي الحاج يعيش المالقي صناعة هذا المنبر(٢٢٤).

كذلك يرجع عبد العزيز بن عبد الله تاريخ هذا المنبر إلى الخليفة عبد المؤمن بن علي، فهو يقول(٢٢٥): «أما منبر الكتبية فقد تحدث عنه ابن مرزوق في مسنده، فأشار إلى ما أكده أهل الفن من جودة وإتقان ترصيع منبري جامع ومسجد الكتبية في حين أن المشارقة لا علم لهم بفن النقش على الخشب برقة وأناقة». ويرجع تاريخ صنع هذا المنبر إلى عبد المؤمن بن علي. ويرى كل من تيراس وباسية أن هذا المنبر هو أجمل منبر في الغرب الإسلامي، بل أبهى وأروع منبر في العالم الإسلامي أجمع، وما زال قائم الذات إلى عصرنا هذا في الكتبية، إلا أن بعض أجزائه تميل إلى التداعي.

بينما يؤكد توريس بالباس أن هذا المنبر صنعه الأمير المرابطي علي بن يوسف فهو يقول(٢٢٦): «بيد أن أهم أثاث ديني حفظ من القرن الثاني عشر (٦ هـ)، إنما هو منبر جامع الكتبية بمراكش الذي لم يعرف إلا منذ زمن قريب. وتنص عبارات مكتوبة بخط كوفي في ظهره على أنه صنع بقرطبة وقد مُحي منه تاريخه واسم الملك الذي أمر بصنعه وهو بلا ريب علي بن يوسف ـ فيما بين ١١٣٩ و ١١٤٣ م (٥٣٤ و ٥٣٨ هـ).

ويتفق جوميث مورنيو مع توريس بالباس، فهو يقول(٢٢٧). «وأعمال النجارة الفنية البديعة لها سابقة جليلة في منبر جامع الكتبية في مراكش. وقد

(٢٢٤) دولة الإسلام ع ٣ ق ٢ ص ٣٤٣ ـ ٣٤٤ ـ الدولة الموحدية في المغرب ص ٣٧٤

(٢٢٥) تطور الفن الموحدي ص ٧١

(٢٢٦) الفن المرابطي والموحدي ص ٥٦

(٢٢٧) الفن الإسلامي في إسبانيا ص ٣٤٩

تبين أنه من عمل المرابطين. وقد وقف المستشرق المأسوف عليه سوفاجيه على نقش كتابي في نهايته العبارة التالية: «اللهم أعن الأمير (علي بن يوسف) بن تاشفين ومن بعده ولي عهده». مما يحدد تاريخاً بين سنتي ١١٣٩ و ١١٤٢ م. وهذا ما تؤكده السكة. وينحصر في الفترة الممتدة بين تولية تاشفين أميراً وموت أبيه علي. وقد ورد على التحديد ذكر السنة التي تم الفراغ فيها من عمل المنبر في النقش الأساسي به. لكن طمس كما طمس اسم الأمير بأيدي الموحدين على نحو ما حدث في جامع تلمسان. وجاء في هذا النقش الأساسي أن المنبر قد صنع في قرطبة لهذا الجامع العظيم أو جامع مراكش الذي شيده الأمير علي ملاصقاً لقصره».

ويعتبر هذا المنبر وليد الطراز القرطبي المتوارث منذ قرون، وصدى لأسلوب المنبر المشهور في جامع قرطبة العظيم الذي أمر بصنعه الحاكم المستنصر الأموي ٤ هـ/١٠ م. وأن الأشرطة التي تحدد الأشكال المستوية والمنحنية في الزخارف الهندسية لهذا المنبر مقطعة من الخشب، شأن جميع ما به من زخارف، تملؤها ـ فيما عدا أشرطة المسندين بظهره ـ ترصيعات من الفسيفساء تشتمل على رقائق من العاج ودقائق من الخشب بديعة الصنع مختلفة الألوان. وتدور بها خيوط عاجية دقيقة مثبتة فوق ألواح في أسلوب فني مترف عديم المثال. أما تقطيعاته البقسية المثبتة بين الأشكال فرقيقة الصنع فائقة الجمال(٢٢٨).

كما اشتهر المنبر منذ القدم بأنه من أجل المنابر شأناً في بلاد الإسلام بعد منبر المسجد الجامع بقرطبة، ولعله اتخذ مثلاً له. فالمثمن قصير في حركته، وأجزاؤه زاخرة بالعبريقات المحفورة في خشب البقس في جمال رائع. وهناك تكوين ذو سعة يشغل اللوحة الخلفية للمنبر حيث يظهر النقش الكتابي بين زخارف نباتية طبيعية في مجال من الترصيع ويضمها صف من عقود

(٢٢٨) توريس بالباس: المرجع السابق ص ٥٧

صغيرة مركبة من فصوص متداخلة وملتفة، تذكر بعض ما في قصر الجعفرية، كما تدخل في لوحة أخرى عقود صغيرة متشابكة تختلط فيها الخطوط، وتمهد السبيل لسطوح الشبكة في عصر الموحدين(٢٢٩).

كذلك عمل الخليفة أبو يعقوب يوسف منبراً للجامع الذي أقامه في مدينته إشبيلية، فألقيت منه أول خطبة في يوم الجمعة ٢٤ ذي الحجة سنة ٥٧٧ هـ/ ٣٠ أبريل ١١٨٢ م. وصف ابن صاحب الصلاة هذا المنبر فقال (٢٣٠): «صنع هذا المنبر من أغرب ما قدر عليه الفعلة من غرابة الصنعة. اتخذ من أكرم الخشب مفصلاً منقوشاً مرقشاً، محكماً بأنواع الصنعة والحكمة في ذلك، من غريب العمل، وعجيب الشكل والمثل، مرصعاً بالصندل، مجزعاً بالعاج والأبنوس يتلألأ كالجمر بالشعل، وبصفائح من الذهب والفضة، وأشكال في عمله من الذهب الأبريز يتألق نوراً، ويحسبها الناظر لها في الليل البهيم بدوراً».

تسفير المصاحف:

عني الموحدون بتسفير المصاحف الشريفة وتزيينها بالجواهر والأحجار الكريمة. ومن أهم الأمثلة على ذلك تسفير وتزيين مصحف الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه. فهو كما قيل أحد المصاحف الأربعة التي بعثها الخليفة عثمان إلى الأمصار مكة والبصرة والكوفة والشام. وكان هذا المصحف متداولاً عند بني أمية بالأندلس، محفوظاً في المسجد الجامع بمدينة قرطبة. ثم تمنى الخليفة عبد المؤمن أن ينقل هذا المصحف إلى مراكش بعد أن بسط الموحدون سلطتهم على مدينة قرطبة، لكنه لم يجرؤ على نقله خشية إثارة شعور أهل قرطبة. ولما بلغ أهل قرطبة ذلك بعثوا بالمصحف من تلقاء أنفسهم هدية إلى

(٢٢٩) جوميث مورنيو: المرجع السابق ص ٣٥٠

(٢٣٠) المن بالإمامة ص ٤٧٨ و ٤٧٩

الخليفة عبد المؤمن، فنقله من قرطبة إلى مراكش ولدا الخليفة عبد المؤمن أبو سعيد وأبو يعقوب سنة ٥٥٢ هـ/١١٥٧ م[٢٣١].

وقد ذكر الناصري رواية ابن طفيل فقال[٢٣٢]: «ثم عزم عبد المؤمن على تعظيم المصحف الكريم وشرع في انتخاب كسوته، واختيار حليته. فحشر الصناع المتفننين ممن كان بالحضرة وسائر بلاد المغرب والأندلس. فاجتمع لذلك حذاق كل صناعة من المهندسين والصواغين والنظامين والحلائين والنقاشين والمرصعين والنجارين والذواقين والرسامين والمجلدين وعرفاء البنائين. ولم يبق من يوصف ببراعة، أو ينسب إلى الحذق إلى صناعة، إلا احضر للعمل فيه، والاشتغال بمعنى من معانيه وبالجملة فقد صنعت له أغشية بعضها من السندس وبعضها من الذهب والفضة، ورصع ذلك بأنواع اليواقيت وأصناف الأحجار الغريبة النوع والشكل العديمة المثال. واتخذ للغشاء محمل بديع مما يناسب ذلك من غرابة الصنعة وبداعة الصبغة. واتخذ للمحمل كرسي على شاكلته. ثم اتخذ للجميع تابوت يصان فيه على ذلك المنوال! ووصف ذلك يطول». كذلك شرح محمد المنوني تسفير هذا المصحف وتزيينه بالتفصيل، إذ أنه أورد نص ابن طفيل كاملاً.

وقد كتب الخليفة عمر المرتضي الموحدي بخطه ربعة قرآنية تتألف من عشرة أجزاء، يحتوي كل جزء على ستة أحزاب. ويوجد من هذه الربعة حتى الآن تسعة أجزاء كاملة وصنع الخليفة المرتضي لهذه الربعة سفر من الجلد المزخرف بالذهب. ثم وضعت في صندوق من الأبنوس محلى بنحاس مذهب، طوله ثلاثة أذرع، وله ثلاثة مقابض، واحد في أعلاه واثنان في عرضيه. وأركان الصندوق معقودة بحلية نحاس مذهبة، وكذلك مغالقه معقودة من نفس الحلية. وللصندوق غشاء جلد مغالقه كلها فضة مموهة[٢٣٣].

(٢٣١) الناصري: الإستقصا ج ٢ ص ١١٢ - ١١٤

(٢٣٢) نفس المصدر والجزء ص ١١٤

(٢٣٣) محمد المنوني: تاريخ المصحف الشريف بالمغرب ص ١٨ و ٢٠

ويظهر في هذه الربعة القرآنية أيضاً تأثر الموحدين بالأندلسيين في فن كتابة المصاحف الشريفة، واستخدام نفس ألوان المداد. فهي مكتوبة على ورق جيد، بقلم غليظ وخط مغربي يميل إلى الأندلسي، مليح مبسوط، يضرب حبره للسواد مع تنويع ألوان الشكل فمداد اللك للضمات والفتحات والكسرات والمدات، والخضرة الباهتة للشدات والسكون ونقط القات الوصل، والصفرة الباهتة للهمزات القطعية. وعناوين السور مكتوبة بالخط الكوفي داخل إطار مستطيل مزخرف بمحلول الذهب المرسوم بالمداد، والملون بالأحمر والأزرق وهوامش الكتابة طوقت بتراجم مذهبة ملونة، متنوعة الأشكال، وكتب على أرضها الحمراء بالخط الكوفي المذهب عناوين التجزئات القرآنية المختلفة كما يقع في هذه الربعة تقطيع حروف الكلمة الواحدة بين آخر السطر وأول السطر الثاني، وهي طريقة أهل الأندلس، ثم أخذت تختفي من بلاد المغرب ابتداء من عصر بني مرين[٢٣٤].

(٢٣٤) محمد المنوني: نفس المرجع ص ١٣ ـ ١٤ و ١٦ و٢٠

ب ـ بين دولة الموحدين (المغرب والأندلس) والممالك النصرانية

ـ انتقال فنون الموحدين إلى الممالك النصرانية:

إن تخيير الخليفة عبد المؤمن لأهل الذمة بين اعتناق الإسلام أو مغادرة البلاد، أدى إلى هجرة المستعربين إلى الممالك الإسبانية النصرانية. فنقلوا معهم أساليب البناء وأزياء اللباس وجانباً من العادات والاصطلاحات. أما تراث الحضارة العملية الإسلامية التي وجدت في الأندلس آنذاك فقد انتشر في جميع أنحاء إسبانيا بفضل استيلاء النصارى على كثير من البلاد، فترتب على ذلك دخول عدد كبير من الصناع المسلمين المدجنين تحت حكم النصارى[٢٣٥].

كما نقل المستعربون والمدجنون الأساليب الفنية التي تعود إلى عصر الخلافة الأموية أيضاً. يقول في ذلك جوميث مورنيو[٢٣٦]: «احتفظ جامع قرطبة بصورته دون أن يطرأ عليه تغيير جوهري. وكان مثلاً احتذاه الفاطميون في مصر، وانبعثت منه جميع صور التطور المعماري في الأفق الأندلسي، ومظاهر التأثير الذي تغلغل في إسبانيا المسيحية، حيث وجه فن المستعربين وفن المدجنين، وكان له إلى جانب قيمته الذاتية أثر بالغ الأهمية. وهذا ما يجعل التعمق في دراسة نشأته وتطوره جديراً بأن يفرغ فيه الباحث كل جهد».

(٢٣٥) ترند وآخرون: تراث الإسلام ج ١ ص ٢٠ ـ ٢١

(٢٣٦) الفن الإسلامي في إسبانيا ص ٢٣ ـ ٢٤

وكان الملوك النصارى خلال استيلائهم على بعض المدن الأندلسية يحافظون على المنشآت الفنية فيها، مثال ذلك مسجد إشبيلية الجامع الذي بناه الموحدون سنة ٥٦٧ هـ/١١٧٢ م. يقول أحمد لطفي عبد البديع(٢٣٧): «لما حاصرت جيوش قشتالة إشبيلية في عام ١٢٤٦ م، ورد البعض فكرة هدم المسجد وتقويض المئذنة قال دون ألفونسو كلمته المشهورة: «سأقطع رقابكم جميعاً لو مسستم حجراً واحداً منها». وقد حول المسجد بعد سقوط إشبيلية في يد فرناندو الثالث ملك قشتالة إلى كنيسة، أطلق عليها اسم كنيسة سانتا ماريا، وغير اتجاهه ليصلح لإقامة الشعائر المسيحية فيه، فأضيفت إليه عدة مصليات أهمها المصلى الملكي».

وما زالت بعض المآذن باقية في إسبانيا إلى اليوم بفضل تحويلها إلى برج أجراس كنائسية. فقد كان النصارى يهدمون الحجرة الصغيرة التي تعلو الشرفة فيضيفون مكانها جزءاً أعلى للأجراس لذلك لحق الكثير من هذه المآذن تعديلات غيرت من أشكالها كلية، فجعلتها تبدو بمظهر أبراج عادية حديثة نسبياً. ويستمر توريس بالباس في حديثه فيقول(٢٣٨): «لذا يمكننا أن نقول إن المئذنة الوحيدة التي احتفظت على الدوام بطابعها الإسلامي في الأراضي الإسبانية بفضل شكلها وارتفاعها العظيم اللذين أكسباها شهرة عالمية، هي مئذنة المسجد الأكبر الموحدي بإشبيلية، والتي سميت بالخيرالدا منذ القرن السادس عشر الميلادي».

وهناك مئذنة أخرى في مدينة إشبيلية، ليست إلا تقليداً للخيرالدا، لكنها أقل ضخامة منها. فهي مبنية بالطوب الأحمر، ولها مظهر أكثر تواضعاً لطابعها الريفي وهي ملحقة بمسجد في مكان خال من السكان، يقع في شرقي إشبيلية، بالقرب من بلوللبو في الميتاثيون. توجد في إشبيلية مئذنة ثالثة

---

(٢٣٧) الإسلام في إسبانيا ص ١٩٤ - ١٩٥

(٢٣٨) الأبنية الإسبانية الإسلامية ص ١٠٥

- تعود إلى القرن ٧ هـ/١٣ م خلال عصر الإنتقال من الموحدين إلى بني نصر بغرناطة - حولت إلى برج أجراس كنيسة سان خوان دي لويس رييس، يبعد إليها بواسطة انحدار بسيط كما هو الحال في الخيرالدا[٢٣٩].

- أثر المدجنين المسلمين في نشر فنون الموحدين بالممالك النصرانية

أ - **في مجال العمارة**: يقول كامون اثنار[٢٤٠]: «كانت قشتالة وأرغونة ميالتين للأساليب الفنية العربية لأسباب عدة، أولها الجنس وثانيهما الانسجام بين الشعبين نتيجة هجرة كثير من المستعربين جماعات إليها، الأمر الذي كان له أثره في حياة كثير من الناس والشخصيات البارزة، وحتى الملوك... يمكن القول أن كثيراً من الكنائس الشعبية المشيدة بالطوب في كثير من الأقاليم من بناء المدجنين، بل أن بعض الكاتدرائيات تأثرت بهذا الفن كما في أرغونة مثلا».

كما كان لطراز منارة الموحدين في إشبيلية - لاخيرالدا - أثر واضح في تطور الفن المعماري الكنسي المتعلق بالأبراج الكنسية. فقد شيد النصارى في مدن عديدة كثيراً من الأبراج الكنسية على طراز لاخيرالدا، فجاءت على أسلوب الفن الموحدي في الزخارف والتقاسيم. ثم شيد النصارى في مدينة إشبيلية كنيسة سان مركوس على أسلوب الفن الموحدي[٢٤١].

كما ابتكر المدجنون المسلمون الطراز القومي الإسباني، وكان هذا الطراز من أهم وأبرز ما ساهم به الإسبان في أوروبا. إذ كانت طليطلة هي الموطن الأصلي لهذا الطراز، فكثر فيها تلك الأبراج الكنسية الجميلة المبنية بالآجر. وقوام الزخرفة في هذه الأبراج صفوف من العقود يعلو بعضها بعضاً، وفي كل

(٢٣٩) توريس بالباس: الأبنية الإسبانية الإسلامية ص ١٠٦ - ١٠٧

(٢٤٠) الأساليب الفنية المستمرة في الفن الإسلامي، مجلة مدريد للدراسات الإسلامية، العدد الثالث سنة ١٩٥٥ م ص ١٨٦

(٢٤١) محمد عنان: الآثار الأندلسية الباقية ص ٥٧

طبقة من طبقات الأبـراج نوافـذ تختلف في الشكل عن نـوافذ الـطبقات الأخرى. كذلك شيدت في أرغونة أبراج الكنائس منفصلة عنها، كانفصال المآذن عن المساجد في العمارة الإسلامية. كما شيدت في طرويل أربعة أبراج مبنية في عرض الطريق تجتازها العربات من عقد في أسفل البرج. وشيدت في قلعة أيوب أبراج مثمنة الشكل(٢٤٢).

وكان الصناع المدجنون يستخدمون لزخرفة الكنائس والدور في كافة أنحاء إسبانيا، ويتجلى مثال صناعتهم في البهو البديع بقصر الإنفنتادو في وادي الحجارة. كانوا يطلبون أيضاً لعمل مظلات المقابر ومعابد اليهود، مثال ذلك المباني المعروفة بطليطلة باسم الترانسيتو وسانتا ماريا لابلانكا. كذلك بنى العمال المدجنون القصر المعروف بالكازار للملك بدرو القاسي على طراز إسلامي خالص. واستمـر القصر يستخـدم لإقامـة الملوك إلى أن أعلنت الجمهورية، فاتخذ متحفاً(٢٤٣).

كما زينت الكنائس بالقباب الملبسة بالمقربصات كما هو الحال في المساجد الموحدية فهناك قبة ملبسة بالمقربصـات محفوظة في الدهليز الشرقي بصحن جامع إشبيلية، الذي يعرف اليوم بالباتيودي لوس نارانخوس. «وربما كان في بيت الصلاة عدة قباب أخرى اجتمعت فيها إلى هذه العناصر الزخرفيـة الوافدة من الشرق عقود متقاطعة قرطبية الأصل. ولعل القبة المبنية على هذا الطراز والمطلة على المصلى الملكي في جامع قرطبة والمؤرخة ـ فيما يبدو ـ بين ١٢٥٨ و١٢٦٠م (٦٥٦ و٦٥٩ هـ)، تمثل أثراً منقـولاً عن هذه القبـاب المندثرة(٢٤٤)».

ويذكر جوميث مورنيو أن زخارف قباب جامع تلمسان انتقلت إلى أبنية

(٢٤٢) ترند وآخرون: تراث الإسلام ج ١ ص ٢٥ ـ ٢٦ ـ R. Altamira;A history of spain p. 222

(٢٤٣) ترند وآخرون: نفس المرجع ص ٢٦ ـ Ibid

(٢٤٤) توريس بالباس: الفن المرابطي والموحدي ص ٥٢

النصارى، ثم يقول(٢٤٥): «لا تزال تُرى في قصر إشبيلية قبة مخلعة لا علاقة لها بما يضمه القصر من أبنية عربية. وهي تشبه تماماً هذه القباب، بالرغم من أن قاعدتها مربعة. وإذا كانت ترجع إلى عصر الموحدين، فإنها تعد استمراراً لهذا الطراز».

كذلك انتشر الفن الموحدي في الممالك النصرانية، فوجد في مدينة طليطلة وفي مدينة برغشن الواقعة في أقصى شمال مملكة قشتالة. يقول توريس بالباس(٢٤٦): «إن ما حفظ لنا في شبه الجزيرة من أبنية تتسم زخارفها بطابع موحدي خالص، وتشبه في تصميم زخارف المساجد المغربية بمراكش وتينمل، لا نجده بإشبيلية ولا بغيرها من الأراضي الأندلسية الخاضعة للإسلام في القرن الثاني عشر (٦ هـ)، وإنما يتمثل في بناءين: أحدهما مصلى صغير يقوم في نهاية خلوة راهبات القديس بنيتوبديو لاس أويلجاس ببرغشن رأس قشتالة والآخر هو البناء المعروف ببيعة القديسة مريم البيضاء (سيناجوجادي سانتا ماريا لابلانكا) بطليطلة ولذلك كان المؤرخ روبيرتو لوبيث على حق كبير حين قال إنه لن يعرف أبداً متى أو أين ينتهي الشرق أو يبدأ الغرب في إيبيرية».

ويحتل المصلى المذكور جانباً من أقدم جوانب دير لاس أويلجاس، المعبد المشهور الذي أسسه ألفونسو الثامن وزوجته ليونور سنة ٥٨٣ هـ/١١٨٧ م. «ويدل هذا المصلى على أن الطرز الزخرفية بمساجد عبد المؤمن انتشرت في شبه الجزيرة حتى بلغت مناطق النصارى الشمالية. فكل ما فيه: الجدران المبنية بالآجر، وعقود الآجر المتجاورة المدببة ذوات الحنايا، والعقود الجصية المنوعة الأشكال البديعة الصنع، والأقواس الجصية الدائرة بالعقود، والقباب ذوات العقود المتقاطعة التي تغطي المذبح، والقباب الملبسة

(٢٤٥) الفن الإسلامي في إسبانيا ص ٣٤٥
(٢٤٦) الفن المرابطي والموحدي ص ٤١

بالمقربصات في الحيز المحفوظ. كل ذلك يرجع إلى الفن الموحدي، وليس فيه للطرز الغربية أي تأثير. ويغلب على الظن أن بعض المسلمين من أهل إشبيلية هم الذين شيدوا البناء الصغير، ورصعوا زخارفه بهذا الأسلوب الإسلامي الخالص(٢٤٧)».

كذلك يقول جون بكويث(٢٤٨): «لا نعرف مثالاً على اقتباس الفن الإسلامي اقتباساً كلياً بغير تعديل سوى دير لاس هيولكازدي ببرغشن في شمال إسبانيا. ففي هذا الدير يظهر الاقتباس الكامل للفن الإسلامي في زخرف الظهارة الذي يزين الطواويس المنحوتة، وحولها أشكال نباتات متداخلة متشابكة بكل أرابسك. ويظهر كذلك في الكتابات الكوفية في الأوسمة وفي رسوم النباتات. ومع أن هذه الرسوم وهذه الزخارف صنعت ما بين ١٢٣٠ ـ ١٢٦٠ م، فإنها تقوم على مبادىء الفن الإسلامي، لا على مبادىء الفن المعاصر، ولا على نماذج قريبة الصلة بالذين شيدوا هذا الدير».

أما البناء الثاني وهو بيعة القديسة مريم العذراء بطليطلة، فقد تم تشييدها في الربع الثالث من القرن ٧ هـ/١٣ م. وتحتوي هذه البيعة على خصائص الفن الموحدي إلى جانب خصائص طليطلة، وخصائص أخرى تعلن عن قرب ظهور العصر الناصري وتتمثل الخصائص الموحدية في الزخارف الجصية بإعتدالها المونق المتميز بخطوط حاسمة، فوق أرضيات عاطلة من الزينة. كما تتمثل في تصميم الأوراق الكبيرة في الزخارف النباتية، والأشرطة المضلعة، والعقود المختلطة. فجميع هذه الخصائص ترجع إلى إيحاءات الفن الموحدي(٢٤٩).

---

(٢٤٧) المرجع نفسه ص ٤١ ـ ٤٢

(٢٤٨) أثر الفن الإسلامي في الفن الغربي الحديث، مجلة الأبحاث تصدر عن الجامعة الأميركية ببيروت، السنة ١٣ ج ١ آذار ١٩٦٠ م. ص ٦٢

(٢٤٩) توريس بالباس: الفن المرابطي والموحدي ص ٤٢ ـ ٤٣

ب ـ في مجال الفنون الصناعية:

يتجلى نبوغ الصناع المدجنين على أبلغ صورة في مجال الفنون الصناعية، أي في اشغال الخشب وصناعة المنسوجات والفخار والجلود والصناعات الدقيقة «لا يوجد في أوروبا كلها مثيل للسقوف الإسبانية المغطاة السادة Artesonad. . . ذلك أن أبوابها الداخلية التي صنعوها تعد آية فريدة في الجمال، بل لا تزال المصطلحات الفنية للنجارة في إسبانيا عربية(٢٥٠)».

وقد احتذى الصناع المدجنون نماذج التسليحات الخشبية الموحدية. يقول توريس بالباس(٢٥١): «كانت تغطي بلاطات المساجد الموحدية تسليحات خشبية بسيطة التصميم، ظاهرة للعيان ترتكز على أوتار مزدوجة، ويوجد في جامع الكتبيين بمراكش أقدم نماذجها المحفوظة. وهي مصنوعة ـ ككل التسليحات الإسلامية في الأندلس ـ من قطع خشبية صغيرة صممت وربطت في مهارة، بحيث تتوافر لها ـ على صغرها ـ المقاومة الكافية لتحمل أغطية القراميد. ولا يعرف إذا كانت هذه التسليحات واردة من الشرق أو ابتداعاً من المسلمين في الغرب ولا بد أن ما وجد منها في الأندلس كان نماذج احتذتها التسليحات العديدة التي كان يصنعها مهرة النجارين المدجنين، منذ القرن الثالث عشر حتى الثامن عشر (٧ ـ ١٢ هـ)، والتي كان بعضها شديد التعقيد وغاية في الجمال».

كما أن الأنواع المختلفة من تربيعات القاشاني التي تشيع اليوم في إسبانيا والبرتغال إنما هي من مخلفات المسلمين. فقد حدث ـ أثر استيلاء النصارى على البلاد من المسلمين ـ أن استبدل الناس بالنماذج الهندسية والنقوش القديمة، صوراً ورسوماً ملونة من تربيعات القاشاني كذلك استعمل القاشاني

---

(٢٥٠) ترند وآخرون: تراث الإسلام ج ١ ص ٢٦ ـ ٢٧

(٢٥١) المرجع السابق ص ٧٨

في إشبيلية في مذابح الكنائس والطربزينات والفوارات، واستعمل أيضاً في الحدائق العامة، كمقاعد ورفوف للكتب، أما في البرتغال فقد استعمل القاشاني والصور القاشانية بشكل أوسع، حتى أنه يوجد في أيفورا كنيسة زينت جميعها من الداخل بالقاشاني الأزرق والأبيض[٢٥٢].

وتتجلى أسمى مراتب صناعة المدجنين في الفخار الإسباني العربي ذي البريق المعدني. فيعتبره الهواة بعد الخزف الصيني مباشرة في الجمال والقيمة. اشتهر بصناعته في إسبانيا مكانان متباعدان جداً، هما مالقة ومانيسيس. ويتميز هذا الفخار ببريق معدني متألق كالذهب، يتراوح لونه بين الياقوتي ولون عرق اللؤلؤ والأصفر المخضر. كما تنوعت زخرفة هذا الفخار، فكان ينقش عليه كلمة العافية أو ورقة نبات الغالبة وورقة العنب. ثم زخرف أخيراً بالرنوك، مما يثبت أن الفخار الإسباني العربي كان يصنع للبابوات والكرادلة، ولأكبر الأسر في إسبانيا والبرتغال وإيطاليا وفرنسا. أشار الأسقف تشميمنز إلى هؤلاء الصناع المدجنين بقوله: «إنهم فقراً إلى ما لدينا من إيمان، ونحن فقراً إلى ما لديهم من الصناعة[٢٥٣]».

ولم يكن الإقبال على الحرير الإسباني العربي، بأقل منه على الفخار الإسباني العربي. فقد كان يحفظ بعناية في الكنائس. وعثر في كنيسة كانتبري على عدة حقائب حريرية صغيرة، كانت تحفظ فيها الأختام الرسمية، ترجع إلى المدة بين عامي ١٢٦٤ و١٣٦٦، «وهي مصنوعة من الحرير الإسباني القديم، ولا مثيل لها في تعقيدها ودقة صنعها، وزخارفها ناطقة لا يمكن الخلط بينها وبين أي زخارف أخرى. ويرجع تاريخ أقدم ما لدينا من القطع إلى أواخر القرن الثاني عشر وأوائل الثالث عشر[٢٥٤]».

---

(٢٥٢) ترند وآخرون: تراث الاسلام ج ١ ص ٢٧
(٢٥٣) المرجع نفسه ص ٢٨ ـ ٢٩
(٢٥٤) المرجع نفسه ص ٢٩

كما يتميز عصر الموحدين في زخرفة المنسوجات، بأن الدوائر الكبيرة التي تحلي الأقمشة أخذت تختفي تدريجياً ليحل محلها رسوم من المعينات وغيرها. ثم انتهى الأمر في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، بغلبة رسوم من المشبكات تشتمل على كتابات وعناصر هندسية. ويمكن أن ينسب إلى هذا العصر رداء القديس فاليرو، إذ صنع في هذا القرن المذكور، وكان محفوظاً إلى عهد قريب بكاتيدرال روضة[٢٥٥].

واشتهرت قرطبة بصناعة الجلد المعروف بالقرطبي. وصنع مجلدو الكتب المدجنون أشياء من الجلد تعتبر آية في دنيا الصناعة والجمال. كذلك صنع صاغة الذهب المسلمون روائع أدت إلى شهرتهم. كما بذل في نفس الوقت صناع المعادن الأخرى جهداً لا يقل عما بذله صاغة الذهب، فبرعوا في صناعة مقابض السيوف الموشاة والنقش عليها، وفي صناعة الحاجيات العادية كمفاتيح الحديد، التي كانت أسنانها تصنع أحياناً على أشكال الحروف المتداخلة، والكلمات المكتوبة بالكوفية المربعة[٢٥٦].

(٢٥٥) توريس بالباس: الفن المرابطي والموحدي ص ٦٣ - ٦٤

(٢٥٦) ترند وآخرون: تراث الإسلام ج ١ ص ٣٠

قائمة بالمصادر والمراجع

العربية والأجنبية

أ ـ المصادر

١ ـ ابن الأبار: (ت ٦٥٨ هـ/ ١٢٦٠ م):
أ ـ الحلة السيراء.. جزءان.. تحقيق حسين مؤنس سنة ١٩٦٣ م القاهرة.
ب ـ التكملة لكتاب الصلة.. جزءان نشر كوديرا طبعة مدريد سنة ١٨٨٧، وطبعة القاهرة ١٩٥٩ م ضمن المكتبة الأندلسية.
جـ ـ المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدفي القاهرة ١٩٦٧ م. دار الكتاب العربي للطباعة والنشر.

٢ ـ ابن الأثير: (ت ٦٣٠ هـ/١١٥٤ م):
ـ كتاب الكامل في التاريخ، طبعة القاهرة سنة ١٣٠٣ هـ.

٣ ـ الإدريسي: (ت ٥٤٨ هـ/١١٥٤ م):
ـ وصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس.
ـ «مستخرج من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق».
ـ طبعة ليدن سنة ١٨٦٦ م بعناية دوزي ودي غوي.

٤ ـ ابن أبي أصيبعة: (ت ٦٧٧ هـ/١٢٧٨ م):
ـ عيون الأبناء في طبقات الأطباء ط بيروت ١٩٦٥ م.

٥ ـ الأندلسي: أبو عبد الله محمد بن محمد:
ـ الحلل السندسية في الأخبار التونسية، الطبعة الأولى، تونس ١٢٨٧ م.

٦ ـ الباجي: الشيخ أبو عبد الله محمد المسعودي:
ـ الخلاصة النقية في أمراء افريقيا.. تونس ١٣٢٣ هـ.

٧ ـ ابن بشكوال: (٥٧٨ هـ/١١٨٢ م):
ـ كتاب الصلة في تارية أئمة الأندلس وعلمائهم ومدثيهم وفقهائهم وأدبائهم..

تحقيق عزت عطار الحسيني، طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥ م.
٨ ـ البيذق: أبو بكر الصنهاجي (كان حياً في النصف الثاني من القرن السادس الهجري : الثاني عشر الميلادي):
ـ كتاب أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين، نشر وتحقيق ليفي بروفنسال سنة ١٩٢٨ م.. نشره عبد الوهاب بن منصور بعد ذلك بالرباط سنة ١٩٧١ م.
٩ ـ ابن جبير: (ت ٦١٤ هـ/١٢١٧ م):
ـ رحلة ابن جبير، بيروت سنة ١٩٤٩ م.
١٠ ـ الجزنائي:
ـ كتاب زهرة ألاس في بناء مدينة فاس.. نشر الفريد بيل الجزائر سنة ١٩٢٣ م.
١١ ـ الحميري: (ت أواخر القرن ٩ هـ/١٥ م):
ـ كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار.. نشر ليفي بروفنسال طبعة القاهرة سنة ١٩٣٧ م.
١٢ ـ ابن الخطيب: (ت ٧٧٦ هـ/١٣٧٤ م):
أ ـ أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، القسم الثاني، تحقيق ونشر ليفي بروفنسال، بيروت ١٩٥٦ م.
ب ـ أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، القسم الثالث، تحقيق ونشر أحمد مختار العبادي ومحمد ابراهيم الكتاني بعنوان «تاريخ المغرب في العصر الوسيط» الدار البيضاء ١٩٦٤ م.
جـ ـ الإحاطة في أخبار غرناطة.. تحقيق محمد عبد الله عنان القاهرة ١٩٥٦ م، وطبعة ١٩٧٣ م.
١٣ ـ ابن خلدون: (ت ٨٠٨ هـ/١٤٠٥ م):
ـ كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر. ٧ أجزاء طبعة جديدة عن طبعة بولاق سنة ١٢٨٤ هـ.
١٤ ـ ابن خلكان: (ت ٦٨١ هـ/١٢٨٢ م):
ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان.. طبعة القاهرة سنة ١٢٩٩ هـ وطبعة ١٩٥٠ م.

١٥ ـ ابن أبي دينار: (ت ١١١٠ هـ/١٦٩٨ م):
ـ المؤنس في أخبار افريقيا وتونس، طبعة ١٢٨٦ هـ.
١٦ ـ ابن الزبير:
ـ كتاب صلة الصلة، نشر ليفي بروفنسال الرباط سنة ١٩٣٨ م.
١٧ ـ ابن أبي زرع: (ت نحو منتصف القرن ٨ هـ/١٤ م):
ـ الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس.. نشر كارل يوحن نورنبرغ، أوبسالة ١٨٤٣ م.
١٨ ـ الزركشي:
ـ تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية.. تونس ١٢٨٩ هـ.
١٩ ـ ابن زيدان: عبد الرحمن بن محمد:
ـ اتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس.. ٥ أجزاء طبعة الرباط سنة ١٩٤٩ م.
٢٠ ـ زيني دحلان: أحمد بن السيد زيني دحلان:
ـ الفتوحات الإسلامية.. جزءان، المطبعة الحسينية بمصر.
٢١ ـ ابن سعيد: (ت ٦٨٥ هـ/١٢٨٧ م):
أ ـ المغرب في حلى المغرب.. تحقيق ونشر شوقي ضيف، طبعة القاهرة سنة ١٩٥٣ م، وطبعة ١٩٦٤ م.
ب ـ الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة.. تحقيق ابراهيم الأبياري، نشر دار المعارف بمصر سنة ١٩٤٥ م.
٢٢ ـ ابن صاحب الصلاة: (كان حياً سنة ٥٩٤ هـ/١١٩٨ م):
ـ كتاب المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين.. تحقيق عبد الهادي التازي. بيروت سنة ١٩٦٤ م.
٢٣ ـ ابن صاعد: (ت ٤٦٢ هـ):
ـ كتاب طبقات الأمم.. مطبعة السعادة بمصر.
٢٤ ـ الصفاقسي: محمود بن سعيد بن مقديش:
ـ نزهة دائرة الأنظار في علم التواريخ والأخبار، الجزء الأول تونس سنة ١٣٢١ هـ.
٢٥ ـ الضبي: (ت ٥٩٩ هـ/١٢٠٣ م):
ـ بغية الملتمس في تاريخ أهل الأندلس وعلمائها وأمرائها وشعرائها وذوي

النباهة فيها ومن دخل إليها أو نزح عنها. ضمن المكتبة الأندلسية.
٢٦ ـ ابن عذارى: (كان حياً سنة ٧١٢ هـ/١٣١٢ م):
أ ـ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب.. للجزء الرابع تحقيق إحسان عباس، بيروت سنة ١٩٦٧ م.
ب ـ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب.. القسم الثالث، تحقيق أمبروثو هويثي ميراندا ومحمد بن تاويت وابراهيم محمد الكتاني طبعة تطوان سنة ١٩٦٠ م.
٢٧ ـ ابن غازي: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن علي (ت ٩١٩ هـ):
ـ الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون، طبع الحجر مغربي.
٢٨ ـ الغبريني: الشيخ أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله (ت ٧١٤ هـ/١٣١٥ م):
ـ عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية نشر محمد بن أبي شنب الجزائر ١٣٢٨ هـ.
٢٩ ـ ابن القاضي: أحمد بن محمد بن محمد:
ـ جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام بمدينة فاس، طبع الحجر فاس سنة ١٣٠٩ هـ.
٣٠ ـ ابن القطان: (كان حياً في منتصف القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي):
ـ نظم الجمان من أخبار الزمان.. نشر محمود علي مكي. تطوان ١٩٦٤ م.
٣١ ـ القفطي: (ت ٦٤٦ هـ/١٢٤٨ م):
ـ أخبار العلماء بأخبار الحكماء طبعة ١٣٦١ هـ بمصر.
٣٢ ـ القلقشندي: (ت ٨٢١ هـ/١٤١٨ م):
ـ صبح الأعشى في صناعة الأنشا.. الجزء الخامس، طبعة دار الكتب الخديوية، المطبعة الأميرية ١٣٣٣ هـ/١٩١٥ م.
٣٣ ـ المراكشي: (كان حياً في النصف الأول من القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي):
ـ المعجب في تلخيص أخبار المغرب.. نشر محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، القاهرة سنة ١٩٤٩ م.

٣٤ ـ المقري: (ت ١٠٤١ هـ/١٦٣١ م):
أ ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب.. عشرة أجزاء تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد القاهرة ١٣٠٢ هـ.. عشرون جزءاً، مطبوعات دار المأمون ١٩٣٦ م.
ب ـ أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض.. ثلاثة أجزاء نشر مصطفى السقا وابراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي: القاهرة ١٩٤٢ م.
٣٥ ـ ابن المؤقت: محمد بن محمد بن عبد الله:
ـ السعادة الأبدية في التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية.. جزءان طبع الحجر مراكش سنة ١٣٣٥ هـ.
٣٦ ـ مؤلف مجهول:
ـ الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية.. طبعة الرباط ١٩٣٦ م.
٣٧ ـ مؤلف مجهول:
ـ الذخيرة السنية في تاريخ الدول المرينية، طبع الجزائر سنة ١٩٢٠ م.
٣٨ ـ مؤلف مجهول: (كان حياً في النصف الأول من القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي):
ـ كتاب الطبيخ.. نشر وتحقيق أمبروثو هويثي ميراندا... مجلة مدريد للدراسات الإسلامية.. المجلدان التاسع والعاشر سنة ١٩٦١ ـ ١٩٦٢ م.
٣٩ ـ الناصري: أبو العباس أحمد بن خالد (ت ١٣١٥ هـ/١٨٩٢ م):
ـ الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى.. الجزء الثاني والثالث تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري. الدار البيضاء سنة ١٩٥٤ م.
٤٠ ـ النباهي: أبو الحسن المالقي (ت أواخر القرن الثامن الهجري: الرابع عشر الميلادي):
ـ المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا... نشر ليفي بروفنسال القاهرة ١٩٤٨ م.
٤١ ـ الونشريشي: أبو العباس أحمد بن يحيى بن محمد التلمساني (ت ٩١٤ هـ/١٥٠٨ م):
ـ أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر وما يترتب عليه من العقوبات والزواجر.. نشر وتحقيق حسين مؤنس، مجلة مدريد للدراسات الإسلامية المجلد الخامس ١٩٥٧ م.

ب ـ المراجع العربية:

١ ـ أحمد بن عامر:
ـ الدولة الصنهاجية. للدار التونسية للنشر سنة ١٩٧٢ م.
٢ ـ أحمد لطفي عبد البديع:
ـ الإسلام في إسبانيا.. المكتبة التاريخية الطبعة الأولى سنة ١٩٥٨ م بالقاهرة.
٣ ـ أحمد مختار العبادي:
ـ دراسات في تاريخ المغرب والأندلس. الطبعة الأولى ١٩٦٨ م.
٤ ـ أرشيبالد لويس:
ـ القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط.. ترجمة أحمد محمد عيسى.
٥ ـ أرنست رينان:
ـ ابن رشد والرشدية.. باريس ١٨٨١ م. ترجمة عادل زعيتر.
٦ ـ أنخل جنثالث بالنثيا:
ـ تاريخ الفكر الأندلسي.. ترجمة حسين مؤنس.. القاهرة ١٩٥٥ م.
٧ ـ ج. ترند واخرون:
ـ تراث الإسلام. جزءان. ترجمة زكي حسن وآخرين. لجنة الجامعيين لنشر العلم بالقاهرة سنة ١٩٣٦ م.
٨ ـ حسن أحمد محمود:
ـ قيام دولة المرابطين.. صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٥٧ م.
٩ ـ الحسن السائح:
ـ الحضارة المغربية عبر التاريخ.. الدار البيضاء. الطبعة الأولى سنة ١٩٧٥ م.

١٠ ـ حسن علي حسن عبد العواد:
ـ الحياة الإدارية والاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأقصى في القرنين الخامس والسادس من الهجرة. رسالة دكتوراة من كلية العلوم بإشراف د. أحمد شلبي سنة ١٩٧٣ م.

١١ ـ حنا الفاخوري وخليل الجر:
ـ تاريخ الفلسفة العربية، جزءان. دار المعارف بيروت.

١٢ ـ خودا بخشى:
ـ الحضارة الإسلامية، ترجمة علي حسني الخربوطلي، القاهرة ١٩٦٠ م.

١٣ ـ ديلاسي أوليري:
ـ الفكر العربي ومكانه في التاريخ.. ترجمة تمام حسان ومراجعة مصطفى حلمي.. وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر.

١٤ ـ سلفادور غومث نوغالس:
ـ الفلسفة الإسلامية وتأثيرها الحاسم في فكر الغرب أثناء العصور الوسطى.. ترجمة عثمان الكعاك.. الدار التونسية للنشر سنة ١٩٧٧ م.

١٥ ـ شارل اندريه جوليان:
أ ـ تاريخ افريقيا الشمالية.. ثلاثة أجزاء ترجمة محمد فرالي والبشير بن سلامة عن الطبعة الثانية ١٩٥٨ م التي نقّحها وزاد عليها روجيه لوتورنو.. الدار التونسية للنشر سنة ١٩٧٨ م: ١٣٩٨ هـ.
ب ـ تاريخ افريقيا. ترجمة طلعت أباظة ومراجعة عبد المنعم ماجد. دار النهضة بمصر سنة ١٩٦٨ م.

١٦ ـ شاخت وبوزورث:
ـ تراث الإسلام. ثلاثة أقسام. ترجمة ونشر المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت، ضمن سلسلة عالم المعرفة سنة ٩٨ - ١٣٩٩ هـ/١٩٧٨ م.

١٧ ـ الشخات السيد زغلول:
ـ السريان والحضارة الإسلامية.. الهيئة المصرية العامة للكتاب، فرع الاسكندرية سنة ١٩٧٥ م.

١٨ ـ طارو وجان جيروم:
ـ أزهار البساتين في أخبار المغرب والأندلس على عهد المرابطين والموحدين.. ترجمة وتعليق أحمد بلافريج ومحمد الفاسي طبعة الرباط سنة ١٣٤٩ هـ.
١٩ ـ عبد الله العراوي:
ـ تاريخ المغرب، محاولة في التركيب.. ترجمة ذوقان قرقوط سنة ١٩٧٧، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
٢٠ ـ عبد الله علي علام:
ـ الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي.. دار المعارف بمصر سنة ١٩٧١ م.
٢١ ـ عبد الله كنون:
ـ النبوغ المغربي في الأدب العربي.. الطبعة الثالثة، دار الكتاب اللبناني سنة ١٩٥٧ م بيروت (٣ أجزاء).
٢٢ ـ عبد الرحمن علي الحجي:
ـ الحضارة الإسلامية في الأندلس. بيروت ١٩٦٩ م/١٣٨٩ هـ.
٢٣ ـ عبد العزيز بن عبد الله:
ـ مظاهر الحضارة المغربية. الطبعة الأولى سنة ١٩٧٥ م. نشر دار السلمى، الدار البيضاء.
٢٤ ـ عثمان أمين:
ـ إحصاء العلوم للفارابي.. الطبعة الثانية.. دار الفكر المغربي سنة ١٩٤٩ م.
٢٥ ـ ليبولد توريس بالباس:
ـ الفن المرابطي والموحدي، ترجمة سيدي غازي، منشأة المعارف بالإسكندرية سنة ١٩٧٦ م.
٢٦ ـ ليفي بروفنسال:
أ ـ الإسلام في المغرب والأندلس.. ترجمة سيد محمود عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمي.. مراجعة أحمد لطفي عبد البديع.. نشر مكتبة النهضة بمصر.
ب ـ نخب تاريخية جامعة لأخبار المغرب الأقصى.. باريس ١٩٤٨ م.
٢٧ ـ مانويل جوميث مورينو:
ـ الفن الإسلامي في إسبانيا، ترجمة أحد لطفي عبد البديع وسيد محمود عبد

العزيز سالم. . مراجعة جمال محمد محرز. . الدار العربية للترجمة والنشر.
٢٨ ـ محمد بيصار:
ـ في فلسفة ابن رشد، الوجود والخلود. . دار الكتاب العربي بمصر ١٣٧٣ هـ/١٩٥٣ م.
٢٩ ـ محمد عبد الله عنان:
أ ـ دولة الإسلام في الأندلس، القسم الأول والثاني من العصر الثالث، القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٦٤ م.
ب ـ الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال. القاهرة، الطبعة الثانية ١٣٨١ هـ/ ١٩٦١ م، مؤسسة الخانجي.
٣٠ ـ محمد المرزوقي:
ـ قابس، تونس ١٩٦٢. الناشر مكتبة الخانجي بمصر، والمثنى ببغداد.
٣١ ـ محمد ولد أدادة:
ـ مفهوم الملك في المغرب من انتصاف القرن الأول إلى انتصاف القرن السابع الهجري. دار الكتاب اللبناني سنة ١٩٧٧ م.
٣٢ ـ محمود علي مكي:
ـ مدريد العربية. دار الكتاب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة.
٣٣ ـ محمود قاسم:
ـ دراسات في الفلسفة الإسلامية. الطبعة الثالثة، دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٠ م.
٣٤ ـ مراجع عقيلة الغناي:
أ ـ قيام دولة الموحدين. الطبعة الأولى ١٩٧١، المكتبة الوطنية ببنغازي، ليبيا.
ب ـ سقوط دولة الموحدين، منشورات جامعة بنغازي ليبيا، الطبعة الأولى ١٩٧٥م.
٣٥ ـ نجاة باشا:
ـ التجارة في المغرب الإسلامي من القرن الرابع إلى القرن الثامن للهجرة. . منشورات الجامعة التونسية سنة ١٩٧٦ م.
٣٦ ـ يوسف أشباخ:
ـ تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ترجمة محمد عبد الله عنان. . مجلدان القاهرة ١٩٤١. مجلد واحد القاهرة ١٩٥٨ م.

ج - المراجع الأجنبية:

1 - **Altamira. R:** A history of Spain from the beginnings to the present day. Translated by Muna Lee. Copyright 1949. by D. Van Nostrand company. Canand. Ltd.

2 - **Artz. F. B:** The mind of the middle ages, Newyork 1953.

3 - **Barbour. N:** A Survey of north west Africa (The Maghrib) Oxford University press, London 1959.

Barbour. N: Morocco, Thames and Hudson Lt. London 1965.

4 - **Barker. E and Clark. G:** The European inheritance. 3 Volumes oxford 1954.

5 - **Bell. F.:** Les Benou Ghanya. Paris 1903.

6 - **Bernard. L. and Hodges. T. B:** Readings in european history Newyork 1958.

7 - **Cambridge medieval history:** 8 Volumes, Cambridge 1936.

8 - **Cantor. F. N:** The medieval world, 300 - 1300, Columbia University, Third printing 1964.

Cantor. F. N: Medieval history, the life and death of a civilization, Columbia University, first Printing 1963. The Macmillan company, Newyork.

9 - **Chapman. C. E:** A history of Spain, Newyork 1931.

10 - Encyclopeadia Judaica, Massadah publishing company Ltd. Jerusalem, Tel - Aviv, 1958 - 1959.

11 - **Haskins. H. Ch:** Studies in medieval culture, Newyork 1929.

12 - **Hayes. F. C. and Baldwin. W. M:** A history of Europe. The Macmillan company, Newyork, fifth printing 1959.

13 - **Hirschberg. J. W:** A history of the Jews in north Africa. V. I second revised edition. Transiated from the hebrew. Leiden 1974.

14 - **Hulme. M. E:** The middle ages. Newyork, Henry Haltanel company 1936.

15 - **Ibars. A. P:** Valencie arabe, Valencia 1901.

16 - **Lafuente. M:** Historia general de Espana. T. III Y IV. Barcelona 1977.

17 - **Lea. Ch. H:** A history of the inquistion in spain. V. I, II. London. Macmillan company 1906.

18 - **Meakin. B:** The moorish empire, London, Newyork 1899.

19 - **O'callaghan. F. J:** A history of medieval Spain, copyright 1975, Cornell University, Ithaca, Newyork.

20 - **Painter. S:** A history of the middle ages. 284 - 1500, Newyork 1954.

21 - **Prestage. E:** Chivalry, members of king's college, London 1928.

22 - **Remiro G. M:** Historia de murcia musulmana, Zaragoze 1903.

23 - **Russel. B:** History of western philosophy. London, second impression 1947.

24 - **Scott. S. P:** A history of the moorish empire in Europe V. II, III philadelphia, London 1904.

25 - **Sephenson. G:** Medieval history (Europe from the second to the sixteenth century) Harper and brotheres publishers, Newyork and London.

26 - **Thompson. W. J:** The middle ages, 300 - 1500, V. II, III printed in the United States of America, by the plimpon press.

د ـ الدوريات:

١ ـ إحسان عباس:
ـ نوازل ابن رشد. مجلة الأبحاث عن الجامعة الأميركية ببيروت. المجلد ٢٢، الأجزاء ٣ و ٤ سنة ١٩٦٩ م.
٢ ـ أحمد الأهواني:
ـ الفلسفة في الأندلس.. مجلة كلية الآداب، مجلد ١٥، الجزء الأول مايو سنة ١٩٥٣ م.
٣ ـ أحمد لطفي عبد البديع:
ـ التروبادور غرسية فرنانديث، مجلة مدريد للدراسات الإسلامية المجلد الثاني سنة ١٩٥٤ م.
٤ ـ أحمد المكناسي:
ـ دراسة تمهيدية عن الخزف الإسلامي القديم في المغرب مجلة تطوان، العدد الثاني سنة ١٩٥٧ م.
٥ ـ أرنولد شتيجر:
ـ التأثيرات والمصادر العربية في مؤلفات ألفونسو الحكيم العاشر. مجلة مدريد للدراسات الإسلامية، المجلد الثالث ١٩٥٥ م.
٦ ـ أمبروثو هويثي ميراندا:
أ ـ موقعة الأرك. مجلة مدريد للدراسات الإسلامية، العدد الثاني سنة ١٩٥٤ م.
ب ـ المطبخ الأندلسي المغربي خلال العصر الموحدي. مجلة مدريد للدراسات الإسلامية، العدد الخامس سنة ١٩٥٧ م.

٧ ـ جون بكويث:
ـ أثر الفن الإسلامي في الفن الغربي الحديث.. مجلة الأبحاث تصدر عن الجامعة الأميركية ببيروت، العدد ١٠١٣ آذار سنة ١٩٦٠ م.

٨ ـ حسين مؤنس:
أ ـ الثغر الأعلى الأندلسي. مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة المجلد الحادي عشر، جـ٢ ديسمبر ١٩٤٩ م.
ب ـ عقد بيعة بولاية العهد لأبي عبد الله المعروف بالخليفة الناصر الموحدي.. مجلة كلية الآداب.. بجامعة القاهرة، المجلد الثالث عشر الجزء الثاني ديسمبر سنة ١٩٥٠ م.
ج ـ نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين. مجلة مدريد للدراسات الإسلامية، المجلد الثالث سنة ١٩٥٥ م.

٩ ـ خننثو بوسك بيلا:
ـ الوثائق العربية المحفوظة في كاتدرائية وشقة.. مجلة مدريد للدراسات الإسلامية، العدد الخامس سنة ١٩٥٧ م.

١٠ ـ خوسيه كامون أثنار:
ـ الأساليب الفنية المستمرة في الفن الإسلامي.. مجلة المعهد المصري بمدريد للدراسات الإسلامية، العدد الثالث ١٩٥٥ م.

١١ ـ خوسيه مياس بياكروزوا:
أ ـ المؤلفات الأولى عن الأسطرلاب في إسبانيا العربية. مجلة المعهد المصري بمدريد للدراسات الإسلامية، العدد الثالث سنة ١٩٥٥ م.
ب ـ كتاب الرد على اليهود لرامون لل. مجلة المعهد المصري بمدريد للدراسات الإسلامية المجلد الخامس ١٩٥٧ م.
ج ـ نشاط الدراسات الفلكية في الأندلس.. نفس الدورية والعدد.

١٢ ـ خوليان ريبيرا:
ـ المكتبات وهواة الكتب في إسبانيا الإسلامية.. ترجمة جمال محرز مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلدان الرابع والخامس سنة ١٩٥٨ ـ ١٩٥٩ م.

١٣ ـ رامون منندث بيدال:
أ ـ إسبانيا حلقة اتصال بين المسيحية والإسلام.. ترجمة أحمد لطفي عبد

البديع.. مجلة المعهد المصري بمدريد للدراسات الإسلامية، العدد الأول ١٩٥٣ م.
ب ـ إسبانيا وإدخال العلوم العربية إلى الغرب.. مجلة المعهد المصري بمدريد للدراسات الإسلامية. المجلد الثالث ١٩٥٥ م.
١٤ ـ سعد زغلول عبد الحميد:
ـ العلاقة بين صلاح الدين وأبي يوسف يعقوب المنصور الموحدي. مجلة كلية الآداب بجامعة الإسكندرية. المجلدان السادس والسابع سنة ١٩٥٢ـ ١٩٥٣ م.
١٥ ـ الصديق بن العربي:
ـ طوائف وشخصيات مسيحية بالمغرب.. مجلة تطوان المغربية العدد الأول سنة ١٩٥٦ م.
١٦ ـ عبد العزيز بن عبد الله:
أ ـ العربية لغة العلم والحضارة. مجلة المعهد المصري بمدريد للدراسات الإسلامية، العدد الخامس سنة ١٩٥٧ م.
ب ـ البحرية المغربية والقرصنة. مجلة تطوان المغربية العددان الثالث والرابع سنة ١٩٥٨ ـ ١٩٥٩ م.
ج ـ تطور الفن في عهد الموحدين. مجلة البينة، السنة الأولى، العدد التاسع شعبان ١٣٨٣ هـ/يناير ١٩٦٣ م.
١٧ ـ ليبولد توريس بالباس:
ـ الأبنية الإسبانية الإسلامية. ترجمة علية إبراهيم العناني. مجلة المعهد المصري بمدريد للدراسات الإسلامية، العدد الأول سنة ١٩٥٣ م.
١٨ ـ الأب مانويل ألونسو ألونسو:
ـ ابن سينا وآثاره الأولى في العالم اللاتيني. ترجمة تاج الدين أبو زيد.. مجلة المعهد المصري بمدريد للدراسات الإسلامية.. العدد الأول سنة ١٩٥٣ م.
١٩ ـ محمد المنوني:
ـ تاريخ المصحف الشريف بالمغرب، مجلة معهد المخطوطات العربية. المجلد الخامس عشر، ربيع الأول سنة ١٣٨٩ هـ/مايو سنة ١٩٦٩ م.
٢٠ ـ نيفل باربر:
ـ سفارة جون ملك إنجلترا إلى محمد الخامس ملك المغرب. ترجمة محمد بن

تاويت. مجلة تطوان المغربية العدد الخامس سنة ١٩٦٠ م.

ب ـ أخبار الأندلس في المدونات الإنجليزية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، مجلة المعهد المصري بمدريد للدراسات الإسلامية. المجلد الثالث عشر سنة ١٩٦٥ ـ ١٩٦٦ م.

فهرس

تمهيد

الباب الأول

الباب الثاني

الباب الثالث

رقم الايداع لدى

مديرية المكتبات والوثائق الوطنية

(١٩٨) / ٥ /١٩٨٤

توزيع
دار الفرقان للنشر والتوزيع
عمان - جبل الحسين - شارع خالد بن الوليد
ص.ب ٩٢١٥٢٦ - هاتف ٦٦٠٩٣٧